أعلام التصوف

(١)

السيد البدوى
بين الحقيقة والخرافة

تأليف

الدكتور أحمد صبحي منصور

قسم التاريخ بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كاتب وكتاب

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، هدانا إلى دينه الحق منهجا قويما للحياة الراشده ، وصراطا مستقيما إلى الدار الآخرة ، وخطة سديدة لكل حسن من القول وصالح من العمل ، والصلاة والسلام على عبده المصطفى ، ونبيه المجتبى رحمة للعالمين، وعلى صحبه ، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد :

فما يملأ النفس سعادة غامرة أن أقدم لجماهير المسلمين هذا العمل العلمى الجيد ، والبحث العلمى ثمرة لجهد الباحث، ولأجل هذا كان من ألزم الأمور للتعريف بعمل معين أن نقدم شيئاً عن الباحث حتى نلقى أضواء كاشفه على أبعاد بحثه، وبواعثه ، وقيمته ، والغاية المرجوة منه .

أمامنا إذن كاتب وكتاب .

أما الكاتب الباحث فهو الأخ الدكتور أحمد صبحى منصور ، مدرس التاريخ بكلية اللغة العربية ارتاد الطريق إلى الحق ، وهو عمل كبير ، يحتاج إلى صبر وأناة ، وجهد شاق ، ونصب ومعاناه وأوفى على نهاية الطريق بتصور صحيح ، ونظرة سديدة ، وإدراك قويم .

كان يعد رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن ظاهرة التصوف فى عصر المماليك ، ومجال بحثه باعتباره مؤرخا يعنى ما يرتبط بهذه الظاهرة من متغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، لكنه فى الطريق إلى ما يريد تكشفت له حقائق ـ رهيبة اقترنت بهذه الظاهرة التى التصقت بمجتمع المسلمين منذ أمد بعيد .

من هذه الحقائق التى ما كانت لتخطر على بال أحد .

• تبنى أئمة التصوف لوحدة الوجود • قولهم بالاتحاد والحلول .
• قولهم بسقوط التكاليف .
• قولهم بوحدة الأديان ، إذ يعدون بهذا أصحاب أسبق فكر ما سوفى ، ومن ذلك يقول قائلهم ، وهو من كبار أقطابهم :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع مااعتقدوه

ومن هنا رأى الباحث لزاما عليه أن يكشف الستر عن هذا كله ، وليكن التصوف قضيته ، وما ينبغى له أن يكتم شيئا علمه ، وضمن رسالته طرفا من ذلك ، وكلفه هذا من أمره عسرا ، ثم وصل ببحثه إلى بر السلامة ، حيث رأى أن ذلك لم يكن نهاية المطاف ، وإنما هو بداية لمرحلة جديدة وخطيرة من مراحل الجهاد ، يعلم الناس فيها ما يجهلون من أمر التصوف وأقطابه .

وبدأ المرحلة بهذا البحث القيم « السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة » .

فى هذا الكتاب تحليل علمى مدعوم بالحجج والأسانيد عن أخطر وأشهر شخصية من شخصيات التصوف عبر التاريخ لما حظى به ضريحه من حجاج ورواد وقصاد لفت أنظار غير المسلمين قبل المسلمين حتى إن الصحفيين الأوربيين كانوا يترصدون لمولده ، ويسجلون ما يقع فيه من أحداث وحوادث ينتهون منها إلى إصدار الحكم على فكر أمة وعقل مجتمع ، ومصير دين ظلمه أهله .

كما اقترن إسمه بمئات من الأساطير ، وآلاف من الخرافات والأباطيل ، ترشحه للألوهية ، وتجعله كفيلا بأن ينسى الناس معبودهم الحق جل شأنه .

لقد تحدث باحثنا عن البدوى . الداعية السياسى السرى . وحامل الحركة الشيعية فى القرنين السادس والسابع . فتناول بذورها فى المغرب ، وشجرتها فى العراق ، متحدثا عن مدرسة أحمد الرفاعى ، وتحدث بعمق عن جهود البدوى فى المرحلتين : الاولى والثانية أثناء مقامه بطنطا وعلام انتهى أمره فيها ، ولأن قضايا التشيع المستتر بالتصوف غاية فى التخصص العلمى وتستلزم خلفية تاريخية فان على القارىء أن يقرأ هذا الفصل بتمعن ويعيد قراءته ، ثم عقد فصلا عن خرافة البدوى أو البدوى المتصوف .

فناقش ولاية البدوى متحدثا عن عناصر الولاية فى الإسلام ثم أكد تألية كثير من جماهير المتصوفة للبدوى ، وأنهم أحيانا يفضلونه على الله ووصف الانحلال الخلقى فى المولد الاحمدى ، وبين مسئولية البدوى فى ذلك .

هذا الكتاب بين الكتب السابقة :

لقد ألفت كتب شتى عن السيد البدوى قبل هذا الكتاب منها القديم ومنها الحدث فن القديم الطبقات الكبرى للشعرانى ، والاخلاق المتبولية كتبت عنه ما يثير وما يضحك اعتماداً على مجرد سرد لحكايات نسجها فكر غير محقق .

ومن المحدثين من كتب عن السيد البدوى ، وأعلن أنه استأذنه قبل أن يكتب عنه ولا أدرى لم الاستئذان؟ كيف يستأذن الموتى ؟ وقد كتب المؤلف نفسه عن العقيدة وعن ذات الله ، وعن النبي ﷺ فهل استأذن الله ورسوله قبل الكتابة أم أن السيد له شأن آخر ؟ !! الله أعلم ، المهم أنها قضية بالغة العجب .

وممن سبقوا إلى الكتابة عن السيد البدوى الاستاذ محمود أبو رية رحمه الله ، وقال فى صدر كتابه : بحث صريح فى تاريخ السيد البدوى ، وما يقترف باسمه من وثنيات ، وما يجرى حول قبره من بدع وخرافات ، وبيان فساد ذلك كله وبطلانه .

وكتاب الاستاذ أبو رية عبارة عن أفكار وخواطر ، ومقالات شتى للمؤلف ولغيره حول السيد البدوى ، والمظاهر الوثنية المقترنة باسمه وبضريحه وبمولده

وكتب عن السيد البدوى الصحفى النابه الاستاذ محمد فهمى عبداللطيف،فكتب عن السيد البدوى ودولة الدراويش وجلى كثيراً من الحقائق التاريخية والسياسية وكان كتابه بمثابة تفجير لقنبلة أخرى لتمزيق الستار حول الكثير من الخرافات التى غرست فى وجدان المصريين منذ عشرة قرون تقريبا .

وهى من ناحية أخرى فى تقديرى صورة من صور المأساة الصوفية .

وهذا يتطلب منى أن أطرح عدة تساؤلات حول الفكر الصوفى .

والإجابة عنها بصدق وإخلاص تجلى الكثير من غوامض المشكلة .

تساؤلات حول الفكر الصوفى :

أهو منهج لتطبيق الإسلام على صورة أمثل وأقوم أم أنه كيان فلسفى متكامل؟

فلو زعمنا الافتراض الأول ينبغى لنا أن نتجاهل الحقيقة التاريخية للتصوف وهو أنه ظاهرة إنسانية تعبر عن الضياع والألم والهروب من الواقع الذى يعيشه الإنسان ، وعاشه فى كثير من فترات التاريخ . وهذا أمر لا يمكن تجاهله .

لأن التصوف عرف عند الهنود ، والفرس ، وعرفته البوذية والبراهمية ، واليهودية والنصرانية وأما الإسلام بمنهجه الإلهى المكتمل فهو فى غنى تام عن منهج بشرى يختلقه الإنسان ليكون مسلما فى ظله .

وما بقى إلا الافتراض الثانى . . وهو فعلا كذلك ، لأنه رسم للمعرفة طريقا يقال له التذوق، والمفهوم أن طرق المعرفة ثلاثة: الشرع والعقل والحس ، والقول بأن هناك حقيقة وشريعة ، وأن الإسلام له ظاهر وباطن ، والعالم تسيره مملكة هرمية فى قمتها قطب الأقطاب ويليه الأقطاب ثم النجباء ثم الأبدال يعنى صياغة جديدة لنظرية المثل الأفلاطونية .

قال أحد المعتدلين من أهل التصوف : إذا رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء ولا يعمل بالكتاب والسنة فهو شيطان !!! وهذا أمر جميل فيه دعوة إلى الالتزام بالإسلام ، لكن أيمكن لمن يعمل بالكتاب والسنه أن يمشى على الماء ويطير فى الهواء . . وهل فعل ذلك رسول الله ﷺ أو أحد من صحابته أم أنهم كانوا دون المستوى ؟ !!

إسم التصوف متى وكيف ظهر؟ الطرق الصوفية التى ناهزت السبعين أو تجاوزتها متى وكيف ظهرت ؟ وهل من حق كل شيخ أن يؤلف لطريقته شعائر ومناسك يحرصون عليه فى الغداة وفى العشى أم أن العبادة التزام بما تعلمناه من رسول الله ﷺ ، وهل ورد لفظ التصوف أو مشتقاته فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ؟

قالوا إن الصوفية لهم فضل انتشار الإسلام فى إفريقيا وآسيا !!! نعم ولكن هل الإسلام الموجود الآن فى كثير من بلاد آسيا وإفريقيا هو الصورة الصحيحه للإسلام أو إنهم نشروا الإسلام ونشروا معه الخرافه معا .

وحقيقة أخرى هى أن هؤلاء الذين نشروا الإسلام لم ينشروه بالفكر الصوفى وإنما نشروه بالخلق الإسلامى والقدوة الحسنة . والقدوة هى محور نجاح كل دعوة حتى ولو كانت فاسدة متى كان الداعى إليها على خلق كريم .

هذه الخرافات والأساطير التى ملأت ساحة المجتمع من المسئول عنها ؟ ومن الذى تولى كبرها ؟ ألم يكن أقطاب التصوف هم المسئولين عن هذا ؟ ألم يكن التصوف هو المناخ الملائم لنمو هذه البكتريا الفكرية ؟

وسيقول بعض الناس هناك التصوف المعتدل لابد أن نحرص عليه، وإذا سألتهم عن ملامح التصوف المعتدل ان يكون سوى الإسلام الدين الحق ، وهو يختلف تماما عن التصوف التاريخى والتصوف الواقعى .. فلم الحرص إذن على هذا الإسم المشبوه ؟ !!

وهذه نماذج من الخرافات يندى لها الجبين

من ذلك ما يقول دراويش الصوفية عن السيد البدوى حين يختلقون أحاديث قدسية منها : (الملك ملكى وصرفت فيه أحمد) .

ماذا أقول ورب العالمين قال لخير خلقه : (ليس لك من الأمر شيء) ؟ ! معنى هذا أن السيد البدوى أكبر وأعظم .

ويروون هذا الحديث القدسي: « إنى اخترت من الأنبياء أحمد ومن الاولياء أحمد فاما أحمد الذى اخترته من الأنبياء فهو محمد نبي ورسولى ، وأما أحمد الذى اخترته من الأولياء فهو أحمد البدوى ، سألنى ثلاث مسائل فأعطيته اثنين ، ولم أعطه الثالثة - سألنى أن يكون التصريف فى ملكى على يديه فأعطيته ، وسألنى فيمن زار قبره أن أغفر له فى اليوم الموعود فأعطيته ، وسألنى أن يدخل النار فلم أعطه !!! لأنه لو دخلها لتمرغ فيها فتصير حشيشا أخضر ، وحقا على أن أعذب بها الكفار » !

ما رأيكم فى هذا الإفك المفترى ؟ إن الرد عليه يطول ، وكذبه أوضح من أن يرد عليه .

ومثل آخر :

ذكر الشيخ أبو البركات أحمد الدردير فى كتابه : شرح الخريدة البهية وكان يدرس فى الأزهر فى وقت من الأوقات : « إن من لاشيخ له فشيخه الشيطان » ثم قال : إن تمام النعمة فى أتباع الأقطاب الربانيين: أحمد الرفاعى ، وعبدالقادر الجيلانى ، وأحمد البدوى ، وابراهيم الدسوقى ، وأبو الحسن الشاذلى، وعبد الله النقشبندى ، وأتباعهم فهؤلاء سادات الامة المحمدية .

والاعجب من هذا أن الشيخ أحمد الصاوى فى حاشيته على شرح الخريدة تطوع بالترجمة لهؤلاء الاعلام وكان فيما قاله عن الرفاعى من مناقب : أنه أراد شراء بستان فأبى صاحبه أن يبيعه إلا بقصر فى الجنة فقال له : قد اشتريت منك بذلك وكتب له عقدا هذه صورته ،

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما إبتاع إسماعيل من العبد أحمد الرفاعى ، ضامنا على كرم الله قصرا فى الجنة يحف به حدود . الاول لجنة عدن ، والثانى : لجنة المأوى ، والثالث . لجنة الخلد ، والرابع: لجنة الفردوس بجميع صوره ولذاته وفرشه ، وأشربته ، وأنهاره ، وأشجاره عوضا عن بستانه فى الدنيا ، والله شاهد على ذلك وكفيل ، فلما مات إسماعيل أى (المشترى) دفن معه العقد فأصبحوا وإذا مكتوب فى قبره « وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا » .

ماذا تقول فى هذا الدجل؟ أهى صورة من صكوك الغفران التي عرفتها أوربا

فى العصور الوسطى عندما سيطر الدجل الصوفى على المسيحية ؟

ومن علم هذا القطب تجاوز هذه الحدود وإحاطتها بالقصر الذى باعه لصاحبه أم هى قصة بيع الترام سبق إليها القطب الكبير ؟

إن القصة جاءت فى كتاب شرحه قطب كبير هو الدردير ، وكتب الحاشية عليه قطب آخر هو الشيخ الصاوى ، والكتب كان من المقررات فى المعاهد الازهرية ردحا من الزمن . حسبنا الله ونعم الوكيل .

ولاشك أن القارىء سيعذر مؤلف الكتاب فيما أورده من غرائب الاقطاب بعد أن سمع ما سمع عما يورثه الخبل الصوفى من اضطراب وضياع فى ساحة التفكير الإسلامى ... وبقيت كارثة .

هل تصدق أن الاستعمار وجد فى رحاب التصوف عونا وسندا ؟ !

وبدون تعليق ... نشرت جريدة آخر لحظة الصادرة فى ١٢مارس سنة ١٩٥٢ صورة (أوريول) الرئيس الفرنسى إذ ذاك ، وهو يمنح وسام «اللجيون دونور» فى ٦ من مارس ١٩٥٢ للشريف سيدى السكفانى فى قصر الاليزية وهذا الشريف هو شيخ السكفانيين فى مراكش » .

ونشرت مجلة الازهر فى عددها الصادر فى شهرالمحرم سنة ١٣٧٧ ﻫ مقالاعققا للشيخ العلامة محب الدين الخطيب تحدث فيه عن الطريقة التيجانية وموالاتها للفرنسيين فى الجزائر .

وحسبي ما قدمت من أمثلة لادع القراء الفرصة كاملة لاستيعاب مافى الكتاب وما قدمت به هو إعداد نفسى ، وتهيئة ذهنية لفهم صحيح لقضية تضاربت فيها الآراء ، واختلفت الاتجاهات والحق واضح لكن يطفى عليه أحيانا الزبد (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

الدقى / القاهرة { ١٣/ ١١/ ١٤٠٢ﻫ
١ / ٩/ ١٩٨٢ م

د . السيد رزق الطويل
الاستاذ المشارك بجامعة أم القرى
مكة المكرمة
والرئيس العام لجماعة دعوة الحق الإسلامية

هـــذا الـكتاب

« تمهيد ـ منهج البحث ومصادره ـ الدراسات الحديثة عن البدوى »

جاء فى (سيرة ابن هشام) أن اشراف مكة اجتمعوا يوما عند الـكعبة فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : « ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط . سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم[1] » .

ولقد صدق أئمة الـكفر من قريش ، وقد كذبوا ..

صدقوا فى وصفهم للرسول عليه السلام بأنه سفه أحلامهم ـ أى عقولهم ـ وعاب دينهم . . فعقول تعبد الأنصاب ودين يقدس الأحجار لا تستحق تلك العقول وذلك الدين إلا أن يوصف بالسفه والعيب .

وقد كذبوا حين وصفوه عليه السلام بأنه يسب ويشتم فما كان عليه السلام سبابا ولا فحاشا ولا عيابا .. وكل ما هنالك أنه قال حقا . . وصف آلهة قريش بما تستحقه من أنها لا تنفع ولا تضر ولا تحس ولا تشعر ولا تملك لنفسها أو غيرها موتا ولا حياة ولا نشورا ، ولـكن هذا الحق الذى نطق به محمد ﷺ يعتبره كفار قريش عيبا لا عيب بعده . . فأشد الزيغ عندهم أن توصف آلهتهم بصفات البشر من العجز والاحتياج ، فهم يضعون تلك الآلهة فوق مستوى البشر وما يجوز على البشر لاشأن لهم به ، وإذا فـكر البعض مجرد تفـكير فى وصف هذه الآلهة بصفات البشر لاعتبروه صابئا خارجا على الدين .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٩/١ .

وتلك إحدى سمات الشرك .. أن تضاف خرافات التقديس والتمجيد إلى شخص ما من بنى الإنسان لترتفع به إلى مستوى الإله ، حتى إذا حاول باحث أن يظهره على حقيقته التاريخية كانسان عادى له محاسن ومساوىء قامت عليه الدنيا ولم تقعد .. وكل ما اقترفه الباحث المسكين أنه قال حقا ، أى وصف ذلك الشخص المقدس عند اتباعه بصفات البشر العاديين .. إلا أنه لم يدر أنه بذلك أنزل ذلك الإله المقدس من عليائه وجعله إنسانا لا يختلف فى شىء عن باقى أتباعه ، فطعن الأتباع فى أقدس عقائدهم فاظهر أن عقولهم خرافة ودينهم لا يستحق إلا العيب ، ومما لاشك فيه أنهم سيعتبرون ذلك سبا فى آلهتهم وذما فى عقولهم وعيبا فيما اعتاده أسلافهم ، بذلك نطق كفار قريش ، ومن هذا الموقع نفسه سينظر أتباع البدوى لهذا الكتاب الذى يتعرض لحقيقة البدوى التاريخية وصورته الخرافية التى ملأت عقول أتباعه .

ومع أن هذا الكتاب لا يقول إلا الحقيقة المستمدة من كتابات الصوفية أنفسهم أو من كتاب الله العزيز والمصادر التاريخية الموثوق بها — مع ذلك فإن هذه الحقيقة لن تكون أمام أتباع البدوى إلا السباب والشتم والعيب ، لأنهم لا يرون الحقيقة إلا فيما يؤمنون به ولو كان خرافة وفيما يعتقدونه ولو كان أفكا وفيما نشأوا عليه ولو كان بهتانا .

ولا أدل على تأليههم للبدوى واعتباره شيئا مقدسا فوق مستوى البشر من اعتبار تاريخه حرما مقدسا لا يدنو منه المؤرخ إلا وفى نيته أن يكيل الحمد والتقديس فقط ، أما إذا تجرأ وعامل البدوى كبشر يؤرخ له كما نؤرخ لسائر الناس فإن القيامة تقوم عليه وترتفع صيحات الغضب لأن « الحى المقدس » قد تجرأ عليه البعض « سبا وشتما وعيبا » مع أن الحقيقة لا يمكن أن تكون سبا أو عيبا بأى حال .

ومن عجب أن للمؤرخ الحق فى أن يتعرض لتاريخ صحابة الرسول ﷺ ويقول ما لهم وما عليهم ، ومن منا من لم يعرف بالخلاف بين أبى بكر وعلى وبين على وعثمان وبين على وعائشة وبين على ومعاوية ، وموقعة الجمل وموقعة صفين ومصرع الحسين ، تاريخ لا يخلو من دماء ، والدماء تعنى أن هناك ظالما ومظلوما ، ومع أن أولئك هم رءوس الصحابة ومنهم المبشرون بالجنة كما تقول الروايات إلا أن للباحث التاريخى أن يلوم هذا أو ذاك ولا حرج عليه .

أما حين يصل الأمر للتأريخ لشيخ صوفى ـ والبدوى بالذات ـ فان الأقلام تتوقف والقلوب ترتجف ، ويختلف المنهج فاما أن يكال الحمد والتقديس وإلا فلا ، لماذا ؟ لأن البدوى والصوفية آلهة ويمتازون عن جميع البشر بطريقة خاصة فى التعامل ، ولابد للمؤرخ إذا أراد النجاة من الأتباع الصوفية أن يعامل البدوى كإله معصوم منزه عن ضعف البشر ومساوىء بنى آدم .

أما إذا تجرأ ولم يأبه بمشاعر الأتباع الصوفية وقال الحق ، فان هذا الحق سيعتبر (عيبا فى الذات المقدسة) ولا يستغرب حينئذ أن يعقدوا اجتماعا فى ضريح الحسين فيتذكروا الأمر ويقولوا مقالة القرشيين « ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم » .

منهج البحث ومصادره :

وهذا الكتاب عن البدوى عنوانه « السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة » أى يبحث حقيقة البدوى : كداعية شيعى استغل التصوف ستاراً لإرجاع الحكم الشيعى الذى انقرض بزوال الدولة الفاطمية فى مصر على يد صلاح الدين

الأيوبى ، وحين ضعفت الدولة الأيوبية انتهز الشيعة الفرصة فأعادوا دعوتهم المستترة بالتصوف لإرجاع الملك الزائل ، إلا أن الدولة المملوكية قامت اثر الحكم الأيوبى فأضاعت آمال الشيعة المتسترين بالتصوف واضطروا إلى تمثيل دور المتصوفة إلى نهايته ، ثم يبحث فى خرافة البدوى : ـ

فنظرا لكثرة الأتباع السريين للبدوى وزملائه فى هذه الحركة السرية المتسترة بالتصوف فان الدعاية للبدوى بعد موته ملأت جميع الأنحاء فى مصر ووقع عليهم عبء التاريخ للبدوى فحولوه من شخص إلى أسطورة ومن واقع إلى خرافة وذلك ليجتذبوا إليهم أفواج البشر إلى مثوى البدوى فى طنطا فى مولده أملا فى الرزق الوفير والجاه بين الناس وأدى ذلك بالطبع إلى تأليه البدوى ورفعه فوق مستوى البشر واضفاء صفات الله عليه من تصريف فى الخلق وعلم بالغيب مع التقرب إليه بالتوسل والزيارة ، وكل ذلك خروج عن الإسلام الذى ينهى عن تقديس البشر حتى لو كانوا من الرسل المقربين .

ذلكم باختصار هو موضوع الكتاب ، وقد ظهر فيه أنه ينقسم إلى فصلين يبحث الأول فى حقيقة البدوى أو نشاطه السياسى السرى المتستر بالتصوف ، ويبحث الفصل الثانى عن خرافة البدوى ، أوما قام به المتصوفة من تأليه للبدوى وتقديس له .

والواقع أن حركة البدوى السياسية كانت نهاية المطاف فى مخطط محكم شمل أفريقيا (شمال أفريقيا) ومصر والحجاز والعراق والشام ، بدأ فى أفريقيا والمغرب ومر بالحجاز وأقام بالعراق ثم انتقل إلى مصر ، كان رواده الأوائل والد البدوى ووالد الرفاعى وسائر الشيعة الذين هربوا من المغرب وعقدوا مؤتمرا بالحجاز وضعوا فيه الخطط ثم أقاموا أول خلية لهم فى العراق

ما لبثت أن تطورت ونمت على يد أحمد الرفاعى فى القرن السادس الذى أرسل البعوث السرية إلى الشرق والغرب من موطنه (أم عبيدة فى واسط بالعراق) .. وكان من بين أتباعه أبو الفتح الواسطى . الذى جاء البدوى ليخلفه فى الدعوة بعد موته فى القرن السابع .. وبفشل البدوى فى الدعوة السرية تحولت بعد موته إلى تصوف بحت رفع البدوى إلى مصاف التألية وتحول الطموح السياسى إلى مولد وضريح ودعاية وخرافة اتسع لها الفصل الثانى.

ولأن البدوى (قضية) مثارة على الدوام تحظى باهتمام الكثيرين على اختلاف المستوى الثقافى والعلم بالتاريخ الإسلامى ولأن حركة البدوى مزجت بين التشيع السياسى السرى والتصوف المعلن ولأن الشيعة اشتهروا بالسرية والالتواء والألغاز والمعميات ولأن الصوفية اشتهروا امثالهم بالرموز والتأويلات والأساطير والخرافات .. لذلك كله فإن تلمس حقيقة البدوى السياسية وسط هذه الظروف وتقريبه لغير المتخصصين فى التاريخ والتصوف والتشيع يعتبر أمراً شاقاً أرجو أن أكون قد وفقنى الله إليه ..

فالكتاب فى فصله الأول يبحث قضية علمية تاريخية على أرفع مستوى من التخصص وهى استغلال التصوف بيد طائفة من الشيعة لغرض سياسى هو التآمر لاسقاط العروش الحاكمة فى المنطقة فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، ثم هو مطالب بعدها أن يقدم هذا البحث العلمى بصورة سهلة يستطيع القارىء غير المتخصص أن يستوعبها . وإذا كان صعباً أن نتعرف على الحقيقة التاريخية من خلال أكوام الرموز والأساطير والخرافات والحوادث التاريخية المختلفة زمناً بين القرنين السادس والسابع والمختلفة فى المكان بين المغرب ومصر والحجاز والعراق .. إذا كان ذلك صعباً من الناحية العلمية فإن

الأصعب هو تقديم ذلك فى صورة سهلة مبسطة .. خدمة للقراء الذين يهمهم التعرف على حقيقة البدوى وخرافته .

ويزيد من الصعوبة أن حركة التشيع السرية تلك قد نبتت على مسرح سياسى معقدة ظروفه السياسية أثرت فيه وأثر فيها . فالحركة حين بدأت فى المغرب تأثرت بدولة الموحدين ثم إذا انتشرت فى العراق حيث مدرسة أحمد الرفاعى كان لا بد أن تتأثر بظروف الخلافة العباسية وتطورات الأمور فى المشرق الإسلامى الذى وجهت نحوه مبعوثيها .. ثم إذا انتقلت إلى مصر فى شخص أبى الفتح الواسطى ثم البدوى كان لا بد أن تتفاعل بظروف مصر يومئذ وهى تودع الدولة الأيوبية وتتهيأ لزعامة المنطقة تحت قيادة الدولة المملوكية ..

وفى نهاية الأمر فإن تلك الحركة الشيعية السرية فى القرنين السادس والسابع والتى كان البدوى نهاية المطاف فيها ـ هذه الحركة الشيعية لم تكن الأولى أو الأخيرة فى جهد الشيعة السياسى السرى الذى استغل كل الظروف للكيد للدولة العباسية منذ بدايتها وحتى بعد أفول شمسها وقيام الدولة المملوكية والقوى الأخرى التى ورثت العراق والمشرق .. وإن كانت الحركة الشيعية التى نحن بصدد البحث فيها لم تنجح فإن الحركات السابقة وبعض الحركات اللاحقة أفلحت فى إنشاء دول وممالك وهى لم تغفل عن الاستفادة بالتستر بالزهد والتصوف لتكسب بها المزيد من الأنصار والأتباع ..

لذا بدأ الفصل الأول بإشارة عامة للحركات الشيعية فى القرون الثالث والرابع والخامس من الهجرة وكيف استفادت بالتستر بالزهد والتصوف فى حركاتها الموجهة ضد الدولة العباسية كحركة الزنج وحركة القرامطة ثم قيام الدولة الفاطمية باستغلال أدعاء الزهد والتصوف أثناء قيامها ثم بعد أن

استقرت أمورها فى مصر لم تترك استغلال التصوف فى نشر مذهبها بين المصريين . وقد استفاد صلاح الدين الأيوبى من أعدائه الشيعة فحاربهم بمثل سلاحهم أى بالتصوف الموالى له .

ثم بحثنا جذور حركة البدوى السياسية فى القرنين السادس والسابع ودور مدرسة المغرب فى بداية الدعوة الشيعية ومساندتها حين انتقلت الدعوة للمشرق .. ودور مدرسة الرفاعى فى أم عبيدة بالعراق وسياسته مع الأتباع والمريدين وعلاقته بالخلافة العباسية وبعوثه للمشرق ثم بعوثه إلى مصر بعد انتهاء الخلافة الفاطمية الشيعية فيها .. ثم كان البدوى مبعوثاً ليخلف أبا الفتح الواسطى أبرز دعاة الرفاعى فى مصر الأيوبية . وبينا كيف أعد الشيعة المسرح وهيأوه للبدوى فاختاروا له قرية مجهولة ذات موقع هام هى طنطا وإليها توافد الشيعة فأخذوا العهد على البدوى منذ بدايته وكيف أن الأدوار توزعت على الجميع بين الشاذلى فى الأسكندرية والدسوقى فى دسوق ومدرسة أبى الفتح الواسطى فيما بين طنطا والقاهرة والأسكندرية .

وتحدثنا عن جهود البدوى فى المرحلة الأولى حيث كان الاضطراب السياسى ملائماً لإنجاح الدعوة فعرضنا لسياسة البدوى مع مريديه والآخرين وبعوثه إلى داخل مصر وخارجها ثم أوضحنا فى المرحلة الثانية كيف تغير المسرح السياسى فى مصر فقد استقرت الأمور بعد توطيد الظاهر بيبرس للدولة المملوكية وقد كان بيبرس خبيراً بفن المؤامرات والتخفى وقد واجه فى بداية حكمه ثورة صوفية شيعية فى القاهرة تزعمها الكورانى وبعد اخمادها التفت بيبرس لخطورة الدعوة الشيعية المتسترة بالتصوف وكان أن أحس البدوى بالخناق يضيق حوله فاضطر لتجميد دعوته السياسية والاقتصار على التصوف الذى يتستر به وظل هكذا إلى أن مات سنة ٦٧٥ هـ .

ثم ختمت الفصل بتعليل فشل البدوى سياسياً وتبيين الآثار السياسية لدعوته والعناصرية التآمرية فى حركته .. وتتبعت فى إيجاز الحركات الشيعية السرية بعد البدوى وأبرزها الحركة التى أقامت الدولة الصفوية فى المشرق (فارس والعراق) والتى استطاع زعيمها الشاه إسماعيل الصفوى أن يتسبب فى انهيار الدولة المملوكية وقتل السلطان الغورى فى مرج دابق على يد العثمانيين الذين احتلوا مصر وحولوها إلى مجرد ولاية عثمانيين بعد أن كانت زعيمة المنطقة .

المصادر التاريخية عن البدوى :

وقد اعتمد البحث فى هذا الفصل على المصادر التاريخية المعروفة بكتب (الحوليات) أى التى تؤرخ للحوادث التاريخية لكل (حول) أو لكل سنة . بل لكل يوم أو شهر .. والعادة فى كتب الحوليات أن تهتم بالأعلام الظاهرين وتتبع أخبارهم على مدار السنين إلى أن يموت أحدهم فتسجل موته فى العام الذى مات فيه وتذكر بعض سيرته .. والملوك والولاة ومشاهير العلماء والصوفية هم النجوم التى تهتم بها عادة كتب الحوليات بالاضافة للحوادث الغريبة التى تحدث فى حياة الناس وتستحق أن تسمو إلى مستوى الذكر فتسجلها الحوليات التاريخية فى أوانها إلى جانب أخبار السلاطين وتحركاتهم السياسية والحربية . .

ومن عجب أن البدوى صاحب الصيت الذائع كان مجهولا فى عصره فلم يحظ بترجمة أو أدنى إشارة فى كتب الحوليات التاريخية التى عاصرت حياته ومماته .. مع أن البدوى عاش فى فترة تاريخية هامة شهدت أحداثاً مؤثرة كحملة لويس التاسع وقيام الدولة المملوكية على أشلاء الدولة الأيوبية وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وغزوات الظاهر بيبرس ضد المغول

والصليبيين والأرمن .. كما شهدت حياة البدوى ظهور الكثير من الأعلام العلماء كابن دقيق العيد وابن بنت الأعز وعز الدين بن عبد السلام وأبى شامه وابن عدلان وابن عصفور النحوى وابن جماعة ومحيى الدين النووى وابن ميسر المؤرخ وابن خلكان وبرز من الصوفية فى الحوليات التاريخية الشاذلى والمرسى والتلمسانى وخضر العدوى والدسوقى والدرينى والقبارى وغيرهم ..

وأولئك جميعاً من علماء وصوفية أقل شهرة الآن من البدوى إلا أن الحوليات التاريخية المعاصرة لهم اهتمت بتحركاتهم ورددت أخبارهم أما أحمد البدوى فإذا راجعت أى مصدر تاريخى معاصر لحياته فلن تجد فيه أدنى إشارة عنه ، وإذا راجعت وفيات عام ٦٧٥ وهو العام الذى توفى فيه البدوى لم تجد فيه ذكراً لوفاة البدوى ..

فإذا تركت القرن السابع الذى عاش فيه البدوى ومات والتفت للقرن الثامن وحولياته التاريخية ألفيت صمتاً تاماً عن البدوى مع أن الأحمدية أتباع البدوى صارت لهم قوة فى هذا القرن حتى اتعبوا الامام ابن تيمية فى الشام .. ولعل صدامهم مع ابن تيمية أوسع لهم مجالا فى المصادر التاريخية التى تهتم بالأعلام الظاهرين .. وقد كان ابن تيمية أظهر الأعلام فى القرن الثامن وبينما أوردت الحوليات التاريخية للقرن الثامن أن هناك طائفة تسمى الأحمدية فإن البدوى نفسه حرم من التاريخ له فى هذا القرن أسوة بسابقه .

ولا بد لذلك من سبب .. فكيف يكون البدوى مجهولا فى العصر الذى عاش فيه وهو القرن السابع ؟ . . والجواب واضح .. لقد كان البدوى مجهولا فى عصره لأنه كان يقوم بدعوة سياسية سرية مناوئة لنظام الحكم السائد يريد بها إرجاع الملك الشيعى ، وقد اتخذ لدعوته مركزاً سرياً بعيداً عن الأنظار هو (طندتا) (طنطا) ومنه كان يرسل البعوث يزوع بهم

المدن والقرى (وهم السطوحية) فى مصر وخارجها .. ولأنه كان مستتراً فى قرية بعيدة عن الأضواء فقد خفى شأنه عن مؤرخى القرن السابع المعاصرين له .. وشأن المؤرخين أن يهتموا بالنجوم الظاهرة فى سماء المجتمع كالسلطان وحاشيته وأبرز العلماء وأشهر الصوفية ممن هم فى دائرة الضوء ..

ثم مات البدوى وفشلت حركته السرية وتحولت إلى تصوف بحت باتباع منتشرين فى كل بقعة فبدأت الدعاية للبدوى كشيخ صوفى حسبما تظاهر بذلك .. وبمرور الزمن وكثرة الأتباع وتفرع السطوحية الأحمدية إلى طرق وتغلغلها فى القرى والنجوع ازدادت الدعاية للبدوى واحاطته الأساطير ورويت عنه الكرامات الخرافية وكلها تومىء بالدافع السياسى فى دعوته وتفصح عن غرضه من عكوفه فى طنطا منزوياً عن أولى الأمر .

والطريف أن الدعاية للبدوى اختلطت بالدعاية لمولده وما يعنيه المولد الأحمدية من رزق وفير للصوفية الأحمدية من سدنة القبر المقدس فى طنطا .. فترجمة البدوى فى الطبقات الكبرى للشعرانى كان فيها الاهتمام الزائد بالمولد والدعاية له وما يفعله البدوى فيه من كرامات ..

والمهم أن القرن التاسع شهد نمو الدعاية للبدوى ومولده فسجلت الحوليات التاريخية كيف عطل السلطان جقمق المولد الأحمدى سنة ٨٥٢ وكيف توقف بعض القضاء فى الافتاء بابطال المولد خوفاً من تصريف البدوى ثم كيف انخرط بعض المماليك فى الطريقة الأحمدية وكيف زارت زوجة السلطان حقمق المولد وكيف انتظمت فى الطريقة الأحمدية .. ومع أن التاريخ الفعلى لم يبدأ البدوى إلا فى القرن العاشر على يد الشعرانى فى طبقاته إلا أن بعض ترجمات البدوى فى العصر العثمانى أسندت للمقريزى وابن حجر وادعت أنها نقلت عنها أنهما قالا عن البدوى كذا وكذا .. مع أن المقريز

وابن حجر لم يذكرا شيئاً فى حولياتهما التاريخية عن البدوى .. وتلك الحوليات مشهورة منشورة كالسلوك وإنباء الغمر والدرر الكامنة .. وربما نقل عنها الناقلون تلك الروايات عن البدوى بالطريقة الشفهية .. وهذا هو الأرجح ، فمن نقل عن المقريزى وابن حجر لم يذكر كتاباً نقل عنه ، ولعل المقريزى وابن حجر تحرجا من التأريخ للبدوى تحريريا فى كتبهما ، فالبدوى مات فى القرن السابع أى قبلهما نحو قرنين ، وقد تابعاً فى كتبهما التاريخ للقرن السابع بالنقل عن مؤرخى القرن السابع نفسه وهم قد أغفلوا ذكر البدوى ، حتى إذا أرخ المقريزى وابن حجر للقرن التاسع الذى هم شهود عليه كان البدوى قد تحول إلى أسطورة وخرافة ودعاية ، ولم يعد واقعاً تاريخياً يستحق التسجيل فى الحوليات التاريخية التى تهتم بما يحدث فعلا فى الحياة العملية والحوادث الجارية كل يوم .

وقد تم الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣ أى فى نهاية الربع الأول من القرن العاشر الهجرى ، وقد شهد هذا القرن العاشر بداية التاريخ الفعلى للبدوى ، على يد علمين كبيرين هما السيوطى والشعرانى .

فالسيوطى عرض لترجمة البدوى فى كتابه (حسن المحاضرة) ولم يذكر فيها مصدراً استقى منه الترجمة ورصعها بكرامة ادعى حدوثها له مع البدوى والشعرانى ترجم للبدوى فى كتابة (الطبقات الكبرى) وصرح فى مقدمتها بأن سيرته - أى البدوى - شاعت على الألسنة وأنه إنما يذكر ترجمته لمجرد التبرك .

أى أصبح البدوى فى القرن العاشر تراثاً شعبياً يتناقله الناس جيلا عن جيل مختلطاً بالكرامات ويتحرز عن الترجمة العلمية له كبار المؤرخين وحتى

إذا اضطر أحدهم كالسيوطى للترجمة له فى (حسن المحاضرة) فإنه لا يجد مصدراً تاريخياً ينقل عنه ، بل أن السيوطى نفسه حين أرخ للقرن السابع الذى عاش فيه البدوى فى كتابه (تاريخ الخلفاء) ذكر فى ختام ترجمته للخليفة العباسى الحاكم المتوفى بمصر ٧٠١ كثيراً من الأعيان المعاصرين للبدوى والذين توفوا فى عهد ذلك الخليفة وكان البدوى هو الشخصية التاريخية الوحيدة التى أغفل السيوطى ذكرها ، وذلك لأن السيوطى ينقل عن المؤرخين المعاصرين للقرن السابع ، وأولئك جهلوا البدوى ولم يعرفوه ، فاضطر السيوطى وهو ينقل عنهم إلى أن ينقل عنهم باخلاص فيسجل ماسجلوه ويتجاهل ما جهلوه . .

وإذا كان البدوى قد حرم من الترجمة التاريخية العلمية فى العصر المملوكى فإن العصر العثمانى قام بسد النقص فترجم للبدوى ترجمة صوفية مختلطة بالكرامات ، فقد تابع العصر العثمانى ما كتبه الشعرانى فى طبقاته عن البدوى فأوسع للبدوى تراجم خاصة فى مناقبه مليئة بالأساطير والخرافات وتقديس الاتباع له ، وهكذا قامت كتب (المناقب) بتعويض ما أغفلته كتب الحوليات التاريخية ، وأهم كتب المناقب ما كتبه عبد الصمد الأحمدى فى « الجواهر السنية والكرامات الأحمدية » وهو مطبوع والحلبى فى « النصيحة العلوية) ولا يزال مخطوطاً .

وكتاب عبد الصمد « الجواهر السنية » هو العمدة الذى نعول عليه فى هذا الكتاب ، فقد ضم بين دفتيه كل ما كتب عن البدوى من طبقات الشعرانى الكبرى والصغرى وما كتبه السيوطى فى حسن المحاضرة بالإضافة إلى ما كتبه الآخرون عن البدوى وقد ضاع ولم يصل إلينا مثل « طبقات

محمد الحنفى » وتاريخ القدس للمقدسى وكتاب أزبك الصوفى الذى نقل أجزاء طويلة منه .

ثم إن كتاب عبد الصمد هو العمدة الذى اعتمد عليه من أرخ للبدوى بعد عبد الصمد كالخفاجى والحلبى ، ثم إن هذا الكتاب « الجواهر » هو العمدة أيضا لكل من يكتب فى عصرنا عن البدوى ، اعتمد عليه عبد الحليم محمود وسعيد عاشور وحجاب وفهمى عبد اللطيف .

ثم هو — أى الكتاب — مطبوع ومتداول ، وهناك طبعة حديثة له فى مكتبة صبيح وهى التى اعتمدنا عليها .

وكتاب الجواهر لعبد الصمد يعتمد أساساً على ما نقله من كتاب أزبك الصوفى الذى أرخ لرحلة آل البدوى من المغرب للحجاز ثم رحلة البدوى للعراق ثم إلى طنطا وعلاقته بأتباعه ، وإن كان كتاب أزبك الصوفى فى عداد المفقودات فقد عثرت على مخطوط مصور بالميكروفيلم فى معهد المخطوطات عنوانه (قصة القطب أحمد البدوى) لمؤلف مجهول إسمه عمر ابن عثمان الماردانى الحلبى قال أنه فرغ من كتابه فى رمضان ٨٦٣ أى فى النصف الثانى من القرن التاسع ، وقد بدأ فيه بقصة البدوى بنفس العبارات التى حكاها أزبك الصوفى فى العصر العثمانى ، مما يقطع بأن أزبك الصوفى قد نقل عن هذا المؤلف المجهول المكتوب فى القرن التاسع ما كتبه عن البدوى وإن كان قد تجاهل ما أورده الماردانى عن سيرة الرفاعى .

ومهما يكن من أمر فإن مشكلة التأريخ للبدوى تكمن فى أن المصادر التاريخية التى تؤرخ لكل حول قد تجاهلته لأنه فى عصره — فى القرن السابع — لم يكن شيئا مذكوراً ، ثم جاءت كتب المناقب الصوفية لتحول المجهول

إلى أسطورة وخرافة ، والباحث من تاريخ البدوى الحقيقى يعيش بين « التجاهل » و « التخريف » .

بين « تجاهل » معاصرى البدوى له و « تخريف » أتباعه فيما بعد فى مناقبه وتغاليهم فى تأليهه .

على أن البحث العلمى التاريخى كفيل بحل المشكلة ، (فالحوليات التاريخية) وإن خلت من ذكر للبدوى فانها تلقى الأضواء الكاشفة على المسرح الذى عاش فيه البدوى ، و (المناقب الصوفية) وإن استغرقت فى الأساطير والخرافات فإن ملامح الحركة السرية تكاد تظهر واضحة من خلال أكوام الأساطير والمنامات ، وكلها تنبىء عن مخطط شامل واع لا يمكن أن تكون حركاته كلها مصادفة أوعشوائية خصوصا وإننا نتعامل مع الشيعة أساطين الدهاء وأساتذة التستر وملوك الباطن .

ولم يكن أمامنا إلا أن نزاوج فى الاعتماد على المصادر الصوفية (المناقب) والتاريخية (كتب الحوليات) لنتتبع منهما آثار حركة سريه ضاعت معالمها ولم يبق منها إلا أقاصيص مروية تومىء ولا توضح تشى ولا تشرح إلا أن ملامح التآمر فيها واضحة ، ويزيد فى وضوحها أن أساطينه لاقوا العنت والأذى من السلطات الحاكمة وإن ذلك التراث عن البدوى بالذات مختلف عن التراث المدون لباقى الأشياخ الصوفية فنبرة الطموح السياسى فيه واضحة عالية تتردد خلف كل كرامة ووراء كل منام .

لقد أخذنا بمنهج المؤرخ فى بحث حقيقة البدوى فتتبعنا المسرح التاريخى وفحصنا الأساطير الصوفية واستعنا بهذه على تلك فاهتدينا لحركة سرية محكمة التخطيط متسقة الحركات متحدة الأسلوب على كثرة الأتباع وتتابع الأشياخ

واختلاف الموطن ، وهنا تتضح الأمور وتنكشف الأسرار فما دام هيكل التخطيط قد وضح وبان فان من السهل على كثير من الجزيئات أن تنتظم فى مكانها فى كل عضو وفرع للهيكل العام .

وفى الفصل الثانى كان الحديث عن خرافة البدوى أو علاقة البدوى بالتصوف وما أضفاه التصوف على شخصية البدوى من خرافات التقديس وأوهام التأليه ، وتخفيفا على القارىء فقد أعرضنا عن الايغال والتعمق فى الصلات العقائدية بين التصوف الذى استتر به البدوى والتشيع الذى قامت على أساسه حركته وما يبدو فى تراث أشياخ الدعوة من آثار شيعية تفضح مذهبهم الحقيقى ، تركنا ذلك كله رحمة بالقارىء وركزنا على عنوان الفصل وهو « خرافة البدوى » أو ما أشاعه التصوف عنه من مفتريات ارتفعت به فوق مستوى البشر .

وأولى هذه الخرافات هى اعتبار البدوى وليا لله عند أتباعه الذين نشروا هذا الاعتقاد بين الناس ، وقد أثبتنا أن ولى الله تعالى لا يمكن أن يكون شخصا معروفا مقصودا وإنما الولاية لله هى صفات عامة للجميع تتركز فى الإيمان والتقوى وهى كصفات بشرية تقبل الزيادة والنقص حسب مجاهدة الهوى والشيطان وأن المعرفة بدرجة الإيمان والتقوى فى كل نفس فى أى وقت لا تكون إلا لله علام الغيوب ، وأن الولى إن كان معروفا مقصودا للتوسل والتبرك فلا يكون إلا الله تعالى وهو الولى الحميد .

ثم التفتنا لعقيدة الصوفية فى ولاية البدوى فاثبتنا خروجها عن الإسلام وأفردنا لذلك بحثا كاملا عن عناصر تأليه البدوى وعبادته ، وكيف أضفوا على البدوى الصفات الالهية من الأسماء الحسنى والحياة الأزلية والتصريف بأنواعه فى الإنسان والحيوان والأرض والسماء والسكون فى الدنيا والآخرة

وكيف أسندوا له علم الغيب مع أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

وعن عبادة البدوى تحدثنا عن قيامهم بالصلاة له ركوعاً وسجوداً وتوسلا ودعاء ثم قصدوه بالحج واعتبروا ضريحه كالكعبة وأن عناصر الحج الإسلامى للكعبة قد توافرت بالكامل فى الحج للبدوى فى مولده .

ثم أشرنا إلى ماوقع فيه الأحمدية السطوحية من تفضيل للبدوى على الله تعالى وقد فصلنا الشرح فى هذا المنزلق الخطير وبعده عرضنا للانحلال الخلقى الذى نشره الصوفية الأحمدية فى موالدهم وكيف كانوا الرواد فى هذا المجال ، وفى نهاية الفصل تحدثنا عن مسئولية البدوى فى هذا الانحراف ومبيناً أنه يتحمل المسئولية فيه أمام الله ، فالبدوى لم يعبد رغم أنفه وإنما كان داعية يجمع حوله الأتباع لهدف معين ويلقنهم أساس دعوته الشيعية الصوفية ، والشيعة يؤمنون بعصمة الإمام وتقديسه والصوفية يؤلهون الولى ، وبين أولئك وأولئك كان البدوى ، فإذا نجا من تهمة التشيع فلن ينجو من جريمة التصوف ، ثم إن ماوصل إلينا من أشعار البدوى تفضح عقيدته بما أضفى على نفسه من خصوصيات إلهية لا يمكن أن يقولها مسلم ، بل إن المسلم منهى عن تزكية النفس بمجرد الصلاح والتقوى ، لا أن يعلن نفسه إلهاً متصرفاً فى ملكوت الله ويزعم أن الله تعالى هو الذى صرح له بهذا ...

وفى هذا الفصل أخذنا بمنهج دارس العقيدة حيث الحقيقة مطلقة لا نسبية ، ومن منطلق التخفيف عن القارىء فقد جعلنا الأساس الذى نحاسب به الصوفية والبدوى هو كتاب عبد الصمد الأحمدى ومن حسن حظهم أنه أكثر كتب المناقب اعتدالا ثم هو مشهور منشور متداول ، بالاضافة إلى ترجمة البدوى فى الطبقات الكبرى للشعرانى وهو كتاب مشهور أيضاً . .

ثم قارنا أقاويل الصوفية بكتاب الله العزيز وهو الحكم والفيصل فى الأمور

العقائدية ، فظهر لنا إعجاز القرآن الكريم حيث أن القرآن الكريم سجل قبل عشرة قرون مايقوله المشركون فى كل عصر وأوان لجاء الصوفية الأحدية يكررون مقاله الشرك بعينها ويسجلون إعجازاً للقرآن الكريم وهو الحجة على المشركين فى كل عصر مهما تستروا وراء أسماء وألقاب من تصوف أو تشيع أو نصرانية أو قبطية أو يهودية ..

الدراسات الحديثة عن البدوى :

ومع أن شهرة البدوى، لا تزال قائمة فى عصرنا فإن حظه من البحث العلمى لا يعدل مكانته فى أفئدة الناس ، وذلك بسبب غموض سيرته الحقيقية وحشوها بالكرامات التى تتطلب مناقشة علمية، والمناقشة العلمية تتطلب بدورها جرأة وشجاعة على مواجهة أتباع البدوى ومحبيه ، ثم إن البدوى على عظم مكانته فليس له مذهب صوفى معين كابن عربى أو ابن سبعين وهما من معاصريه ، فالبدوى شأن أصحاب التصوف العملى الطرقى (نسبة إلى الطرق الصوفية) يركز على التربية العملية دون الفلسفة النظرية ، زد على ذلك مانذر نفسه له من هدف سياسى مستتر مع ثقافة ضحلة رشيقة . .

والمهم أن البحوث الحديثة فى شخصية البدوى يمكن أن تنقسم إلى نوعين ، شأن كل البحوث التى تتخذ التصوف مجالا ، فأما أن تجامله على طول الخط ، وهى بالعادة كتب الأتباع فى أشياخهم ، وهذه الكتب تقرأ بالاعتقاد والتسليم ، أى ما على القارىء إلا أن يسلم بما فيها ويبتلع ما تحويه من كرامات ومنامات ويجعل عقله تحت قدميه ، وغنى عن البيان أن تلك الكتب لا تسمى بحوثاً من الناحية العلمية إلا تجاوزاً .

والاتجاه الآخر هو البحث المجرد بالعقل والمنطق ، وهو طريق صعب ،

ولـكن يهون الصعب فى رضى الله تعالى الذى يوصى باتباع الحق والصبر عليه (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ..

وقد بدأ اتجاه العقل والمنطق فيما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة السياسة الأسبوعية عام ١٩٢٧ تحت عنوان (المولدان الأحمدى والدسوقى) وقد ذكر أنه رجع إلى مخطوطة مغربية ينكر صاحبها أن أحمد البدوى كان صوفياً فقط ويثبت أنه فى الحقيقة كان علوياً طموحاً يهدف لإرجاع الملك الفاطمى ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق يدرك تأثير هذه المقالات فلم يشأ أن يوقعها باسمه بل وقع تحتها بـ (عالم كبير وكاتب معروف) ..

وقد سار على نهجه الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فى كتابه (السيد البدوى ودولة الدراويش فى مصر) سنة ١٩٤٨ . فتابع ما ذكرته مجلة السياسة فى حركة البدوى السياسية وأضاف بعض المصادر الصوفية وألحق بعض الفصول عن الموالد الصوفية وأثر المتصوفة فى المجتمع المصرى ثقافياً ودينياً وفنياً ..

وكوفىء على كتابه القيم بالاتهام بالالحاد والمروق من خطيب الجامع الأحمدى بطنطا ..

وظهر اتجاه متحفظ من بعض دارسى التاريخ كما فعل الأستاذ إبراهيم نور الدين فى كتابه (حياة السيد البدوى بحث فى التاريخ والتصوف الإسلامى) سنة ١٩٥٠ وقد اعتمد على مصادر تاريخية وصوفية وحاول أن ينفى عن البدوى جهده السياسى ، ثم جاء بعده الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه (السيد البدوى) سنة ١٩٦٧ وقد كتب دراسة ممتعة عن شخصية

البدوى فى اعتقاد مريديه وكيف أنهم وصلوا به للألوهية والتشبه بالرسول وقرر أن البدوى برىء من تلك المغالاة ، وكان مرجعه الأساسى كتب عبد الصمدى والخفاجى والشعرانى والحلبى ، ولأنه أهمل العامل السياسى فى تاريخ البدوى فقد أخفق فى تفسير السبب الحقيقى لرحلة البدوى للعراق أو أو لمصر ، ويبدو أنه تحرج من الايغال فى هذا الموضوع خوفا من نقمة البعض ، ومع ذلك فقد واجه هجوما صوفيا ، وإن كان ذلك لا ينقص من مكانته ومكانة أبحاثه .

ثم اضطر الصوفية المعاصرون للرد فكان أن كتب الشيخ احمد حجاب « العظة والاعتبار . آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية وحياته البرزخية » وقد بين أن السبب فى تأليفه هو الرد على كتاب (السيد البدوى » للأستاذ « محمود أبو ريه » لأنه ينكر فيه على البدوى تلقيبه بالسيد .. إلخ[1] .

وقد بدأ كتاب الشيخ حجاب بصورة شخصية له يقول تحتها :

تأمل صورتى توحى بصدق — بأن الحق مشربها الصريح
أقول الحق لا أبغى سواه — ويملأ قلبى النصح الصحيح

وبعد أن وصف صورته ونعت نفسه بالصدق والصراحة وأسبغ على ذاته ما يريد من فضائل كشأن الصوفية فى تزكية أنفسهم أفرد أكثر من صفحة يقدم فيها نفسه للقارىء باعتباره إبنا روحيا للبدوى ، ويقول فيها عن نفسه أنه لم يبارز ربه بمعصية واحدة[2] . أى يصف نفسه بالعصمة الكاملة .

وفى هذا الكتاب يدافع عن التصوف والموالد والأضرحة والتوسل ولم ينس أن يرصع كتابه بكرامات ذكر أنها وقعت له مع البدوى « أبوه الروحى » .

---

(١) العظة والاعتبار ٨١ (٢) العظة والاعتبار ٧١

ثم عنّ للدكتور عبد الحليم محمود أن يضيف إلى تراثه الصوفى كتابا عن البدوى بدأه بأكذوبة كبرى وضعها فى عنوان يقول « ليس للصوفية تاريخ شخصى » ، وإذن فيم نسمى كتب المناقب التى تتعدد فى ذكر محاسن شيخ صوفى بعينه تتبع حياته وتملأها كرامات ومنامات ، ثم يقول « ولم ابتدىء فى كتابة شىء من الكتاب حتى ذهبت متعمدا إلى طنطا استأذن السيد فى الكتابة عنه ، وفى المقصورة المباركة بدأت الكتابة[1] » أى جاءه الإذن من القبر المقدس بالكتابة فكتب .

وكتاب عبدالحليم محمود عن البدوى لا يختلف فى شىء عن كتبه الصوفية الأخرى ، يدور حول نفسه ينتقل من موضوع لم يكمل إلى موضوع آخر لم يتم ليسارع بتركه إلى تعليق فآخر ، يحاول بذلك كله أن يدافع ، وفى يقينى أنه أسوأ من يدافع عن الصوفية والتصوف .

وبعد .. فهذه أهم الأبحاث والكتابات الحديثة عن شخصية البدوى ، وقد وضح الاتجاه الذى يسير عليه هذا الكتاب « السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة » ، فهو يتابع الطريق العلمى الموضوعى أسوة بما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ فهمى عبد اللطيف ، ثم يضيف فصلا كاملا عن خرافة البدوى وكيف حوله التصوف إلى إله ونشر تقديسه والحج إليه بين الناس طيلة ستة قرون ، وآن لنا بعدها أن نبدد تلك الخرافة بالحقيقة القرآنية والتاريخية .

ومن الطبيعى أن ما جاء بهذا الكتاب لن يعجب الكثيرين ممن يعيشون على أوهام الماضى ويحسبون الخرافة دينا يجب التمسك به والدفاع عنه والحج

---

(١) السيد أحمد البدوى ٣٦ ط . دار الشعب .

إليه ، وأولئك لا أمل فى إقناعهم بأى دليل من قرآن أو تاريخ أو عقل ، ومع ذلك فلا نعلن عليهم حربا ، فالإسلام كفل حرية العقيدة لكل إنسان « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، وهم وما اختاروه لأنفسهم وآخرتهم ، وحسابنا وحسابهم عند ربنا يوم القيامة ، وسيحكم بيننا فيما نحن فيه مختلفون بشأن البدوى وغيره من الآلهة الأولياء .

لقد فعلنا مافى وسعنا فى هذا الكتاب، أوضحنا زيف المعتقدات وبطلان الخرافات بالأدلة والبرهان وبأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة خدمة لدين الله تعالى وأملا فى أن تتخلص العقيدة الإسلامية من شوائب التخريف والأباطيل ، وبعدها لا يزال فى الصدر رحابة لتحمل الأذى وتقبل الشتائم والسباب ممن لا يعجبهم قول الحق ويعتبرون الحق ماساً بآلهتهم المعهودة .

ولا نملك فى نهاية الأمر إلا أن نقول لهم ما قاله خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام لقومه .

« اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » اللهم آمين .

القاهرة : رمضان ١٤٠٢ هـ
يوليه ١٩٨٢ م

د. احمد صبحى منصور
قسم التاريخ - جامعة الأزهر

الفصل الأول

حقيقة البدوى

أو البدوى كداعية سياسى سرى

تمهيد : استغلال الشيعة للزهد والتصوف ضد الدولة العباسية فى : حركة القرامطة، وحركة الزنج ، وقيام الدولة الفاطمية، نشأة التصوف فى أحضان التشيع معروف الكرخى والحلاج ، استغلال الدولة الفاطمية للتصوف حين ضعفت ، صلاح الدين الأيوبى يحارب التشيع بالتصوف السنى .

فى بداية أى حركة تكمن « فكرة » معينة ، وأصحاب الدعوات هم بالضرورة أصحاب « أفكار » يبغون ترويجها فى سبيل هدف معين ، ودعوة البدوى أو حركته السرية سلسلة من مخطط طويل قام على أساس ربط التشيع بالتصوف أملا فى إنشاء حكم شيعى يعيد سطوة الدولة الفاطمية ، ثم هو حلقة فى كتاب التآمر الشيعى ضد الدولة العباسية التى انفردت دونهم بالحكم والسيطرة .

وقد استغل الشيعة سلاح الزهد والتصوف فى الكيد للدولة العباسية ، فحركة « الزنج » قام بها شيعى طموح انتحل النسب العلوى وجمع الزنوج وهم أدنى طبقات المجتمع فى العصر العباسى فثار بهم على الخلافة العباسية واستمرت ثورته من سنة ٢٥٥ : ٢٧٠ هـ .

ولم تنته مؤامرات الشيعة ضد العباسيين فبعد ثمانى سنوات بدأت حركة «القرامطة» سنة ٢٧٨ على يد حميد قرمط الذى « أظهر الزهد والتقشف»(١) على حد قول المؤرخ ابن الأثير ، وتطورت قوة القرامطة فقطعوا الطريق على الحجاج وهاجموا الكعبة وأخذوا الحجر الأسود سنة ٣١٧ واستمر أمرهم

---

(١) تاريخ ابن الأثير ١٧٧/٧ .

إلى ما بعد منتصف القرن الرابع ، وباظهار الزهد والتستر به نجح أبو عبد الله الشيعي فى استمالة البربر وتكوين الدولة الفاطمية فى المغرب فقيل عنه أنه أظهر لكبار البربر « العبادة والزهد[1] » أثناء الحج فى مكة حتى تمسكوا به وصحبوه إلى بلادهم وآزروه فى دعوته حتى تم قيام الدولة الفاطمية .

والطريف أن أعداء الشيعة تعلموا منهم استغلال الزهد فى إقامة الدول ، فقامت فى المغرب دولة المرابطين الملثمين (٤٤٨ : ٥٥٣ هـ) بدعوة «الزاهد» عبد الله بن ياسين الكرولى ، ثم قامت هناك دولة الموحدين على يد الداعية « الزاهد » محمد بن تومرت سنة ٥١٤ .

بل أن بعض أعداء الشيعة استغل الزهد فى الثورة على الفاطميين الشيعة كما فعل أبو ركوة الذى ثار على الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٣١٧ ، وكان أبو ركوة أمويا إلا أنه تستر بالزهد أو حسب تعبير ابن الأثير « تظاهر بالدين والنسك »[2] ، وكان يحمل فى أسفاره ركوة كالصوفية فكنى بها ، ولم يكن الزهد السلاح الوحيد الذى استغله الشيعة سياسيا بل تستروا إلى جانبه بالتصوف ، بل أن التصوف فى حقيقته ابن شرعى للتشيع فلا خلاف فى أن « معروف الكرخى » هو أقدم الرواد الصوفيين .

ومعروف هذا كان من موالى على بن موسى الرضا رأس الشيعة فى عهد الخليفة المأمون وقد عهد الخليفة المأمون لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد إلا أن الأمر لم يتم له ، وبالطبع فإن شهرة على بن موسى الرضا ومكانته لدى الخليفة المأمون أتاحت القدر الأكبر للشيعة لنشر دعوتهم وبداية الطريق الجديد وهو التصوف الذى يتغلغل الشيعة من خلاله سراً إلى شتى المجتمعات والاجتماعات ، وكان

(١) تاريخ ابن الأثير ١٢/٨

(٢) تاريخ ابن الأثير ٨٢/٩ و (الركوة) هى قربة الماء .

معروف الكرخى وسيلتهم فى نشر التصوف ، فمعروف تنتهى إليه كل خرقة أو سلسلة صوفية وهو أستاذ سرى السقطى ، والسقطى هو شيخ الجنيد ، والجنيد هو « سيد الطائفة » فى تعبير الصوفية ، أى أن معروف الكرخى نجح منذ بداية التصوف فى تكوين خلايا وتجمعات حتى أنه لا يزال يحتل رأس القائمة حتى الآن فى كل سلسلة صوفية ، وإذا عرفنا الوجه الصوفى لمعروف الكرخى كالشيخ الأقدم لكل الطرق الصوفية ، فإن الوجه الشيعى يظهر فى تاريخه ، فقد كان معروف نصرانيا فأسلم « أو تصوف » على يد « مولاه » على بن موسى الرضا ، ولازم خدمته ، يقول عن نفسه « تركت ما كنت عليه إلا خدمة مولاى على بن موسى الرضا»[1] ، وظل ارتباط معروف بسيده الرضا حتى إنه مات على أبوابه حين كان يعمل حاجبا لديه ، فقد ازدحم الشيعة يوما بباب الرضا (فكسروا أضلع معروف فمات)[2] .

والآثار الشيعية تظهر جلية فى صوفى شهير اشتهر بالصراحة هو الحلاج ، وقد كانت العوامل السياسية هى السبب الخفى وراء محاكمته الطويلة التى انتهت بقتله سنة ٣٠٩ ، فقد ظهر الحلاج فى عصر يموج بتيارات التشيع وتحركاته السياسية فى الشرق والغرب ، ففى الشرق استولى الحسن بن على الأطروش الشيعى على طبرستان ، وفى الغرب تم قيام الدولة الفاطمية فى المغرب واتجهت بحركات عسكرية للاستيلاء على مصر ، وفى المنطقة الوسطى كان القرامطة الشيعة يعيثون فى الأرض فساداً فيما بين العراق والشام والحجاز .

ونلاحظ نوعا من التوافق الزمنى بين التحركات الشيعية السابقة وشكوك

---

(١) الرسالة القشيرية ١٦،١٥ ط صبيح .
(٢) السلمى . طبقات الصوفية ٨٥ ط ١٩٥٣ .

العباسيين فى الحلاج وهو تحت أيديهم وفى قبضتهم ، ففى العام الذى اعتقل فيه الحلاج وهو ٣٠١ كان الفاطميون يستولون على الاسكندرية والحسن الأطروش يستولى على طبرستان .

وربما بدأت شكوك العباسيين فى الحلاج بعد قيام الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٦ ، ولعلهم عرفوا بالصلة بين الحلاج والفاطميين ، فقد كتب الحلاج إلى بعض دعاته بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الفاطمية الزهراء[١] . وحدث بعدها قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، وقد ذكر الخطيب البغدادى أن أهل فارس كانوا يكاتبون الحلاج باسم « أبى عبد الله الزاهد[٢] » . وهو نفس ما يطلقه الشيعة على أبى عبد الله الشيعى صاحب الدعوة الفاطمية فى المغرب ، أى كان للشيعة داعيتان بلقب واحد فى المشرق والمغرب وكلاهما تستر بالتصوف والزهد .

وهناك توافق بين مصرع الحلاج والتحركات المجنونة التى قام بها القرامطة ، فقد قتل الحلاج سنة ٣٠٩ ، وقد انتقم له القرامطة بالهجوم على البصرة سنة ٣١١ ثم الكوفة سنة ٣١٢ ، وفى نفس العام هاجموا الحجاج ثم عاودوا الهجوم على الكوفة سنة ٣٥١ ، وعاثو فى العراق فساداً[٣] .

يؤكد ذلك أن الحلاج حين صلبه العباسيون اتهموه بأنه أحد القرامطة ، ففى حوادث سنة ٣٠٩ « أدخل الحسين الحلاج مشهورا على جمل إلى بغداد فصلب حياً ونودى عليه : هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ، ثم حبس إلى أن قتل سنة ٣٠٩ ، وأشيع عنه أنه ادعى الإلهية وأنه يقول بحلول اللاهوت

---

(١) التنوخى . نشوار المحاضرة ١ / ٨٦ : تحقيق مارجيليوث .

(٢) تاريخ بغداد ٨ / ١١٣ ط . دمشق .

(٣) تاريخ ابن الأثير ٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٢ .

فى الأشراف[١] ، فالحلاج على هذا شيعى قرمطى يقول بتأليه الأئمة من الأشراف حسب عقائد الشيعة .

ومع صراحة الحلاج إلا أنه لجأ للتقيه حين حوكم ، والتقيه مبدأ شيعى يعنى نفاق الحاكم حين الضرورة والتستر باظهار عكس مافى الباطن للنجاة ، وذلك ما فعل الحلاج حين أحاطت به أدلة الاتهام فكان لا يظهر منه ما تكرهه الشريعة حتى إن القضاة احتاروا فى سبب موجب لقتله ثم عثروا فى أوراقه على آراء له فى الحج تفيد أن الإنسان إذا أراد الحج يمكنه أن يحج فى بيته بطريقة معينة ذكرها ابن الأثير فى تفصيل الحكم بقتل الحلاج[٢] ويلاحظ الاتفاق بين الحلاج والقرامطة بالنسبة للكعبة والحج إليها ، إذ أن القرامطة حققوا عملها ما ارتآه الحلاج نظرياً ، إذ أن القرمطى أسس داراً أسماها (دار الهجرة) ودعا أصحابه للحج إليها ، ثم فى العام التالى سنة ٣١٧ هجم على مكة فقتل الحجاج فيها حول الكعبة والقاهم فى بئر زمزم وضرب الحجر الأسود فكسره واقتلعه وحمله إلى (دار الهجرة) وظل فى حوزتهم أكثر من عشرين سنة[٣] .

ومع التيارات السياسية المتعارضة بين القرامطة والفاطميين ـ وهما أصدقاء الحلاج ورفاقه فى الدعوة . فإن الصلات العقائدية بينهما متينة ، وقد ذكر ابن الأثير إن المعز لدين الله الفاطمى أرسل لمقدم القرامطة كتاباً يذكر فيه أن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله[٤] .

ولاشك أن مصرع الحلاج قد كشف الأصل الشيعى للتصوف لذا اضطر

---

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء ٦٠٦ : ٦٠٧ (٢) تاريخ ابن الأثير ٤٧/٨

(٣) تاريخ ابن الأثير ٧٧/٨ ، تاريخ الخلفاء ٦١١ .

(٤) ابن الأثير ٢٥٢/٨

الصوفية المعاصرون للحلاج لإعلان التبرؤ منه فافتى الشبلى بقتله وأفتى الحريرى بضربه وإطالة سجنه[١] وخاصمه الجنيد رأس الصوفية واتهمه بالسحر والشعوذة[٢]. على أن ذلك كله لم يغن عنهم نفعاً إذ لاحقتهم السلطة العباسية بالمحاكمات والاضطهاد حتى اضطر الجنيد ـ وهو أكثرهم نفاقاً وتقيه إلى التستر بالفقه والاختفاء عملا بالتقية الشيعية حتى أنه (كان لا يتكلم إلا فى قعر داره بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحها تحت فخذه ويقول : أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى ويرمونهم بالزندقة والكفر)[٣].

بقى أن نذكر أن الشيعة عجلوا باستغلال التصوف عسكرياً فى حركة ابن الصوفى الذى ثار على ابن طولون فى مصر سنه ٢٥٦ منتهزاً فرصه الصراع بين ابن طولون والخلافة العباسيه. يقول ابن الأثير (ظهر بصعيد مصر إنسان علوى ذكر أنه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن على ابن أبى طالب ويعرف بابن الصوفى وملك مدينة إسنا ونهبها وعم شره البلاد فسير إليه أحمد بن طولون جيشاً فهزمه العلوى)[٤].

وهكذا.. استغل الشيعه الزهد فى حركة القرامطة والزنج كما استغلوا التصوف مع الزهد فى إقامه الدولة الفاطميه فى المغرب، وساعدهم على انجاح حركاتهم ما عانته الدولة العباسية من ضعف بعد أن تحكم الموالى الأتراك فى شئون الخلافة والخلفاء حتى إن الولايات المستقلة قامت فى مصر والشام ممثلة الدولتين الطولونية والأخشيدية. وصارت أفريقيا (المغرب) تحت تحكم الدولة الفاطمية بخلافة شيعيه مستقلة تتطلع للزحف شرقاً، وتم لها النصر بفتح مصر سنه ٣٥٨.

---

(١) زروق الفاسى : قواعد الصوفية ٥١ (٢) أخبار الحلاج ٦١

(٣) الشعرانى : الطبقات الكبرى ١/٣٠ (٤) تاريخ ابن الأثير ٧/٩٥

وكما قامت الدولة الفاطمية على استغلال الزهد والتستر به كما فعل أبو عبد الله الشيعى فإنها بعد استقرارها فى مصر لم تغفل عن استغلال التصوف فكان خلفاء الفاطميين يطلقون على أنفسهم لقب الصوفية فى فاتحة رسائلهم، وحين تمهدت الأمور تماماً أعلن الخليفة الحاكم الفاطمى الألوهية تشبهاً بالحلاج الصوفى، وتجسيداً لآرائه التى تقول بحلول اللاهوت فى الأشراف.

ثم ازدادت حاجة الفاطميين للتصوف فى القرن السادس الهجرى، فقد ضعفت الدولة وتحكم الوزراء العظام فى الخلفاء الفاطميين وانفض المصريون عن الدعوة الاسماعيلية الشيعية أساس الدولة الفاطمية فى نفس الوقت الذى ازداد فيه تيار التصوف بعد ما قام به الغزالى زعيم الفقهاء والصوفية من عقد الصلح بين الإسلام والتصوف وإعطاء التصوف مسحة إسلامية ومحاولة التقريب بينهما، لذا اضطر الفاطميون فى القرن السادس للتركيز على تيار التصوف الآخذ فى الانتشار باعتبار أن التصوف فى الأصل وليد للتشيع والشيعة أخبر بالتصوف وأدرى باستغلاله والاستفادة به، والفاطميون بالذات لا تزال دولتهم قائمة، ودعاتهم موجودون وهم أحوج لاستغلال التصوف فى وقت ضعفهم.

ومع الأسف فإن طبيعة الاستغلال الشيعى للتصوف فى القرن السادس على يد الفاطميين كانت غامضة شأن النشاط الشيعى القائم دائما على التستر والتخفى، ومع ذلك فإن هناك إشارات تنبىء عنه وتشير إليه، فالمقريزى يروى أن (الخليفة الآمر فى ٥٢٤ جدد قصر القرافه واتخذ تحته مصطبه للصوفيه فكان يجلس بالطابق الأعلى بالقصر ويرقص الصوفيه أمامه بالمجامر والألويه)[١].

---

(١) خطط المقريزى ٢/ ٣٧

ويلفت النظر هنا أن الصوفيه مغرمون دائما بالقرافه وما فيها من مشاهد ولذلك اضطر الفاطميون إلى (تجديد) قصر القرافه ، وجعل الآمر منه مسرحاً لأوباش الصوفيه يرقصون أمامه، ومن خلال الرقص يكون التشاور واللقاء فى ذلك المكان القصى البعيد .

ويذكر الشعرانى فى ترجمة الصوفى ابن مرزوق القرشى ٥٦٤ (انتهت إليه تربية المريدين الصادقين بمصر وأعمالها وانعقد إجماع المشايخ عليه بالتعظيم والتبجيل والاحترام وحكموه فيما اختلفوا فيه ورجعوا إلى قوله)[١] معنى ذلك أن هناك طرقاً صوفيه لم نسمع بها باتباع ومريديه بمصر وأعمالها وانتهت بمشايخ كانوا يرجعون فى كل شئونهم إلى ابن مرزوق القرشى الشيخ الأكبر لهم ..

وفى هذا العصر المتقدم لم تكن الطرق الصوفية معروفة أو مألوفة مما يدل على تفكير على وتخطيط ناضج يحظى بتأييد الدولة الفاطمية التى لابد أن تكون مستفيدة من هذا النشاط الصوفى المتشعب فى كل البلاد .

ويلفت النظر أن ابن مرزوق القرشى لم يتعرض لنقمة الحكام شأن أغلب الصوفية فى عهده ولم يرد فى ترجمته ما يدل على كراهيته لأولى الأمر ، بل على العكس ورد فى تاريخه ما ينبىء عن تمكنه من فنون التستر والتقية الشيعية ، يقول الشعرانى عنه (حكى أن أصحابه قالوا يوما : لم لا تحدثنا بشىء من الحقائق !

فقال لهم : كم أصحابى اليوم ؟ قالوا : ستمائة . فقال استخلصوا منهم مائة ثم استخلصوا من المائة عشرين، ثم استخلصوا من العشرين أربعة ، فكان

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١٣٠

الأربعة ابن القسطلانى وأبا الطاهر وابن الصابونى وأبا عبد الله القرطبى فقال الشيخ : لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رءوس الاشهاد لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة[١]) وتقسيم الدعاة إلى درجات هرمية ، وإعطاء الأسرار بقدر وحساب وكون الإمام سراً مغلقا دائما حتى عن كبار أتباعه ، كل ذلك من أسس الدعوة الشيعية التى تظهر فى النص السابق عن ابن مرزوق القرشى ، ومع ما يظهر من كثرة أتباع ابن مرزوق القرشى وانتظامهم طوائف وطرقا منظمة موزعة إلا أن هذه الطرق المتشعبة لم يعد لها وجود بعد العصر الفاطمى ، مع أن الطرق الصوفة التى أسست فيما بعد لا تزال بيننا فى اتساع وتشعب وتفرع ، والتعليل واضح ، أن الطرق التى أسسها ابن مرزوق أسست لغرض معين هو نشر الدعوة الشيعية أثناء الدولة الفاطمية خدمة لها فلما انهارت الدولة الفاطميه انهارت معها كل تنظيماتها العلنية والسرية .

ويتضح مما سبق أن الدولة الفاطمية أيان ضعفها استغلت التصوف المعلن فى نشر عقائدها الشيعية بين طوائف المصريين مستغلة الصلات العقائدية بين التصوف والتشيع وانتشار التصوف وانخراط الكثيرين فى صفوفه ، وقد فطن لهذه الحقيقة باحث متخصص فى أساليب الشيعه فقال أن الفاطميين استعملوا صنفا من الدعاة تستر بالتصوف وأظهر الزهد وسبب وجود هذا الصوفى الظاهر صعوبة التفريق بينهم وبين الدعاة الشيعه العاديين[٢] ، بل بينهم وبين الصوفيه العاديين من أوباش الصوفيه الراقصين أمام الخليفه الآمر فى قصر القرافه .

بيد أن ذلك كله لم يجد نفعاً فازداد أعراض المصريين عن الدعوة الشيعيه

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) محمد كامل حسين : بين التشيع وأدب الصوفية دوريات القاهرة ٥٢:٥١/١٦

الفاطميه، لأنهم رأوا (الإمام المعصوم) أو الخليفه الفاطمى ألعوبة فى أيدى الخصيان والجوارى والوزراء، ولم يستطع الفاطميون بسبب التردى السياسى والضعف الذى وقعوا فيه أن يمنعوا الكيزانى ت ٥٦٠ من نشر دعوته السنية التى تعارض التشيع، والكيزانى شاعر زاهد سنى أخذ يحارب الدعايه الشيعيه الفاطميه بأشعاره السنيه فالتفت إليه الكثير من المصريين وانضموا لدعوته وظلت طريقته حتى القرن التاسع عصر المقريزى فنقم عليه لميله للفاطميين فيقول عن الكيزانى (ابتدع مقاله أضل بها اعتقاده، والطائفه الكيزانيه على هذه البدعه مقيمون[١]) .

ووجد الفاطميون أنفسهم فى موقف حرج فسلطتهم السياسيه آخذة فى الضعف والوهن وعقيدتهم الشيعيه الاسماعيليه تواجه الدعايه الكيزانيه السنيه المستترة هى الأخرى بالتصوف ، ولأن الفاطمين أقدر على استغلال التصوف وأدرى بنفسيه الصوفيه وأخبر بأهوائهم وأذواقهم فقد لعبوا بالوجدان الصوفى وعواطف المصريين حين أنشأوا مقبرة للحسين ادعوا أنها تضم رأسه وقصدوا بهذا الفعل أن يستردوا ما خسروه سياسياً ودعائياً أمام كل أعدائهم ومنافسيهم .

والحق . . أن إنشاء المشهد الحسينى فى أواخر العهد الفاطمى ليدل على مهارة فائقه للفاطميين فى استغلالهم للتصوف وفهمهم لنفسيه الصوفيه والعامه، فالحسين يحتل مكانه خطيرة فى العقيدة الشيعيه والوجدان الصوفى والشعبى، فهو كبير الأئمة عند الشيعة وسيد الأولياء عند الصوفية وصاحب الحظوة وسيد شباب أهل الجنة عند العامة والخاصه فى هذا العصر وما تلاه، ومنذ

---

(١) المقريزى : الخطط : مصور ١/٣٣

القرن الثانى للهجرة صير الشيعة من كربلاء مشهداً ومزاراً للحسين واحتلت كربلاء مكانتها فى الوجدان الشيعى ، ثم إذا ضعف الشيعة الفاطمية فى مصر التفتوا إلى استعارة قبس من كربلاء تلاعبا بعواطف المصريين المحبين لآل البيت ، وتقربا للصوفية وغرامهم بالأضرحة والمزارات معلوم ومعروف ، فالصوفية إلى الأضرحة يحجون وعليها يعكفون ، والحسين أولى عندهم وأعظم شأنا ، فعند الحسين وضريحه يلتقى الصوفى السنى والشيعى ، وحتى من أعرض عن التشيع الفاطمى وانضم إلى الكيزانى الصوفى فلن يستطيع أن يمنع نفسه من تقديس مشهد الحسين .

يقول ابن تيمية : (لم يحمل رأس الحسين للقاهرة فقد دفنت جثته حيث قتل ، وروى البخارى فى تاريخه أن رأس الحسين حمل إلى المدينة ودفن فى البقيع عند قبر أمه فاطمة ، وبعض العلماء يقول إنه حمل إلى دمشق ودفن بها فبين مقتل الحسين وبناء القاهرة نحو مائتين وخمسين سنه ، وقد بنى الفاطميون مشهد الحسين فى أواخر سنه ٥٥٠ هـ ، وانقرضت دولتهم بعد هذا البناء بنحو أربع عشرة سنه ، وهذا مشهد الكذب)[١] .

وما يقوله ابن تيمية لا غبار عليه من الناحيه التاريخيه ، فلا علاقه للحسين بمصر فقد قتل فى العراق سنه ٦٢ هـ وفى ثورته تلك كان اهتمامه وأتباعه وأعداؤه بين الحجاز والعراق والشام ، ولا مكان لمصر يومئذ . . حتى إن الدولة الفاطمية حين انتقلت لمصر قويه متماسكة لم تفكر فى الحسين ولا فى رأسه وأغفلته تماماً فيما شيدته من قصور ومساجد ، فقد أقامت مدينه كاملة هى القاهرة وجامعاً ضخماً ـ بدون ضريح ـ هو الأزهر وشيدت

---

(١) تكسير الأحجار . مخطوط بدار الكتب ورقة ١٤٦ ، ١٤٧

قصورا للخلافه والحاشيه وخلت منشآتهم الأولى من أى مشهد علوى للحسين أو غيره .

ثم إذا ضعفت الدولة الفاطميه وتحكم فيها الوزراء والخصيان وصار الخليفه (المعصوم) ألعوبه لا يستحق الاحترام ـ حينئذ اضطر الفاطميون لاكتساب مافقدوه من تأييد فادعوا العثور على رأس الحسين بعد قتله بخمس قرون دون أى سند من عقل أو منطق أو علم اللهم إلا خرافات التضليل الصوفيه والشيعيه التى أحاطوا بها ذلك المشهد المقدس والرأس المزعوم فيه .

إلا أن تلاحق الأحداث فى نهاية الدولة الفاطمية لم يمكنهم من استثمار ذلك المشهد سياسيا ، فقد تنازع على الوزارة الفاطمية شاور وضرغام وسرعان ما تدخل فى النزاع قوى خارجية ممثلة فى الصليبين ونور الدين زنكى وقواده شيركوه وصلاح الدين ، وانتهى الأمر بعلو شأن صلاح الدين وتأسيسه الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية وتحول مشهد الحسين إلى (ضريح صوفى) خال من أى رتوش شيعية سياسية .

وقد كان صلاح الدين الأيوبى بعيد النظر ، إذ أدرك أن الدولة الفاطمية دولة (إيدلوجية) تقوم على دعوة وعقيدة لها اتباع ودعاة ، لذا فإن القضاء عليها لا يتم بمجرد موت (العاضد) آخر خليفة فاطمى أو قتل الحاشية الفاطمية من الأرمن والسودانيين ، وإنما القضاء الحقيقى على الدولة لا يكون إلا بحرب الفكرة الشيعية ، وقد استفاد من خصومة فاستغل مثلهم سلاح التصوف الموالى له ، يدل على ذلك أن صلاح الدين بادر حين استتب له الأمر

(٢)

بنقل قبر الكيزانى إلى مكان آخر[1] اهتماما به كرفيق له فى الدعوة ضد التشيع وكأستاذ له فى حرب التشيع الفاطمى بالتصوف المستتر بالسنة .

ثم استورد صلاح الدين صوفية من المشرق وحمولهم خانقاه (سعيد السعداء) وكانت لهم طقوسهم فى تأدية صلاة الجمعة فاكتسبوا إعجاب المصريين حتى كانوا يخرجون للفرجة عليهم[2] وسرعان ما ارتفعت الخوانق للصوفية العاملين فى خدمة الدولة الأيوبية ومذهبها السنى المناوىء للتشيع الفاطمى ، ولم يكتف بذلك صلاح الدين بل أرسل من لدنه صوفية إلى الصعيد مركز التشيع الفاطمى ، وكان من مبعوثيه عبد الرحيم بن حجون أو عبد الرحيم القنائى الذى استقر فى قنا وكون فيها مدرسة لحرب التشيع باسم التصوف الرسمى السنى وكان من تلامذته أبو الحسن الصباغ ثم ابن دقيق العيد ، وسنعرض لهذه الشخصيات فى أوانها .

والمهم أن عبد الرحيم القنائى كان صوفيا شيعيا سابقا إلا أنه انقلب على رفاقه وانضم إلى السلطات الأيوبية وتأرجح بعض تلامذة مدرسته بين حرب التشيع الظاهر والمستتر والتعاطف مع بعض الشيعة الصوفية كما فعل ابن دقيق العيد الذى كانت له جولات فى حروب الشيعة فى الصعيد أشار إليها الأدفوى فى كتابه (الطالع السعيد فى أخبار نجباء الصعيد)[3] ثم فى ختام حياته سلم لبعض المستترين بالتصوف أو انخدع لهم كما سيأتى فى علاقته بالبدوى وأبى العباس الملثم .

والآن فقد وصل بنا (التمهيد) إلى الحركة الشيعية المستترة بالتصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين والتى كان البدوى خاتمة المطاف فيها ،

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ١/٣٤٧ .

(٢) خطط المقريزى ٤/٢٧٤ (٣) الطالع ٢٣٠ .

وقبل أن نغرق مع هذه الدعوة السرية وظروفها المعقدة المتشابكة نلخص الحركات الشيعية السابقة لها والتي أشرنا إليها في هذا التمهيد على النحو التالي :

١ ـ إن الشيعة بعد أن خدعهم العباسيون واستأثروا من دونهم بالسلطة لم يغفلوا عن الاستفادة بكل جديد في الكيد للعباسيين ، استغلوا ترف العباسيين فأثاروا عليهم الطبقات الفقيرة في حركة الزنج ، وحين قويت حركة الزهد الذي يعني الاحتجاج السلبي على الترف العباسي فإنهم حولوا الزهد السلبي إلى حركات ثورية تستر أصحابها بالزهد والتقشف لاستمالة الطبقات الفقيرة المحرومة ولاستقطاب الإعجاب الذي يكنه الناس للزهاد وتحويله إلى تأييد لهم في ثوراتهم ضد العباسيين كما في حركة القرامطة وبداية الدولة الفاطمية في المغرب .

٢ ـ ثم إذا انحسرت الأضواء عن الزهد نوعاً ما اخترع الشيعة إلى جانبه (التصوف) الذي بدأ متداخلا مع الزهد ـ وإن كانت الفروق بينهما أساسية ـ (فمعروف الكرخي) الرائد الصوفي الأول كان خادماً ومولى للرضا كبير الشيعة في عصر المأمون ، و (الحلاج) أشهر الصوفية كانت ميوله الشيعية أقوى من الكتمان . وتحركاته ومحاكماته تتوافق مع تحركات الشيعة ضد الدولة العباسيه ، ثم يثور شيعي في مصر ويلقب نفسه (بابن الصوفي) وينتحل التصوف مع النسب العلوي .

وكما قامت الدولة الفاطمية بدعوى الزهد والتصوف فإنها لم تغفل عن الاستفادة بالتصوف في مصر فكونت طرقا صوفية في الظاهر شيعية في الباطن كما حدث مع (ابن مرزوق القرشي) واجتذبت لها الصوفيه ، ثم إذا ازداد ضعفها ركزت على التصوف فأقامت قبر الحسين ليكون واجهه صوفيه للدعوة الشيعيه إلى جانب الأزهر الذي أقاموه مدرسه للتشيع الصريح من قبل .

٣ - وظهر أن الآخرين استفادوا من مبتكرات الشيعة ، بل أن أعداءهم حاربوهم بنفس السلاح الذى اخترعوه ، (فأبو ركوه) تظاهر بالزهد والتصوف حين ثار على الخليفه الحاكم بأمر الله الفاطمى و (الكيزانى) حارب التشيع المستتر بالتصوف ، بالتصوف المستتر بالسنه ، و (صلاح الدين) سار على نهج الكيزانى فأقام الخوانق للصوفية الرسميين على حساب الدولة وتكفل باطعامهم والانفاق عليهم ثم أرسل بعوثا باسم التصوف لحرب التشيع فى الصعيد، وازدادت الخوانق فى مصر الأيوبيه ونعم الصوفيه الرسميون بعطف الحكام الأيوبيين والمماليك فيما بعد ، بينما حرم من هذا العطف الصوفيه الآخرون الذين كونوا لأنفسهم جماعات سرية بعيدة عن الدولة وخوانقها وأموالها وأولئك لاحقتهم الدولة بالشكوك والاضطهاد .

٤ - ومن خلال هذه الحروب السريه بين الجانبين اللذين انتحلا التصوف وجعلاه مسرحاً للحرب بينهما سنعرض للحركة الصوفيه الشيعيه فى القرنين السادس والسابع ، تلك الحركة التى نفهم من خلالها حقيقة البدوى كداعية شيعى سرى مستتر بالتصوف . . ولأن البدوى كان خاتمة المطاف فى هذه الحركة السرية فإننا سنبدأ ببحث جذور هذه الحركة فى المغرب ثم ننتقل معها إلى العراق حيث مدرسة أحمد الرفاعى الذى أسس شجرة الدعوة فى أم عبيدة بواسط . . وأثمرت هذه الشجرة دعاة ملأت بهم الأقطار فى الشرق (فارس والتركستان) والغرب . . إلا أن الخطر المغولى والخوارزمى فى الشرق جعلهم يركزون على مصر فى الغرب خصوصا بعد انهيار الحكم الشيعى الفاطمى فيها ، فكان البدوى فى مصر الحلقة الأخيرة من هذا المخطط الشيعى الذى بدأ (بذرة وجذوراً) فى المغرب ثم (استوى على سوقه) فى العراق ثم (أثمر) البدوى فى مصر .

الحركة الشيعية السرية فى القرنين السادس والسابع

أولا : بذور الحركة الشيعية فى المغرب

(ا) ظروف المشرق السياسية فى القرنين السادس والسابع :

فتح القرن السادس عينيه على تطورات جديدة فى العراق والشام ومصر، وكان الشيعة على إدراك بهذه التطورات بحكم توزيعهم فى هذه المناطق وغيرها ، واستمرار الاتصال بينهم وترقبهم الدائم للاستفادة من كل جديد فى حربهم السرية والعلنية ضد الدولة العباسية .. وأبرز التحولات الجديدة فى القرن السادس ما يلى :

أولا : بالنسبة للدولة العباسية : كان يتحكم فيهم بنو بويه الديالمه وهم شيعة أرهقوا الخلفاء العباسيين بالقتل والعزل والسمل (أى إحراق العيون بالحديد المحمى) ثم حل السلاجقة محل البويهيين الديالمة ، ومع أن السلاجقة كانوا سنيين يدينون ببعض الولاء للخليفة العباسى (الزعيم الروحى للسنيين فى العالم الإسلامى ضد الشيعة الفاطميين فى مصر) إلا أن تحكمهم - أى السلاجقة - فى الخلفاء العباسيين استمر والنزاع بينهم اشتد ، وانتهى الأمر بتقلص نفوذ السلاجقة وأن يحكم الخليفة العباسى الناصر منفرداً إلا أن ضعف الدولة العباسية استعصى على العلاج وترتب عليه أن انتقلت مراكز التحكم والسيطرة والأضواء إلى الدولة الأيوبية التى قامت على أنقاض الدولة الفاطمية .

ثانياً : ولم يكن الفاطميون فى مصر بأسعد حالا فالخليفة الفاطمى ضعيف مقهور أمام سطوة الوزراء العظام بل إن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية تعانى انقساماً داخلياً حين انفصل عنها تيار الباطنية .

وينتمى (الباطنية) إلى الحسن بن الصباح الذى كان يؤيد الخليفة الفاطمى نزار بن المستنصر ، وقد قتل نزار فانفصل الحسن بن الصباح عن الدولة الفاطمية بأتباعه الذين عرفوا بأسماء شتى من الباطنية أو (الاسماعيلية) نسبة للعقيدة الاسماعيلية أو (النزارية) نسبة للخليفة الفاطمى نزار بن المستنصر الذى كانوا يؤيدونه أو (الحشيشة) نسبة لتعاطيهم الحشيش أو الملاحدة .. إلخ .

وقد تملك ابن الصباح قلعة (آلموت) وجمع الأنصار واتخذ من الاغتيال السياسى وسيلة للتخلص من خصومه من الحكام والعلماء والقواد ، وافزع الناس فى المنطقة بفدائييه المستميتين فى تنفيذ أوامره بالقتل مهما تكن الظروف ، وظل خطرهم ماثلا حتى قضى عليهم هولاكو سنة ٦٥٤ .

ثالثاً : ومع وجود ذلك الضعف فى الصف الشيعى فإن الشيعة ينتشرون فى كل صقع، إما بصورة علنية كالفاطميين فى مصر وفارس وإما فى صورة سرية كالتجمعات الشيعية فى المغرب وأفريقيا .. أو فى طوائف المتصوفه التى تتحمل التصوف وتميل للتجمعات الشيعية وتبتعد عن الخوانق الصوفيه الرسمية المتعاونة مع الحكام السنيين .

رابعاً : ثم حل بالمنطقة خطر جديد تمثل فى الحروب الصليبية التى كونت ممالك لها فى الرها وانطاكية وبنت المقدس سنة ٤٩٢ . وتوالت بعدها الحملات الصليبيه التى اتخذت لها مساراً جديداً تمثل فى الهجوم على مصر بعد أن أخذت على عاتقها فى الدولة الأيوبية الجهاد ضد الصليبيين ، ومع ضعف الحكام فى الدولة العباسية والسلاجقة والاضطراب الصليبى والمؤامرات بين صغار الحكام انشغل الحكام الأقوياء بمواجهة الخطر الصليبى كعماد الدين زنكي وإبنه نور الدين زنكى وتلميذه صلاح الدين الأيوبى ، وفى هذه

الظروف المتداخلة المتشعبة غرق الشيعه فى الشرق إما بالدفاع عن وجودهم المنهار كما فى مصر الفاطمية أو بتدبير مؤامرات القتل كما فعل الباطنية فى الشرق الفارسى ..

وفى هذه الظروف المتدهورة حيث صغار الحكام وظلمهم ومؤمراتهم والمذابح الصليبية انتشر التصوف بين العامة وحظى بمكانة بين الحكام والمحكومين ، إذ وجد فيه الحكام الظلمة المتنافسون وسيلة لتبرير الظلم واستجلاب الدعوات أو حرب الخصوم بينما وجد المظلومون فيه وسيلة للهروب من المظالم والحظوة لدى الحاكم والمحكوم .. ودنيا من الأحلام الوردية التى تعوض عجز الواقع وقسوته بالتحليق فى سماء أحلام اليقظة بالتصريف فى الكون بدعوى الكرامات والمنامات للهروب من واقع بائس لا سبيل للخلاص منه إلا بالخيال والأحلام .

وفى حين انشغل الشيعة فى الشرق بالأحداث الملتهبة وغرقوا فيها فإن شيعة المغرب توفر لهم قدر من الهدوء مكنهم من التفكير فى مخطط جديد واسع يشمل المنطقة بأسرها ليقوض العروش المزيلة التى تتعاقب على البلاد بشخصية قوية يتبعها الأبناء الضعاف، كالشأن فى الدولة الزنكية التى ورثت الدولة السلجوقية ثم الدولة الأيوبية التى ورثت الدولة الزنكية ، فالدولة السلجوقية قامت على أكتاف قادة عظام ومالبث أن وقع أبناؤهم فى الضعف والأختلاف فتمكن عماد الدين زنكى وهو أحد أتباعهم من أن يرث سلطانهم ، وبعد نور الدين زنكى كان الاختلاف بين الورثة من آل زنكى فتمكن التابع صلاح الدين الأيوبى من أن يستأثر دونهم بالدولة نضم إليه أملاك سادته آل زنكى ، وبعد موت صلاح الدين تنازع أبناؤه فورثهم أخوه العادل الأيوبى ثم وقع أبناء العادل فى خلاف وشقاق أضاع ما أكتسبه

صلاح الدين من انتصارات على الصليبيين . . وعظمت فائدة الصليبيين بهذا الخلاف الأيوبي فما كثروا من الحملات الصليبية وادخلوا أنفسهم فى تحالف بين الأمراء الأيوبيين .

لم يكن شيعة المغرب بعيدين عما يجرى على الساحة فى مصر والشرق . . بل إن بعدهم المناسب وعدم استغراقهم فى بؤرة الصراع فى الشرق مكنهم من تقييم الموقف بدقة فأدركوا أن المنطقة تحتاج إلى تخطيط جديد يعيد توحيدها فى ظل حكم شيعى يجدد شباب الدولة الفاطمية فى مصر الآخذة فى الذبول ويمنع عنها الموت الآتى لها حتما ويقيم صرح الخلافة الشيعية فى المشرق والعراق، ولن يكون ذلك إلا بالتستر بالتصوف الآخذ فى الانتشار فى المشرق على الخصوص ، وهم كأسلافهم أدرى بالتصوف واستغلاله، وهكذا ، ولدت الدعوة الشيعية المستترة بالتصوف فى المغرب واتجهت بنظرها المشرق . .

(ب) مدوسة المغرب :

وقد كان المغرب ـ ونقصد به غرب مصر إلى ساحل الأطلنطى ـ مسرح النشاط الشيعى، ففيه بدأت الدولة الفاطمية الشيعية على أساس المذهب الاسماعيلى وانتقلت إلى مصر مؤثرة فى المشرق ، ثم قامت فيه دولة الملثمين المرابطين ثم الموحدين . فقد كان من السهل أن تقوم فيه الدولة وأن تسقط أيضاً .. فالبربر رجال حرب بطبيعتهم، والحروب إحدى أنشطتهم الضرورية، وإذا كان الموحدون قد أقاموا دولتهم على أنقاض الملثمين فإن الموحدين من جانبهم خشوا من مجاورة الشيعة لهم فى بلادهم ، فبدأ الاضطهاد التقليدى يأخذ مجراه ولم تعد أفريقيا أمنا للشيعة .. فتحركوا عنها إلى مكة حيث الأمن والأمان .. وفى هجرة جماعية تحرك الشيعة من أرجاء المغرب وغيرها إلى مكة مستترين بالحج ليبدأ الإعداد للمخطط الجديد مستغلين الظروف الجديدة التى

أتى بها القرن السادس وأهمها التصوف التشيع وانهماك حكام المشرق إما في الحرب ضد الصليبيين أو ضد بعضهم البعض . وكان منطقيا أن يكون مسرح عملهم في المشرق الذي أتوا منه قبلا .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق في مجلة السياسة الأسبوعية أن الشيعة عقدوا مؤتمرا في مكة بحثوا فيه حال الأمصار وكيف تغلب عليها الأغراب من ترك وسلاجقة وأكراد وعملوا على قلب تلك العروش وإعادة الدولة الإسلامية علوية قرشية[1] .. ويقول : (وكان السيد على البدرى والد أحمد البدوى أحد أولئك العلويين الذين نزحوا من المغرب إلى مكة بقضهم وقضيضهم وبين أفرادها أحمد البدوى وهو لم يتجاوز الحادية عشر من عمره ، وكان نزوح السيد على البدرى إلى مكة عام ٦٠٣)[2] .

ويقول عبد الصمد في نفس الموضوع على طريقة الصوفية في المنامات (لما أذن للشريف على بن إبراهيم أن يسير إلى مكة أهله وأولاده ويخلى دوره وأملاكه بمدينة فاس بزقاق الحجر البلاط رأى هاتفا يقول له في منامه : يا على استيقظ من منامك ياغافل وكن بأهلك وأولادك إلى ناحية مكة راحل فإن لنا في ذلك سراً وترى من آياتنا عجباً ، قال الشريف على فاستيقظت من منامى وأنا في هيامى وأخبرت أهلى وأصحابى وذلك في ليلة الإثنين سنة ثلاث وستمائة وأصبحنا في ذلك اليوم مسافرين)[3] .

ويقول الحلبي أن والد البدوى انتقل إلى مكة سنة ٦٠٣ (وفى مكة أكرمهم الأشراف)[4] .

---

(١) و (٢) مجلة السياسة : ١٠ عدد ٨٩ (٣) الجواهر السنة : ١٦
(٤) النصيحة العلوية : مخطوط ورقه ١٧

وقيل فى نسب أحمد الرفاعى أن أباه هو على بن يحيى المكى المغربى[1] . أى هاجر جده من المغرب إلى مكة فاكتسب لقب المكى المغربى ، ويقول العيدروس أن جد أحمد الرفاعى الأعلى وهوالحسن رفاعة نزيل المغرب هاجر من مكة إلى المغرب سنة ٣١٧ وبقيت ذريته بالمغرب إلى عهد يحيى جد أحمد الرفاعى الذى عاد لمكة ، ومنها إلى العراق حيث سكن إبنه على (والد أحمد الرفاعى) أم عبيدة وأصهر إلى بنت يحيى البخارى فأولدها أحمد الرفاعى .

فأعمدة الحركة الشيعية الصوفية ينتمون لأصل مغربى هاجر إلى مكة حيث لا حرج فى التلاقى فى موسم الحج ثم توطن العراق وانطلق منها إلى بقية الأمصار وبخاصة مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية فيها .

وواضح أن المغرب ليس هدفاً فى حد ذاته يسعى الشيعة لإقامة الحكم الشيعى فيه ، فأساطين الدعوة السرية فى اضطهاد وأعين السلاطين الموحدين مسلطة عليهم وهم يعلمون طريقة الشيعة فى التستر بالتصوف والزهد وقد تعلموا أنفسهم هذه الطريقة فى إقامة الدولة الموحدة .

ولكن لا يعنى هذا أن يطرح المغرب جملة وتفصيلا من التخطيط الشيعى فلهم فى المغرب عصبية لا تزال قائمة وأتباع لا يزالون منتشرين أن عرف السلطان بعضهم فلن يعرف البعض الآخر .

وهكذا تمخض التخطيط الشيعى الصوفى على التركيز على المشرق فرحل إليه أساطين الدعوة بدعوى الحج وعقدوا مؤتمرهم السابق فى مكة الذى وضعوا فيه الخطط . وفى هذا الوقت تركز دور مدرسة المغرب ـ بعد رحيل الأعيان

---

(١) العيدروس : النجم الساعى فى مناقب القطب الرفاعى : ٧٥ ، طبقات الرفاعية لأبى الهدى الصيادى ٤ .

والكبار فى المساندة والتعضيد وكونه عمقاً للدعوة وقد تزعم هذا الدور فى المغرب أبو مدين الغوث ومدرسته .

(ج) مدرسه ابى مدين المغربية :

وأبو مدين وثيق الصلة بعبد القادر الجيلانى أحد أساطين الدعوة الشيعية الصوفية فى العراق ، ثم طوف بين (مكه) عصب التحرك الشيعى و (بجاية) و (فاس) فى المغرب وتتلمذ على أبى يعزى أحد كبار الصوفية المتشيعين فى فاس ، وقد وصف الشعرانى أبا يعزى بأنه (انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها وأعلام زهادها)[1] .

وبعد أن تم إعداد أبى مدين بين المغرب ومكة عاد إلى (بجاية) فاتخذ منها مركزاً بعيداً عن أنظار السلطات الحاكمة إلا أن العيون لاحقته وتعرض لكثير من الاضطهاد الذى هو سمة الدعاة المتخفين بالتصوف .

وتحاول الروايات الصوفية أن تطلق الدخان للتعمية عن الأسباب الحقيقية للاضطهاد المزمن الذى عانى منه أبو مدين طيلة حياته فى المغرب ، من ذلك ما يرويه تلميذه ابن عربى القائل (ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف فمررنا بالحية المحدقة به فقال لى البدل : سلم عليها فإنها سترد عليك السلام فسلمنا عليها فردت ثم قالت : من أى البلاد ؟ فقلنا : من بجاية . فقالت : ما حال إلى مدين مع أهلها ؟ فقلنا لها : يرمونه بالزندقة ، فقالت : عجبا والله لبنى آدم ..)[2] فابن عربى نسج هذه الأسطورة عن أحد الأبدال الصوفية وجبل قاف والحية المحيطة بجبل قاف ، ودفاع الحية عن أبى مدين وكل ذلك ليوحى بالأسلوب الصوفى إلى الظلم الذى يتعرض له أبو مدين،

---

(١) (٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٤ ، ١٣٣ .

ويحصر القضية فى اتهامه بالكفر وأنه مظلوم وأن أهل بجاية لا يقدرون أبا مدين حق قدره . . وإذا استغرق القارىء فى عصر ابن عربى فى هذه الأسطورة انمحى من ذهنه أى خاطر عن دعوة أبى مدين السياسية أو أنها السبب الحقيقى فى اضطهاده ، فالقارىء فى هذا العصر يتقبل بكل سهولة أى حديث عن جبل قاف والأبدال والحية المحيطة بقاف ، يأخذ هذه الخرافات مأخذ التسليم والاعتقاد ، وحينئذ فلن يتساءل لماذا يضطهد أبو مدين وحده مع أن كل الصوفية يحظون بالاحترام ؟

وفى القرن العاشر بعد أبى مدين بأربعة قرون حاول الشعرانى فى (الطبقات الكبرى) أن يتجاهل السبب الحقيقى فى اضطهاد أبى مدين فاخفق ، فالشعرانى يقول فى مقدمة كتابه (وأخرجوا أبا مدين من بجايه كما سيأتى فى ترجمته)[١] وحين نأتى إلى ترجمة أبى مدين نجد الشعرانى يحاول أن يرسم صورة وردية لاعتقال السلطات لأبى مدين فيذكر رواية ابن عربى السابقة ثم يقول (وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين (أى سلطان الموحدين) لما بلغه خبره أمر باحضاره من بجايه ليتبرك به فلما وصل إلى تلمسان قال : ومالنا وللسلطان ، الليلة نزور الاخوان ، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهد وقال : وعجلت إليك ربى لترضى ، وفاضت روحه)[٢] فهنا تناقص وقع فيه الشعرانى بين ذكره للاضطهاد الذى وقع على أبى مدين واعتقاله الأخير الذى مات فيه ، مع إن العبارات التى ذكرها الشعرانى نفسه تنبىء بالاضطهاد رغم أنف الشعرانى نفسه .. فهو يقول إن السلطان لما بلغه خبر أبى مدين (أمر باحضاره من بجاية لتبرك به) مع إن العادة أن السلطان

(١ و ٢) الطبقات الكبرى ١/ ١٤ ، ١٣٣

هو الذى يسعى للصوفى ليتبرك به لا أن يأمر باحضاره من مسافة بعيدة ، ثم يروى الشعرانى أن أبا مدين لم يكن راغباً فى السفر للسلطان معرضا عن هذه المهمة .. مع أن الشأن فى الصوفى أن يسعد بالصلة بالحكام ، ثم يختم الأسطورة بأن أبا مدين مات أو فضل الموت على لقاء السلطان ونطق بآية يفضل تلاوتها الثوار على الحكام حين الموت والاستقتال : آية (وعجلت إليك ربى لترضى) ..

وبعد موت أبى مدين سنة ٥٨٠ لم ينقطع الاضطهاد عن خليفته ابن بشيس فدفع ابن بشيس حياته ثمناً لتفانيه فى الدعوة ، فقد قتله ابن أبى الطواجن[1] ، ومع خطورة هذا الحدث فإن المصادر الصوفية تسكت عن الخوض فيه ، مع أن ابن بشيس هو شيخ الشاذلى وهو الذى أمره بالتوجه للأسكندرية لملء الفراغ فيها بعد موت أبى الفتح الواسطى مبعوث الرفاعى فى الأسكندرية كما سيأتى ..

ومع كثرة القلاقل والمحن التى تعرضت لها مدرسة أبى مدين فلم ينقطع دورها فى الاسهام فى تعضيد الحركة السرية فى المشرق .. فأبو مدين كان يؤازر الرفاعى ، وابن بشيس يعضد مدرسة الرفاعى ومبعوثيه فى مصر .. ثم أمر الشاذلى بالهجرة للأسكندرية ليكون فى خدمة البدوى الذى احتل مكانه فيما بعد فى طنطا ، وسنعرض لذلك فى أوانه ، إلا أن الدور الهام الذى قامت به مدرسة المغرب تمثل فى الدعاية لفكرة (المهدى المنتظر) الشيعية لتهيئة الأذهان وخلق جو عام يساعد على إنجاح المخطط الشيعى دون أن يضر به أو يكشفه ، وهذا ماقام به ابن عربى تلميذ أبى مدين ..

---

(١) الطبقات الكبرى ٦/٢ تعطير الأنفاس مخطوط ٢٣٤

(٥) مدرسة ابن عربى والدعاية للمهدى المنتظر :

نشأ ابن عربى فى الأندلس ثم تتلمذ لأبى مدين فى بجاية وقد عدد كثيراً من آرائه ومناقبه فى (الفتوحات المكية)[١] أكبر ما خلفه ابن عربى من كتب ، وبعد موت أبى مدين ذهب ابن عربى إلى (فاس) المركز الشيعى وتردد عليها حتى إن السلطان الموحدى يعقوب شك فيه وضاق به فتركها خشية أن يلحق به ما لحق بشيخه أبى مدين . ثم طوف ابن عربى بمراكز الدعوة الصوفية الشيعية فزار تونس حيث ابن بشيس ثم عرج إلى مكة بؤرة التحرك الشيعى الصوفى سنة ٥٩٨ فظل فيها عامين ، وكان منتظراً منه بعدها أن يذهب للعراق حيث المدرسة الرفاعية ثم انتقل بعدئذ إلى مصر فزار الأسكندرية وفيها مدرسة أبى الفتح الواسطى المبعوث من لدن الرفاعى . .

ونشاط ابن عربى جعل الشكوك تحيط به حيث الدولة الأيوبية تتخوف من الشيعة المستترين بالتصوف . . فيذكر أنهم سعوا به للسلطان العادل الأيوبى .. وقد سجل ابن عربى الكثير من نشاطه السابق فى كتابه الضخم (الفتوحات المكية)[٢] .

وأثناء تجوال ابن عربى كون مدرسة فلسفية تخلط التشيع بالتصوف وبهما تبث دعوتها للمهدى المنتظر الذى يخلص الناس من ظلم الحكام وضعفهم وتنازعهم وتقاعسهم وصغارهم أمام الغزو الصليبى المستمر.. وحاط ابن عربى آراءه تلك بالرمز الصوفى والتأويل الشيعى وحشا بذلك كتبه (عنقاء مغرب) و (شجرة الكون) ومواضع كثيرة فى (الفتوحات المكية) ..

---

(١) الفتوحات المكية : ١/٢٨٨ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٨٣٨

(٢) ١/٢٢٥ ، ٨٣٨ ، ٢/٢٠ ، ٢٤٢ - ٤/٧٠١

وفي حياة ابن عربي وبعد مماته استمرت مدرسته تردد آراءه الشيعية ، وأبرز أتباعه ابن سبعين وعفيف الدين التلمساني والقونوي وغيرهم ، وبهم وباتباعهم استمرت الدعاية الصوفية الشيعية تتردد حول الفاطمي المهدي المنتظر حتى بعد فشل الدعوة السياسية وتحولها إلى تصوف بحت إلى درجة أن ابن خلدون في القرن الثامن عقد فصلا في المقدمة بعنوان « في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه » وقرر في هذا الفصل بأن المتصوفة المتأخرين كابن عربي وابن سبعين وغيرهما تأثروا بمذهب الشيعة في الحلول والاتحاد وتأليه الأئمة الأولياء والقطب والأوتاد والامام والنقباء، ويقول (وامتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة — أي الشيعة — وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر ، وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض ، وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي المنتظر ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وعبد الحق بن سبعين)(١) أي أن ابن عربي مزج عقائد الفاطميين الاسماعيلية الشيعية بصبغه صوفية وكل ذلك للدعاية للفاطمي المنتظر وهي الفكرة السياسية التي يدعو إليها ، وأن (بعضهم يمليه عن بعض ويلقنه بعضهم عن بعض) . أي كانت لهم اجتماعات ولقاءات لبث الأفكار ونشر الدعاية ، وأن هذا النشاط استمر بعد ابن عربي نفسه بأكثر من قرن حتى استحق أن ينهض ابن خلدون للرد عليه ، وابن خلدون فقيه مغربي ينتمي لنفس الوطن الذي جاء منه ابن عربي والعفيف التلمساني وابو مدين ، ولابن خلدون تاريخ طويل في الشئون السياسية لإمارات الموحدين في المغرب والأندلس ، وله العلم الكافي بالنشاط الشيعي هناك بآثاره وجذوره ، وقد غلب ذلك على انتباهه فعمد للهجوم على ابن عربي والمدرسة المغربية واتهمهم بالحلول والاتحاد بل عمم الحكم فاتهم

(١) المقدمة ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

به كل المتصوفة المتأخرين وجعلهم من الشيعة المغالين ولم يستثن منهم أحداً، مع أن الحلاج سبق فى القرن الثالث بمقالة الحلول والاتحاد وكانت له آثاره الشيعية ، ولكن ابن خلدون المغربى الأصل والذى يعمل فى خدمة السلطة المملوكية فى مصر استغرق فى مواجهة الدعاية الشيعية التى استمرت طالما استمرت كتب ابن عربى بعد موته، وفى هذا الدليل على عمق التأثر بالدعاية السياسية التى قامت بها مدرسة أبى مدين ومدرسة أبى عربى وتلامذتهما .

وقبل أن نترك مدرسة المغرب ونتوجه للعراق نقرر أن الاتصال قائم ونشط بين دعاة المغرب والعراق إلى درجة أن القيادة موحدة ، والاتصال بينهما (أى المدرستين) على قدم وساق ، ومكة هى مكان اللقاء السنوى فى موعد الحج ، علاوة على ما يتيحه التصوف من حرية الحركة بدعوى الرحلة أو السياحة الصوفية أو أخذ العهد ، لذا لا نعجب إذا رأينا داعية كبيراً كابن بشيش زعيم المدرسة المغربية بعد أبى مدين يأخذ العهد على الشيخ برى العراقى[1] فى مدرسة أحمد الرفاعى ، ولا نعجب إذا رأينا ابن عربى فى قمة شهرته العلمية يذهب للعراق ليأخذ العهد على داعية مجهول فى المدرسة العراقية هو ابن سيدبونه الخزاعى تلميذ أحمد الرفاعى[2] .

فبالتظاهر بالسياحة والرحلة وأخذ العهد كان اللقاء يتم بين أساطين الدعوة فى العراق والمغرب ، وفى اللقاء يتم التخطيط وتبحث الظروف الجديدة فى أوانها ويبتكر الشيعة كل جديد من فنون التستر والرمز واستمالة الاتباع وتكوين الخلايا ، وتتوزع الأدوار وينتقل الاتباع من مكان إلى مكان وفق الخطط الموضوعة .

لقد كان أساطين الدعوة فى المغرب يذهبون للعراق فى نشاطهم المؤيد لمدرسة الرفاعى ، فإلى مدرسة الرفاعى نتجه ونتعرف .

---

(١) (٢) الطبقات الرفاعية ٢٧ .

ثانياً : شجرة الدعوة فى العراق

مدرسة أحمد الرفاعى

فى أم عبيدة ـ واسط ـ العراق

(أ) أم عبيدة :

١ ـ من عادة الشيعة المتصوفة اختيار المكان المناسب (الاستراتيجى) ليكون مركزا لدعوتهم السرية .. وقد كانت مدن العراق الشهيرة تموج بالفتن السياسية وشغب العيارين ـ أو أهل الفتوة من أصحاب الحرف ـ مع سطوة اللصوص والصراع الذى لا يهدأ بين السكان الشيعة والسنة ، والحنابلة والمعتزلة ، و زيد فى ذلك كله الاغتيالات المستمرة التى يقوم بها أتباع أبى الحسن الصباح الباطنى وقد شملت هذه المؤامرات خصومه من العلماء والوزراء والحكام .

وقد وقع اختيار العلويين على منطقة واسط وهى مع شهرتها القديمة منذ الدولة الأموية فقد تمتعت بهدوء وسكون حرمت منة بغداد وما يليها من مدن .. ومع ذلك فإن (واسط) تتميز بموقع (وسط) بين البصرة والكوفة وقريب إلى حد معقول من العاصمة بغداد .

ولم تكن مدينة واسط هى المركز الأساسى للدعوة السرية بل اكتفى الشيعة بتواجد بعضهم فيها وظهورهم فيها كواجهة ترقب الأحداث من موقع متقدم بينما تركزت الدعوة السرية فى قرية (أم عبيدة) وفيها عصبية الشيعة وتجمعهم وقرابتهم بحيث لا ينفذ إلى هذه القرية غريب إلا بعلمهم وتحت أنظارهم ، فإذا استطاع أن يمر من (واسط) وفيها الواجهة الشيعية فلن يمكنه التخفى فى (أم عبيدة) .

والصوفية العاديون فى الأغلب يميلون لمجاورة الحاكم والمدن الشهيرة ، أما إذا تعلق الأمر بدعوة سرية فالاقتراب من الحاكم لا يكون إلا بالعيون والواجهات الشهيرة من الأعلام المرموقين ، أما مركز الدعوة فلابد أن يتخير موقعاً (استراتيجياً) سهل الاتصال هادئاً ساكناً تتركز فيه العصبية أو القرابة ، وينطبق ذلك على (أم عبيدة) ثم (طنطا) فيما بعد .

ولقد أمر أحمد الرفاعى ــ حين تلقى العهد ــ بالمقام فى أم عبيدة ــ وفيها أخواله بنو النجار (وفيها رواقهم المبارك المدفون فيه جدالسيد أحمدالرفاعى لامه الشيخ يحيي البخارى الأنصارى والد الشيخ منصور)[١] .

(ب) نشأة الرفاعى واعداده :

وأحمد الرفاعى (٥١٢ ــ ٥٧٨) توفى أبوه وهو جنين أو طفل فى السابعة على اختلاف الروايات فكفله خاله منصور البطائحى الأنصارى وتنفيذاً لرؤيا منامية نقله خاله إلى واسط ، وفيها أخذ التصوف وأصول الدعوة على يد أبى الفضل الواسطى مع رعاية خاله الأكبر أبى بكر الواسطى شقيق أمه واستغرقت هذه المرحلة عشرين عاماً[٢] .

وأبو الفضل الواسطى ــ شيخ أحمد الرفاعى ــ هو ما يعرف فى مصادر أخرى باسم ابن القارىء[٣] وكان من أعيان الشيعة الصوفية وكانوا يدققون فى اختيار من يتتلمذ على يديه يقول صاحب طبقات الرفاعية (وكان السيد أحمد رضى الله عنه قد أكمل قراءة القرآن العظيم حفظا بقرية (حسن) على الشيخ الورع المقرى الصالح عبد السميع الحربونى ، فلما صار فى كنف خاله أخذه إلى واسط بأمر سبق له من النبى ﷺ فى منامه وأدخله على الإمام

(١) أبو الهدى الصيادى . طبقات الرفاعيه ٦ (٢) نفس المرجع : ٥
(٣) البكرى : تراجم صوفيه . مخطوط ورقه ٢١ .

العلامة المقرى الحجة الشيخ على أبى الفضل الواسطى قدس سره فتولى أمر تربيته وتعليمه وتأديبه امتثالا للأمر النبوى)[١] .

وفى نفس الوقت كان الرفاعى يتمتع برعاية خاله الأكبر أبى بكر الواسطى ويلازم درسه (وهو المشار إليه فى وقته بين الشيوخ والعلماء)، (وكان مع اشتغاله بالدروس والتعليم ملازماً خدمه خاله سلطان الرجال الشيخ منصور)[٢]. وواضح أن أبناء يحيى البخارى (أبوبكر ومنصور) قد توليا معاً مهمة الدعوة فى هذه الفترة فأشرف (سلطان الرجال الشيخ منصور) على الإشراف الإدارى وكان صاحب الخرقة بيما تمكن أخوه الأكبر أبو بكر بما أوتى من علم أن يهيمن على الإعداد العلمى للدعاة، وقد حظى ابن أختهما - أحمد الرفاعى - برعايتهما معاً فكان يلازم درس خاله أبى بكر ويلتزم بخدمه خاله منصور ويحضر مجالسه وطريقته فى الإشراف على الدعوة.

ويذكر العيدروس شيخاً آخر لأحمد الرفاعى هو أبو الليث الحرانى (وكان معروفاً بالصلاح والتقوى بين الناس وكان والده أمير حران فترك طريق الإمارة التى كانت شأن والده وتبع طريق الفقر)[٣] ورائحة السياسة واضحة فى أبى الليث الحرانى هذا. فلو صح أن أباه كان أميراً لحران فإن الاضطراب السياسى وكان السائد فى هذه الآونة كفيل بأن يثبت لأبى الليث أن حصوله على ملك أبيه لا يكون إلا بالغلبة وهى عنه بعيدة فليس أمامه بعدها إلا التصوف الشيعى فلعل وعسى.

والزهد والتصوف كانا دائماً يعبران عن رغبة دفينة فى النفس لاسترجاع

---

(١) طبقات الرفاعيه : ٥ (٢) نفس المرجع : ٥، ٦

(٣) النجم الساعى : ١٣٠

ملك ضائع أوجاه بائدأو كتعبير عن النقص الذى يحس به المحكوم الطموح للحكم ، ولذا فان الصوفية لهم دولتهم الباطنية المستمدة عن أخيلة الشيعة والقائمة على القطب وأعوانه ، وذلك تعبير عما يعتمل فى نفوسهم من رغبة مدفونة فى التحكم والسيطرة لم تجد لها مجالا إلا فى أحلام اليقظة وفى التحكم فى المريدين والأتباع .

ونعود لأحمد الرفاعى ، وقد بز أقرانه (ولا زال يعظم أمره وينمو علمه حتى تفرد فى زمانه)(١) .

فأجازه شيخه ابن القارىء (اجازة عامة بجميع علوم الشريعة والطريقة فلما بلغ هذه المرتبة العلية أجازه خاله الشيخ منصور وألبسه خرقته وأمره بالمقام فى أم عبيدة)(٢) .

(جـ) تولى الرفاعى المشيخة :

يلفت النظر أن وراثة الطريق الصوفى العادى تكون دائما للابن ، ولو كان منصور البطائحى صوفياً عادياً لخص إبنه بالخرقة كما هو الشأن فى الطرق الصوفية ، إلا أننا هنا أمام مسئولية ضخمة لا يستطيع تحملها إلا الكفء ، ولسنا أمام صوفية عاديين حياتهم الولائم والجاه بين الخلق ويحرصون على أن يرث أبناؤهم النعيم الذى يرتعون فيه .

ثم إن الاختيار دقيق بين شباب الشيعة الصوفية وقد أثبت الرفاعى جدارته فى الطريقين : (الشيعى العلمى) باجازة شيخه ابن القارىء أجازة عامة و (العملى) حين أثبت لخاله منصور شيخ الخرقة مهارته وهو يلازمه خادماً يتعرف على أسلوبه فى إدارة الدعوة والسيطرة على الأتباع .

وقد عهد منصور البطائحى لإبن أخته أحمد وعين له قرية أم عبيدة مركزاً

---

(١) (٢) طبقات الرفاعيه ٥ ، ٦ .

جديداً للدعوة وفيها أسرة منصور وعصبيته وكانت وفاة منصور في عام ٥٤٠ . وقد عهد للرفاعي بالمشيخة قبل موته بعام ، مما يدلنا على ثقته في كفاءة ابن أخته أو لعله أراد أن يستوثق من هذه الكفاءة وهو حي يرزق ، وربما تدهورت صحته في العام الأخير لحياته فعهد للرفاعي بأعباء المسئولية تحت رعايته ونظره ، وكان للرفاعي وقتها ثمان وعشرون سنة شاباً فتياً ، وكان ذلك في زمن الخليفة المقتفي العباسي[1] .

والمصادر الصوفية المتأخرة واجهت مشكلة العهد بالخرقة للرفاعي من خاله باضفاء المزيد من الكرامات والخصوصيات على الرفاعي لتبرر اختياره من دون أبناء خاله .

يقول العيدروس أنه كان لمنصور البطائحي خال أحمد الرفاعي ولدان (وكان تقيد سيدي منصور بسيدي أحمد ولد أخته أكثر من تقيده بولديه ، وكان مراد الشيخ منصور أن يجعل سيدي أحمد قائماً مقامه في السجادة فيكون شيخ الشيوخ أيضاً . فقال له أولاده وبعض محبيه : أن ميراث الأب لا يكون إلا للابن ولا يكون لابن الأخت فقال لهم الشيخ إني رأيت منه شيئاً اقتضى ذلك) وقص كرامة كان النخيل يسبح فيها بحمد الله أمام الرفاعي[2] ، وردد الشعراني ذلك في ترجمته للرفاعي وزاد فجعل منصور البطائحي يقوم إجلالا للرفاعي وهو جنين في بطن أمه[3] .

والمهم أن الرفاعي عهد إليه خاله (قبل وفاته بمشيخة الشيوخ والأورقة المباركة ، فتصدر على سجادة الارشاد العام)[4] . وكان الرفاعي عند حسن

---

(١) طبقات الرفاعية . ٦ (٢) النجم الساعي : ١٤ .

(٣) الطبقات الكبرى ١/١١٥ ، ١١٦ . (٤) طبقات الرفاعية : ٦ .

الظن به وأثبت أن ما تعلمه على يد ابن القارىء وما خبره من أسلوب خاله حين خدمه عشرين عاما لم يذهب هباء .

(د) تضخم اتباع الرفاعي :

نجح الرفاعي في استغلال التصوف فكثر أتباعه وزادت شهرته (وشاع إسمه ورسمه في آفاق الدنيا وكان كل من رآه يعتقد فيه بالقلب)[١] ، (وتتلمذ له خلائق لا يحصون في كل بلد وقطر منهم الرائحة والأكابر والأعيان ولم يكن في مدن المسلمين مكان يخلو من زاوية أو موضع برسمهم)[٢] .

وقد رددت المصادر التاريخية والصوفية كثرة أتباع الرفاعي وقد جمعها أبو الهدى الصيادي في كتابه طبقات الرفاعية يقول (قال الحافظ تقى الدين الواسطي في كتابه ترياق المحبين ما ملخصه : أحصيت الرقاع التي وردت للسيد أحمد الرفاعي في السنة السابعة من تصدره على بساط المشيخة بعد خاله الشيخ منصور فبلغت سبعمائة ألف رقعة كلها من مريديه ، وذكر الإمام ابن الجوزي في تاريخه أنه كان عند السيد أحمد ليلة نصف شعبان وعنده أكثر من مائة ألف إنسان من الزائرين وذكر الإمام الشعراني في طبقاته والمناوى في الكواكب الدرية إن مريدى سيدنا السيد أحمد الذين يحضرون مجلس درسه وورده المعارك كل يوم في رواقه العالي ستة عشر ألفاً يمدلهم السماط صباحاً ومساءاً . وقال العلامة ابن الأثير في تاريخه إن له من التلامذة مالا يحصى ومثله قال القاضي الوليد بن الشحنة وقال الإمام الذهبي فى مختصره وفى كتابه دول الإسلام أن أتباعه لا يحصى عددهم وقال شمس الدين أبو المظفر

---

(١) النجم الساعى ١٥ (٢) البكرى : تراجم صوفية ٢٣

فى تاريخه إنه كان يجتمع عنده كل سنة فى الموسم خلق عظيم لا يحصى عددهم وقال الواسطى فى خلاصة الأكسير : كان رجال العصر يسمون السيد أحمد الرفاعى قبلة القلوب لشدة ارتباط قلوب الناس به ومحبتهم له)[٣].

ولا ريب أن الرفاعى استفاد من إنتشار التصوف منذ بداية القرن السادس ، وقد أصبح قبلة الجماهير فيما يعقده من مواسم وما ينصبه من ولائم، والعامة هم سدنة الصوفية وبهم انتشر التصوف وتكاثر عدداً ..

على أن الواجهة الصوفية لم تشغل الرفاعى عن هدفه الشيعى السياسى فكان له أتباع زرعهم فى الأمصار كانوا فيها الأئمة والكبار والأعيان ولم يكن فى مدن المسلمين على حد قول البكرى مكان يخلو من زاوية رفاعية ، ولابد للرفاعى أن يصطفى من هذه الجماهير المحتشدة خلاصة من المريدين والمبعوثين ولا بد أن تكون له سياسة محددة مع أتباعه وخصومه .. وشأن من له هذه الشهرة ألا يخلو من خصوم خصوصاً إذا كان صاحب دعوة سرية فى موطن الخلافة العباسية .. وهذا ما سنفصله ..

(هـ) سياسة الرفاعى :

كان له من المرونة الكافية فى التعامل بما يمكنه من تغيير سياسته حسب الظروف فالرفاعى مع أتباعه حازم جاد صارم ومع خصومه مداهن متخاشع حتى يكسبهم إلى صفه ويضمن اعتقادهم فيه وحينئذ يظهر له بحزمه وصرامته مع شديد التحرز والاحتياط من الأتباع والأعداء على السواء .

يقول العيدروس (روى عن الشيخ يحيى قال : ما رؤى الشيخ الكبير

---

(١) طبقات الرفاعية ٧ ، ونحو ذلك ص ٨ ، ١٤ ، ١٨ - وانظر الطبقات الكبرى للشعرانى ١٢١/١ وتاريخ ابن الأثير ٢٢٢/١١

وهو يأكل الطعام ولا هو نائم ، وما كان أحد يعرف مكان نومه ، ولا مزح مع أحد ولا مازحه أحد ، وما كان يتكلم من غير سبب ولا موجب ، وما كان أحد يقدر أن يتكلم معه أو يكلمه من غير سبب لما كان عنده وعليه من الجلالة والمهابة ، وإذا استدعى أحداً يمشى إليه لأمر فكان يتقيد ذلك الواحد بالشيخ من ساعته ويحرص على السير معه بالأدب فلا ينطق بقليل الكلام ولا بكثيره إلا بإذن)[١] .

ووصفه خليفته عز الدين الصياد بأنه (كان قليل الضحك ذا هيبة عظيمة لا يتمكن جليسه من إباحة النظر إليه)[٢] . وكان يتعهد مريديه بالحزم الزائد وقد سمع فى الرواق بعضهم يضحك فأرسل يقول لهم (إن كنتم اقتديتم بأحمد الرفاعى فإن أحمد الرفاعى لا يضحك)[٣] .. ويبدو أنه أنشأ مريديه على نوع من الاستعداد العسكرى فى الصحارى والبرارى المحيطة بواسط تحسباً لأى طارىء ، يفهم ذلك من قول العيدروس (ونقل عن سيدى كنز العارفين قال : من عادة الفقراء أن خيولهم كلها سائبة فى الصحارى والبرارى مجردات من آلاتها وعددها فإذا أراد أحد التوجه إلى جانب أحضروها وأسرجوها وساروا عليها ، إلا الشيخ مجرد الأكبر فإن حصانه كان دائماً معداً متهيئاً للركوب مسروجاً ملجوماً وصاحبه مجرد يلقب عندهم بفارس ميدان التوحيد وغازى الفقراء)[٤] ، وقد كان (مجرد) هذا ملازماً للرفاعى لم يرسله إلى مصر من الأمصار ، ويتردد فى كرامة صوفية[٥] أنه أنقذ مريداً رفاعياً فى طريق الحج استغاث بالرفاعى فسمع مجرد صوته ، وكان الرفاعى

---

(١) النجم الساعى ٤٦ — (٢) طبقات الرفاعية ٧

(٣) النجم الساعى ٧٢ — (٢) نفس المرجع ٥٦

(٥) نفس المرجع ١٦ : ١٧

نائماً فى الخلوة ـ فأنقذه ، ويوحى ذلك بأن مجرد الأكبر ـ واسمه يدل على تجرده للحرب والقتال ـ كان يتولى الجانب الحربى حماية للفقراء الأحمدية الرفاعية وفرسه جاهز على أهبة الاستعداد لأى طارىء ، وإذا نام الرفاعى فهو لا ينام ..

ولم يكن لشهرة الرفاعى التى ملأت العراق أن تنجو من حسد الفقهاء وهم أعوان السلاجقة ، وأولئك خفض لهم الرفاعى جناح الذل سياسة ونفاقاً ليستميلهم وقد نجح .. يقول العيدروس « وحكى أن علماء بغداد وجميع أئمة العراق كانوا يحسدون السيد الكبير لأنهم علموا زيادة رفعته وأن تزايدها فى كل يوم وكل عصر وانتشار صيته لا ينقطع فكاد يهلكهم الحسد وعجزوا عن الصبر عنه وشرعوا معه فى كلام السفاهة فكان السيد إذا سفهوا عليه يدعو لهم بالخير ويكلمهم بالكلام الطيب ، ومع أذيتهم له وشدتها يعاملهم بالإحسان ويرتب لهم الوظائف ، وإذا لقيهم بطريق يتواضع لهم غاية التواضع فلما رأوا منه ما رأوا من هذه الأخلاق الحميدة عملوا معه التواضع الزائد وصاروا يرعونه مراعاة تامة ورجعوا أجمعين مريدين ومعتقدين واعترفوا بالحق وأوصوا أولادهم وأهلهم وأتباعهم باتباع السيد الكبير وصاروا من مريديه »[١].

ويذكر الشعرانى أن بعضهم لقى الرفاعى فسبوه « وقالوا له يا أعور يا دجال يا من يستحل المحرمات يا من يبدل القرآن يا ملحد يا كلب فكشف سيدى أحمد رأسه وقبل الأرض وقال : يا أسيادى اجعلوا عبدكم فى حل وصار يقبل أيديهم وأرجلهم ويقول ارضوا عنى وحلكم يسعنى . . وأرسل إليه الشيخ إبراهيم السبتى كتاباً يحط عليه فيه .. فإذا فيه : أى أعور أى

---

(١) النجم الساعى ٥٢

دجال أنى مبتدع يا من تجمع بين الرجال والنساء حتى ذكر الكلب وابن الكلب وذكر أشياء تغيظ ، فقال الرسول اكتب إليه الجواب : من هذا اللائق حميد إلى سيدى الشيخ إبراهيم السبتى أما قولك الذى ذكرته فإن الله تعالى خلقنى كما يشاء ، وأنى أريد من صدقاتك أن تدعو لى . . فلما وصل الكتاب إلى السبتى هام على وجهه .. وكان لسيدى أحمد شخص ينكر عليه وينقصه فى نواحى أم عبيدة فكان كلما لقى فقيراً من جماعة سيدى أحمد يقول له خذ هذا الكتاب إلى شيخك فيفتحه سيدى أحمد فيجد فيه : أى ملحد أى باطلى أى زنديق وأمثال ذلك من الكلام القبيح . . فلما طال الأمر على ذلك الرجل وعجز عن سيدى أحمد مضى إليه فلما قرب أم عبيدة كشف رأسه وأخذ مئزره وجعله فى وسطه وأمسكه إنسان وجعل يقوده حتى دخل على سيدى أحمد . ثم طلب منه أخذ العهد فأخذه عليه وصار من جملة أصحابه إلى أن مات)[1] ويبدو مما سبق أن أم عبيدة قد صارت فى عهد الرفاعى حصناً له ولأنصاره لا يمكن لمنكر عليه أن يدخلها إلا مستسلماً . .

(و) الرفاعى والخلافة العباسية :

عاصر تولى الرفاعى المشيخة سنة ٥٤٠ بداية خلافة المقتفى العباسى . . وقد كان زاهدا أشيع أنه رأى الرسول عليه السلام فى المنام يأمره باقتفاء أمر الله فلقب بالمقتفى لذلك ، وقد وصف بالنسك والعبادة وقاسى الكثير من تسلط مسعود السلجوقى المتغلب على بغداد وقد أكثر من الاساءة إليه فلم يجد الخليفة طريقا للتغلب عليه إلا بأن يتفق مع أصحابه بالدعاء عليه شهراً وفى سرية ، ويقال أن مسعود السلجوقى مات بعد تمام هذا الشهر سنة ٥٤٧ فتمتع الخليفة ببعض النفوذ ، استخدمه فى إقامة العدل وفعل الخير[2] .

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١٢٤ (٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٦٩٦ : ١٠٧

ولا ريب أن الرفاعى استفاد بوجود المقتفى كخليفة ناسك محب لمن يتظاهر بالزهد والعبادة ، ويتضح ذلك من الصورة الصوفية التى غلف بها تاريخ المقتفى ، فمن طريق المنامات كان تعليل تلقبه بالمقتفى ، مع أن لقب المقتفى كالمهتدى والمتقى والمسترشد والراشد والطائع والمطيع وكلها مترادفات سمى بها الخلفاء العباسيون قبل المقتفى ولم يحظ أحدهم بمنام للرسول ﷺ يزكى توليه وتلقبه .. ثم كان تفسير موت السلطان مسعود السلجوق خصم المقتفى بما يوحى بالكرامة الصوفية وأنه كان استجابة لحلقة مركزة من الدعاء عليه تمت سراً وكان فيها موته ، فالمقتفى قريب من الصوفية ومنطقى أن يعظم استفادة الرفاعى بوجوده فيكثر أتباعه وتنهال عليه رقاع المريدين دون تدخل من الخليفة الناسك .

بل أن تلك الهداية الموفقة للرفاعى مع خلافة المقتفى استمرت بعد موت المقتفى وتولى إبنه المستنجد سنة ٥٥٥ ، وفى هذه السنة حج الرفاعى وأشيع أنه قبل يد الرسول ﷺ وسارت الركبان بذكر ذلك وكيف أن اليد الشريفة خرجت من الضريح ، واستثمرت الدعاية الشيعية الصوفية هذه الاشاعة فى اجتذاب الأنصار فبدأت تصل إلى أسماع الخليفة الجديد الصورة التى أرادها الشيعة ، وكان الخليفة المستنجد كأبيه المقتفى موصوفا بالعدل والرفق والفضل[1] فلم يكن عائقاً أمام مدرسة الرفاعى بل على العكس ورد فى مناقب الرفاعى ما يفيد أن المستنجد أرسل للرفاعى يطلب منه النصح فوعظه[2] .

ومات المستنجد سنة ٥٦٦ وتولى إبنه المستضىء ، وفى عهده أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية وأعاد مصر للخلافة العباسية وخطب فيها للمستضىء

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٧٠٤ . (٢) البكرى . تراجم صوفية ٢٤

بأمر الله سنة ٥٦٧ ، واعتبر ذلك نصراً على الشيعة أدى لصدام بين طوائف الشيعة والسنة فى بغداد واشتعل الصدام بين الكرخ – حى الشيعة فى بغداد – والبصرة وهم سنيون وأيد الخليفة البصريين ، ونشط الباطنية فى عمليات الاغتيال فهاجمهم صلاح الدين فى حصنهم ألموت ، وحدث صدام فى مكة بين أميرها الشيعى ومقدم الحجاج السلجوقى فعزل أمير مكة(١) .

وفى غمرة هذا الاضطراب وتتبع الشيعة وشى بالرفاعى لدى المستضىء فأرسل حاجبه عماد الدين الزنجى وهو من واسط ليستطلع حقيقة الرفاعى وتمكن الرفاعى من استمالة الزنجى فصار من أصحابه ، وصورت كتب المناقب هذا الحدث بما تعودت من اضفاء الكرامات والكشف(٢) ، وتصور كتب المناقب أن عماد الدين الزنجى أحرز مكانة رفيعة لدى الرفاعى (وقد حصل بخدمه السيد الكبير مقاماً جليلا حتى صار خليفة الخلفاء)(٣) ، ولا يستبعد أن يكون عماد الدين الزنجى وهو سياسى عباسى مدرك للاضطراب الذى يحيق بالخلافة العباسية – طامعاً فى جاه مرتقب فى ظل الدعوة الجديدة وتصور ذلك كتب المناقب فتروى أن الشيخ الزنجى (طلب من سيدى أحمد الرفاعى ملكا يتصرف فيه فقال له سيدى أحمد : أعلم أن ملك العرب والعجم نصفه لنا من إحسان الله تعالى ونصفه الآخر لسائر المشايخ ولكن أنا قد وهبت لك قيراطا ونصف قيراط يازنجى)(٤) .

وماتت المستضىء وتولى إبنه الناصر العباسى ٥٧٥ ﻫ ، واستمر يحكم سبعا وأربعين سنة ، وعرف الناصر بالسطوة والدهاء والتفنن فى المكائد

---

(١) تاريخ ابن الأثير ١١/١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ١٩٧
(٢) النجم الساعى ١٧ : ١٩
(٣) (٤) النجم الساعى ١٧ : ١٩ ، ٣٠

والتجسس ، وكان منتظراً أن ينال الرفاعى منه ضرر كبير لولا أن الناصر كان يتشيع على مذهب الإمامية ، ولم يعش الرفاعى كثيراً فى خلافة الناصر فمات ٥٧٨ أى بعد ثلاث سنوات من توليه الخلافة بينما ظل الناصر حتى توفى سنة ٦٢٢[1] .

وما كان الناصر ليثك فى أحمد الرفاعى الذى ظل نحو أربعين عاماً علماً صوفياً شهيراً يرحل إليه الآلاف مجمعين على زهده ونسكه ، وقد ولد الناصر قبيل تولى الرفاعية المشيخة أى أنه نشأ على شهرة الرفاعى ورأى جده المستنجد يطلب منه النصح والوعظ ، حتى إذا تولى الناصر كانت شهرة الرفاعى قد طبقت الآفاق إلى درجة أنه بعد تولى الناصر الخلافة بعامين وقبل موت الرفاعى بعام أى فى سنة ٥٧٧ فى الثالث من رجب جلس الرفاعى على كرسيه وفى رواقه خمسة آلاف من أنصاره بأيديهم المحابر يكتبون ما يقول ، وبعد خطابه ووعظه ازدحموا عليه يتلقون العهد « حتى عجزنا عن أن نحصيهم لكثرتهم واستمر تلقين العهد إلى نصف تلك الليلة السعيدة »[2] .

وحين احتضر الرفاعى و (انقطع أمل الناس منه غصت صحراء واسط بالوفود وضربت الاخصاص حول أم عبيدة للوفود وبلغ عدة من صلى عليه وشهد مشهده تسعمائة ألف من الرجال وستمائة ألف من النساء ذوات القناع غير الأطفال وكان يوماً مشهوداً)[3] .

مات الرفاعى وقد جعل من (أم عبيدة) القرية المجهولة كعبة لأنصاره وأتباعه ومركزاً للتشيع الصوفى يتخرج فيها أساطين الدعاة ممن يتوسمون

(١) تاريخ ابن الأثير ٢٠٢/١٢ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ٧١٣ ، ٧١٧ .
(٢) طبقات الرفاعية ١٤ ، ١٨ (٣) نفس المرجع ٢٢

فيهم الكفاءة لأن يبعثوا إليها .. وفيما بعد أرسل البدوى لأم عبيدة وعندما أشرف على خيامها وأعلامها قال لأخيه حسن « يا أخى كأن هذا ملك من بعض ملوك العرب نزل فى هذا المكان ونشر أعلامه »[١] .

لقد أحسن الرفاعى فى سياسته مع مريديه فكانوا طوع بنانه ، وأحسن سياسته مع خصومه فصاروا من جملة أعوانه ، وأحسن سياسته مع العباسيين وجماهير العراق فأعظموا من قدره وشأنه ..

ولم تدر تلك الجماهير المحتشدة أنه يخفى خلف تصوفه حركة منظمة دقيقة ، ولم يعرف العباسيون أن ذلك الزاهد الصوفى المتخاشع هو القائل « الميل إلى الحكام يستعبد العبد من الله عز وجل والرجوع إليهم كالرجوع إلى النار ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »[٢] ولم يعرف العباسيون أن طموح الرفاعى السياسى جعله يتنبأ بقرب تحقيق أمله فى قيام حكم شيعى بالفاطمى المنتظر . يقول الرفاعى « أن رسول الله ﷺ فتح باب الارشاد وسلمه إلى ولقد قال ﷺ أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها . واليوم ظهور دولة الرفاعية وطريقتها المرتضوية العلوية[٣] »

ثم لم يعرف الجميع من عامة وحكام بأمر البعوث التى كانت تفد للرفاعى ويرسلها إلى الشرق والشمال والشمال الشرقى ..

(ز) بعوث الرفاعى للشرق :

يقول العيدروس « ونقل أنه كان من جملة عبيد سيدى أحمد الرفاعى ومحبيه سيدى محمود الحيرانى الرومى وكان من قصته أنه كان فى عصر

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ٥٢ : ٥٣

(٢) النجم الساعى ٦٨ (٣) نفس المرجع ٧٣

الشيخ .. وكان أميراً كبيراً حاكماً جليلا متعيناً مشهوراً : فلما شاع ذكر الشيخ فى الآفاق ، وكان من جملة من سمع طيب أثره سيدى محمود الحيرانى هذا فعشقته أذنه على السماع واشتد حبه للشيخ .. فعزم على زيارته والتوجه إليه فترك الديار والعشيرة والأمارة والحكومات وما كان فيه من التخول فى النعيم والمباهاة .. وسار إلى الشيخ ، وأخذ عليه العهد ولزم خدمة أعتابه إثنى عشر سنة ، ثم أذن له الشيخ فى السفر فتوادع معه فى أم عبيدة ، وتوجه إلى الروم من حيث أتى ، فلما وصل البلاد فوافى محلا وهو سائر فرأى جماعة جالسين فى الحضرة يتحادثون وكان منهم شخص يسمى « صارى صاليق » أمين ملك الروم فلما أن وقع بصره على سيدى محمود الحيرانى وهو مار بهم قام إليه من بين الجماعة واستقبله وصافحه ، قال سيدى محمود : افتح فمك ففتحه فوضع يده عليه فصار بذلك « صارى صاليق » حيران سكران ، لأن نفس سيدى محمود الحيرانى نفس سيدى أحمد الرفاعى ، وصار صارى فى بلاد الروم من أهل التسليك وبه يحصل الفتح للمريدين ، كل ذلك من بركة السيد الكبير سيدى أحمد الرفاعى ، وبقى سيدى محمود الحيرانى فى بلاد الروم قاطنا شهراً ، وسار (صاليق) بنواحى بلاد الافرنج ، ونقل أن شخصاً يدعى (براق) كان من أكابر الروم فلما سمع بأخبار الشيخ الحسنة أعنى سيدى أحمد الرفاعى عزم على زيارته وتوجه من الروم وسار إلى أن وصل إلى سيدى أحمد الكبير فاندرج فى سلك خدمته اثنى عشر سنة خدمه خالصة بالقلب .. فعند ذلك نظر إليه الشيخ بعين الرحمة والعطف وأذن له فى التوجه إلى بلاده معمراً مسلكا ، فامتثل أمر الشيخ فقبل يديه ورجليه واستأذنه فى السفر فأجازه وأذن له فيه وتوجه إلى بلاده . ونقل أن من جملة من وفد على سيدى أحمد الرفاعى الشيخ أحمد اليسوى ، جاء إلى خدمة

الشيخ ومعه من المريدين أربعمائة درويش ، وألبسه سيدى أحمد الرفاعى خرقة الفقر وصار من بعض مريديه ، وجعله من جملة الخلفاء المتعينين وأذن له فى السفر وعينه هو وتلامذته فى نواحى التركستان فامتثل أمر الشيخ وأخذ خاطره هو ومريديه وتوجهوا إلى الأماكن التى أشار إليها الشيخ فلما أن وصلوا إليها تعطرت بأنفاسهم بقاعها .. ووصلت عدة تلامذة الشيخ اليسوى ومريديه نحو التسعين ألفا وصار صاحب الوسم والرسم فى ذلك العصر بتلك الأقاليم ، وكل ذلك ببركة سيدى أحمد الرفاعى .

ونقل أن الشيخ أبا بدر العاقولى سار إلى خدمة سيدى أحمد الرفاعى فى بعض دراويشه من أطراف بلاد واسط يريد زيارة السيد الكبير واجتمع به وتقيد هو ومن كان معه من الدراويش بخدمة الشيخ مدة طويلة .. وأمرهم الشيخ بالسير إلى بلادهم فتوجهوا إليها وصاروا من أهل الإشارة والتسليك ، ونقل إن الشيخ مسعود كان من أبدال الأتراك وقد اشتد شوقه وحبه للشيخ السيد أحمد الرفاعى فجاء إليه حافياً عرياناً قاصداً خدمة عقبه الشيخ ، ولازم الشيخ أربعين يوماً وبايعه .. وصار مريداً معتقداً .. وألبسه السيد الكبير من ملبوساته وجعله من جملة المقربين عنده .. وهو الآن مدفون فى موضع يافث)[١] فالحيرانى وهو من ذوى المكانة وفد لأم عبيدة من بلاده فقضى فيها اثنى عشره سنة يخدم الرفاعى ويتعلم بالضرورة أصول الدعوة وبعدها بعث به الرفاعى لبلاده داعية فتمكن من استمالة « صارى صاليق » فصيره داعية هو الآخر ووجهه إلى مكان آخر .

و « براق » كالحيرانى تماماً .. والشيخ « اليسوى » وفد للرفاعى

---

(١) النجم الساعي ١٩ : ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ .

بأتباعه فجعله من خلفائه وسيره داعية فى التركستان فأصبح أتباعه فيها نحو التسعين ألفا . ومن وسط العراق وفد أبو بدر العاقولى مع أنصاره فتعلم من الرفاعى وخدمه وبعثهم إلى بلادهم دعاة ، ومثله الشيخ مسعود التركى . وعلى عادة كتب المناقب فى هذا الشأن فقد عرضت لبعوث الرفاعى فى صورة رمزية لم تشف الغليل عن أعمالهم الحقيقية أو جهودهم فى بلادهم أو ما تعلموه فى أم عبيدة وما انتهى إليه أمرهم ، ولكن يستفاد مما سبق أنهم نجحوا كدعاة صوفيين وهو ما استتروا وراءه ولكن لم يظهر لهم أثر سياسى وهو المأمول من جهدهم الذى قصروا حياتهم عليه ، فلم يرد أن بعض أولئك المبعوثين ترك مكانه الذى أوفد إليه وعاد لأم عبيدة، بل يظل أحدهم فيه إلى أن يموت وتلك سمه أساسية فى تاريخ الدعاة الشيعة ستؤكدها الأحداث التالية، ولا ريب أن سبل الاتصال بين الرفاعى وبعوثه كانت قائمة ومستمرة ، ينطبق ذلك على بعوثه فى المشرق والمغرب ، وإلا ما أحس بمزيد التفاؤل وأيقن بقرب (ظهور دولة الرفاعية وطريقتها المرتضوية العلوية) ، وإذا عرفنا أنه مات عن ست وستين عاما فى سنة ٥٧٨ أيقنا أنه كان يأمل أن يمتد به العمر ليرى هدفه قد تحقق على رأس القرن السابع « أن رسول الله فتح باب الإرشاد وسلمه إلى ، ولقد قال ﷺ أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها ، واليوم ظهور دوله الرفاعية وطريقتها المرتضوية العلوية) .

بيد أن الظروف لم تعد فى صالح الدعوة فى العراق، فقد وطد الناصر العباسى ملكه وملأ العراق بجواسيسه وكون لنفسه عصبة من العيارين أهل الفتوة ينقلون إليه الأخبار ، وفى نفس الوقت مات الرفاعى « السيد الكبير » ولم يخلفه بعدة من يطاوله فى شهرته أو سياسته ، فكان التركيز السياسى على مصر بعد انهيار الحكم الفاطمى فيها وانشغال الأيوبين بعد صلاح الدين بالتنازع فيما بينهم أو مع الصليبيين .

(د) خلفاء الرفاعى :

خلفه ابن أخته وزوج ابنته « مهذب الدوله » على بن عثمان الرفاعى ، قيل فيه « صار شيخ الرواق بعد خاله » « وكان يقدمه على غيره من أهل بيته وأصحابه »(١) ومع ما يوحى به لقبه « مهذب الدولة » من أن الطريقة الرفاعية صارت دولة بأتباعها ونفوذها ومع مايوصف به مهذب الدولة من تحكم وهيبة إلا أن أوصافه فى المناقب لم تخل مما يشى بضعفه واضطرابه ، فيقال فيه « وكان قويا فى الله متمكنا بأمر الله ما خالف أمره أحد إلا قتله الله وكان له غيره غريبة وهمة عاليه وهيبة عجيبة وسطوة غريبة لا يقدر أحد يقابله لخشيته ولا أن يدانيه لهيبته ولا يخالفه » وإلا هذا وملامح سياسته واضحة ولكن يقال فيه بعدها « وكان دائم الهمم والغم والفكر والحزن والاضطراب له قلب رحمانى . . وكان سريع الغضب والرضا »(٢) وقد ورد فى منام صوفى أن مهذب الدولة أعطى سيفا من السماء ، ويفسر ذلك كيف أن من يخالفه كان يقتله الله ، ومع شدته تلك كان سريع الغضب والرضا . . وإذا جاز استعمال القتل فى الدعوات السرية فلا يكون ذلك إلا سراً وبمؤامرة تبدو ككرامة ، أما أن تتضح الأمور ثم يكون التناقض من القتل إلى الرضا فذلك قد يغتفر فى حاكم بين جنده وملكه لا فى داعية لا يزال فى طور الأعداد للدولة ، وإذا استكان الاتباع للرفاعى بشخصيته وشهرته فلن يكون هذا حالهم مع صهره وخليفته ، ولم يعمر « مهذب الدولة » فى خلافته فمات سنة ٥٨٤ . ودفن إلى جانب خاله .

وتولى بعده أخوه (ممهد الدولة) وكان صهرا للرفاعى هو الآخر فقد تزوج البنت الثانية من بناته ، ولم يبد فى سيرته أية ملامح سياسية سوى لقبه ومات سنة ٦٠٤ وازدحمت سيرته بالكرامات الصوفية كدليل على أن

(١) طبقات الرفاعية : ٣٠ (٢) نفس المرجع ٣٠ ، ٣١

(أم عبيدة) قد أقفرت سياسيا وظلت مركزاً روحيا للدعوة بينما تحول عنها النشاط السياسى إلى مصر بالذات .

ويتضح ذلك فى تاريخ (ابراهيم الأعزب) بن (ممهد الدولة) وأقاويله الصوفية وكراماته التى لا تختلف عن أى صوفى عادى ، وقد كان ابراهيم الأعزب مقيما بأم عبيدة[1] أما أخوه عز الدين الصياد الرفاعى فيمثل التطور الجديد فى السياسة الشيعية .

(ط) عز الدين الصياد الرفاعى (٥٧٤ – ٦٧٠)

تحول عن العراق سنة ٦٢٢ ، ويعلل ذلك بأنه (خاف على نفسه من آفة الشهرة !!)[2] والواقع أن العراق لم يعد الموضع المناسب سياسياً فقد اجتذبت الدولة الأيوبية الأضواء من العراق والخلافة العباسية ، وبعد موت صلاح الدين كان تنازع أولاده فى مصر والشام واستغل أخوه السلطان العادل ذلك التنازع فى الاستئثار بملك صلاح الدين دون أولاده ، وفى هذا الوقت كان العراق مهدداً من الشرق من قبل جلال الدين منكبرتى الناقم على الخلافة العباسية تعاونها مع التتار أعدائه حينئذ .

والشيعة بما لهم من خبرة بأوضاع المنطقة أقدر على تقييم الأمور والاستفادة منها ، وقد رأوا أن الشرق لم يعد المكان المناسب لهم بعد ظهور قوة التتار والخوارزمية ولابد لأحدهما أن تقضى على الأخرى . وكلتاهما قوة شابة ، والمنتظر من المنتصرة أن تسيطر على العراق .

فالحاضرة العباسية (بغداد) تستهوى دائما المغامرين من الشرق من الأتراك والسلاجقة والديالمة . وبالنسبة للتتار والخوارزمية فهم أشد عتواً وأعظم خطراً .. لأن السلاجقة والديالمة كانوا عصبات قبلية لم تكن لهم

---

(١) نفس المرجع ٣٣ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ٤٧ .

دولة ثابتة فى آسيا ، أما التتار والخوارزمية فلهم سلطان قائم فى قراقورم وغزنة فكلاهما ينشد التوسع والاحتلال ، ووسيلته الإبادة والقهر ، وقد رأى الشيعة الصوفية أن الوضع الجديد فى الشرق قد أجهض مجهوداتهم التى قام بها الدعاة أمثال براق وصارى صالبق والحيرانى واليسوى ومسعود التركى فكانوا على حذر مما يخبئه لهم الشرق من أخطار ، فاستبقوا فى (أم عبيدة) مدرسة صوفية روحية فى الظاهر مثّلها إبراهيم الأعزب بينما طوف أخوه (عز الدين الصياد) فى مراكز الدعوة فى الحجاز والشام ومصر .

وقد أحسن الشيعة بإبقاء (الأعزب) فى (أم عبيدة) ممثلا للدعوة الصوفية مستتراً بها ، فالصوفية محل رعاية حكام العصر ولا يشك فيهم أحد ، وللصوفية مقدرة هائلة على التكيف مع كل حاكم جديد ، واستمالته ، ونقطه الضعف لدى أى حاكم تتمثل فى اعتقاده فيهم وحفاوته بهم ، لأنهم معه طالما ظل فى سلطانه فإذا تولى قبلوا له ظهر المجن ، ولقد استطاع الرفاعية فى (أم عبيدة) استمالة غازان المغولى بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية وتملكوا العراق ، وكانت لخليفة الرفاعية أحمد بن عبد الرحيم الرفاعى (٦٠٤ - ٧١١) صلات بالسلطان أبى سعيد المغولى وأسلم (أو تصوف) على يديه غازان وأتباعه سنه ٦٩٤[1] .

ونعود إلى عز الدين الصياد الرفاعى (ت ٦٧٠) وما يمثله من تحول للنشاط السياسى إلى الغرب فنقول أنه تحول من العراق إلى الحجاز فقصد (مكة) بؤرة الدعوة ثم ذهب المدينة فاستمال حاكمها ابن عملة وظل يرعى الدعوة فيها تسع سنين وبنى بالمدينة رباطا للرفاعية ، وكون فيها مدرسة سياسية كان من أعلامها الأبيوردى والسخاوى وعبد الكريم القزوينى .

وقد دخل عز الدين مصر سنة ٦٣٦ - قبل استقرار البدوى فى طنطا -

(١) طبقات الرفاعية : ٣٩ .

(فأقام فى المسجد الحسينى وأقبل عليه الناس وتلمذ له العلماء والشيوخ وأكابر الرجال.. إلخ) ثم طاف باليمن ونزل الشام وعمر زاوية رفاعية فى دمشق وحمص (وقصده الناس من العراق والمغرب والحجاز واليمن) أى كانت الشيعة على إتصال به أينما حل وأقام . إلى أن مات سنة ٦٧٠ ، والطريف أن الصياد الرفاعى وصف بالهيبة شأن من اهتم بالسياسة من أجداده ـ كالرفاعى ومهذب الدولة ـ فوصف الصياد بأنه كان « ذا هيبة وسكينة ووقار لا يتمكن الإنسان من إباحة النظر إليه لجلالة قدره » ، بينما لم يوصف شقيقه إبراهيم الأعزب بمثل ذلك .

وثمة ناحية أخرى فى حياة الصياد تنم على أسلوب من أساليب الشيعة المتصوفة وهى المصاهرة السياسية . وقد سبق أن والد الرفاعى قد أصهر للشيخ يحيى النجارى وأنجب أحمد الرفاعى ..

وكان خاله منصور البطائحى صاحب الخرقة فمهد إليه . . وتكررت القصة مع أحمد الرفاعى فقد زوج أخته من ابن عمه عثمان الرفاعى ، فأنجب عثمان منها مهذب الدولة وممهد الدولة .

وأصهر أحمد الرفاعى إلى إبنى أخته .. فتزوج مهذب الدولة فاطمة بنت الرفاعى وتزوج أخوه ممهد الدولة زينب بنت الرفاعى . وقد أنجبت زينب من ممهد الدولة عز الدين الصياد . .

وقد اتبع الصياد هذه الطريقة فى تطوافه بمراكز الدعوة . فكان يمارس « الزواج السياسى » فحين جاء إلى مصر الأيوبية « تزوج بدرية خاتون من آل الملك الأفضل وأقام بمصر سنين وهاجر منها وترك زوجته بدرية حاملا فولدت له السيد علياً المعروف بالشباك الرفاعى فى تلك السنة وبقى

ولده عند أخواله آل الملك الأفضل »[١] ، ودخل الصياد معرة النعمان فاصهر للشيخ الصوفى الشهير عبد الرحمن بن علوان وتزوج أخته وأنجب منها ذرية.

وأسلوب المصاهرة هذا ينم على ما أعتاده الشيعة فى دعواتهم من استعمال النفس الطويل فى الدعوة وإنتظار نتائجها على مهل ، وحين تتم ـ حسبما يأملون ـ تكون من نصيب ذرياتهم فى المستقبل . ولذا فإن التزاوج كان يتم بين أنصار الدعوة ويولد الطفل بين أخواله وأتباع أبيه وعصبيته .

لقد كان عز الدين الصياد تطوراً هاماً فى الحركة الشيعية الصوفية ورث عن جده أحمد الرفاعى الكثير من الحنكة السياسية فأكمل طريقه ، ذلك أن الرفاعى اهتم فى أخريات عمره بمصر بعد إنهيار الحكم الشيعى فأرسل لها البعوث السياسة المستترة بالتصوف .

---

(١) ترجمة الصياد فى طبقات الرفاعية ٤٦ وما بعدها ، ومخطوطة البكرى ٣١ ، ٣٢ . هذا . . ويقول عبد الصمد أن أم البدوى هى (فاطمة بنت محمد بن عبد الله ابن مدين بن شعيب من مدينة فاس بالمغرب ، الجواهر السنية ١٩ الطبقات الكبرى للشعرانى ١٢٣/١) وعليه فالأرجح أن أبا مدين الغوث وإسمه شعيب هو جد البدوى لأمه وهذه صورة أخرى من التزاوج السياسى بين أصحاب الدعوة .

ثالثاً : بعوث المدرسة الرفاعية فى مصر الأيوبية

وطد صلاح الدين نفوذه فى مصر ابتداء من سنة ٥٦٤ هـ . وانفرد بها بعد موت آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٧ . واهتم بحرب التشيع فى دولته الوليدة ، ولم يكن للرفاعى وهو فى قمة شهرته وتضخم أتباعه أن يسكت عن التطورات الأخيرة فى مصر بعد انهيار الحكم الفاطمى فيها، ولعله أدرك الخطر فى طموح صلاح الدين وتواجده المستمر فى الشام وخشى أن يحكم صلاح الدين قبضته على الشام والعراق وينقل إليها حربه ضد التشيع فبادر الرفاعى بإرسال البعوث إلى مصر الأيوبية ، وعلى نفس السياسة سار خلفاؤه من بعده خصوصا وأن خلفاء صلاح الدين كانوا بعده أقل شأنا وأكثر ضعفاً .

ومع حدب الأيوبيين بالصوفية فإن رائحة الاضطهاد تغلف تاريخ الصوفية المتشيعين من أصحابنا فى هذه الحركة ، والنفور بينهم وبين الحكام مستحكم كما يبدو فى ترجمة أبى العباس الملثم وأبو الفتح الواسطى، وهناك ناحية أخرى تتجلى فى التعاون القائم بين مدرسة الرفاعى العراقية ومدرسة أبى مدين المغربية وتمثله الملاقات الغامضة بين أبى السعود الواسطى مبعوث الرفاعى وأبى العباس البصير المغربى .

ابو العباس الملثم :

نظراً لكونه مبعوثاً سرياً يتستر بالتصوف فى دولة تحارب دعوته فإن الرمز والأساطير تغلف تاريخه وتجعله أقرب للأسطورة .. أو أقرب للبدوى ، فكلاهما ملثم وهم رفاق دعوة ، إلا أن أبا العباس قفز إلى اهتمام المؤرخين فكتبوا عنه ، ولتستره وغموضه فلم يكن فى تاريخه إلا الغموض والرمز.

وحين نقرأ ترجمته فى طبقات الشعرانى نحس بأن الرمز فى ترجمته كان مقصوداً ومتعمداً لإخفاء دعوته السرية التى جاء على أساسها مصر ، وأول

ما يقول الشعرانى[١] فى تاريخه (وكان أبوه ملكا بالمشرق) ومعلوم أن ملوك المشرق فى هذه الفترة كانوا معروفين تكتب الحوليات التاريخية فى صراعهم وتقلباتهم ، ولكن الذى توحى به كذبة (كون أبائه من المشرق) أنه وفد من المشرق رسولا لدعوة سرية تحيطها الأسرار والألغاز وتهدف لأمر سياسى يتعلق بالحكم والملك ، وليس هناك من تعارض بين تلقبه بالملثم وكونه مشرقياً ، إذ عرفنا أن (سلاطين الدعوة الشيعية فى المشرق) أتوا إليها من المغرب ووصفوا كأبائهم بالاثام والملثمين، بهذا وصف أحمد البدوى واحمد الرفاعى ومنصور البطائحى ثم أبو العباس الملثم .. فكلهم ملثمون مغربيون فى الأصل مشرقيون فى النشأة .

ثم يزداد الغموض المتعمد حين يأتى الشعرانى بالروايات التى حيكت عن عمره . يقول (وكان الناس مختلفين فى عمره فمنهم من يقول: هذا من يونس عليه السلام ، ومنهم من يقول : أنه رأى الإمام الشافعى وصلى خلفه ومنهم من يقول أنه رأى القاهرة وهى أخصاص ، قال الشيخ عبد الغفار القوصى : فسألته عن ذلك فقال: عمرى الآن نحو أربعمائة سنة) ونحن هنا أمام مؤامرة واضحة تتعمد إضفاء الغموض على تاريخ الرجل وعمره وتغلفه بالأساطير ، ويشارك فى هذه المؤامرة ويقودها عبد الغفار القوصى كبير الأتباع لأبى العباس الملثم .. ولكن هذه الأساطير تصله بالمشرق مركز الدعوة السرية ، فيونس عليه السلام من العراق ، والشافعى تجول بين مكة والعراق ومصر .. والاضطهاد هو السبب الحقيقى فى غموض هذا الرجل ، وإن غلف الشعرانى هذا الاضطهاد بالكرامات .

يقول الشعرانى « وكان أهل مصر لا يمنعون حريمهم منه فى الرؤية والخلوة فأنكر عليه بعض الفقهاء فقال : يا فقيه اشتغل بنفسك فإنه بقى من

(١) الطبقات الكبرى ١/١٣٥ ، ١٣٦ .

عمرك سبعة أيام وتموت فكان كما قال .. وأنكر عليه مرة قاض وكتب فيه محضراً بتكفيره ووضع القاضي المحضر في صندوقه إلى بكرة النهار يدعوه للشرع فجاء بكرة النهار فلم يجد المحضر ومفتاح الصندوق معه ، فأخرج الشيخ المحضر وقال : الذي قدر على أخذ المحضر من صندوقك قادر على أخذ إيمانك من قلبك ، فتاب القاضي ورجع عما كان أراده ، وسموه ثلاث مرات ليموت فعافاه الله تعالى منه وذلك لشدة ما كانوا ينكرون عليه » .

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى أحمد الرفاعي والإنكار عليه نجد أن أتباعه يعترفون بأن أساس الانكار على الرفاعي هو في جمعه بين النساء والرجال ، ونسترجع بعض هذه الاتهامات التي ووجه بها الرفاعي شتما وتقريعاً كقولهم له « يا من يستحل المحرمات ، يا من جمع بين الرجال والنساء »[1] . وحين وشوا بالرفاعي عند الخليفة المستضيء العباسي قالوا عنه للخليفة « يا مولانا هذا المجلس يشتمل على مفاسد كثيرة منها الجمع بين الرجال والنساء »[2] ..

ونحن لا نتهم الرفاعي بهذا التهم .. ولكننا نعتبرها دليلا على الدافع السياسي ، فالرضى بهذا الاتهام البشع الذي يمس الخلق لا يكون إلا للتغطية عن إتهام أخطر فيه القضاء على الدعوة وربما أصحابها ، وجدير بالذكر أن كتب المناقب التي أوردت هذه الاتهامات لم تذكر أن الرفاعي نفى هذه الاتهامات أودافع عن نفسه ، بل ركز على التخاشع وتطييب نفوس المنكرين عليه واستمالتهم ..

وعلى ذلك فاتهام أبي العباس الملثم بنفس تهمة الرفاعي كانت غطاء مقصوداً يحجب الصراع بينه وبين أنصار الدولة الذين يتتبعون دعاة الشيعة

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني : ترجمة الرفاعي ١٢٤ .

(٢) النجم الساعي ١٧ .

ويلاحقونهم بعقد المجالس للتكفير والاعتقال .. ويلفت النظر أن الرواية لم يرد فيها أن أبا العباس الملثم أنكر هذه التهمة كشأن الرفاعى تماماً حين اتهم بها ..

وورد فى ترجمته أن خصومه حاولوا قتله بالسم ثلاث مرات (لشدة ما كانوا ينكرون عليه) وهذا الإصرار على ملاحقته وإغتياله لا يمكن أن يكون لمجرد الانكار على رؤيته النساء والخلوة بهن ، ولو صح هذا لكان منع النساء عنه ومنعه عنهن أيسر من تقبعه بمحاولات الاغتيال السرية .

ويبدو من سيرة أبى العباس الملثم أنه تجول بين القاهرة والصعيد .. فقد التقى بعبد الغفار القوصى ، وقوص من مراكز التشيع فى الصعيد ، ودفن فى القاهرة بالحسينية أو فى قوص ـ على إختلاف فى الروايات ..

بقى أن نعرف شيخ أبى العباس الملثم الذى يقاسى من أجله .. يقول أبو العباس (بلغنى عن سيدى أحمد الرفاعى أنه كان يقول : إذا إستولى الحق سبحانه على قلب عبد ذهب ما من العبد وبقى ما من الله ..) وبغض النظر عن مقالة الرفاعى الموحية بالاتحاد ـ مذهب الصوفية ـ فإن الملثم اعترف بتبعيته للرفاعى المقيم فى أم عبيدة ، وأنه كان على صلة بمدرسته وإلا ماقال (بلغنى عن سيدى أحمد بن الرفاعى ..) .

ثم أليس غريباً أن تخلو ترجمة أبى العباس الملثم من ذكر لأى من الشيوخ الذين أخذ عنهم الخرقة ؛ مع أن المتبع فى ترجمة الصوفية ذكر الأشياخ والتلاميذ .. أما صاحبنا فلم تكن فى ترجمته إلا قوله « بلغنى عن سيدى أحمد بن الرفاعى » ، والرفاعى لا حرج على تصوفه . أما الحرج فهو على تشيعه السرى وتلمذه الغامض فى مصر الأيوبية والمملوكية التى تحارب التشيع الصوفى ..

أبو السعود بن أبى العشائر الواسطى :

ينتمى إلى واسط مركز تجمع شيعة الرفاعى ، وأبوه أبو العشائر الحسنى من كبار أصحاب الرفاعى[١] ، وقد وفد إلى مصر ومات بالمقطم سنة ٦٤٤ ، وتحيط (الكرامات السياسية) بتاريخ أبى السعود ، منها أن له نوبة كاسات تضرب له فى الأرض وفى كل سماء ، وأنه كان أحد الملوك السبعة وأن السلطان كان يمشى إلى زيارته[٢] ، وهذا مالم يثبت فى المصادر التاريخية المعاصرة للقرن السابع ، أما الشعرانى والزيات – فقد كتبا عنه ذلك من أفواه مريديه حافظى سيرته ، وأولئك خلطوا سيرة الرجل بعد موته بثلاثة قرون بما يشى بالدافع السياسى والنشاط السرى وغلفوه بالكرامات فجعلوه ملكاً فى الأرض والسماء يخضع له السلطان الذى لم نعرف إسمه .

وقد كون أبو السعود مدرسة صوفية شيعية كان من أعيانها أبو الغنائم ت ٦٩٥ الذى (قدم القاهرة مع أبيه فاجتمعا بالعارف القدوة أبى السعود ابن أبى العشائر الواسطى واقتديا بطريقته) وشرف الدين الكردى المدفون بالحسينية – حيث دفن أبو العباس الملثم – وبدر الدين الجاكى الكردى وقد وشوا به للسلطان وعقد له مجلساً لمنعه من الوعظ[٣] .

ثم كان أهم أصحاب أبى السعود هو الشيخ خضر العدوى وكان له شأن مع الظاهر بيبرس وقت أن كان البدوى يمارس دعوته فى طنطا .

---

(١) طبقات الرفاعية : ٢٥ .

(٢) الزيات : الكواكب السيارة : ٣١٦ ، ٣١٧ .
الشعرانى : الطبقات الكبرى ١/١٤٠ .

(٣) السخاوى : تحفة الأحباب ٢١ ، ٢٢ .
الشعرانى : المرجع السابق ٢/ ٢ ، ٣ .

ويلاحظ أن مدرسة أبى السعود كلها كانت من الوافدين عليه من الأكراد والمشارقة وأولئك جاءوا مصر فقصدوا الشيخ وصاروا من أخصائه ، ولو كان الأمر طبيعياً فما كان أسهل عليهم للقاء فى بلادهم ، وهناك ناحية أخرى فى تاريخ أبى السعود الواسطى تتمثل فى علاقته الغامضة بأبى الفتح الواسطى مبعوث الرفاعى فى الأسكندرية ، يروى بعض مريدى أبى السعود عنه (لم يمش لبيت أحد قط إلا لبيتى بمصر مرة ، ومرة زار فيها الشيخ أبا الفتح الواسطى لما ورد القاهرة بسبب علم له فيه ، ولم يجتمع به بعد ذلك)[1] ووجه الغرابة أن أبا السعود التزم بالعزلة حتى كان لا يخرج من زاويته إلا للجمعة أو الحج[2] .

ومع ذلك فقد اجتمع ـ على غير عادته ـ بأبى الفتح الواسطى ـ الذى سعى للقائه فى القاهرة آتيا له من الاسكندرية (بسبب علم له فيه) ثم كان التحرز من اجتماعهما بعد ذلك (ولم يجتمع به بعد ذلك) .

فلعل أمراً خطيراً سرياً أوجب هذا الإجتماع الطارىء ، ثم لم يكن بعده اجتماع فى مصر .

ومعلوم أن الحج إلى مكة كان ستارا يجتمع فيه أساطين الدعوة المنتشرون فى العراق والشام ومصر يتداولون فيه الآراء ويرسمون فيه الخطط مع أساتذتهم فى مكة .

وأبو السعود كان داهية ، أدرك ما يعانيه أبو الفتح من اضطهاد فى الاسكندرية فتحرز من الاجتماع به فى القاهرة . ويكفى فى إدراك نجاح أبى السعود أن تاريخه خلا من أى إشارة لاضطهاد الحكام له ، بل على

---

(١) (٢) الكواكب السيارة ٣١٦ ، ٣١٧ .

المكس ورد أن السلطان ـ ولا نعرف من هو ذلك السلطان ـ كان يسعى للقائه ، دليلا على أن مظهره الصوفى العادى خدع السلطات الحاكمة ، بينما أخفق بعده تلميذه بدر الدين الجاكى فافتضح أمره ففقدوا له مجلساً ومنعوه من الوعظ .

أبو الفتح الواسطى :

فى الوقت الذى استقر فيه أبو السعود الواسطى فى القاهرة واجهة صوفية ترقب العاصمة ، وفى الوقت الذى تجول فيه أبو العباس الملثم بين القاهرة والصعيد كان أبو الفتح الواسطى يحتل قبلهم مكانه فى الاسكندرية مبعوثا من لندن الرفاعى .. شيخ الجميع .. وقد ختمنا به لأن البدوى خلفه بعد موته

يقول الشعرانى عن أبى الفتح (شيخ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة ، وكان من أصحاب سيدى أحمد بن الرفاعى فأشار إليه بالسفر إلى مدينة الاسكندرية فسافر إليها)[1] ويروى المناوى أن الرفاعى أرسل الواسطى للاسكندرية وقال له (إقامتك ووفاتك بها)[2] . وهذا أسلوب الشيعة فى دعوتهم، فمنصور البطائحى خال الرفاعى ألزمه بالبقاء فى أم عبيدة حتى مات فيها ، والرفاعى ألزم خليفته بالبقاء فى أم عبيدة حتى دفن بها ، وألزم مبعوثه الواسطى بالبقاء فى الاسكندرية حتى مات بها . وينطبق ذلك على مبعوثيه الآخرين أبى السعود الواسطى وأبى العباس الملثم .

على أن أبا الفتح واجه معارضة عنيفة فى الاسكندرية ، وهذا أمر متوقع بحكم موقعها الساحلى ويقظة الأيوبيين لما يجرى فيها خوف الإغارات الصليبية وقد كانت الحملات الصليبية تأتى لمصر الأيوبية عن طريق البحر المتوسط

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٧٦ .

(٢) الطبقات الصغرى للمناوى مخطوط ورقة ٨٩ .

وتتخذ من قبرص نقطة ارتكاز للتآمر على الثغور المصرية ، ولأن أعين الأيوبيين تترصد كل تحرك فى الاسكندرية فقد تتبع أعوانهم من القضاة والفقهاء أبا الفتح بالمحاكات والاتهامات حتى أصابه القنوط فخالف أمر شيخه الرفاعى وعاد إلى أم عبيدة .

يقول المناوى أن الواسطى أقام فى الاسكندرية مدة ثم عاد لشيخه الرفاعى (لأنه لم ير فى الاسكندرية إقبالا) ثم أمره الرفاعى بالعودة إلى الاسكندرية وأنشده :

أيها السائر سر فى دعة ... أينما كنت فما عنك خلف
إنما أنت سحاب ممطر ... اينما صرفه الله انصرف
ليت شعرى أى أرض أمحلت ... واعيت بك من بعد التلف
أرسلك الله إليها رحمة ... وعدمناك لذنب قد سلف

يقول المناوى : فسافر الواسطى للأسكندرية[1] ، ويقول الشعرانى عنه (وكان مبتلى بالانكار عليه وعقدوا له المجالس بالأسكندرية وهو يقطعهم بالحجة)[2] ولا ريب أن دعوة الواسطى للأسكندرية ونجاحه فى مجابهة خصومه يرجع إلى توجيهات الرفاعى حين عاد إليه يخفى حنين فرجع بعدها شخصاً جديداً يقابل خصومه و (يقطعهم بالحجة) ويجتذب الأنصار ويكون الخلايا السرية ، وأبرزهم أتباعه المقربون (كالقابى والبلتاجى والدنوشرى والمليجى وعبد العزيز الدرينى . .) وأولئك لهم شأن مع البدوى الذى جاء ليخلف الواسطى حين مات سنة ٦٣٥ .

ونجاح الواسطى يرجع لسبب آخر يتمثل فى الاضطراب الذى حاق بالأيوبيين ابتداء من مطلع القرن السابع حيث عم الخلاف بين أبناء العادل

(١) نفس المرجع والورقة (٢) الطبقات الكبرى ١/١٧٦

الأيوبى واشتدت بينهم المؤامرات والحروب فى نفس الوقت الذى آمنوا فيه الصليبيين وادخلوا فى منازعتهم الأسرية حتى أن الكامل الأيوبى تنازل عن بيت المقدس للامبراطور فريدبرك الثانى الألمانى بدون حرب فى مقابل أن يؤيد أطماعه فى دمشق . وإذ تقرر التحالف بين الكامل والصليبيين فقد أمن من ناحيتهم وانشغل عن المؤامرات الداخلية بما يجابهه من خطر أخوته فى الشام والعراق .

وهذا الحال المتردى الذى صار إليه حال الأيوبيين من أبناء العادل قد شجع مدرسة المغرب التى كونها أبو مدين فى بجاية وقام على رعايتها ابن بشيش ، وقد تم التعاون بين مدرستى العراق والمغرب فى مصر التى تتوسط الشرق والغرب ، . وإنصافا للحق فإن بعوث المدرسة الغربية قد تلمست طريقها لمصر منذ سقوط الحكم الشيعى الفاطمى فيها وحرب صلاح الدين للدعوة الشيعية ثم زاد دورها أبان ضعف خلفائه .

بعوث المدرسة المغربية الى مصر :

١ ـ اتخذت بعوثها من الاسكندرية القريبة للغرب نقطة ارتكاز تنطلق منها للقاهرة ـ العاصمة ـ والصعيد موطن التشيع .

وأبرز الأشياخ فى هذه المدرسة أبو الحجاج الأقصرى ت ٦٤٢ وقد ورد للاسكندريه من المغرب وفيها أخذ عن داعية مجهول من تلامذة أبى مدين، يقول الشعرانى فى ترجمة أبى الحجاج « وكان شيخه الشيخ عبد الرزاق الذى بالاسكندرية قبره من أجل أصحاب سيدى الشيخ أبى مدين المغربى »[(١)] ، وتتلمذ على هذا الشيخ المجهول أبو الحجاج الاقصرى وابن الصائغ ، يقول أبو الحجاج « كنت أجىء أنا وأخى أبو الحسين بن الصائغ باسكندرية إلى

(١) الطبقات الكبرى ١/١٣٦ .

شيخنا »[١] وانتقل أبو الحجاج إلى قوص – وهي مركز كبير للتشيع الاسماعيلي – وكون فيها مدرسة كان من أعيانها كمال الدين بن عبدالظاهر يقول الشعراني في ترجمة ابن عبدالظاهر «صحب الشيخ أبا الحجاج الاقصري رضي الله عنه حين كان بقوص »[٢] .. ثم استقر أبو الحجاج في الاقصر حيث مات واكتسب لقب الاقصري ..

٢ – وكعادة الدعاة الشيعة المستترين بالتصوف فقد واجه أبوالحجاج عنتا من الأمراء ، ويقول الشعراني « إن شخصا من الأمراء المشهورين في عصره أنكر عليه »[٣] ، ولم تنقطع المؤامرات الخفية ضده تنشد قتله يقول خادمه زكريا التميمي « طلب شخص من مريدي أبي الحجاج الاقصري قتل شيخه مرات فلم يقدر »[٤] ، أي اندس بعضهم ضمن مريدي الشيخ محاولا قتله فلم يستطع رغم تكرار المحاولة ، ليقظة الشيخ وتحرزه .

الاتصال بين المدرستين :

وقد أبقى الشيعة الصوفية من مدرستي الرفاعي وأبي مدين الصلات بينهما في طي الكتمان وغلفوها بالكرامات والأساطير إذا جدما يستدعي اتصالا بينهما كما حدث بين أبي العباس البصير الوافد من المغرب ت ٦٢٣ ، وأبي السعود بن أبو العشائر الوافد من العراق ، يقول الشعراني في ترجمة أبو العباس البصير « كان من معاصري الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر وكان سيدي أبو السعود في زاويته بباب القنطرة يراسله بالأوراق في أيام خليج النيل الحاكمي إلى باب الخرق بزاوية الشيخ أبو العباس فكانت ورقة أبو السعود تقلع ورقة أبو العباس ولا تبتل »[٥] .

---

(١) نفس المرجع ، ١٣٦/١ (٢) نفس المرجع ، ١٣٧/١
(٣) نفس المرجع ، ١٣٦/١ (٤) نفس المرجع ، /١٣٦
(٥) نفس المرجع ، ٢/٢

وفى مناسبة الحج كان يتم بحث شتى التفصيلات بين الأشياخ . . وسبق القول بأن أبا السعود بن أبى العشائر كان لا يخرج من داره إلا للحج أو للجماعة . . يروى الشعرانى عن خادم أبى السعود قوله « خدمت سيدى أبا السعود عشرين سنة وأنا أسأله أن يأخذ على العهد فيقول : لست من أولادى أنت من أولاد أخى أبى العباس البصير سيأتى من أرض المغرب ، فلما قدم إلى مصر أرسل سيدى أبو السعود إلى سيدى حاتم ـ الخادم وقال له : شيخك قدم الليلة فاذهب إلى ملاقاته فى بولاق ، فأول من اجتمع به من أهل مصر سيدى حاتم ، فلما وضع يده فى يده قال : أهلا بولدى حاتم ، جزى الله أخى أبا السعود خيراً فى حفظك إلى أن قدمنا »[1] .

ومنطقى أن يجد أبو العباس البصير حين يقدم إلى مصر خادما يمهد له سبل الاتصال بينه وبين أبى السعود . وكل شىء متفق عليه سلفا ، ويحكى فى صورة كرامة تستغل ما شاع فى العصر من اعتقاد فى علم الصوفية بالغيب ، مع أنه لا يعلم الغيب إلا الله ، هـذا ، وجدير بالذكر أن أبا العباس البصير المغربى تعلم أصول الدعوة على يد الداعية العراقى الرفاعى السرى ابن سيدبونه الخزاعى « ثم سافر للصعيد وأقام بالقاهرة »[2] .

وهناك اتصالات مجهولة لم يكشف عنها الستار تمت بين الشيعة المتصوفة من مدرستى العراق والمغرب .. إلا أننا يمكن أن نترصدها من تحركات الفريقين ، فأبو العباس الملثم طوف بالصعيد وأقام مدة فى « قوص » وله علاقة بالشيخ عبد الغفار القوصى[3] ، والملثم موفد من قبل الرفاعى ، وفى « قوص » أقام أبو الحجاج المغربى الاقصرى مدرسة كان من تلامذته فيها

---

(١) نفس المرجع ، ٢/٣ (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٥١٧
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٣٦ ، الطالع السعيد ١٣١

ابن عبد الظاهر[1] ، ولعل المؤامرات التى حيكت ضد أبى الحجاج تمت فى « قوص » الشهيرة بالتشيع لدى السلطات مما جعل أبا الحجاج يرحل عنها إلى الأقصر لينشىء مدرسة جديدة غير معلومة .

وفى « قوص » نشأ « عبد الغفار القوصى » وتنقل بينها وبين القاهرة ، وفى شخصيته تبدو ثورية وعنف وميل للتآمر ، وهى صفات أبعد ما تكون عن التصوف العادى .. فقد « كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يبيع نفسه فى طاعة الله تعالى » « وكان يقول : كلام المنكوبن على أهل الله تعالى كنفحة ناموسه »[2] .

ولعله كان صلة بين أبى الحجاج وأبى العباس الملثم ، ونشأ فى جو التآمر هذا حتى إذا فشلت الدعوة الصوفية لم يجد مجالا لتآمره إلا الكنائس ، فقام بمؤامرة واسعة سنة ٧٢١ أحرق فيها الكنائس المصرية فى وقت واحد بين الاسكندرية والقاهرة والصعيد ، ورددت المراجع التاريخية هذا الحدث الفريد من نوعه فى حوادث سنة ٧٢١[3] ، ولا يمكن لمؤامرة على هذا المستوى أن تتم إلا بخبرة تامة فى التآمر وتطواف مستمر بمدن مصر ومعرفة بكنائسها وتنظيم محكم باتباع منتشرين ووسائل اتصال على مستوى عال .

ولا بد أن يكون عبد الغفار القوصى قد استثمر أدوات الدعوة الشيعية الصوفية بعد فشلها فى إحراقه العام للكنائس المصرية فى الأسكندرية والقاهرة والصعيد ففى هذه المناطق تتركز الخلايا الشيعية الصوفية بلا عمل ،

---

(١) نفس المرجع ١٣٧/١ (٢) نفس المرجع ١٣٩/١

(٣) عقد الجمان مخطوط ، نهاية الأرب مخطوط ٣١ / ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، الطالع السعيد ١٧٢ : ١٧٣ ، زبدة الفكرة لبيبرس الداودار ٩١/٤٧٤ ، ٤٧٥ ، السلوك ٢ / ١ / ٥٠ .

وربما رأت فى هذه المؤامرة وسيلة لإفساد الأمر على السلطة المملوكية وذلك ما فطن إليه الناصر محمد بن قلاوون وسنتعرض لذلك فى أوانه .

وجدير بالذكر أن خضر العدوى ـ وهو عضو هام فى الخلايا الشيعية الصوفية ـ كانت له تحركاته المعادية للمسيحيين وكنائسهم[١] ـ وقد ذكرنا ذلك كدليل على وحدة الاتجاه لدى المدرسة الشيعية الصوفية .

ونعود للشيعة المتصوفة والكتمان الذى يسود العلاقات بينهم ، ونذكر أن أخوف ما كانوا يخافونه هو أن يتسلل إلى خلاياهم عميل للأيوبيين أو المماليك . وقد سبق أن بعض العملاء تسلل إلى جماعة أبى الحجاج الأقصرى كأحد مريديه وحاول قتله ثلاث مرات فلم يفلح ، وللشيعة العذر فى هذا التحوط فقد استغل صلاح الدين أسلوب التسلل للخلايا الشيعية الصوفية حين استمال عبد الرحيم القنائى وأوفده للصعيد فتمركز فى «قنا» حرباً على زملائه القدامى ، وهو بهم أدرى ، وقد استطاع استمالة ابن الصائغ السكندرى زميل أبى الحجاج الأقصرى فى الأسكندرية ، وصار ابن الصائغ من جملة أتباع عبد الرحيم القنائى . .

وعبد الرحيم القنائى من الأتباع الأوائل للشيخ أبى مدين الغوث إلا أنه انقلب على الدعوة وتعاون مع صلاح الدين الأيوبى ، ولم ينس له الشيعة المغاربة هذا الموقف وتلمح إلى ذلك رواية صوفية نسبت للشيخ أبى العباس البصير المغربى ، يقول الشعرانى أنه (قدم شخص من مريدى الشيخ أبى العباس البصير على سيدى عبد الرحيم القناوى بعد وفاة الشيخ أبى العباس ، وكان الشيخ يأخذ العهد على جماعة من الحاضرين فمد يده ليد فقير أبى العباس

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٣ - ١٦٥ ، النجوم الزاهرة ٧ - ١٦٢

وهو فى المحراب فخرجت يدأبى العباس من الحائط فمنعت يدالشيخ عبدالرحيم فقال : رحم الله أبا العباس يغير على أولاده حياً وميتاً)[1] والثابت أن أبا العباس توفى بعد عبد الرحيم بمدة طويلة ، فعبد الرحيم توفى سنة ٥٩٢ ، وأبو العباس كان معاصراً لأبى السعود وتوفى سنة ٦٢٣ ، ولكن صياغة هذه الكرامة توحى بالصراع الخفى بين القناوى وبقية الشيعة الذين انشق عليهم فحقدوا عليه حتى بعد موته . .

ثم نعود لأبى الفتح الواسطى وقد استفاد من الاضطراب السياسى فى مصر فكون مدرسة قدر لها أن تنمو وأن تلعب دوراً هاماً فيما بعد ، وصار كما يقول الشعرانى (شيخ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة . وأخذ عنهم خلائق لا يحصون .)[2] إلا أن موته آذن بانهيار جهوده فسارع الشيعة حين بلغتهم وفاته سنة ٦٣٥ بإرسال أحمد البدوى ليحل محله فى مصر وليتزعم بشبابه وحيويته الدعاة فى مكانه البعيد الخفى عن الأنظار فى « طنتدا » .

يقول باحث عن أبى الفتح الواسطى « كانت له مكانة بين أتباع الرفاعى فلقد أرسلوه إلى مصر ليبشر بطريقتهم ويتزعم الأتباع فوصل الأسكندرية سنة ٦٢٠ وأقام بها داعياً ، ولقى هناك عنتاً كبيراً من شيوخ الشرع والفقهاء وتوفى سنة ٦٣٢ ، ولما وصل خبر وفاته إلى خلفاء الرفاعى بالعراق مركز الدعوة والطريقة الرفاعية وقع إختيارهم على السيد البدوى ليخلفه فى زعامة الأخوان وأتباع الرفاعى بمصر)[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى ٢ / ٤ (٢) نفس المرجع ١ / ١٧٦

(٣) على سالم عمار : أبو الحسن الشاذلى ١ / ٧٧

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة السياسة « دوهم العلويون فى مكة بنبأ وفاة أبى الفتح الواسطى داعيتهم فى مصر ، ذلك الرجل المدهش الذى استطاع فى سنين قلائل أن يجمع إلى رايته أجل أرباب النفوذ من علماء مصر وأعيانها ، فلم يجدوا أكفأ من السيد أحمد البدوى لهذه المهمة فوجهوه إلى الديار المصرية فنزح إليها من مكة عام ٦٣٧ هـ وسكن بطنتدا)[١] .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى البدوى كمبعوث سياسى سرى للصوفية المتشيعين وقد عشنا مع المراحل السابقة من مراحل الدعوة وأشياخها ومواطنها ابتداء بالمغرب ومروراً بالحجاز والعراق ثم نحط الرحال فى طنطا لنرى ماذا سيفعل البدوى بالدعوة وعلام ينتهى أمره . .

وقبل أن نستغرق مع البدوى فى مشاكله فى طنطا نستعرض الخطوط العريضة لكثير من التفصيلات التى سبقت فى توضيح الجهد الذى قامت به مدرسة الرفاعى فى العراق ، باعتبار أن هذه المدرسة هى الأم التى أنجبت أساطين الدعوة فى مصر والشام والعراق واليمن ، فنلاحظ الآتى :

١ — نجح الرفاعى تماماً فى استغلال التصوف كساتر لحركته الشيعية السرية . ظهر كصوفى أمام العامة والحكام فازداد أتباعه فى نفس الوقت الذى قرب إليه خواصه من مريديه المقيمين معه فى أم عبيدة وقد جعلها قلعة لاتباعه يرسل منها سراً المبعوث إلى الشرق والشمال ، وكانت له سياستان حسب الظروف ، فساس أتباعه بالحزم والصرامة ، وعلى العكس من ذلك صابر أعداءه ولاطفهم حتى استطاع النجاة من مكائدهم واكتسبهم أنصاراً ومريدين .

---

(١) مجلة السياسة ١١

٢ - لم يكن خلفاء الرفاعى فى مستواه السياسى ، بينما تغيرت الظروف السياسية إلى غير صالح الدعوة ، فالناصر العباسى أحكم سيطرته على العراق والتحركات المغولية والخوارزمية فى أواسط آسيا وشمالها أجهضت الدعوة الناشئة فى هذه المناطق ، فيمم الشيعة وجههم شطر مصر التى كانت تعانى من الاضطراب السياسى تحت حكم أبناء العادل الأيوبى .

ولأنه لم يوجد من خلفاء الرفاعى من يدانيه مقدرة ودهاءً فقد توزعت مهامه بين خلفائه ، فظلت (أم عبيدة) مركزا صوفيا فى الظاهر شيعيا فى الباطن يتعلم فيه المبعوثون أساليب الشيعة فى الدعوة ، بينما انتقل النشاط السياسى إلى خارج العراق ممثلا فى عز الدين الرفاعى الذى طوف بالحجاز ومصر والشام واليمن يكون فيها الخلايا وينشىء فيها الزوايا .

٣ - سبق الرفاعى خلفاءه فى الاهتمام بمصر بعد سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فأرسل أبا السعود بن أبى العشائر وأبا الفتح الواسطى وقد احتل كل منهم مكانه بين الاسكندرية والقاهرة .

٤ - نجح أبو السعود والواسطى فى استغلال الاضطراب الذى حاق بالأيوبيين بسبب تنازعهم العائلى المستمر فأكثر من أتباعه وانتشروا فى مصر إلا أن موته حدا بالعلويين إلى إرسال من يحل محله فكان « البدوى » .

٥ - بقى أن نقول أن اتجاه العلويين إلى مصر مكنهم من الاستفادة باخوانهم أتباع مدرسة المغرب وبتنسيق سرى منتظم ، كما حدث من أبى الحجاج الأقصرى وأبى العباس البصير ، وكما سنراه مع الشاذلى والبدوى .

والمنتظر منهم أن يجهزوا للقادم الجديد « البدوى » عرشه فى طنطا فلابد أن يستفيد مما زرعه السابقون .

رابعاً : قبيل جهود البدوى فى الدعوة السرية

نشاته واعدادة :

نشأ البدوى بمكة مركز الدعوة « وكان حفظ شيئاً من القرآن وقرأ شيئاً من الفقه على مذهب الإمام الشافعى» ومعنى أنه حفظ «شيئاً من القرآن» وقرأ « شيئاً من الفقه » إن الجانب الأكبر من نشأته انصب على ناحية أخرى يفسرها ما قاله عبد الصمد بعدها « واشتهر بالعطاب لكثرة ما كان يقع لمن يؤذيه من الناس »(١) .

والواقع إن البدوى اشتهر فى بدايته بالفروسية يقول عنه الشعرانى « لم يكن فى فرسان مكة أشجع منه ، وكانوا يسمونه فى مكة العطاب »(٢) وهذا اللقب أطلقه عاية أخوه الحسن الذى تولى إعداده ونشأته ، يقول الحسن مفتخراً بصنيعه « ولم يكن فى مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخى أحمد فسميته العطاب محرش الحرب »(٣) ويبدو أن فروسية البدوى أتت بعد مران عنيف بدأ منذ صغره ، فقد وصف فى رجولته بأنه « كان بين عينيه جرح جرحه ولد أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة(٤) »

وتفوق البدوى فى هذا المضمار فلم يكن فى مكة والمدينة من يدانيه فروسية وشجاعة ، وحق له أن يفخر بذلك على عادة الشعراء الفرسان فيقول (٤) :

أنا أحمد البدوى فارس مكة　　وساكن طنت فى الملوك لى العزل
أنا الأسد القتال فى حومة الوغى　　إذا جلت فى الأعداء ينهزم الكل
أنا صاحب الرمحين فى أرض مكة　　لى البأس فى الهيجا إذا حصل الخبل

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السفية ٧　　(٢) الطبقات الكبرى ١ - ١٥٩
(٣) عبد الصمد : الجواهر ١٩　　(٤) عبد الصمد نفس المرجع ١٢٣

وإلى جانب الفروسية تميز البدوى بالدهاء والنجابة فلفت له أنظار الكبار من أسرته المنهمكين فى التخطيط للدعوة ، وفى هذه الأثناء كان بمكة والمدينة عز الدين الصياد الرفاعى الذى غادر العراق سنة ٦٢٢ ثم استقر بالمدينة تسع سنوات أحدث فيها تغييرا هاما حيث انتقل بالدعوة إلى المدينة وضم إليها حاكمها ابن نميلة وكون فيها مدرسة للدعاة تخرج فيها القزوينى والسخاوى والأبيدرى ، وأنشأ بها زاوية الرفاعية[١] .

وعلى ذلك فالمرجح أن يكون عز الدين الصياد الرفاعى هو الذى أشار على الحسن باصطحاب أخيه البدوى ليتعلم أصول الدعوة فى « أم عبيدة » فى واسط العراق .. وكان ذلك سنة ٦٣٣ أى أثناء وجود عز الدين فى مكة لأنه استقر بالمدينة تسع سنوات أى إلى سنة ٦٣١ . ثم أقام بمكة إلى أن انتقل منها إلى مصر سنة ٦٣٧ .

فلا شك أن البدوى جذب انتباهه فى مكة وربما بالمدينة قبل ذلك حيث تفوق البدوى فى الفروسية على شباب مكة والمدينة معاً .

وتغلف الأساطير رحلة البدوى للعراق وفيها ما يرمز للطموح السياسى .. من ذلك ما ورد فى الجواهر السنية « قال سيدى أحمد البدوى . بينما أنا نائم بجوار الكعبة وإذا أنا بهاتف يقول لى فى المنام : استيقظ من نومك ياهمام، ووحد الملك العلام .. ولا تنم فمن طلب المعالى لاينام ، فوحق أبائك سيكون لك حال ومقام : واطلب مطلع الشمس .. لتحظى بزيارة الأبطال والرجال الكرام .. فاستيقظت من من منامى وأنا فى هيامى وكانت ليلة الأحد عاشر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فأخبرت أخى الحسين بذلك ، وكان أخى الحسن أكبرنا سناً وأرفعنا قدراً .. وكان هو الخليفة علينا بعد والدنا ، فقال

---

(١) طبقات الرفاعية ، ٤٧ .

يا أخى أكتم سرك ولا تبح به .. واعلم يا أخى أحمد إن كل بلاد لها رجال ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى ، وإذا دخل بلادهم أحد من الرجال من أرباب الأحوال أمرهم قطبهم بالرواح إليه .. فإن كانوا أقوى منه رجعوه وإن لم يتأدب معهم قتلوه وسلبوه ، وإن كان أقوى منهم زجرهم وبددهم ومزق شملهم . ويقع بينهم الحرب والطعن والضرب »[١] فالأسطورة ترمز إلى ما آل إليه العراق فى هذه الآونة .. تلك الحال التى أخرجت عز الدين الصياد عنه .. وحين أرسل البدوى للعراق ليتعلم الدعوة فى أم عبيدة لم يفارقه الخوف الذى تعبر عنه بقية الأسطورة مع أن البدوى كان فارس وطنه ولم يذهب فى رحلته منفردا بل صحبه أخوه الأكبر مرشداً .

وفى الأسطورة كان الرفاعى يأتى للبدوى فى منامه مرشداً سياحياً فى مسالك العراق إلى أن وصلوا أم عبيدة « وإذا بالخيام قد لاحت وأعلام أم عبيدة قد بانت فقلت لأخى الشريف حسن : يا أخى كأن هذا ملك من بعض ملوك العرب نزل فى هذا المكان ونصب خيامه ونشر أعلامه فقال لى : يا أخى هذه أم عبيدة ، وهذه الخيام خيام السيد احمد بن الرفاعى وليس يكشف هذا السر إلا القليل من الناس ، وهذه الخيام والأعلام لرجال تحتها قيام قد سهروا الليل فى الظلام وجاهدوا أنفسهم بالصيام والقيام » ، وتمضى الأسطورة فتصور تكليف البدوى من قبل القائمين على الأمور فى ام عبيدة بأن يذهب للقاء بنت برى ، وتفصل صراعه معها[٢] .

ويقينى أن أسطورة فاطمة بنت برى — التى لا محل لها من الاعراب — قد حيكت للتعمية على التعليم السرى الذى يتلقاه البدوى فى أم عبيدة — وكانت وقتها تحاول أن تبدوا تصوفا بحتا لا شائبة فيه من تشيع أو دعوة سرية .. وكان أنسب الأساليب هو التلهية بقصة فاطمة بنت برى التى تحاول إغراء

(١) ٤٧ : ٤٨ (٢) نفس المرجع ٤٩ : ٦٠

البدوى (وساب حاله) ، ومع ما فى قصة البدوى وبنت برى من شكوك حول علاقة ما بينهما ، فإن هذه الشكوك مقصودة ليستغرق فيها الخصوم وينسوا الطابع السياسى للرحلة ، وقد مر بنا أن الرفاعى والملثم تطوعا بقبول الاتهام الخلقى لستر الدافع السياسى .

وإلى ما قبل رحلة البدوى للعراق كان يبدو أبعد الناس عن أن يكون صوفياً ، فقد بز أقرانه بفروسيته واشتهر بدهائه فرأى أولو الأمر أن يذهب إلى العراق ليكتسب مسحة تصوف يختفى تحتها حين يكلف بأمر من أمور الدعوة . .

وفى العراق اكتمل إعداد البدوى على يدى الصوفى الشيعى ابن عرب تلميذ الرفاعى وشقيق أبى الفتح الواسطى[1] وعاد لمكه شخصاً مختلفاً ، وتصور الكتابة الصوفية ذلك بقولها (ولما حدث له حادث الوله ـ الجذب ـ تغيرت سائر أحواله واعتزل الناس وكان لا يتكلم إلا بالإشارة لمن يحبه فأمسكنا معه الأدب)[2] وبهذه الصورة الجديدة التى عاد بها من العراق توجه البدوى لمصر وقد اتخذ مظهر المجذوب .

وبموت أبى الفتح الواسطى سنة ٦٣٥ وقع الاختيار على البدوى ليخلفه فى مصر ، ورتب عز الدين الصيـــاد الأمور للداعية الجديد ، فاختار له المكان ، ووزع الأدوار المساندة للبدوى على بقية الدعاة من مصر والعراق والمغرب .

---

(١) واسمه فى طبقات الرفاعية : الشيخ برى ، يقال عنه (والشيخ برى خرقة من سيدنا أحمد بلا واسطة ـ طبقات الرفاعية ٢٦) وهى إشارة لتميزه بشىء معين عن أقرانه من الرفاعية ، أنظر أيضاً النصيحه العلوية للحلبى ٢٥ ا مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) نفس المرجع ١٩ والطبقات الكبرى للشعرانى ١٥٩/١

الاعداد لدعوة البدوى فى مصر :

وصلها سنة ٦٣٧[٣]. وقبل وصوله بعام كان عز الدين الصياد قد دخل القاهرة ، يقول البكرى عنه : (ثم إنه ـ أى عز الدين ـ دخل مصر سنة ست وثلاثين وستمائة وأقام بالمسجد الحسينى وأقبل عليه الناس وتلمذ له العلماء والشيوخ مثل جمال الدين بن الحاجب وغيره وأقام بمصر سنتين)[٤] ، وفى المدة التى قضاها عز الدين بمصر (٦٣٦ ـ ٦٣٨) كان قد وصل للبدوى فوجد الأمور معدة له على النحو التالى :

(١) إختيار طنطا كمكان للدعوة السرية ، كان إختيار طنطا مركزاً للبدوى فى هذه الفترة عملا صائباً دل على معرفة بأهميتها وظروفها المواتية للهدف الذى اختيرت من أجله ، وواضح إن عز الدين الصياد قد إستشار أولى الأمر من مدرسته التى كونها بالقاهرة . . وهم أدرى ببلادهم والأعرف بأصلح مكان للدعوة . . فطنطا تتوسط الطريق بين العاصمة (القاهرة) و (الأسكندرية) مركز أتباع الواسطى ويمكن بتوسطها للدلتا أن تكون مركزاً هاماً للدعوة فى مصر يسهل اتصالهم بها . . ثم إن بعدها عن القاهرة مناسب يتيح لمن بها أن يكون يقظاً لما يحدث فى العاصمة من تطورات يأتيه بها أعوانه فيها .

ومحاولة الابتعاد عن السلطة وأعوانها كان عاملا هاماً فى اختيار طنطا فإن (سخا) شاركت طنطا موقعها الاستراتيجى وكمركز للمواصلات والطرق البرية إلا أن سخا فى عهد البدوى كانت أكبر مدن الغربية وبها دار الوالى

---

(٣) مجلة السياسة ص ١١ : عبد الصمد الجواهر ٦

(٢) تراجم صوفية مخطوط ورقة ٣٢

كما ذكر ياقوت الحموى[١] فابتعد عنها مخططو الدعوة وآثروا طنطا التى وصفها ياقوت بأنها « من كورة الغربية وبينها وبين المحلة ثمانية أميال[٢] » أى كانت طنطا فى ذلك العهد مجرد قرية صغيرة تعرف بالمسافة بينها وبين المحلة التى كانت أكثر شهرة فقد اتخذت عاصمة للغربية ، ويكفى ذلك للابتعاد عنها ..

وهناك عامل تاريخى خاص بالشيعة ، فقد اتخذ الفاطميون من (طنطا) عاصمة لأحد أقاليم مصر السفلى فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) وعرف إقليمها باسم الطندتاوية ، وقد انحسرت أهميتها بانحسار الحكم الفاطمى عن مصر ومجىء أعدائه .. إلا أن الشيعة كانوا لايزالون يحتفظون لطنطا بالذكريات وعرفوا أهمية موقعها فأعادوها مكاناً لدعوتهم السرية ، وحرص البدوى وهو فى طنطا على الخلوة بمسجد البوصة المعروف الآن باسم مسجد البهى « وتدل حاله على أنه أقدم المساجد بطنطا لأنه بنى بربوة عالية ولأن مئذنته ذات أضلاع وعليها برج مغلق على نظام مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى »[٣] فالبدوى اختار مسجداً فاطمياً للعزلة فيه ، وربما كان يفكر فى أسلافه الشيعة الفاطمية وهو يرتب لدعوته السرية لإعادة ملكهم الضائع .

وفى داخل طنطا تم ترتيب آخر لاستقبال البدوى، فتعين المنزل الذى سيقيم فيه والرجل الذى سيساعده، بحيث أن البدوى قدم من مكة إلى طنطا مباشرة فدخل المكان مباشرة ووجد صاحبه على استعداد وترقب وانتظار ، وذلك ما نلمحه من خلال السطور فيما يقوله عبد الصمد « كان بطندتا رجل من أولياء الله تعالى يسمى الشيخ سالم وهو المبشر بقدوم سيدى احمد البدوى ،

(١) (٢) معجم البلدان ٦/٦١ ط ١٩٠٦

(٣) نور الدين . البدوى ٥٧ ط ١٣٦٦

وذكر أنه استدعى الشيخ ركين وقال له : اعلم أنه يقدم عليك رجل يسمى احمد البدوى وينزل بطندتا فى بيتك يا ركين . وبعد مدة قدم سيدى احمد البدوى ضارب اللثامين ، وكان من عادة الشيخ ركين أنه يصنع طعاما فى بيته فى كل أسبوع ويجتمع فيه أقاربه من النساء والرجال فيطعمهم ويكرمهم فبينما هم مجتمعون فى مثل ذلك اليوم إذ دخل عليهم سيدى أحمد البدوى .. فلما تأملوه فإذا هو رجل أشعث أغبر ضارب اللثامين فصاحت النساء فى وجهه فلما علت أصواتهن دخل عليهن الشيخ ركين فإذا هو رجل مجذوب وإمارة الولاية لائحة فائقة على وجهه ، ووقع فى قلبه أنه البدوى الذى بشره به الشيخ سالم .. فأقبل عليه بكليته وقبل يديه ورجليه وجثا على ركبتيه .. إلخ »[1] .

ولم يكن عسيراً أن يستقطب الشيعة أعوانا لهم داخل قرية طنطا بحكم أنها كانت مركزاً هاما فى الدولة الفاطمية قبل قرنين من الزمان . ومن المعقول أن يحتفظ بعض الأثرياء فيها بذكريات عن ثراء أسلافهم وبلدهم فى ظل الفاطميين الشيعة ويأملون أن تستعيد هذا المجد بالتعاون مع الدعوة الشيعية الجديدة ، والمنتظر أن تظل فى طنطا جذوة من التشيع تحت الرماد .

ونتوقف مع الشيخ سالم ذلك الذى بشر بقدوم البدوى .. ويبدو من حديث عبد الصمد عنه أنه كان ذا مكانة فى البلدة بحيث أنه استدعى ثريا كالشيخ ركين وأخبره بمجىء البدوى وألزمه بضيافته ، ويتبادر للذهن أن ذلك المبشر بقدوم البدوى كان ضالعاً فى التخطيط للشيعى ، وهذا ماحدث فعلا فسالم ينتمى المغرب موطن المدرسة المغربية المساندة لمدرسة العراق ، يقول عبدالصمد عن موقف البدوى من أولياء طنطا حين استقر بها « وأما سيدى سالم المغربى فأنه أقام بطنتدا ودخل تحت حكم الأستاذ وسلم الأمر إليه إلى أن مات »[2] .

(١) عبد الصمد ٤٠ . (٢) نفس المرجع ٢٢ .

وبسبب الدور السياسى الذى قام به سالم المغربى فى تأييد البدوى ضد خصومه من الصوفية الآخرين ، وما سبق ذلك فى تمهيد الأمور له قبل قدومه ، بسبب هذا الدور فإن هناك اضطرابا ـ أظنه مقصودا ـ فى سيرة ذلك الرجل وتاريخه ، فبينما يقول عبد الصمد أنه « دخل تحت حكم الأستاذ وسلم الأمر إليه إلى أن مات » يقول فى موضع آخر أنه مات قبل دخول البدوى طنطا[1] .

وسالم المغربى يذكرنا بصوفى آخر أكثر شهرة أتى من المغرب ليساند الدعوة السرية ، إنه أبو الحسن الشاذلى ت ٦٥٦ .

(ب) أبو الحسن الشاذلى يحتل مكانة الواسطى فى الاسكندرية :

بعد موت الواسطى فى الاسكندرية بادرت مدرسة المغرب بزعامة ابن بشيش بايفاد الشاذلى ليحل محل الواسطى ويرث دعوته ، وتم ذلك بتخطيط وتنسيق مع المدرسة العراقية وشيخها الذى أقام بالقاهرة عامين يرتب فيها أمور الدعوة للبدوى الوافد الجديد الذى سيحتل مكانا آخر سريا بعيداً عن الأنظار هو طنطا بينما ينفرد الشاذلى بالاسكندرية .

ويقول المناوى فى ترجمة أبى الفتح الواسطى مبعوث الرفاعى فى الاسكندرية « ولم يزل مقيما بالاسكندرية والناس يقبلون عليه حتى مات وأذن للشاذلى بالدخول قبل موته فصلى عليه »[2] والمناوى يوحى بأن الشاذلى لم يدخل الاسكندرية ـ بلد الواسطى ـ إلا بإذن ورضى من أولى الأمر ، وقد قام بالصلاة عليه حين دفن فمعنى ذلك أنه خليفته القائم بالأمر من بعده .

وظهر أن مهام أبى الفتح الواسطى قد توزعت بعد موته بين الشاذلى فى الاسكندرية والبدوى فى طنطا ، فتلاميذ الواسطى عملوا فى خدمة البدوى وحلقات اتصال بينه وبين أعوان الدعوة فى الدلتا والقاهرة ، أما الشاذلى

---

(١) نفس المرجع ، ٤٠ ، ٣٢ (٢) الطبقات الصغرى مخطوط ٨١ .

فى الاسكندرية فقد كان واجهة صوفية تطمئن أولى الأمر على خلو المدرسة الواسطية فى الاسكندرية من طموحها السياسى ولتشغلهم بالتصوف عن البدوى القابع فى طنطا ، ثم إن الاسكندرية نقطة الاتصال البحرى بين الشام والعراق والحجاز من جهة وأفريقيا والمغرب من جهة .. وفى نفس الوقت فاتصالها ميسر بطنطا والقاهرة ، ووجود طريقة صوفية بالاسكندرية يجعل منها حلقة اتصال أساسية بين المدرستين العراقية والمغربية وتكون غطاء مناسبا للبدوى فى طنطا . .

ثم إن الفراغ الذى حل بالاسكندرية بوفاة الواسطى لابد أن يتداركه أساطين الدعوة بملئه بتصوف شيعى من داخل الدعوة حتى لا يحتل الاسكندرية من لاتؤمن بوائقه من المتصوفة المتعاونين مع السلطة وما أكثرهم .

وانتماء الشاذلى للمدرسة المغربية وشيخها وشيخه ابن بشيش أمر معروف غير منكور ، ولكن الذى نحققه هنا هو انتماؤه للمدرسة العراقية الذى يربطه بالدعوة السرية وأصحابها ويجعله من ضمن العاملين فى إطارها مهما تضاءل الدور المسنود إليه ، والواقع أن الشاذلى كغيره من أساطين المدرسة المغربية لهم انتماء سرى بالمدرسة العراقية اتخذ صورة العهد والخرقة وهو نفس الطريق الذى اتخذه الشيعة المتسترون بالتصوف غطاء للتقابل وجمع الأنصار ووضع الخطط .

وهناك أكثر من حلقة تربط الشاذلى المغربى بالمدرسة العراقية، فالشاذلى ينتمى لشيخه ابن بشيش ت ٦٢٦ ، وابن بشيش أخذ الخرقة عن الشيخ برى العراقى تلميذ الرفاعى وداعيته السرى ، وهو نفسه ـ أى الشيخ برى ـ هو الأستاذ الذى أخذ عنه البدوى ، وليس غريبا أن يتطامن شيخ كبير فى موطنه كابن بشيش ليأخذ العهد على تلميذ سرى للرفاعى ، ذلك أن أخذ العهد كان طريقة سرية للتلاقى وترتيب الخطط .

فالشاذلى ينتمى للمدرسة العراقية بطريقة غير مباشرة بالتبع لشيخه ابن بشيش الآخذ عن المدرسة العراقية .

يقول صاحب الطبقات الرفاعيه أن الشاذلى أخذ الخرقة عن ابن بشيش عن الشيخ برى العراقى عن الشيخ أحمد الرفاعى[1] .

وبعد ابن بشيش كان اتصال الشاذلى المباشر بالمدرسة العراقية ، واتخذ نفس الصورة ، صورة إعطاء العهد ، مع أن الشاذلى بعد موت ابن بشيش لم يعد مريداً صغيراً فى بداية الطريق، ولـكنه الأسلوب الذى يقستر به أساطين الدعوة السرية ، وبه اتخذ الشاذلى لنفسه خرقة رفاعية بالطريق المباشر فأخذ العهد على تلميذ لابن سيد بونه الخزاعى هو عبد الرحمن العطار ، وقد مر بنا أن ابن سيدبونه الخزاعى كان داعية سرياً للمدرسة العراقية ومع أنه مجهول منـكور إلا أن علمـاً كبيراً من المدرسة المغربية ـ هو ابن عربى ـ أخذ على يديه العهد ، ثم جاء عبد الرحمن العطار يجدد مسيرة شيخه ابن سيدبونه كما جاء الشاذلى يأخذ العهد على العطار أسوة بابن عربى مع ابن سيدبونه .

والشاذلى على هذا أخذ الخرقة الرفاعية عن عبد الرحمن العطار عن ابن سيدبونه عن الرفاعى . . ولم تنقطع صلة الشاذلى بالمدرسة العراقية فاتخذ لنفسه صاحبا منهم هو نجم الدين الأصفهانى[2] مستشاره فى الدعوة ، وقد كان الاصفهانى فيما بعد شيخا للنسوقى الذى تابع مسيرة الشاذلى بعد موته .

وقد تجلت وحدة التخطيط بين المدرستين العراقية والمغربية فى ارتحال الشاذلى للاسكندرية ليخلف أبا الفتح الواسطى العراقى فيها .. وصدر الأمر للشاذلى من شيخه ابن بشيش بالسفر للاسكندرية[3] فى نفس الوقت الذى يمرض فيه أبو الفتح الواسطى ويموت ، وابن بشيش ومدرسته المغربية

(١) طبقات الرفاعية ٢٧ (٢) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٤

(٣) تعطير الأنفاس ورقة ٢٩ .

أقرب للاسكندرية وأدرى بظروفها وأكثر اطلاعا على مجريات الأمور والدعوة فيها .

وقد كان ابن بشيش يعانى من عنت السلطات الحاكمة فى دولة الموحدين التى تتعقب مدرسة ابن مدين وتلميذه ابن بشيش ، ودفع ابن بشيش حياته ثمنا لهذا الاضطهاد وبعد مقتله كان على الشاذلى تلميذه الأول أن يتحمل نصيبه من العنت والاضطهاد قبيل رحيله للاسكندرية ، وقد أوردت الكتابات الصوفية فى ترجمة الشاذلى بعض الأخبار عن الاضطهاد الذى قاساه الشاذلى قبيل سفره للاسكندرية .. وإن أضفت عليه — كالعادة — أساطير الكرامات لتستر السبب السياسى فى الاضطهاد والمحاكمات ، ومع ذلك فإن رائحة السياسة تظهر من خلال الحوار وبين السطور ، كأن يقال أن خصم الشاذلى وشى به عند السلطان فى تونس وقال عن الشاذلى (أن هاهنا رجل من أهل شاذله سواق الحمير يدعى الشرف وقد اجتمع عليه خلق كثير ويدعى أنه الفاطمى ويشوش عليك فى بلادك[١]) ويلاحظ أن دعوة الفاطمى المنتظر قد روجتها مدرسة أبى مدين وتلميذه ابن عربى فى كتبه وابن بشيش فى دعوته ، وقد استمرت هذه الدعوة إلى القرن الثامن حتى أن ابن خلدون فيما بعد هاجم هذه الفكرة فى مقدمته ، وابن خلدون كما نعرف فقيه مغربى خدم سلاطين الموحدين وهو أعرف بجذور النشاط الشيعى وقد أرجع هذه الفكرة إلى ابن عربى ومدرسته كما أوضحنا سابقا .

والمهم أن الشاذلى اتهم عند السلطان المغربى بأنه (يدعى الشرف) و (يدعى أنه الفاطمى) أى الفاطمى المنتظر وإن كثيرين أجمعوا عليه (وقد اجتمع عليه خلق كثير) وأنه أحدث هزة سياسية أخافت أولى الأمر أو انه

---

(٢) نفس المرجع ٣٨ : ٤٤ .

(بشوش) على السلطان في بلاده ، وكان منتظراً أن يهرب الشاذلي من صميم الاضطهاد وخصوصاً وأن أبا الفتح الواسطي في الاسكندرية يعيش أيامه الأخيرة ، وتحاول أساطير الكرامات أن تموه على الدوافع السياسية وأن ترفع من شأن الشاذلي وهو يقاسي الاضطهاد من السلطات فتروى أن السلطان عقد مجلساً لمحاكمة الشاذلي (وتحدثوا في العلوم المكتسبة والعلوم الوهبية) أي اللدنية ، ولا بد أن ينتصر الشاذلي في الأسطورة على خصومه أمام السلطان كنوع من التعويض عما يلاقيه من اضطهاد ، ثم تقول الرواية أن ابن عبد البر قاضي القضاة للسلطان والخصم الأكبر للشاذلي يقول عنه للسلطان « والله لئن خرج في هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجونك من بين أظهرهم فإنهم مجتمعون على بابك .. وكان ابن عبد البر ما أراد بذلك إلا حبس الشاذلي »[1] فالرواية تفصح هنا على أن شيعة الشاذلي قوية إلى درجة أن خصمه اتخذ منها دليلا أمام السلطان على خطورة الشاذلي وحاول أن يخيف السلطان إذا تهاون معه .. وكان الشاذلي حسبما تذكر الأسطورة قد انتصر على خصومه في العلوم المكتسبة واللدنية أمام السلطان فكان يميل لإطلاق سراحه ، ثم تلجأ الأسطورة إلى إسناد الكرامات للشاذلي وأنه استعرض أمام السلطان بعضا منها فأخافه وأرعبه فاضطر لإطلاق سراحه .. ولا ندرى لماذا حرم الصوفية أستاذ الشاذلي ومعلمه وشيخه ـ ابن بشيش ـ من هذه الكرامات حين اغتاله أعوان السلطان ، ولو كان الشيخ الشاذلي بعض منها لكان محفوظا من كيد الأعداء ، وربما يكون الشاذلي قد أفلت من قبضة السلطان في مجلس محاكمته بالتقية وهي الأسلوب الشيعي المعروف حين الأزمة ، ثم أحس الشاذلي بأن إذا أفلت مرة فلن يفلت الأخرى ، فكان هربه للاسكندرية .

---

(١) نفس المرجع ، تعطير الأنفاس ٣٨ : ٤٤ ، النويري . الالمام مخطوط ٢/٧٧ : ٨٨ .

وقد أحس السلطان وأتباعه بخطورة الشاذلى حين هرب للاسكندرية ، ولأنه أفلت من قبضتهم فلم يسعهم إلا الكيد له عند أولى الأمر فى الاسكندرية ليشفوا غليلهم . تقول كتابات المناقب إن ابن عبد البر أرسل خلف الشاذلى رسالة لوالى الاسكندرية الأيوبى على صورة (عقدفيه شهادة) بأن (الواصل إليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل فى بلادكم)[1] .

إلا أن تحذير المغاربة لم تؤثر على الشاذلى فى الاسكندرية ، فوظيفة الشاذلى أن يبدو أمام أولى الأمر تصوفا محضا لطمأنة الأيوبيين وحتى لاتتكرر قصة اضطهاده المغربية أو يكون لدسائس المغاربة أثر فى موضعه الجديد ، وساعده على نجاحه فى سياسته الجديدة المختلفة انتقال الثقل السياسى للدعوة إلى طنطا وانشغال الأيوبيين بمنازعاتهم الأسرية بين مصر والشام مما يجرى تحت ذقونهم فى الاسكندريه وطنطا وغيرها .

ويتضح فى الروايات الصوفية عن اضطهاد الشاذلى فى المغرب اتجاه لتبرئة السلطان الموحدى وتحميل السخط كله على قاضى القضاة ابن عبد البر كزعيم للحاقدين على الشاذلى وأن السلطان كان سرعان ما يقتنع بولاية الشاذلى وأنه برىء من الاتهامات السياسية التى يكيلها لها ابن عبد البر ، ثم تمضى الأساطير فتصور ما حاق بابن عبد البر من نكبات كجزاء على تطاوله على الشاذلى ، وذلك جميعه خطاب غير مباشر لأولى الأمر بالاسكندرية والقاهرة لتغطية السبب الحقيقى فى هروب الشاذلى للاسكندرية وأن الأمر لا يتعدى تنافساً حاقداً من قاضى القضاة ابن عبد البر موجها للشاذلى الذى يفوقه فى (العلوم الوهبية والمكتسبة) .

وقد آتت هذه السياسة أكلها فاطمأن أولو الأمر من ناحية الشاذلى فلم يرد فى المصادر التاريخية أى نبأ عن اضطهاده وقد كان علما معروفاً فى

---

(١) تعطير الأنفاس ٣٨ : ٤٤ ، النويرى : الالمام مخطوط ٢/٧٧ : ٧٨

القرن السابع ، ولا يتصور مثلا أن تعقد له محاكمة بالاسكندرية دون ان يدونها المؤرخون المعاصرون للشاذلى وهو معروف لديهم .

إلا أن بعض الكتاب الصوفية استمرأ الكذب ومارس هوايته فى إسناد الكرامات للشاذلى فى الاسكندرية والقاهرة ضد السلطان الأيوبى استمراراً لما نسجوه عن بطولات الشاذلى ضد السلطان المغربى فى تونس .

وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حين يظهرون شيخهم طويل الباع فى ميدان الكرامات والتصريف فقدقالوا إن السلطان المصرى - ولم يعينوا له إسما او وصفاً - حين جاءته رسالة ابن عبد البر التى تحذر من الشاذلى قد بادر باعتقال الشاذلى فما كان منه إلا ان مارس مع السلطان المسكين بعض كراماته (فحركوه فلم يتحرك ولم ينطق) على حد تعبيرهم إلا حين عفا عنه الشاذلى وحينئذ اعتذر للشاذلى واقر له بالولاية[1] .

ونقطة الضعف لدى كتاب المناقب الصوفية تتمثل فى غرامهم بتأليف الأساطير وتأليف الكرامات وإسنادها لأشياخهم حتى لو ناقضت الواقع التاريخى او الدينى او سببت ضرراً للشيخ الذى تؤلف فيه كما هو الحال فى صاحبنا الشاذلى .. فكراماته المزعومة تنافى كتابات المؤرخين المعاصرين له والتى لم يرد فيها إشارة أضطهاد فى تاريخه ، كما انها - اى الكرامات عموماً تناقض الواقع الإسلامى وذلك ما سنتعرف عليه فى الفصل الثانى .

ولكن المهم ان كاتب المناقب نفسه يناقض اساطيره حين يقول عن الشاذلى (لما قدم من المغرب الأقصى إلى مصر صار يدعو الخلق إلى الله فتصاغروا وخضع لدعوته اهل المشرق والمغرب)[2] فأين كان ذلك المضطهد المعتقل فى الرواية السابقة ؟ وهو هنا بمجرد قدومه يدعو الخلق فيتصاغرون امامه على حد قوله .

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة (٢) تعطير الأنفاس مخطوط ٦٣

ثم إن الشاذلى يعبر عن وضعه الجديد حين استقر بالاسكندرية وأمن فيها بعد خوف وعز فيها بعد ذل واستراح فيها بعد اضطهاد .. فيقول عن نفسه « لما قدمت إلى مصر قيل لى : ياعلى ذهبت أيام المحن وأقبلت أيام المنن[١] » ومن الاسكندرية كتب لبعض أتباعه فى المغرب يقول « الكتاب إليك من الثغر حرسه الله ونحن فى سوابغ نعم الله نتقلب »[٢] ولو حدث اضطهاد للشاذلى فى مصر لما وصف قدومه لها بهذه الصورة الوردية .

وبعد .. فلقد كان للشاذلى الفضل فى اجتذاب عز الدين عبد السلام إلى طريقته الصوفية ، وفى هذا نصر كبير للدعوة .. قدر لعزالدين بن عبد السلام أن يدفع ثمنه غاليا فيما بعد ، وسنعرض لذلك فى أوانه ، إلا أن الشاذلى توفى سنة ٦٥٦، فكان لابد لمخططى الدعوة السرية أن يبحثوا له عن خليفة يقوم بوظيفته .

(ج) مشاركة الدسوقى :

عاش عز الدين الصياد طويلا (٥٧٤ ـ ٦٧٠) ولاريب أنه علم بأن فاطمة بنت الشيخ أبى الفتح الواسطى قد أنجبت شابا يافعا هو إبراهيم الدسوقى (٦٣٣ ـ ٦٧٦) فكان لابد لإبراهيم أن يأخذ دوراً فى الدعوة الجديدة .
وقد سبق أن وضحنا أن الشيعة استخدموا (النسب السياسى) وسيلة لتدعيم الروابط بين الأطراف المشتركين فى الدعوة السرية ، وقد كان والد الدسوقى وهو (عبد العزيز) من الصوفية المشهورين فى دسوق ممن ينتحلون النسب العلوى ، وإصهاره إلى أبى الفتح الواسطى صاحب الدعوة السرية الشيعية يعنى أنه كان ذا شأن خفى فى الدعوة وإلا ما استحق أن ينال شرف المصاهرة من زعيمها فى الاسكندرية .

ومع غموض سيرة عبد العزيز الدسوقى ـ والد ابراهيم ـ إلا أن الشاذلى

---

(١) (٢) عن كتاب الشاذلى لعبد الحليم محمود : ٤٥ .

كان يزوره فى نواحى دسوق ، وكان الصلة بينهما صوفى شهير يقال له ابن هارون وثيق الصلة بعبد العزيز الدسوقى[١] ، والشاذلى كان خليفة الواسطى فى الاسكندرية ، والواسطى صهر عبد العزيز الدسوقى .

وقد توفى الشاذلى سنة ٦٥٦ فتأهب الدسوقى ليحل محله . وغدت بذلك دسوق ـ التى لا يعلم بها أحد حينئذ ـ مركزا للاتصالات داخل وخارج مصر مشاركة للبدوى فى طنطا .. ودسوق قريبة من طنطا .

وكان الدسوقى طفلا صغيرا حين مات جده أبو الفتح الواسطى ، وما كان للمدرسة الرفاعية أن تترك حفيد الواسطى دون رعاية فكان أن تعلم أصول الدعوة على يد شيخين كبيرين من الرفاعيه هما (نجم الدين الاصفهانى الرفاعى) وكان وثيق الصلة بالشاذلى ، (وعز الدين الفاروثى[٢]) ، ومن الطبيعى أن تناله رعاية أبيه صهر الواسطى وتلميذه يقول عبد القادر الطبرى عن الدسوقى (وكان أبوه السيد أبو المجد من أعيان خلفاء الشيخ أبى الفتح الواسطى الأحدى وقد ألبس خرقته الأحمدية ـ الرفاعية ـ لولديه الجليلين : السيد موسى والسيد ابراهيم)[٣] .

ثم كانت للدسوقى صلات بالمدرسة المغربية تمثلت فى علاقته بالشاذلية ، ولأن الدسوقى احتل مكانة الشاذلى فى الدعوة بعد موته ـ فإن البعض اعتبره امتداد للشاذلى أو شاذليا ، يقول مرتضى الزبيدى عن الطريقة البرهانية الدسوقية (البرهانية شعبة كبيرة من الشاذليه)[٤] ويقول الكوهن عن الدسوقى وقد جعله ضمن أعيان الشاذلية فى كتابه « طبقات الشاذلية الكبرى »

---

(١) مناقب الوفائية : مخطوط ورقه ١٥ ، ١٦ .
(٢) طبقات الرفاعية ٢٧ .
(٣) كشف النقاب عن أنساب الأربعة الأقطاب ط ١٣٠٩ ص ١٤
(٤) طرق الإلباس والتلقين : مخطوط ص ٣٢ . المكتبة التيمورية .

« سيدى ابراهيم الدسوقى القرشى الحسينى الهاشمى الشاذلى[١] » ويقول النشابى « .. فالشاذلى بشيشى ـ أى نسبة لإبن بشيش ـ والدسوقى شاذلى[٢] .

بل إن بعضهم وصل بين الدسوقى وابن بشيش رغم أن الأخير قتل قبل مولد الدسوقى بأكثر من عشر سنوات يقول عن ابن بشيش « ويكفيك فى فضله وجلالة قدره أنه أستاذ الأقطاب الثلاثة سيدى ابراهيم الدسوقى وسيدى أحمد البدوى وسيدى أبى الحسن الشاذلى[٣] » وبعضهم بالغ فاعتبر الدسوقى تلميذاً للشيخ عبد الرزاق مبعوث أبى مدين فى الاسكندرية والذى أخذ عليه أبو الحجاج الأقصرى[٤] .

والربط بين الدسوقى وأساطين الدعوة المغربية يعنى أن الدسوقى احتل مكانة الشاذلى فى الدعوة بينما احتل أبو العباس المرسى حلقة الشـاذلى فى التصوف فى الاسكندرية .

وقد كانت بين الدسوقى والبدوى مراسلات ولقاءات يقول البدوى فى بعضها للدسوقى « أما سمعت وعلمت أننا أخذنا العهود والمواثيق على بعضنا[٥] » ؟ . وأبرز ما ينم عن التلاقى بينهما هو التشابه فى الأحزاب لدى الشيخين، فحزب البدوى يقول (لووا عما نووا فعموا وصموا عما طووا ، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. السورة . اللهم اكفنيهم مما شئت .. » وحزب الدسوقى الـكبير يقول « نووا فلووا عما نووا ثم لووا عما نووا فعموا وصموا فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا .. » .

(١) طبعة ١٣٤٧ ص ٧٩ .

(٢) أسرار الحقيقة لمن يسلك الطريقة ط ١٩٢١ ص ٢٨ .

(٣) معاهد التحقيق لابن عفيف الدين . ط ١٩٦٠ ص ١٦٦ .

(٤) البكرى : تراجم صوفية ٨٧ . مخطوط

(٥) طبقات البقاعى . مخطوط ورقه ١٢٦ ب

وواضح أن كلاهما يواجه غريما عاتيا . . وهذه نبرة غريبة فى الأحزاب الصوفية .. فالأوراد والأحزاب عند الصوفية العاديين تفيض رقة وضعفا . أما أولئك فأصحاب دعوة سرية تواجه خصما حاربوه حتى بالأحزاب . . ثم أن الطموح السياسى يتنفس شعرا لدى البدوى والدسوقى :

فالبدوى يقول : سائر الأرض كلها تحت حكمى   وهى عندى خردل فى فلاء

ويقول : أنا أحمد البدوى غوث لاخفا   أنا كل شبان البلاد رعيتى «١»

والدسوقى يقول : وحكمنى فى سائر الأرض كلها   وفى الجن والأشباح والمرديه

أنا الحرف لا أقرأ لكل مناظر   وكل الورى من أمر ربى رعيتى «٢»

واللثام الذى اشتهر به الرفاعية والبدوى بحكم نزوحهم من أفريقيا ـ نسب أيضا للدسوقى مع أنه مصرى المولد النشأة . وما كان ذلك إلا متابعة للدعوة وأصحابها . فيقال أن أحد الأمراء دخل على الدسوقى (فوجده ملثما على عادته)(٣) ، واللثام كان يرمز به للأسرار التى يحتفظ بها صاحب الدعوة كما سنرى فى قصة البدوى ولثامه مع عبد المجيد . . والدسوقى كانت له أسراره التى يعرف كيف يحافظ عليها ويوصى مريديه بذلك يقول « ياولد قلبى كن على حذر من الدخلاء والدخيل السوء ، وما للمرأ ياولدى إلا أن يكون على حذر من جميع البشر »(٤) والشيعة أصحاب التقية والدعوات السرية على حذر دائم من جميع البشر .. والدسوقى أحدهم ولقد وصف بأنه « القطب الكبير المرشد للصواب المنقطع عن الخلق فى السرداب)(٥) والانقطاع

(١) عبد الصمد . الجواهر ٩٥ ، ٩٩

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ١٥٧/١ : ١٥٨

(٣) الكركى . لسان التعريف مخطوط ٤٣

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ٥٦/١

(٥) عقد الجواهر الثمين مخطوط فى المكتبة التيمورية ص ٣٢

فى السراديب من صفات الفاطمى المنتظر ، وصاحبنا (ابن فاطمة بنت أبى الفتح الواسطى[١] وأساس الدعوة (للفاطمى المنتظر) .

و (أسرار) الدسوقى هى أسرار الدعوة .. وقد وقع عليه عبء التراسل بالشفرة مع الأعوان السريين الموزعين داخل وخارج مصر ، وبعض هذه الرسائل كانت تذهب إلى مكة المركز العصبى للدعوة ، ولقد تسترت هذه الرسائل الشفرية تحت ادعاء الدسوقى بأنه يعلم السريانية ، ويتكلم بسائر اللغات ، يقول الشعرانى عنه (وكان رضى الله عنه يتكلم بالعجمى والسريانى والعبرانى والزنجى وسائر لغات الوحوش والطير ، وكتب رضى الله عنه إلى بعض مريديه بعد السلام : وإننى أحب الولد وباطنى خلى من الحقد والحسد ولا بباطنى شظا ولا حريق لظا ولاجوى من مضى ولا مضض غضا ولا نكص نصا ولا سقط نطا ولا قطب غطا ولا عطل عظا ولا شذب صرى ولا سلب سها ولا عقب لجا ولا سمداذ صدا ولا بدع رضا ولا شطب جدا ولا حقف حرا ولا حمش خيش ولا حفص عفص ولا خفص خنت ولا كولد كنس ولا عنس كنس) .. إلخ . إلى أن يقول (ولا قداد إنكاد ولا بهداد ولا شهداء ولا بد من العيون وما لنا فعل إلا فى الخير والنوال) وغريب أن ينتهى هذا الخطاب الرمزى بقوله (ولا بد من العيون ومالنا فعل إلا فى الخير والنوال) ، ويقول الشعرانى (وكتب إلى بعض مريديه أيضا : سلام على العرائس المحشورة فى ظل وابل الرحمة وبعد فإن شجرة القلوب إذا هزت فاح منها شذا يغذى الروح فيستنشق من لا عنده زكم فتبدو له أنوار وعلوم مختلفة مانعة محجوبة معلومة لا معلومة معروفة لا معروفة غريبة سهلة شطة فائقة طعم ورائحة وشم ميم محل

---

(١) حسن شمة : مسرة العينين مخطوط ورقة ب .

جميل جهد راب علوب نغط نبوط هوبط سهط حرموا غميطا غلب عمن عسب غاب عرماد علمود على عروس علماس مسرود قدقد فرسم صباع صبع صبوغ بنوب جهمل جمايد حربوعس . إلخ) إلى أن يقول (تزيط ولا تتسكوكم زندحدام هدام سكهول وقد سطرنا لك ياولدى تحفة سنية ودرة مضية ربانية وإنما تصفح المبهم المغلق المغرب الذى سره مغطى بالرموز) .

ويقول الشعرانى (وكتب رضى الله عنه إلى بعض مريديه أيضا : سلام إن هب الجنوب المفتق أو الصبا المعتق أو الضحى المرونق أو الشمس المتحفة أو الأضحية المعترفة فى الأبرجة المعومقة والمحبرة المحومقة) ثم يستمر فى هذا المنحى إلى أن يقول (والمربايور والشوشان والشريوساسع والبرقواشاند تفهم ياولدى فإن كلام المغرب لا يشاكل المعرب وما ليس من لغة العرب لا يفهمه إلا من له قلب) .. ويقول الشعرانى (وكتب رضى الله عنه سلاما إلى رسول الله ﷺ وأرسله مع الحجاج : سلام على أمير حى المحيا جميل المعنى سخى المراشف أرخى المعاطف كريم الخلق سنى الصدق عرفوط الوقت وردسانى الفهم ثاقب المرحب مجبول الرحب قطابه النقل قيدوح النماطة ليدوح الهناطة سر سامع الواجب بهديان الوعب بهيسانى الحداقة سبيرى الساقة موز الرموز عموز النهوز .. إلخ)[1] .

ويبدو هناك نوع من الترتيب الحرفى بين الألفاظ المترادفة كقوله : (ولا مضض غضا ولا نكص نصا ولا سقط نطا ولا شطب غطا) فقد ترادفت الصاد والضاد والطاء .. وأمثال ذلك كثير ، ومن المستحيل أن يفهم المراد من هذه التركيبات فسرها عند المرسل إليه وهو يعلم كيف يفك طلاسمها ويفهم التعليمات والأخبار الواردة فيها تحت هذه المعميات .

(١) الطبقات الكبرى ١٤٥/١ ، ١٤٦

وقد احتار الكثيرون فى تفسير هذه الرسائل يقول حسن شمه فى العصر العثمانى (وكنت قد توقفت كثيرا فى هذه الأسماء وطالعت من أجلها كتبا كثيرة من كتب الحروف فلم أعثر عليها[1]) .

وابن تيمية اعتبرها من كلام الجن[2] .. وإذا أدركنا أنها مراسلات سياسية سرية لأرحنا أنفسنا من محاولة فك طلاسمها ، وكم للشيعة من أسرار وألغاز . .

(د) الاستفادة باتباع الواسطى :

ترك أتباع الواسطى مدينة الاسكندرية للشاذلى بعد موت أستاذهم ، وتوزعوا فى الريف فى المنطقة مابين الاسكندرية وطنطا ، وتم ذلك بتخطيط محكم وأن أثار بعض الشك للسلطات الأيوبية .

يقول الشعرانى فى ترجمة على المليجى « أحد أصحاب سيدى أبى الفتح المذكور آنفا ، كان رضى الله عنه معاصراً لسيدى أحمد البدوى ، وكان سيدى أحمد رضى الله عنه إذا أرسل سيدى عبد العال له فى حاجة يقول له: إذا وصلت إلى جروز فاخلع نعلك فإن هناك خيام المليجى[3] ، وواضح فى الترجمة أن هناك تراسلا مستمراً بين البدوى وعلى المليجى ، وأن البدوى كان يعول كثيراً على هذه الاتصالات بدليل أنه كان يرسل قائد أتباعه (عبد العال) إليه ، ويوصيه بتعظيم المليجى وخلع نعاله عند خيامه .

وفى نفس الوقت تحرك البلتاجى تلميذ الواسطى من الأسكندرية إلى (بلتاج) وقد كان البلتاجى تلميذاً سابقاً للرفاعى وفد إلى مصر وانضم إلى أبى الفتح الواسطى وبعد موته تحرك إلى بلتاج ثم صار شرطياً عند والى المحلة

(١) مصرة العينين ٧٣ (٢) مجموعة الرسائل والمسائل ١/٧٣

(٣) الطبقات الكبرى ١/١٧٦ .

عاصمة الغربية[١] ليكون عيناً للبدوى على أقرب ممثل للسلطة المحلية ، ويذكر عبد الصمد إن البلتاجى قدم للبدوى حين استقر بطنطا ومعه الشيخ القليبى زميله فى مدرسة أبى الفتح الواسطى وقد أكرمهم فى نفس الوقت الذى عادى فيه الصوفية الآخرين من طنطا[٢] .

أما عبد العزيز الدرينى فقد كان مصرياً تتلمذ لأبى الفتح الواسطى، وبعد موت الواسطى انتقل إلى بلدته درين وتجول لصالح الدعوة فى القرى ، يقول عنه الشعرانى (وكان مقامه ببلاد الريف من أرض مصر)[٣] وكان الدرينى على صلة مستمرة بالبلتاجى سالف الذكر فيقول المناوى[٤] إن (الدرينى) دخل المحلة ـ وفيها (البلتاجى) ، كما يقول الشعرانى فى ترجمة (الدرينى) (وكان يزور سيدى عليا المليجى كثيراً)[٥] . وهذه الاتصالات كان الدرينى يبذلها عن رضى خاطر فى سبيل البدوى وهو يقول فيه[٦] :

يقولون يا عبد العزيز بن أحمد   بمن فى طريق القوم مادمت تقتدى
فقلت بأستاذى وشيخ مشايخى   وشيخ الطريق والحقيقة أحمد

وهذه الصلات المستمرة بين أتباع الواسطى أثارت بعض الشكوك . .

فيروى المناوى أن بعضهم شك فى البلتاجى فى بداية وجوده فى بلتاج فعرض أمره على السلطات ، وأن الدرينى ـ مع استحواذه على بعض الشهرة ـ قد اعتقل فى المحلة أثناء سيره إلى البلتاجى ، وطبيعى أن تنتهى هذه الأخبار بكرامات للتمويه[٧] ..

---

(١) المناوى الطبقات الكبرى مخطوط ٢٨٣ ، ٢٨٤

(٢) عبد الصمد : الجواهر ٣٥ : ٣٦   (٣) الطبقات الكبرى ١٧٦/١

(٤) المناوى نفس المرجع والصفحة   (٥) الطبقات الكبرى نفس المرجع والصفحة

(٦) عبد الصمد الجواهر ١٠٧ ، ١٠٨

(٧) المناوى نفس المرجع والصفحة .

وهكذا تتجلى لنا بعض ملامح التخطيط السرى للدعوة، فتلامذة أبى الفتح الواسطى تركوا الاسكندرية للشاذلى ، وتوزعوا على مقربة من البدوى وعلى صلة مستمرة فيما بينهم وبينه ، والشاذلى احتل الأسكندرية زعيما للصوفية فيها وحارساً للدعوة فى الثغر ونقطة اتصال بين مدرستى المغرب والعراق . . حتى إذا دنت منيته اختير الدسوقى ليحل محله فقام بالاتصالات الشفرية داخل وخارج مصر بين الأتباع والأنصار .

ثم يكون اختيار البدوى بعد تدريب عسكرى فى الحجاز وإعداد شيعى صوفى فى أم عبيدة . وتختاره طنطا مركزاً جديداً بل ويختار له بيت الاقامة بحيث إذا قدم طنطا يجد الأمور ممهدة له .

وتم ذلك كله بتخطيط شارك فيه عز الدين الصياد الرفاعى الذى أقام بمصر سنتين وتركها وترك بها وليداً ، وربما كان يأمل أن يحصل ذلك الوليد على ثمار الدعوة فى المستقبل .

بقى بعد ذلك أن نتابع جهود البدوى فى طنطا وسنقسمها إلى مرحلتين: المرحلة الأولى منذ وصوله طنطا عام ٦٣٧ إلى تولى الظاهر بيبرس عام ٦٥٨ والمرحلة الثانية منذ تولى بيبرس إلى موت البدوى عام ٦٧٥ ولكل من المرحلتين ظروفها الخاصة .

خامساً : جهود البدوى فى المرحلة الأولى
(٦٣٧ - ٦٥٨ هـ)

الظروف السياسية فى هذه المرحلة :

كانت هذه الفترة صالحة للدعوة حيث كان الحكم الأيوبى يترنح فى مصر والشام بسبب التنافس بين صغار الأيوبيين علاوة على الخطر الصليبى الذى مثلته حملة لويس التاسع سنة ٦٤٧ ، والزحف المغولى وما نتج عنه من دخول الخوارزمية للمنطقة ليزيدوا فى اضطرابها .

ولأن الظروف السياسية هى المسرح الحقيقى المؤثر فى الدعوة الشيعية والذى تلعب دورها عليه كان علينا أن نفصل القول فى التيارات السياسية الداخلية والخارجية التى واجهت مصر فى تلك الفترة (٦٣٧ - ٦٥٨) لنرى كيف استثمرها البدوى فأحسن الاستغلال .

فقبل مجىء البدوى لمصر - وأبان وجود أبى الفتح فى الاسكندرية ، كان السلطان (الكامل) الأيوبى حاكم مصر غارقاً فى نزاعه مع أخيه (المعظم) عيسى صاحب دمشق ، وقد حدث أن أخاهم الثالث الاشراف بن العادل واجه ضغطا من الشرق حيث كان جلال الدين الخوارزمى يهدده فى حران ، فاستجار (الأشرف) بأخيه (المعظم) صاحب دمشق فما كان من (المعظم) إلا أن اعتقل أخاه المستجير به وأرغمه على أن يتعهد له بمساعدته فى مهاجمة أخيهما (الكامل) صاحب مصر ، إلا أن (الأشرف) ما كاد يفلت من يد (المعظم) حتى أكد تحالفه مع أخيه (الكامل) ضد (المعظم) فاضطر (المعظم) للخضوع لجلال الدين منكبرتى ليساعده ضد أخويه (الكامل) و (الأشرف) ، وفى المقابل تحالف (الكامل) مع الامبراطور فريدريك الثانى واتفق على إعطائه بيت المقدس سلما - وبيت المقدس تابع (المعظم) .

وفى الوقت الذى كان فيه جلال الدين منكبرنى يخيف الأيوبيين فى

الشام والعراق ومصر كان يواجه ضغط المغول أعدائه وأعداء أبيه ، وقد استطاعوا القضاء النهائى عليه وعلى دولته فتفرق أتباع جلال الدين فى الشام فزادوها اضطرابا وأسهموا فى حدة الخلاف بين صغار الأيوبيين المتحكمين فى المنطقة .

ولقد آل ملك دمشق إلى (الأشرف) بعد موت (المعظم) وعجز ابنه عن الاحتفاظ بدمشق أمام تحالف عمه (الأشرف والكامل) ، إلا أن العداء مالبث أن استحكم بين (الأشرف) فى دمشق و (الكامل) فى مصر ومنع موت (الأشرف) من نشوب الحرب بينهما ، ثم تولى (الصالح) اسماعيل دمشق سنة ٦٣٥ فكون حلفا آخر ضد (الكامل) فأسرع (الكامل) وحاصر دمشق وعزل (الصالح) إسماعيل .

ثم توفى (الكامل) سنة ٦٣٥ وقد ترك ولدين (الصالح) أيوب وقد كان حاكما بالفرات ومع أنه الأكبر إلا أنه لم يخلف أباه بسبب نفوذ أرملة (الكامل) أم ابنه (العادل الثانى) ، وقد تمكن (الصالح أيوب) بمساعدة الخوارزمية من الاستيلاء على دمشق فوقع فى نزاع مع أخيه الأصغر (العادل الثانى) سلطان مصر ، واستعان كلاهما بالخوارزمية وأنصار من البيت الأيوبى ، وبسبب سوء العلاقة بين (العادل الثانى) ومماليك أبيه فقد انضموا (للصالح أيوب) واعتقلوا (العادل الثانى) واستدعوا (الصالح ايوب) فتسلطن ، ومنع الخوارزمية من الدخول لمصر واستكثر من شراء المماليك واسكنهم فى مساكن خاصة على النيل فعرفوا بالمماليك البحرية الصالحية .

وقد وفد البدوى لمصر عام ٦٣٧ وهى نفس السنة التى اعتقل فيهـــا (العادل الثانى) وتولى (الصالح أيوب) ، وفى هذا العام ٦٣٧ استرد (الصالح إسماعيل) دمشق ، وكان (الصالح أيوب) قد طرده عنها قبلا ، وقد استاء (الصالح إسماعيل) من تولى غريمه (الصالح أيوب) سلطنة مصر فتحالف

(الصالح إسماعيل) مع الصليبيين ضد (الصالح أيوب) فى نظير أن يعطيهم بيت المقدس ، وأن يرجع مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً ، ولكى يبرهن على صدق نواياه بادر بالتنازل لهم عن بعض القلاع وطبرية وعسقلان وبيت المقدس . .

أما (الصالح أيوب) فقد تحالف مع (الناصر داود) الأيوبى فى الكرك وتمت المواجهة بين الجانبين ، (الصالح إسماعيل) والصليبيون فى ناحية و (الصالح أيوب) و (الناصر داود) فى ناحية أخرى تؤيدهم الخوارزمية وهم الذين استطاعوا هزيمة (الصالح إسماعيل) وحلفائه الصليبيين . .

ثم إنشق (الناصر داود) عن (الصـــالح أيوب) وانضم (للصالح إسماعيل) وتـكون حلف جديد بينهما يهدف للإطاحة (بالصالح أيوب) فى مصر فما كان من (الصالح أيوب) إلا أن طلب التحالف مع الصليبيين ليواجه مؤامرات أقاربه ، وكان لدى الصليبيين عرض آخر للتحالف مقدم من (الصالح إسماعيل) و (الناصر داود) ، وقد عرض الجانبان على الصليبيين السيطرة التامة على بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وكان ذلك عام ٦٤١ . وقد اختار الصليبيون بعد تردد التحالف مع ملكى دمشق والأردن (الصالح إسماعيل والناصر داود) .

ولم يجد الصالح أيوب أمامه إلا الاستعانة بالخوارزمية وقد استطاعوا تدمير الصليبيين وأعوانهم فى معركة غزة عام ٦٤٢ ، وتم طرد الصالح إسماعيل من دمشق واقتطعت الجليل والأغوار من (الناصر داود) . . وكان الخوارزمية يطمعون فى أن يسمح لهم (الصالح أيوب) بالاستقرار فى مصر كمكافأة على صنيعهم معه إلا أنه رفض خوفاً على ملـكه منهم ، فـكان أن انقلب الخوارزمية على (الصالح أيوب) وانضم إليهم الصالح اسماعيل

طريد دمشق و(الناصر داود)وحاصروا دمشق إلا أن (الصالح أيوب) تمكن بالحيلة من تشتيت الخوارزمية وهزيمتهم عام ٦٤٥ ، وأعاد للدولة الأيوبية وحدتها (القاهرة ـ القدس ـ دمشق) .

إلا أنه ما كاد يستقر فى مصر حتى واجه حملة لويس التاسع ٦٤٧ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وحين مات (الصالح أيوب) أخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته فأرسلت تستدعى إبنه (توران شاه) وتكاتف معها المماليك الصالحية البحرية إلى أن حضر (توران شاه) وتم القضاء على حملة لويس التاسع . ولكن (توران شاه) كان على شيمة أسلافه محبى التآمر ، وكان من عادة السلطان الأيوبى الجديد أن يفتتح عهده باضطهاد مماليك أبيه وتنشئة مماليك جدد يحملون إسمه ويدافعون عن حكمه .. وجاء « توران شاه » بنفس العقلية ولكن هذا الصنف من المماليك « الصالحية البحرية » قد أحسوا بما صنعوه فى المنصورة وما قدموه لتوران شاه أثناء غيابه فلم يخنعوا وقتلوه قبل أن يتم مؤامرته ضدهم ..

ووقع المماليك فى حيرة ، فقد تسلطنت شجرة الدر أرملة الصالح أيوب وأم ولده ، إلا أن الخليفة العباسى والرأى العام رفض أن تتولى إمرأة حكم مصر فاتفق على أن تتزوج شجرة الدر بأحد الكبار من المماليك ، وفى هذه الأثناء تركزت زعامة المماليك بين « أيبك » زعيم مماليك القصر و« أقطاى » زعيم البحرية المقاتلة وكان « قطز » من أعوان « أيبك » بينما كان « بيبرس » من أعوان « أقطاى » ، واحتدم النزاع بين «أقطاى» و «أيبك» وتقرب كلاهما إلى شجرة الدر ، ووقع إختيارها أخيراً على «أيبك» خوفاً من عنف « أقطاى » وشراسته ، وتسلطن « أيبك » واستمرت «شجرة الدر» تحكم

من وراء الستار . ولم يكن « لأقطاى » أن يسكت فأخذ أتباعه يعيثون فى الأرض فساداً ، بينما يخطب إلى نفسه أميرة أيوبية ويهدد العروسين « أيبك وشجرة الدر » بقوته وأطماعه ، وأتفق « أيبك » مع «شجرة الدر» على ضرورة اغتياله.. وتم التنفيذ بسيف «قطز» ، وهرب أعوان «أقطاى» إلى الشام والعراق وكان فى مقدمتهم « بيبرس » .

ومالبث أن دب الجفاء بين « أيبك» و « شجرة الدر » وعاد «أيبك» إلى «أم على» زوجته القديمة ، واستحكم الخلاف بينهما إلى درجة أن «ايبك» بعث يخطب لنفسه الأميرة الأيوبية التى خطبها « أقطاى » قبلا .. وخدعت « شجرة الدر » « أيبك » وقتله أتباعها سنة ٦٥٥ . وتولى الأمر أعداء « شجرة الدر » فولوا « علياً بن أيبك » برعاية « قطز » وقتلت « شجرة الدر » . ثم روع الجميع بالزحف المغولى وتدمير الخلافة العباسية وبغداد سنة ٦٥٦ وتمهدت الأمور لسلطنة قطز سنة ٦٥٧ . وعمل « قطز » على توحيد الجبهة المملوكية ضد المغول . فأصدر عفواً عاماً عن جميع المماليك البحرية الهاربين من اتباع « أقطاى » وكانوا يسهمون فى المؤامرات الأيوبية ضد السلطنة المملوكية فى مصر ، واستجاب كبار البحرية فعادوا لمصر وشاركوا فى حرب المغول وكان فى مقدمتهم «بيبرس» الذى تولى قيادة المقدمة واسرع بالهجوم على المغول فى غزة . . وبعد انتصار (قطز) فى عين جالوت لم يتركه (بيبرس) ينعم بثمار انتصاره فقتله فى الطريق انتقاما لدوره فى اغتيال (أقطاى) أستاذه ، وتولى (بيبرس) السلطنة سنة ٦٥٨ . وبدأ عهد جديد هو توطيد الدولة المملوكية ، وكان لذلك تأثيره على دعوة البدوى ، فبقدر ما استفاد البدوى وأعوانه من الفتن الأيوبية والمملوكية وحروب الصليبيين والمغول بقدر ماتقلصت حركتهم فى الفترة الثانية فترة التوطيد والاستقرار

للحكم المملوكي الجديد . . وهكذا فإن الفترة الأولى التي نحن بصددها شهدت إنهيار الدولة الأيوبية وبداية قيام الدولة المملوكية ، وعادة مايهتز الاستقرار فى إنهيار الدولة الضعيفة وبداية القيام لدولة وليده على أشلائها . فالظروف متشابهة على نحو ما ألمحنا إليه سريعاً فى الظروف السياسية لمصر إبان هذه الفترة .. ومن الطبيعى أن ينجح البدوى فى إستغلال هذا (القلق) السياسى لصالح الدعوة .

سياسة البدوى فى طنطا فى هذه المرحلة :

هناك إجماع على أن البدوى وصل طنطا سنة ٦٣٧ بعد عودته من العراق إلى مكة .

يروى عبد الصمد عن البدوى قوله « فلما دخلت مكة جاءنى الناس وسلموا على وهنئونى بالسلامة فأقمت عند الحسن وأخواتى .. فى ألذ عيش .. فلما كانت ليلة من الليالى إذ بهاتف يقول لى المنام استيقظ من منامك يا نائم وسبح فى محبة الملك الدائم وسر إلى طندتا فأنك تقيم بها وتمطى وتربى بها أطفالا يجيء منهم رجال وأى رجال ، فلما أصبحت أخبرت أخى الحسن بما رأيت تلك الليلة فقال لى : يا احمد إمسك نفسك واكتم سرك حتى يكمل وعدك ويحل أوانك فأنا أخبر منك حتى يعاودك الهاتف ثانياً وثالثاً . . فكتمت سرى ، قال الشريف حسن . . بينما كنت نائماً ذات ليلة فى شهر رمضان المعظم ، وإذ بأختى فاطمة تنبهنى من منامى وتقول : يا إبن والدى اعلم أن أخى احمد قائم طول الليل وهو شاخص ببصره إلى السماء ، وانقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر وله مدة أربعين يوماً ما أكل طعاما ولا شرابا ، فقلت لها يا فاطمة والله قرب فراق أخى ، قال سيدى احمد وإذا بالهاتف عاودنى فى المنام وقال : يا أحمد مثل ما قال أول مرة ثم عاودونى ثلاث مرات

وقال : قم ياهمام وسر إلى طندتا ولا تشك فى المنام فلما أصبحت أخبرت أخى حسنا بما رأيت قال لى أخى : قد انتهى الوعد فسر فى هذه الليلة ولا تخف[١])

لقد عاد البدوى من العراق وقد تعلم كيف يبدو مجذوبا ويستتر بالجذب ليخفى شأنه كداعية ، ولقد كان العصر المملوكى يتسامح مع المجاذيب ، وكانت للمجذوب حريته المطلقة فى فعل ما يريد ويتمتع مع ذلك باعتقاد الناس فيه وحدبهم عليه، وعلى ذلك فإن سياسة البدوى لها وجهان وجه قابل به النـاس وهو الجذب والجنون ووجه آخر عامل به المريدين وهو الحزم والدهاء ، وهى نفس سياسة الرفاعى التى تعلمها فى أم عبيدة .

سياسة البدوى مع الأجانب :

مر بنا أن فاطمه أخت البدوى وصفته بمظاهر الجذب حين تهيأ للسفر لمصر فقالت عنه « قائم طول الليل وهو شاخص ببصره إلى السماء ، وانقلب سواد عينيه بحمرة وقد كالجمر وله مدة أربعين يوما ما أكل طعاما ولا شرابا» وقد حافظ البدوى على مظهر المجذوب فدخل به طنطا وأرعب بمنظره النساء فى بيت ركين الدين حين اقتحم البيت فجأة « .. فبينما هم مجتمعون فى مثل ذلك اليوم إذ دخل عليهم سيدى أحمد البدوى ، فلما دخل عليهم تأملوه فإذا هو رجل أشعث أغبر ضارب اللثامين فصاحت النساء فى وجهه »[٢] .

وانتقل البدوى للاقامة على سطح الدار (دار ركين الدين ـ ابن شحيط) وحرص منذ بدايته على السطح على أن يعلن جنونه على الملأ بأن يصرخ من فوق السطح ليعلم الجميع بجذبته ، ويبدو أن صوته كان جهوريا أو مارس هذه العادة بإخلاص زائد فأقلق راحة الناس فى طنطا ، وهم ما تعودوا مجذوبا يدمن الصياح باستمرار وبتوقيت معين، يبدو ذلك من قول (الشريف حسن)

(١) الجواهر السنية ٦٠ (٢) نفس المرجع ٤٠

وهو يتسمع أخبار أخيه البدوى من الحجاج المصريين فى مكة (قال الشريف حسن: ثم جعلنا نسأل عنه من المسافرين والحجاج والتجار فأعطونا وصفه، فبينما نحن نتحدث بالحرم الشريف وإذا بأقوام قد أقبلوا علينا وسلموا علينا وقالوا يا أشراف عندنا رجل قرشى أقلقنا وأتعبنا من الصياح فى الليل والنهار وما عرفنا هل هو مجنون أو مفتون وما نعرف له مخبرا وهو يقول أنه شريف من أهل مكة[1] ».

وصار (الصياح) من مستلزمات الجذب عند البدوى فيقال فى ترجمته (وأقام على سطح دار لا يفارقه ليلا ولا نهارا، وإذا عرض له الحال يصيح صياحا متصلا وكان يكثر مو الصياح[2])

وإلى جانب (الصياح) تزيا البدوى بزى المجاذيب، وقد سبق أنه دخل دار ركين الدين وهو « أشعث أغبر ضارب اللثامين »، وحافظ على هذا المظهر فكان « إذا لبس ثوبا أو عمامة لا يخلعها لغسل ولا غيره حتى تذوب فيبدلونها له بغيرها[3] ». فهم الذين (يبدلونها له) لا هو الذى (يبدلها). ثم أصبح لقب المجذوب ضمن ألقاب البدوى الكثيرة فيقال فيه (هو الشيخ الصالح العارف المجذوب[4]) ويفتخر البدوى بتلك الصفة - التى لا يفخر بها عاقل إلا لهدف فى نفسه - يقول البدوى عن نفسه[5].

وقد وصفونى بالجنون جماعة ... فقلت لهم بيتاً لسامعه يحلو
مجانين إلا أن سر جنونهم ... عجيب على أعتابهم يسجد العقل

وقد صدق فإن العاقل إذا تستر بالجنون لهدف كبير فقد خدع بجنونه

(١) عبد الصمد. نفس المرجع ٦١ (٢) نفس المرجع ٨، ٣٩
(٣) نفس المرجع ١٢، الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ١٦٠
(٤) نفس المرجع ٦ (٥) نفس المرجع ١٢٣

المصطنع أكثر العقلاء ، ويلاحظ أن (جذبة) البدوى لم تكن دائمة . أى يبدو مجذوباً إذا شاء وفى الوقت الذى يراه ملائماً وحينئذ يعلو صوته بالصياح او حسب تعبيرهم (وإذا عرض له الحال يصيح صياحاً متصلا). بهذه (الجذبة) التى هى طوع لإرادة صاحبها ـ تمكن البدوى من العبث بخصومه كيف شاء ، وهو يعلم إن المجذوب حرية كاملة فى التصرف يقرها له المجتمع المملوكى ، من ذلك ما يروى (إن الشيخ النحوى كان كثير الإنكار عليه فراح إلى طندتا هو وجماعة من اصحابه الطلبة فجلسوا تحت حائط السطح الذى هو عليه ، فطل عليهم الشيخ احمد البدوى وبال عليهم فقالوا ما هذا البول على طلبة العلم فقال : ما يؤكل لحمه فبوله طاهر رضى الله تعالى عنه ونفعنا به)[١] اى انهم يعدون تبول البدوى على طلبة العلم مكرمة تعد له ومنقبة تشكر فتحمد لصاحبها .

ويبدو ان البدوى استمرأ هذا الأسلوب وتوسع فيه حتى وصل ببوله إلى المسجد وقت صلاة الجمعة والناس قيام للصلاة حين الأذان ، وذلك ليقنع بعض الأغراب القادمين اطنطا بأنه مجذوب حقاً وصدقاً . . فقد ذكر ابو المحاسن رواية مثبتة معنعنة تصف هذا الحال يقول (قال أحدهم بسنده ، ألزمنى الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلى بن البابا بالمسير معه لزيارة الشيخ أحمد البدوى بناحية طندتا فوافيناه يوم الجمعة فإذا به رجل طوال عليه ثوب جوخ غال وعمامة صوف رفيع والناس تأتيه أفواجاً منهم من يقول: ياسيدى خاطرك مع بقرى ، ومنهم من يقول زرعى ، إلى أن حان وقت صلاة الجمعة فنزلنا معه إلى الجامع بطندتا ، وجلسنا فى إنتظار الصلاة فلما فرغ الخطيب

(١) عبد الصمد نفس المرجع ٣٨

من خطبة الجمعة وأقيمت الصلاة وضع الشيخ أحمد رأسه فى طوقه بعد ماقام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وعلى حصير المسجد واستمر ورأسه فى طوق ثوبه وهو جالس حتى انقضت الصلاة ولم يصل(١).

فقد سافر لزيارة البدوى أمير مملوكى وتابع له – هو الراوى – ورأيا أفواج الناس تأتى للبدوى متوسلة به من دون الله ، ثم حان وقت الصلاة للجمعة فنزلا معه للجامع ، وكانت فرصة للبدوى ليقنع زائريه بأن (جذبته) لاتعرف الحدود أو القيود فانتظر وقت القيام للصلاة وقد تجهز ببوله ففاض به على نفسه والمصلين وحسابه عند ربه .

لقد أفلح البدوى فى استغلال (الجذب) سياسيا تخدع به الجميع فسلموا له بحاله ، وهو فى نفس الوقت ينظم أمور مملكته السرية خطوة بترتيب وتنظيم ينم عن دهاء عظيم ، ومن ذلك موقفه من صوفية (طنطا) وسياسته لاتباعه .

سياسة البدوى مع الصوفية الآخرين فى طنطا :

كان أول خطوة قام بها البدوى هى تطهير (طنطا) من أى نشاط صوفى وجعلها مملكة خالصة له ليأمن على نفسه مادرج عليه الصوفية العاديون من تنافس وتناحر ووقيعة ، وهو يريد تفرغا لمهمته وهدوءا لا يبدده إلا صياحه المؤذن بجذبته حين يريد ذلك .. ثم إن الشيعة على حذر تام من التسلل إلى صفوفهم عبر التصوف فهم أحرص على أن يكون التصوف فى طنطا من صنع أيديهم حتى يظل بمنأى عن محاولات التسلل والكيد .

ومع الأسف فإن جهود البدوى فى تطهير طنطا من الصوفية الآخرين يشوبها الكثير من التشويش المتعمد فالروايات لم تطلعنا إلا على نتيجة هذه الجهود وكيف أنها آتت أكلها فانصاع فريق من الصوفية للقادم الجديد وفريق آخر رحل وفريق قاوم فانهزم فى مكانه .

---

(١) المنهل الصافى مخطوط ١٩١/٥

يقول الشعرانى (كان فى طندتا سيدى حسن الصائغ الأخنائى وسيدى سالم المغربى فلما قرب سيدى احمد من مصر أول مجيئه من العراق قال سيدى حسن : ما بقى لنا إقامة صاحب البلاد قد جاء نخرج إلى ناحية أخنا وضريحه بها مشهور إلى الآن ، ومكث سيدى سالم فسلم لسيدى احمد ولم يتعرض له فأقامه سيدى أحمد وقبره فى طندتا مشهور ، وأنكر عليه بعضهم فسلب وانطفى إسمه وذكره ومنهم صاحب الايوان العظيم بطندتا المسمى بوجه القمر كان واليا عظيما فثار عنده الحسد ولم يسلم الأمر لقدرة الله تعالى فسلب وموضعه الآن بطندتا مأوى الكلاب ليس فيه رائحة صلاح ولا مدد وكان الخطباء بطندتا انتصروا له وعملوا له وقتا ـ أى مولدا ـ وأنفقوا عليه أموالا وبنوا الزاويته مأذنة عظيمة فرفسها سيدى عبد العال برجله ففارت إلى وقتنا هذا[١]) .

وبالتمعن فى النص يظهر لنا أن الصوفية كانوا على ثلاثة أقسام، قسم يمثله سالم المغربى وهو المبشر بمجىء البدوى والذى جهز إقامته فى دار ركين الدين ومن الطبيعى أن يصير تابعاً للبدوى فهم شركاء فى الدعوة .. وقسم آخر يمثله حسن الصائغ الأخنائى وهو من الصوفية (الكلاسيكيين) سرعان ما سلم بالهزيمة فرحل عن طنطا وعد ذلك من مناقبه بالمقارنة إلى من قاوم فى طنطا وتمب وأتعب ، وأصابته الأساطير فى مقتل حين أنكر على البدوى كالشيخ وجه القمر .

ويبدو من حديث الشعرانى عن « وجه القمر » أنه كان صوفياً عالى الشأن يتمتع بالحظوة عند الجماهير والفقهاء فأقاموا له « إيوانا عظيما » وعمل له الفقهاء فى طنطا مولداً وزاوية بمئذنة ، ويتمتع أيضا برضى السلطات حتى

(١) الطبقات الكبرى ١ / ١٦٠

ليوصف بأنه « كان والياً عظيما » . ويكفى ذلك لنتبين الفور بين الجانبين ، وما كان « لوجه القمر » أن يصمد فى وجه البدوى صاحب الدعوة السرية والاتباع المنتشرين ، ومهما كان « لوجه القمر » من أتباع وإيوان وزاوية ومئذنة فإن ذلك جميعه لن يغنى عنه شيئاً أمام داهية يصطنع الجذب والجنون وهو يجمع الأتباع ويحكم الخطط ، ولو كان البدوى مجرد مجرد مجذوب مجنون لما انهزم أمامه صوفية طنطا أحياءاً وأمواتاً .

ويذكر عبد الصمد (أن سيدى أحمد البدوى لما دخل طندتا أتت المشايخ إليه ونظروا أحواله وسألوا منه الدعاء ، فأتاه الشيخ عبد الحليم المدفون فى ناحية كوم النجار وقال له : شىء لله تعالى فقال : إن الله تعالى قد جعل فى ذريتك الخير والبركة ثم أتاه الشيخ عبد السلام القليبى فقال له : شىء لله فقال السيد قد جعل الله تعالى لك الشهرة بالولاية والفلاح إلى يوم القيامة عند الأمراء والملوك وغيرهم ثم جاء سيدى عبد الله البلتاجى فقال : شىء لله تعالى فقال : قد جعل الله لك كل يوم حاجة تقضى إلى يوم القيامة ثم جاء جماعة من مشايخ الغربية فقالوا : شىء لله تعالى فقال : عليكم الطمس والخفاء إلى يوم القيامة فلم يشتهر واحد منهم[1]) .

وفى هذا النص موقفان متناقضان للبدوى ، فهو مع رفاق الدعوة كريم معطاء كما فعل عبد الحليم والقليبى والبلتاجى ، وهم من مدرسة أبى الفتح الواسطى ، ثم نجد البدوى عنيفا مع الصوفية الغرباء مع أن الجميع أتوا إليه من خارج طنطا يطلبون — بزعمهم — المدد . والشأن فى الصوفى العادى أن يرحب بالجميع من الأشياخ طالما أتوا إليه مذعنين منقادين ، أما صاحبنا

---

(١) عبد الصمد . نفس المرجع ٣٥ - ٣٦ الخفاجى النفحات الأحمدية ١٦٦

صاحب الدعوة السرية فلا يأمن إلا لمن يثق فيه أو يربيه على يديه وينشئه على طريقته وسياسته .

سياسة البدوى لاتباعه :

فى الدعوات الصوفية الشيعية السرية يتدرج المريد إلى درجات وتختلف السياسة معه فى كل درجة يعلوها ، وقد مر بنا أن ابن مرزوق القرشى فى العصر الفاطمى رفض أن يبوح بأسراره كلها للأربعة الكبار من أتباعه[١]، فكلما حظى المريد بدرجة حظى معها بأسرار ومسئولية ثم هو فى نهاية الأمر لن يصل إلى جميع الأسرار التى يضمها الشيخ الأكبر فى جوانح صدره .. وقد كان الرفاعى يتحرز فى حديثه مع مريديه الأقربين (فما مزح مع أحد ولا مازحه أحد وما كان يتكلم من غير سبب[٢]) .

وعلى هذا النسق جرت سياسة البدوى مع أخلص مريديه وقد استخلصهم من أتباعه الكثيرين الذين اعتقدوا فيه كمجرد شيخ صوفى مجذوب ، يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن البدوى (كان من دهائه لا يقابل رجلين معاً بل كان يقابل كل رجل على حدة حتى اكتمل عدد تلاميذه أربعين وهم السطوحية أى الذين تلقوا العهد على يده على سطح دار ابن شحيط وانتشر هؤلاء الأربعون فى أنحاء الديار المصرية يبشرون بتعاليم شيخهم أحمد البدوى وهنا اختصر المقال فأؤكد أنه لم تكن ثمة دعاية لغير السياسة تحت ستار الدين ولم يكن أصحاب البدوى من الغفلة بحيث لا يعلمون حقيقة نياته[٣]) .

وأقول إن دهاء البدوى فى مقابلته لكل واحد منهم على حدة جعله يحكم على كل منهم بالحكم الصائب ويعطيه رتبته بين أقرانه وبالتالى درجته فى معرفة بعض الأسرار وتحمل المسئولية فى المكان الذى يتحدد له سلفا .

---

(١) الشعرانى . الطبقات الكبرى ١ / ١٣٠

(٢) النجم الساعى ٢٧ (٣) مجلة السياسة ١١

ويتضح من بعض الإشارات أن البدوى كان عظيم التأثير على أتباعه لا يمكنهم مخالفته ، يقول فيه المناوى « كان إذا أمر أحداً من أصحابه بالإقامة فى مكان لا يمكنه مخالفته»(١) ويقول الخفاجى « كان عبدالعال يأتى للبدوى بالذى يبول فى ثيابه فينظر إلى ذلك الشخص نظرة واحدة فيملؤه مدداً ثم يقول لعبد العال إرسله إلى البلاد الفلانية فيكون بها مقامه إلى أن يموت(٢)) ويقول الحلبى « كان عبد العال يأتيه بالرجل يبول فى ثيابه فينظر إليه فيملؤه مددا ويبعثه إلى إحدى النواحى(٣) » ويقول الشعرانى « وكان سيدى عبد العال يأتى إليه بالرجل أو الطفل فيطاطى من السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيملؤه مدداً ويقول لعبد العال إذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا فكانوا يسمونه أصحاب السطح »(٤) .

ومن الطبيعى أن تصور كتب المناقب قوة الشخصية لدى البدوى وتأثيره فى أتباعه بأن نظرة واحدة منه للمريد تكفى لقلب حياته رأساً على عقب فيصير أطوع للبدوى من بعانه .. وقبلا قالوا عن الرفاعى « وإذا استدعى أحدا يمشى إليه لأمر فكان يتقيد ذلك الواحد بالشيخ من ساعته(٥) » .

وكان البدوى إذا شك فى بعض أتباعه يسارع بالتخلص منه بسهولة لتصبح كرامة يتناقلها الأتباع فيما بعد كما حدث فى كائنة عبد المجيد .

واقعة عبد المجيد :

وعبد المجيد هذا كان من أوائل السطوحية وشقيقاً لعبد العال زعيم السطوحية ، يقول فيه عبد الصمد (نشأ هو وأخوه فى ناحية نيشا المنارة . .

(١) الطبقات الكبرى : مخطوط ٢٧٤ (٢) النفحات الأحدية ١٥٣

(٣) النصيحة العلويه . مخطوط ٢٥

(٤) الطبقات الكبرى ١٥٩/١ ، عبد الصمد الجواهر ١١

(٥) النجم الساعى ٤٦ .

وأما الشيخ عبد المجيد فكان يتردد على سيدى أحمد البدوى مدة طويلة وتأدب بآدابه وعرف إشاراته وكان لا ينام الليل تبعاً لسيدى أحمد البدوى فاشتاق يوماً إلى رؤية وجه سيدى أحمد البدوى وكان سيدى أحمد دائماً متلثماً بلثامين لا يرى الناس منه سوى عينيه فقال له عبد المجيد : يا سيدى أرنى وجهك انظر إليه فقال له : يا عبد المجيد كل نظرة برجل فقال : رضيت فكشف له سيدى أحمد اللثامين فرآه فخر ميتاً)[1] .

واللثام ينبيء عن الأسرار التى يحتفظ بها البدوى كداعية سرى له أسراره الخاصة التى لا يعلمها غيره من أتباعه .. وقد تميز البدوى بلثامين عن غيره ممن تلثم بلثام واحد كأبى العباس الملثم ومنصور البطائحى الملثم وغيرهما .. وتلثم البدوى بلثامين دليل على عظم الأسرار التى يسترها ، وقد صاغ أتباع البدوى المتأخرون فى القرن العاشر سيرته فى صورة رمزية أقرب للخيال منها للحقيقة ، ثم جعلوا من اللثام رمزاً لأسراره التى دفنت معه ، وقالوا إن اللثام كان يخفى عن الناس وجهه مع أن وجه البدوى كان معروفاً وصفه الشعرانى بقوله (كان كبير الوجه أكحل العينين قمحى اللون وكان فى وجهه ثلاث نقط من أثر جدرى فى خده الأيمن واحدة وفى الأيسر ثنتان أقنى الأنف على أنفه شامتان من كل ناحية شامة .. إلخ)[2] .

وصاغوا مقتل عبد المجيد الغامض بأنه صعق حين كشف البدوى له اللثامين فرأى وجهه الحقيقى ، وإذا عرفنا أن وجه البدوى كان معروفاً مألوفاً موصوفاً تيقنا أن المقصود باللثام هو السر الذى يخفيه البدوى وقد اطلع

---

(١) عبد الصمد : نفس المرجع ٢٦ ، النفحات الأحمدية للخفاجى ١٥٧ ، الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٦٠ .

(٢) الطبقات الكبرى ١/١٦٠ .

عبد المجيد على بعضه ورأى البدوى فى تصرفاته مالا يطمئن إليه ، وإذا أدركنا أن الاطلاع على السر مسئولية عظيمة يتحملها المريد عرفنا أن الموت جزاء عادى للمريد إذا قصر فى حمل المسئولية أو ظهر منه ما ينبيء عن الشك فيه .

وقد تميز عبد المجيد عن غيره من أوائل السطوحين بالتردد على البدوى كثيراً أثناء وقوفه على السطيح وبأنه (صحب سيدى أحمد البدوى مدة طويلة وتأدب بآدابه وعرف إشاراته وكان لا ينام الليل نهماً لسيدى أحمد البدوى) ، فهذا التلازم على السطح ليل نهار ، وتلك الصحبة الطويلة والمعرفة بآدابه وإشاراته ورموزه كل ذلك ينبيء عن أن عبد المجيد عرف شيئاً لا يسمح البدوى لأحد أن يعرفه أو خشى البدوى من طموحه لمعرفة المزيد أوشك فى نياته أوطموحه ، وكان أن تخلص منه بالقتل وتحولت المؤامرة إلى أسطورة حبكت على مثال قصة موسى عليه السلام حين طلب من الله تعالى أن ينظر إليه ﴿ رب أرنى انظر إليك قال لن ترانى . . وخر موسى صعقاً . . الأعراف ١٤٣ ﴾ .

ويلاحظ أن عبد العال شقيق عبدالمجيد ـ كان شديد الصرامة مع الأتباع ومع ذلك فلم يظهر منه مايفيد احتجاجاً على نهاية أخيه الغامضة مما ينبيء عن قوة الأدلة فى إتهام عبد المجيد .

ويعزز ذلك أن عبد العال كان يتولى عن البدوى وباشارته تسيير البعوث إلى الأقاليم والبلاد . وقد ذكر أن عبد المجيد كان مبعوثاً إلى فيشا مع محمد بطالة فى رواية الخفاجى[1] ، بينما ذكر عبد الصمد[2] إن المبعوث إلى فيشا كان محمد بطاله وحده فى ، ومعنى ذلك أن عبد المجيد قد لقى حتفه فى بعثته

---

(١) النفحات الأحمدية ٢٧٦ (٢) الجواهر السنية : ٣٣

فى فيشا مع محمد بطاله ، الذى يعتقد ـ على هذا ـ أن له ـ أى بطاله ـ يداً فى الدس على عبد المجيد عند عبد العال والبدوى مما أدى إلى مقتله بموافقة عبد العال أخيه ، وانفرد بطاله بعد عبد المجيد بالنيابة فى فيشا واستمر منفرداً فى نيابته حتى ذكره عبد الصمد كالمبعوث الوحيد فى فيشا ..

ولأن فيشا موطن عبد المجيد وعبد العال فلا بد أن تكثر الأقاويل عن عبد المجيد فى نهايته الغامضة لذا ذكرت بعض الروايات(١) التى تؤخر موت عبد المجيد إلى ما بعد موت البدوى لعلها تنفى الأولى وترفع الشك ، ومع ذلك تبقى نهاية عبد المجيد الغامضة دليلا على دهاء البدوى فى دعوته السرية .

بعوث البدوى :

سار على طريقة الرفاعى فى إرسال البعوث إلى القاهرة والمدن الرئيسية داخل مصر وخارجها ، وقد أوردت كتب المناقب ثبتا ببعوث البدوى ، فقد أرسل البدوى الشيخ قمر الدولة إلى نفيا ، والشيخ وهيب إلى برشوم ، والشيخ يوسف الأنبابى إلى انبابه والملوف إلى القليوبية ورمضان الأشعث إلى منف وعمر الشغاوى إلى شنوى ، وابو جنينه أرسل إلى بركة القرع بمصر والشيخ خلف إلى عموم القاهرة ومصر والشيخ يوسف البرلسى إلى البرلس ، والشيخ على البعلبكى إلى بعلبك والشيخ سعدون إلى بلبيس وخليل الشامى إلى الشام ، وخلف الحبيشى إلى منية حبيش ناحية نفيا وعلى الكيروانى إلى اليمن وابن علوان إلى تعز والشيخ عوسج إلى زبيد وسعد التكرورى إلى حوران والشيخ نعمة إلى صفد وعبد الله اليونانى إلى بعلبك وعز الدين الموصلى إلى الموصل ومحمد بطاله إلى فيشه المنارة واحمد الأباريقى إلى روضة المقياس والشيخ بشير إلى مكة والشيخ بشير المدفون بدرب السد إلى مصر . . إلخ

(١) النصيحة العلوية ٣١ ، ٣٢ مخطوط .

« وهؤلاء جميعهم من أصحاب السطح[1] » وهم أربعون .. ونضع بعض الملاحظات على بعوث البدوى لنقبين منها سياسته :

١ ـ إن أولئك المبعوثين كانوا دائمين يظل أحدهم فى البلد الذى أرسل إليها حتى يموت ، فكان يقول لعبد العال (إرسله إلى البلد الفلانية فيكون بها مقامه إلى أن يموت[2]) وهى نفس السياسة التى سارت عليها الدعوة الشيعية ، والرفاعى أبرز من طبق ذلك على نفسه وأتباعه ، والبدوى أيضاً طبقها على نفسه فأقام بطنطا إلى أن مات ، وأقام أتباعه بالبلاد التى أرسلوا إليها حتى اكتسبوا لقب البلد التى يعيشون فيها ونسبوا إليها مثل يوسف الانبابى فى انبابة وعمر الشناوى فى شنوى ويوسف البرلسى فى البرلس وعلى البعلبكى فى بعلبك ، وهكذا .

ومعنى هذا أن المبعوث الصوفى كان يهب حياته كلها فى سبيل الهدف الذى يعمل الشيعة له على مهل ، ثم إن وجود المبعوث الصوفى فى بلد معين طول حياته يزيد فى أتباعه ونفوذه وذلك كسب للدعوة .

٢ ـ لم يقتصر الدعاة على تغطية مصر وحدها بل وجه بعضهم للشام مثل سعد التكرورى فى حوران والشيخ نعمة فى صفد وعبد الله اليونانى فى بعلبك وعز الدين الموصلى فى الموصل والكيروانى وابن علوان وعوسج فى اليمن ، وبشير فى مكة .

وفى هذا دليل على تشعب الدعوة ودقة الاتصال فيما بين فروعها فى نطاق مصر والشام والحجاز واليمن ، وفيها دليل على دهاء البدوى ذلك الذى يتستر بالجنون وفى نفس الوقت يحدد المكان مسبقاً للداعية من لدنه ويرسله إليها فلا يستطيع مخالفته ، ثم يوزع مصر وخارجها بدعاته .

---

(١) عبد الصمد ٢٧ : ٣٥ ، النفحات الأحمديه ٢٧٦ : ٢٧٧ .

(٢) النفحات الأحمدية ١٥٣ .

٣ ـ ثم هناك دقة فى التنظيم ونوع من توزيع المهام نلمحه فى إيفاد أكثر من مبعوث لقطر بعينه ففى الشام أرسل عليا البعلبكى وخليلا الشامى ونعمه الصفدى وعبد الله اليونانى البعلبكى وعز الدين الموصلى ، وقد توزع أولئك فى المدن الرئيسية فى الشام . ولا ريب أن أحدهم تزعم الباقين وأظنه خليل الشامى لما يبدو من صلته بنائب الشام فى عهده كما تشير إلى ذلك كتب المناقب[1] .

وفى اليمن أرسل ابن علوان إلى تعز وعوسج إلى زبيد ويبدو أن رأسهم فيها كان عليا الكيروانى وقد أرسل لليمن كلها دون تعيين ببلد بعينه . وفى القاهرة ومصر « أى القاهرة الكبرى الآن بضواحيها » توزع أتباع البدوى من السطوحية داخلها وحولها فالشيخ شعيب بالقرب من باب البحر خارج السور وبشير الحبشى بدرب البيدى وعماد الدين قرب بركة الناصرية والأباريقى فى الروضة ـ المقياس ـ وأبو جنيبه بالقرب من بركة القرع ويوسف الإنبابى فى انبابة ، ورأسهم جميعاً كان الشيخ خلف قال فيه عبد الصمد (كان سيدى أحمد يقول له يا خلف أنت خليفتنا فى مصر ، وكان لا يضع جنبه الأرض ليلا ولا نهاراً[2] » .

٤ ـ وواضح أنه أمر قد أعد قبل مجىء البدوى بذكاء وحذر . وإلا فبم نفسر توافد الدعاة للبدوى فى قرية مجهولة هى (طنقدا) وقد أتوا إليه من الشام ومكة واليمن وأصبحوا من أوائل دعاته من أصحاب السطح وفى بداية عهده ؟؟ العقل يؤكد وجود اتفاق مسبق وتنسيق على مستوى عال من الدقة ، والمصادر الصوفية تلمح إلى ذلك فتقول عن عوسج اليمنى « هو من أصحاب السطح وكان ورد على مصر فزار سيدى أحمد بطنقدا وهو على السطح فأشار

---

(١) عبد الصمد : ٣٢ . (٢) الجواهر السنية : ٣٠

عليه بالرجوع إلى زبيد وقال : أقم هناك تذكر بنا من يزور ليلى وما بقى بيننا اجتماع[(١)] » ويقول عن عزالدين الموصلى « وكان أصله نائبا فى طرابلس فهاجر إلى سيدى أحمد لما كان بالعراق فصحبه وخرج عن الدنيا وكان من أوائل أصحاب سيدى أحمد ، مات بالموصل[(٢)]) ومعنى ذلك أن البدوى فى رحلته للعراق لم ينشغل بفاطمة بنت برى كما تدعى كتب المناقب وإنما كان على اتصال بالدعاة استمر بعد عودته من العراق إلى مكة ثم بعد وصوله إلى طنطا فوفد إليه بعضهم وصار من أهل السطح ثم عاد لبلاده مبعوثا .. ومن أولئك كان أحمد بن علوان اليمنى ، يقول عنه عبدالصمد « من أصحاب سيدى أحمد بمكة أوائل جذبه قبل خروجه إلى بلاد العراق[(٣)] » ويقول عنه صاحب طبقات الرفاعية « أحمد ابن علوان أخذ عن السيد البدوى وعن السيد أحمد الصياد ولكل صلة[(٤)] » أى أن ابن علوان كان من مدرسة عزالدين الصياد بمكة مع البدوى ، وحين هاجر البدوى إلى طنطا لحق به ابن علوان تنفيذاً لأوامر عز الدين الصياد الذى كان يمسك بالخيوط كلها فى يده ، فأرسله البدوى مبعوثاً للدعوة فى تعز .

٥ ــ وكان البدوى على اتصال مستمر بأولئك الدعاة المقيمين طول حياتهم فى تلك الجهات . وإلى جانب مناسبة الحج حيث يتم اللقاء بدون رقيب كانت للبدوى وسائله فى الاتصال المستمر بأتباعه الموزعين فى مصر .. من ذلك أنه كلف الشيخ عليا (البريدى) بمهمة الاتصال كما يدل على ذلك لقبه ولم يرد فى ترجمته إلا ما يؤكد أنه ظل إلى جانب البدوى فى طنطا طوع أمره حتى دفن فى مقابله[(٥)] . ثم كان للبدوى عيون على أصحابه المبعوثين يأتونه

(١ ، ٢ ، ٣) نفس المرجع ٣٣ (٤) طبقات الرفاعية ٢٧

(٥) عبد الصمد ٢٩

بأخبارهم ويتعرف على خباياهم وإذا نمى إليه شك فى أحدهم بادر بعزله كما فعل مع يوسف الأنبابى بوشاية الشيخ أبى طرطور .. يقول الشعرانى فى ترجمة أبى طرطور أن البدوى أقامه (تجاه انبابة فى البرية) أى فى مقابل انبابه فيما يلى الصحراء، ويقول عن يوسف الانبابى فى نفس الصفحة (فأما سيدى يوسف فاقبلت عليه الأمراء والأكابر من أهل مصر وصار سماطه فى الأطعمة لا يقدر عليه غالب الأمراء فقال الشيخ أبو طرطور يوما لأصحابه اذهبوا بنا إلى أخينا يوسف ننظر حاله، فمضوا إليه فقال لهم: كلوا من هذه الماوردية واغسلوا الغش الذى فى بطونكم من العدس والبسلة لسيدى أحمد، فغضب الشيخ أبو طرطور من ذلك الكلام وقال ماهو إلا كذا يا يوسف فقال: هذه مباسطة فقال أبو طرطور: ماهو إلا محاربة بالسهام، فمضى أبو طرطور إلى سيدى عبد العال وأخبره بالخبر فقال لا تقشوش يا أبا طرطور نزعنا ما كان معه وأطفأنا اسمه وجعلنا الاسم لولده اسماعيل، فمن ذلك اليوم انطفأ اسم سيدى يوسف إلى يومنا هذا وأجرى الله على يدى سيدى اسماعيل الكرامات وكلمته البهائم . وأنكر عليه شخص من علماء المالكية وأفتى بتعزيره[1]) . وتحاول رواية الشعرانى أن تموه وتوحى بأن عزل يوسف الانبابى كان لمجرد كلمة قالها مبسطة حول الطعام، ولكن مايرد فى ثناياها يثبت أن الأمر أخطر بكثير من مجرد كلمة قيلت، أنه أمر يختص بالولاء، الولاء للبدوى، ويلاحظ أن يوسف الانبابى كما يقول الشعرانى (أقبلت عليه الأمراء والأكابر من أهل مصر وصار سماطه فى الأطعمة لا يقدر عليه غالب الأمراء) وهذا الوضع الجديد أثار انتباه أبى طرطور القائم فى اتجاهه من الناحيه الأخرى فقال لأصحابه (اذهبوا بنا إلى أخينا يوسف ننظر حاله)

(١) الطبقات الكبرى، ١/١٦٠

ونظر ابو طرطور على الطبيعة فلم يجد إلا ولاء مفقوداً فسعى لعبد العال ـ القائد العام لقوات البدوى ـ فأصدر أمره بعزل يوسف الانبابى وتولية ابنه مكانه ، ولم تغن عن يوسف جموعه وأتباعه من الأمراء والأكابر ، وما كان له أن يحتج فإبنه مخلص للبدوى ولا يستطيع أن يفعل ما يضرّ به ، وليس غريبا بعد ذلك أن يختلف الحال مع اسماعيل الانبابى بالمقارنة بأبيه فبينما توافد الأمراء والأكابر على أبيه يوسف فان حظه ـ وهو المخلص للبدوى ـ أن أنكر عليه عالم مالكى وأفتى بتعزيره وتقوم الكرامات ـ كالعهد بها ـ بمعاقبة العالم المالكى والتشويش على اتهام إسماعيل الانبابى ، ثم أن اختيار اسماعيل بعد عزل أبيه يدل على سابق صلة وطيدة بين اسماعيل وأساطين الدعوة فى طنطا جعلتهم يتأكدون من ولائه الزائد ويعينونه مكان أبيه ، ورضى الابن بهذا الوضع دليل على عمق تلك الصلة برغم أنف أبيه .

٦ ـ وكما لوحظ فى ترجمة اسماعيل الانبابى المخلص للبدوى فإن اضطهاد السلطات الحاكمة لمبعوثى البدوى كان السمة الظاهرة فى تراجمهم ـ وتقوم الكرامات بالانتقام منهم على صفحات كتب المناقب ، وتفعل كتابة ما كان أتباع البدوى يتمنونه فى أحلام اليقظة ولا يستطيعون ، وغالبا ما يوصف الحكام بصفات الظلم ويقوم أصحابنا بمعاقبتهم ، إذا ما تعرضوا لصاحب الترجمة أو لأتباعه . من ذلك ما ورد فى ترجمة الشيخ وهيب المبعوث إلى برشوم قليوبية يقال فيه (وله كرامات كثيرة وإذ وقع أن أحداً من الظلمة أو الأعداء أراد أن يكبس البلد تأتى الناس بأمتعتهم وحلى النساء والأموال فيضعونها فى قبته فلا يقدر أحد أن يدخلها من الظلمة وإن

أراد أن يدخلها يبست أعضاؤه[١] » وكان رمضان الأشعث المدفون فى منف يرسلى عكازه إلى الكاشف مع المظلوم فيقضى حاجته فرد الكاشف شفاعته مرة فطلعت له غدة فى رقبته فمات فى الحال[٢] ومثله الشيخ الشيشينى الذى نفخ فى الكاشف فقلبه فى الهواء[٣] ، وكان كاشف بلبيس يرتعد فرقا من الشيخ سعدون مبعوث البدوى فيها[٤] ، وكانت للشيخ خليل الشامى كرامات كثيرة مع نائب الشام جعلته ينجذب ويتبعه تاركا الإمارة[٥] ، وغير ذلك[٦]

٧ ـ وكان أصحاب البدوى السطوحيون يدققون فى اختيار المريدين متابعة منهم لشيخهم وتلمح إلى ذلك أقوال الشعرانى فى الشيخ عبد الوهاب الجوهرى المدفون بناحية الجوهرية وكان من أجل أصحاب البدوى (وكان يأخذ العهد على المريدين .. وكان كل من أراد أن يأخذ العهد يقول له : خذ هذا الوتد ودقه فى الحائط داخل الخلوة فان ثبت فى الحائط أخذ العهد وإن خار ولم يثبت قال له : اذهب إلى حال سبيلك[٧]) .

هذا .. وإلى جانب المبعوثين أبقى البدوى إلى جانبه طائفة من الأتباع اختص كل منهم بوظيفة معينة اكتسب لقبها مثل الشيخ على البريدى رسول البدوى إلى بعوثه وأصحابه ، والشيخ عبد العظيم الراعى (كان يرعى بهائم سيدى أحمد وغنمه[٨]) و (الشيخ محمد الفران الذى كان يخبز لسيدى أحمد[٩]) و (محمد الكناس شيخ الكناسية الذين يكنسون المقام كل سنة فى المولد وكان سيدى أحمد يحبه محبة شديدة[١٠]) ومعنى ذلك أن البدوى الذى جاء طنطا منذ قليل لا يملك شيئاً أصبح يتحكم فى مملكة ثرية بقطعان الماشية والأغنام وتحوز كثيراً من الدور والزوايا الواردين من الضيفان

(١ : ٦) عبد الصمد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤

(٧) الطبقات الكبرى ١٦١/١ ، عبد الصمد ٢٧

(٨ : ١٠) عبد الصمد ٢٩ ، ٣٠

ويقوم على رعاية هذه المملكة ثلاثة من السطوحية هم عبدالعظيم الراعى ومحمد الكناس ومحمد الفران .

ثم هى مملكة غنية بقطيع من الأتباع الواردين لطنطا كل منهم يتوسل بالبدوى ليرعى ولده أو ماشيته أو يبارك زرعه .. ثم مملكة سرية باتباع منتشرين فى المنطقة داخل وخارج مصر موزعين بانتظام دقيق والاتصال بينهم مستمر بمركز الدعوة السرى فى طنطا .. ويقوم على إدارة هذه المملكة السرية والعلنية عبد العال اليد اليمنى للبدوى وخليفته الحازم الصارم ويعاونه (وزراء) اختص كل منهم بوظيفة محددة كالبريدى والراعى والكناس والفران . .

تلكم هى مملكة البدوى ، ذلك المتستر بالجنون والجذب والصياح والتبول على الناس جهاراً . .

بقى أن نقول أن مملكة البدوى كانت على اتصال مستمر بأعوانه وشركائه من المدرسة الواسطية ، ومر بنا أن البدوى كان يرسل زعيم أتباعه — عبدالعال — إلى المليجى ، وكان القليبى والبلقاجى يزوران البدوى فى طنطا ، كما كان الدرينى على اتصال مستمر بهم وبالبدوى بحكم مقامه فى الريف وتنقله فى البلاد . . ثم كانت للبدوى اتصالاته بأخيه الحسن فى مكة وقد ذكرنا أن الشيخ بشير كان مبعوث البدوى الدائم فى مكة ، وقد ورد فى الجواهر السنية لعبد الصمد أن الحسن كان يتسمع أخبار البدوى فى العام الأول لرحيله إلى طنطا وأن بعض الحجاج من طنطا قد أتوا إليه وعرفوه بأخيه وصياحه المزعج . . وفى الجواهر السنية اتصالات غامضة بين الحسن وأخيه البدوى ثم بين البدوى وابن أخيه الحسن بعد موت الحسن وتتخلل تلك الاتصالات دعاوى الكرامات وطى الأرض فى خطوات[1] . . والمهم

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ٦٣ ، ٦٥

إن الاتصال بين البدوى ومكة المركز الرئيسى للدعوة لم ينقطع وإنما تجدد بتجدد الحج كل عام ، وكان أولو الأمر فى مكة على علم بكل تحركات البدوى وخططه .

البدوى وانهيار الأيوبيين :

ظل البدوى مقيما على السطح اثنتى عشرة سنة يقوم خلالها بعملين متناقضين الأول : يوجه إذاعة مثمرة من الصياح والصراخ والموسيقى المزعجة ليقنع الناس بجذبته وجنونه ، وفى نفس الوقت يسير البعوث الدائمة ويحكم الخطط للدعوة ويعاونه عبد العال فى التنفيذ .. يقول الشعرانى (فلم يزل سيدى أحمد على السطوح مدة اثنتى عشرة سنة وكان سيدى عبد العال يأتى إليه بالرجل أو الطفل فيطاطى رأسه من السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيملأه مدداً ويقول لعبد العال : اذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا فكانوا يسمونه أصحاب السطح[1] » .

وبعد اثنتى عشرة سنة نزل البدوى من على السطح وسكتت الإذاعة المحلية فى طنطا عن الصراخ والصياح .. فما الذى حدا بالبدوى لقطع مرحلة السطح ؟؟ ..

تسكت المصادر الصوفية عن رصد تحركات البدوى بعد فترة السطح .. ولا يجد المؤرخ أمامه من سبيل إلا تلمس وقائع التاريخ ليربط بين الحوادث ويكمل النقص ليعلل انتهاء فترة السطح وبداية مرحلة جديدة فى الدعوة — لا ندرى مع الأسف الشديد — حقيقة الجهد المبذول فيها ..

نقول : ربما أنهى البدوى خطته كاملة فأتم زرع الدعاة فى مصر وخارجها وأتم سيطرته على طنطا وأصبح أعوانه متحكمين فيها يرصدون كل غريب

---

(١) الطبقات الكبرى ١٥٩/١ ، وفى رواية أخرى أنه ظل عشر سنين فقط أى (٦٣٧ - ٦٤٧) راجع الجواهر السنية ٣٧

ويقشممون كل خبر .. وإذن فلا داعى للادعاء بالجنون جذبا وصياحا ليقتنع من فى طنطا ، وصار عليه أن يتجول فى مملكته بحرية ينتظر الأخبار ويرسل الرسل ويحكم الخطط ويقابل الأتباع فى نفس الوقت الذى حافظ فيه على مظهر التصوف والجذب فى مقابلته لقطيع البشر الذى يفد إلى طنطا متبركا متوسلا ..

ويؤيد ذلك أن طنطا أصبحت مأوى لمريدى البدوى من جميع الأنحاء حتى من القاهرة كما ورد فى النص الذى أوردناه عن الأمير جنكلى بن البابا الذى زار البدوى وفوجىء به يتبول فى المسجد حين الصلاة للجمعة ، ويؤيد ذلك أن مملكة البدوى أصبحت تضم متخصصين من بين السطوحية فى التراسل ورعى البهائم وإعداد الطعام والكنس والتنظيف .

ولكن انتهاء فترة السطح فجأة بعد اثنتى عشرة سنة بالتمام لا يكفى فى تعليلها أن الدعوة انتشرت فى طنطا وخارجها ، فالشأن فى الدعوة أن تبدأ فى الازدهار التدريجى بعد سنوات قلائل وإذا بدأت فى النمو فنموها مضطرد طالما تسير وفق مخطط متكامل ناجح وحينئذ يصبح من الجائز أن يستمر البدوى على السطح أو ينزل إلى السفح دون تعيين بمدة .

فالمنطق يرجح أن يكون هناك حدث ماشجع البدوى على النزول من على سطحه ومباشرة الأمر بنفسه ، ولأن المصادر الصوفية لا تسعفنا بجهود البدوى بعيد فترة السطح فاننا نلجأ لمصادر التاريخ لتشفى الغليل .

لقد دخل البدوى طنطا سنة ٦٣٧ فاعتلى السطح وظل يصرخ ويخطط اثنتى عشرة سنة ثم انقطع الصراخ فجأة سنة ٦٤٩ وبدأ عهد جديد من التخطيط فى هدوء ودون ضجيج أو صريخ .

والتاريخ يقول أن المدة ما بين سنة ٦٤٨ : ٦٤٩ شهدت أحداثا هائلة فى تاريخ مصر والمنطقة .. فقد شهدت هذه الفترة بدء الحملة الصليبية التى قادها

القديس لويس التاسع واستولى فيها على دمياط ثم زحف جنوبا حتى وصل إلى البحر الصغير وزحف السلطان الأيوبى الصالح أيوب من القاهرة إلى موقع مدينة المنصورة — وأشرف على مواجهة الحملة الصليبية .

وفى خضم المناوشات بين الجانبين مات الصالح أيوب — وكان يعانى من مرض الصدر — فتولت محظيته شجرة الدر تدبير الأمور وبعثت فى طلب ولى العهد توران شاه واستمر القتال ونجح المماليك السلطانية فى الاجهاز على هجوم الفرنجة على المنصورة وتابعوا الانتصار وأغرقوا الأعداء فى الوحل والفيضان وتم أسر الجيش الصليبي وقائده لويس ، وكان توران شاه قد جاء فتولى الاجهاز على بقية الحملة الصليبية وشارك فى انتزاع النصر مع المماليك البحرية ، إلا أنه تآمر على زوجة أبيه فأسرع المماليك بقتله وتم ذلك سنة ٦٤٧ وتولت الحكم شجرة الدر كأول سلطانة فى التاريخ الإسلامى، وآخر سلطانة أيضاً.

واحتج الخليفة العباسى على أن تتولى الأمر فى مصر امرأة وبعث يقندر بأولى الأمر يقول إذا خلت مصر من الرجال فإنه على استعداد أن يبعث برجل ليحكم .

ولم يكن البدوى ببعيد عن مجريات الأحداث فالمنصورة جد قريبة من طنطا .. وجواسيس البدوى فى كل صقع . . والبدوى (أبو الفتيان) و (أبو الرجال) وجد الفرصة سانحة ، ولعله نزل من السطح وقد أحس بالعار من سخرية الخليفة العباسى وبقولته بأن مصر خلت من الرجال طالما تحكمت فيهم امرأة ، وقد رأى أن الفرصة سانحة فأتباعه منتشرون والسلطة فى اضطراب بعد سقوط الدولة الأيوبية وتحكم المماليك فى الأمر بزعامة شجرة الدر ... وفى هذه الحال فالصراخ على السطح مضيعة للوقت وصياح فى الهواء لا يأتى بفائدة اللهم إلا وجع الدماغ .

ثم جد عامل آخر شجع البدوى هو تذمر المصريين من أن يحكمهم المماليك

وهم رقيق سابقون فكيف للرقيق أن يحكم الأحرار .. يقول أبو المحاسن « إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك – الذى تزوج شجرة الدر وحكم معها – وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه إذا ركب ومر فى الطرقات[1] » والبدوى بنسبة الشريف الذى يدعيه أولى من الرقيق بحكم مصر .

وزاد من خطورة الأمر أن الأيوبيين فى الشام لم يرضوا بما حدث فى مصر فتحتمت الحرب بين المماليك والأيوبيين ، وواجهت الدولة المملوكية الناشئة خطر الأيوبيين فى الشام مع تذمر المصريين فى الداخل ، واستغل هذه الظروف بعض الشيعة فأعلن الثورة وهو حصن الدين ثعلب الذى ادعى النسب العلوى – وأعلن أن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للأرقاء ، وأقام دولة عربية مستقلة فى مصر الوسطى ومنطقة الشرقية ، وحاول حصن الدين أن يتصل بالناصر الأيوبى صاحب الكرك وعدو المماليك إلا أن عقد الصلح بين الأيوبيين والمماليك خيب أمله فاضطر للاعتماد على جهوده الذاتية[2] .

والمهم أن مبادرة حصن الدين ثعلب بالثورة أضافت عنصراً جديداً أقنع البدوى بانهاء مرحلة السطح وتطوير دعوته ودفعها على طريق جديد .. ومع الأسف فإننا لا نعرف المدى الجديد الذى وصلت إليه الدعوة بعد انتهاء فترة السطح ، ولكن يعنينا أن إنشغال المماليك بفتنهم الداخلية وحروبهم مع الأيوبيين ثم مع المغول مكن للبدوى من التحرك الجديد مستغلا فترة القلق التى تصاحب إنهيار دولة وقيام دولة أخرى على أنقاضها ووجود عامل خارجى تمثل فى الهجوم الصليبى بحملة لويس التاسع ..

ومهما يكن من أمر فإن التحرك الجديد الذى قام به البدوى بعد نزوله من

(١) النجوم الزاهرة ١٣/٧ ، أنظر المقريزى . السلوك ٣٨٠/١

(٢) السلوك ٣٨٦/١ : ٣٨٧

على السطح ـ والذى لا نعرف حقيقته لم يقدر له الاستمرار والنجاح . . فالاضطراب الذى واجهته الدولة المملوكية الوليدة من التنازع الداخلى بين المماليك وبينهم وبين الأيوبيين وبينهم وبين الغزو المغولى ـ ذلك الاضطراب انتهى بعد الانتصار المملوكى على المغول فى عين جالوت التى رفعت شأن الحكم الجديد وزادته قوة فى الداخل والخارج ، ثم تمكن بيبرس من القبض على السلطة بيد من حديد فتفرغ لمواجهة أعداء الدولة فى الخارج والداخل ونجح فى الميدانين معاً . . وافشل حركات الشيعة الصوفية السرية والعلنية . . ولم يفلح معه التطور الجديد الذى بدأه البدوى بالنزول من على السطح ، بل ربما كانت يد الظاهر بيبرس الحديدية سبباً فى عدم معرفتنا بجهود البدوى حين نزل من على السطح . . فقد تحولت المبادرة إلى جانب السلطة المملوكية التى يمثلها بيبرس واقتصر البدوى وكل أعداء الدولة على مجرد رد الفعل .

سادساً : جهود البدوى فى المرحلة الثانية

(٦٥٨ - ٦٧٥ هـ)

السلطان بيبرس كخبير فى التآمر :

انتهت المرحلة الأولى وقد انتشر دعاة البدوى فى المنطقة والجو السياسى فى صالحهم من ضعف للسلاطين وانهماك فى الفتن والمؤامرات وقلق سياسى أسفر عن انهيار الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية التى انشغلت فى تأسيس بنيانها ومواجهة الطامعين من بنى أيوب والصليبيين والمغول .

ثم كان توطيد الحكم المملوكى واستقراره على يد الظاهر بيبرس ، ذلك التوطيد الذى استقر بعده الحكم المملوكى طيلة الدولة البحرية ثم البرجية على أثرها ، حيث ظلت الدولة المملوكية تتربع على عرش الصدارة فى المنطقة حتى انهارت على يد الدولة العثمانية سنة ٩٢١ هـ .

وإذا كان البدوى قد استفاد من فترة الخلل السياسى فأن عليه أن يواجه المأزق حين أخذ بيبرس على عاتقه أن يوطد الدولة المملوكية فى الداخل والخارج ولن يكون توطيد الدولة المملوكية فى الداخل إلا على حساب البدوى ودعوته السرية وسائر المستفيدين من الضعف الداخلى للدولة الوليدة .

والواقع أن زمام المبادرة فى هذه المرحلة انتقل إلى يد الظاهر بيبرس الذى كان شعلة من النشاط لا تهدأ فى الداخل والخارج بحيث أنه من الأنسب أن نجعل العنوان (جهود بيبرس) لا (جهود البدوى) ذلك أن البدوى فى هذه المرحلة اقتصر عمله على رد الفعل دون البدء به .

وقد احتل الظاهر بيبرس المكان اللائق به فى التاريخ المصرى الوسيط وفى الوجدان الشعبى فحيكت سيره (الظاهر بيبرس) التى تتناول بطولاته ضد الصليبيين ومهاراته فى المؤامرات .. وإذا وضعنا البدوى بإزاء بيبرس لرأينا

خصمين لا يقل أحدهما عن الآخر فى فن المؤامرات والدهاء الأمر الذى يجعل المباراة بينهما شيقة مثيرة لو أتحفتنا المصادر التاريخية بما يشفى الغليل ، لولا أن تميزهما معاً بالدهاء والتستر والتآمر جعل المصادر التاريخية لا تذكر من أعمالهما إلا ما ظهر وبان للعيان فقط . أما ما بطن وخفى فقد وقع علينا عبئه وعلى الله التوفيق .

ونبدأ بالتعرف على جانب من شخصية الظاهر بيبرس ذلك الذى أرهق الوجود الصليبى فى الشام والدولة المغولية فى العراق والمملكة النوبية فى الجنوب والأرمنية فى الشمال وأكد نفوذه فى الشام ومصر والحجاز ، وقد عانى أعداؤه جميعاً من دهائه الخارق وحيويته الدافقة ونشاطه المستمر فى الحروب مع المؤامرات .

ونشاط الظاهر بيبرس فى فن المؤامرات هو الجانب الذى يهمنا فى بحثنا للبدوى كزعيم لآخر مؤامرة شيعية ضد الدولة المملوكية فى عهد الظاهر بيبرس ، ولقد تعرفنا على البدوى ودهائه فى المرحلة الأولى لدعوته وبقى أن نتعرف فى المرحلة الثانية على خصمه الجديد ومدى دهائه فى التآمر هو الآخر.

والواقع أن سجل بيبرس فى التآمر لا يحسد عليه ، فالمماليك ـ عموما ـ أساتذة فى فن المؤامرات تعلموها فى المدرسة الأيوبية حيث كانوا عنصراً فى حلقات التآمر التى لا تنتهى بين أبناء الأسرة الأيوبية . ثم مارسوها على نطاق شخصى حين آل الأمر إليهم دون الأيوبيين وأقاموا دولتهم المملوكية فبدأ التآمر فيما بينهم يأخذ الطابع المحلى ، وعلى أساس مقدرة أحدهم فى التآمر كان وصوله إلى السلطة أو إلى الدار الآخرة قتيلا ليرثه القاتل المنتصر والذى هو بالطبع أكثر دهاء وتآمراً .

وقد مارس بيبرس هذه اللعبة منذ بدايته ، ويكفى أنه بالتآمر وصل إلى أن يكون أحد أعمدة المماليك البحرية وأحد كبار الأتباع لأقطاى زعيم

البحرية . وحين قتل أقطاى بسيف قطز وتشرد بيبرس مع أتباعه فإنه لم ينس هزيمته أمام (خشداشيه) أو (زميله) قطز وأقسم أن يكون قطز من قتلاه . . وفعلا . تآمر على قتل قطز بعد أن راسله قطز واستقدمه وأعطاه الأمان وولاه قصبة قليوب وبر بيبرس بقسمه فقتل قاتل أقطاى عند الصالحية بعد أن هزم المغول فى عين جالوت . . وتولى بيبرس السلطنة نتيجة مؤامرة نفذها بسيفه الملوث بدماء السلطان قطز .

ولم يقلع بيبرس بعد توليه السلطنة عن ممارسة التآمر ضد خصومه وما أكثرهم ، وحتى يتيح لنفسه أكبر قدر من الحرية كان يفضل التخفى والتستر حين يباشر التآمر بنفسه ، وهكذا كان (التنكر) سمة أساسية فى النشاط السرى للظاهر بيبرس وسياسته .

يقول المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٣ (وفيها نزل السلطان من قلعة الجبل متنكراً وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس[١]) وفى حوادث سنة ٦٦٥ يقول أنه بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى فى ظاهرها فسرى ـ أى سار ليلا ببعض عسكره (وأمر بالركوب خفية فركب وقد اطمأن الفرنجة فلم يشعروا به إلا وهو على باب عكا ووضع السيف فى الفرنج)[٢] واشتهر عنه أنه بعد سقوط أنطاكية طلبت إمارة طرابلس الصليبية الصلح فأوفد بيبرس وفداً للمفاوضة ودخل المدينة بنفسه ضمن وفد المفاوضات متنكراً فى زى خادم ليتعرف خبايا المدينة ويدرسها تمهيداً لحصارها فيما بعد .

وقد عقد الظاهر بيبرس لإبنه السعيد بركه بولاية العهد .. ولكى يطمئن

(١) (٢) السلوك ١/٥٤٠ ، ٥٦٥ .

على سير الأمور فى مصر أثناء غيابه فى الشام (خطر للسلطان أن يتوجه إلى ديار مصر خفية فكتم ذلك وكتب للنواب بمكانه) وادعى المرض حتى لا يدخل عليه أحد ثم تسلل (ولبس السلطان خوجه مقطعة، وقصد أن يخرج ولا يعلم به الحراس) وسار من الشام حتى وصل قلعة الجبل (وعندما خرج الملك السعيد ليركب ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه فرعب منه وقبل الأرض) ثم عاد للشام إلى حيث معسكره، يقول المقريزى (ومشى كل ما وقع على العسكر ولم يعلم به سوى الأتابك والاستادار والداودار وخواص الجامدارية .. وقصد بما فعله أن يكشف حال مملكته وتعرف أحوال إبنه الملك السعيد فى مصر فتم له ما أراد)[١] .

وقد أعان بيبرس على تنفيذ سياسته تلك أن (رتب البريد فى سائر الطرقات فكان الخبر يصله من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين ويتحكم فى سائر الممالك من العزل والتوليه وهو مقيم فى قلعة الجبل[٢]) .

ومع ذلك فلم يمكث بمكان واحد بل كان على حد قول المقريزى نفسه (مقداما خفيف الركاب طول أيامه يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر فى الممالك فركب للعب الكرة فى الأسبوع يومين بمصر ويوما بدمشق وفى ذلك يقول سيف الدولة المهندار من أبيات يمدحه فيها :

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشام يوما ويوما فى قرى حلب[٣]

وحين يكون بمكان ويصله خبر بالبريد عن تحرك أعدائه يبادر بالتحرك

---

(١) نفس المرجع السابق ١/٥٦٧ : ٥٧٤

(٢) و (٣) السلوك ١/٥٨٣ ، ٥٨٤

إليهم ، فكانت أيامه حركة مستمرة ، من ذلك مايقوله المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٨ (صلى الجمعة فى الكرك وساق إلى دمشق والناس فى مصر لا يعرفون شيئاً من خبر السلطان هل هو فى الشام أو الحجاز أو غيره ولا يستطيع من مهابته والخوف منه أحد أن يتكلم ، ثم وصل إلى قلعة الجبل ودخل إلى الاسكندرية وتوجه إلى الحمامات ونزل بالايونة فبلغه هناك حركة التتار وانهم واعدوا فرنج الساحل فعاد إلى قلعة الجبل وسار السلطان من قلعة الجبل ومعه نفر يسير فوصل إلى غزة ثم دخل دمشق[1]) .

وبيبرس كخبير فى المؤامرات كان يدرك أن أسهل الطرق لمواجهة مؤامرات الخصوم أن يحتاط لها ولا ينتظر حدوثها بل يبادر بالقضاء على من يخشاه مقدما قبل أن تنشب الفتنة ، وذلك خط أساسى فى جهد بيبرس السياسى من ذلك ما فعله مع المغيث الأيوبى صاحب الكرك الذى تحايل عليه واستحضره فاعتقله ثم قتله بعدها[2] وكان لبيبرس صديق من أمراء المماليك الطموحين (وقد ولاه الملك الظاهر شد الدواوين بمصر والقاهرة فأطلق فى مدة أربعين يوما ثمانمائة فرس فبلغ ذلك السلطان فقال : هذا ما نيته خير .. وكان بينه وبينه مودة عظيمة فما أمكنه إلا أن عزله[3]) .

وبذلك نتعرف على بعض الملامح التآمرية لدى الظاهر بيبرس بعد تولية السلطنة ، فهو فى وضعه الجديد ـ الذى وصل إليه بالتآمر ـ يواجه مؤامرات خصومه بأدوات الحكم ، فهو يرتب البريد وينظمه ، والبريد أهم وسائل التجسس وبه أصبحت أخبار البلاد تصله فى مدة قياسية حيثما كان ، وعن طريق جواسيسه المنتشرين وبريده السريع المنتظم كان يبادر بالتحرك

(١) نفس المرجع السابق ٦٣٧/١ (٢) السلوك ٤٤٢/١ ، ٤٥٢

(٣) الكتبي : عيون التواريخ : مخطوط مصور ٢٥٦/٢ : ٢٥٧ .

السريع لمجابهة الموقف بل أنه كان لا ينتظر وقوع الفتنة ، وبمجرد أن يشم احتمال حدوثها كان يبادر بالقضاء عليها قبل أن تكتمل ملامحها ، وساعده على ذلك كله خبرة سابقة بالتآمر وحيوية دافقة لا تعرف الكلل .

وهذه الملامح نتبينها فى موقف الظاهر بيبرس من الدعوة الشيعية المستترة بالتصوف ، ولأن مؤرخى عصره كان يرصدون تحرك السلطان الظاهرى دون فهم لنواياه الخفية فأننا نربط الحوادث على ضوء فهمنا لسياسة السلطان الظاهر بيبرس ذلك الذى وصل بالتآمر ولن يسمح لمتآمر أن يغلبه وهو (سلطان المتآمرين) .

حركة الكورانى وذيولها :

ومن سوء حظ البدوى أن الظاهر بيبرس واجه فى أولى سنوات احكمه مؤامرة الكورانى الشيعية الصوفية ، ففى أثناء اشتغال المماليك بمواجهة الخطر المغولى سنة ٦٥٧ بدأت دعوة الكورانى السرية فقبض عليه (وضرب ضربا مبرحا[١]) وأطلق من اعتقاله فأقام بالجبل الأحمر .. وفى العام التالى قتل بيبرس قطز وتولى السلطنة وكانت العامة تتخوف من تسلط البحرية فى عهد الظاهر بيبرس واستغل الكورانى الشعور العدائى للسلطة الجديدة فقام بحركته الصوفية الشيعية العسكرية .. يقول المقريزى فى حوادث سنة ٦٥٨ (وفيها ثار جماعة من السودان والركبدارية وشقوا القاهرة وهم ينادون (يا آل على) وفتحوا دكاكين السيوفيين من العصر وأخذوا ما فيها من السلاح واقتحموا اصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيل وكان الحامل لهم على هذا رجل يعرف بالكورانى أظهر الزهد وحمل بيده مسبحة وسكن قبة بالجبل وتردد إليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة وأقطعهم الاقطاعات

(١) السلوك ١/٤٢٠ ، ٤٤٠

وكتب لهم بها رقاعا ، فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم وربطوهم فأصبحوا مصلوبين خارج باب زويلة وسكنت الثائرة[١]) .

فالشيخ الكورانى خطط جيداً لحركته العسكرية ، فقد اختار الوقت المناسب واصطنع التصوف والزهد والمسبحة وسكن قبة بالجبل ، وكون خلايا عسكرية من بين الغلمان الخدم المنوطين بخدمة الفرسان المماليك ، ورسم لهم خطط الهجوم بانتزاع السلاح وسرقة الخيل والهجوم على ثكنات المماليك على أن يسبق الهجوم مظاهرة مسلحة تنادى (يا آل على) لينضم إليها العامة والزعر وهم كارهون للبحرية وزعيمهم بيبرس السلطان الجديد .

وقضى على المؤامرة الوليدة .. وما كان لبيبرس أن تمر عليه هذه الحادثة دون دراسة وانتباه .. من ذلك أنه فى العام التالى سنة ٦٥٩ (رتب البريد فى سائر الطرقات) ليكون على أهبة التحرك عند أى طارىء ، واستمال العامة فأزاح عن كاهلهم الضرائب التى فرضها سافه قطز حين تجهز للقاء المغول . .

ولأنه أدرك أن هدف الكورانى يتمثل فى الخلافة الشيعية التى تحل محل الخلافة العباسية المنهارة فقد عمل بيبرس على بعث الخلافة العباسية السنية فى مصر لتكون واجبة لحكمه وسنداً لسلطته ضد أى تحرك يقوم به الشيعة على الخصوص ، وهكذا فى العام التالى لحركة الكورانى استقدم أحد العباسيين وتمت البيعة له باسم الخليفة المستنصر ، وكان المستنصر طموحا فتخوف منه بيبرس وعزم على التخلص منه فأوفده بجيش قليل لاسترداد بغداد فهزمه المغول وقتلوه سنة ٦٦٠ هـ ، فعين بيبرس خليفة آخر هو الحاكم سنة ٦٦١ ، وحتى يضمن الأمان لسلطانه من طموح الخليفة الجديد جعل من القاهرة ملجأ للأمراء

---

(١) السلوك ١ / ٤٤٠

العباسيين الفارين ليهدد الخليفة الجديد بالعزل وتولية أحدهم مكانه إذا حدثته نفسه بالتدخل فى شئون الدولة .

وهكذا كان بيبرس يبادر بعلاج أسباب الفتنة قبل أن تحدث حتى إنه حين بلغه من جواسيسه أن الخليفة الجديد يقوم ببعض الاتصالات حجبه عن الناس لأن (أصحابه كانوا يخرجون إلى الناس ويتكلمون فى أمر الدولة[١])

وربط بيبرس فى دراسته لمؤامرة الكورانى بين حركة الكورانى وحركة الشريف حصن الدين ثعلب الشيعية التى ساندها الأعراب وأقامت دولة فى الشرقية ومصر الوسطى ثم قضى عليها أيبك واعتقل الشريف حصن الدين فى الاسكندرية .

وقد جاء بيبرس للحكم وحصن الدين لم يزل معتقلا ، وبعد حركة الكورانى بث العيون حول أصحاب حصن الدين . وحينما نمى إلى علمه أن الشريف السرسناوى يتردد إلى حصن الدين فى حبسه أمر بشنقهما معاً[٢] .

وشك بيبرس فى طموح صديقه الأمير المملوكى الذى أشرنا إليه سلفا والذى (ولاه شد الدواوين بمصر والقاهرة فأطلق فى مدة أربعين يوما ثمانمائة فرس فبلغ ذلك للسلطان فقال : هذا ما نيته خير ، وكان بينه وبينه مودة عظيمة فما أمكنه إلا إنه عزله) ، والجديد أن ذلك المملوك (كان يدعى أن أصله شريف علوى من العجم[٣]) .

ودرس بيبرس نشاط الكورانى السابق فعلم أن الكورانى قد اعتقل فى العام السابق لحركته (بسبب بدع ظهرت منه وجددا سلامه الشيخ عز الدين

---

(١) ابن حجر الهيثمى . تاريخ الخلفاء مخطوط ورقه ١٢٦ ب

(٢) النويرى . نهاية الأرب . مخطوط ٣٨/٢٨

(٣) السكتبى . عيون من التواريخ ٢٥٦/٢ مخطوط

ابن عبد السلام وأطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر)[١] : أى لولا توبة السكورانى على يد الشيخ عزالدين بن عبد السلام لما أخرج من المعتقل وماقام بحركته أصلا ..

وكان عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء فى عصره ومعلماً بارزاً فى تاريخ القرن السابع جاء لمصر غاضباً من الصالح إسماعيل الأيوبى المتعاون مع الصليبيين ضد الصالح أيوب سلطان مصر ، وأحرز مكانة عالية بين المصريين حكاما ومحكومين ، إلا أنه اتصل بالشاذلى وتصوف فصار ـ وهو الفقيه الواعظ ـ (يحضر السماع ويرقص[٢]) أى يرقص فى حفلات الصوفية شأن المريدين ، وقد سبق القول بأن الشاذلى كان واجهة صوفية فى الاسكندرية للدعوة السرية بعد موت رائدها أبى الفتح الواسطى ، ومن الطبيعى أن تستغل الدعوة فقيهاً شهيراً كابن عبد السلام بعد أن أحدثت هذا التحول الخطير فى حياته وحولته من فقيه ثائر إلى مريد راقص. إلا أن أمر عزالدين ابن عبد السلام لم يتأثر بانخراطه فى التصوف ، فالتصوف مرعى الجانب من السلطات طالما لا تشوبه شائبة من طموح سياسى .. ولم تستطع السلطة المملوكية فى عهد قطز أن تشك فيه من هذه الناحية ، بل على العكس لجأ إليه قطز ليستعين به فى فرض الضرائب لمواجهة المغول فرفض ابن عبد السلام أن تؤخذ أموال العامة وقال (إذ لم يبق فى بيت المال شىء وأنفقتم الحوائص من الذهب ونحوها من الزينة وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شىء من أموال الناس[٣]) ولم يأخذ قطز بفتوى عز الدين بن عبد السلام ففرض ضرائب باهظة على

---

(١) السلوك ١/٤٢٠

(٢) ابن حجر . رفع الاصر ٢٥١ ، ٢٥٢ ، اليافعى مرآة الجنان ١/١٥٣ : ١٥٤

(٣) السلوك ١/٤١٦ .

الناس ، ومع ذلك فلم تتأثر مكانة ابن عبد السلام بموقفه المشرف هذا ، وبعدها كان اطلاقه للكورانى حين اعتقل اشتباهاً فى نشاطه السياسى بحجة أنه (ظهرت منه بدع) استوجبت اعتقاله وضربه ضربا مبرحاً وليس ذلك مألوفاً فى التعامل مع صوفى معتقد يقصده الناس كالكورانى .

وبعد حركة الكورانى أحاطت شكوك الظاهر بيبرس بسلطان العلماء (عزالدين بن عبد السلام) ، وليس غريبا حينئذ أن تعقد له جلسات لمحاكمته لأسباب غامضة، يقول الشعرانى عنه (وعقدوا للشيخ عزالدين بن عبد السلام مجلساً فى كلمة قالها فى العقائد)[1] ، ومفهوم أن تعقد للصوفى العادى محاكمات بسبب الشطح ، أما غير المفهوم أن يتهم بذلك فقيه شهير كان سلطاناً للعلماء فى عصره متمتعاً بالحظوة لدى الحكام والمماليك على وجه الخصوص بحيث يتجرأ على القول أمامهم بكلمة حق دون خوف أو وجل ، ومن غير المفهوم أيضاً أن تعقد لهذا الفقيه الخطير الشأن جلسة للمحاكمة حول كلمة يقولها فى العقيدة ، وهو أدرى بخطورة هذا الاتهام المسلط دائما على رقاب الصوفية ذوى الشطحات .. ومن غير المفهوم أيضاً أن تجرى هذه المحاكمات فى جو من السرية بحيث لا ترصدها المصادر التاريخية وهى مغرمة بتقصى أخبار المشاهير ومنهم ابن عبد السلام .

والتفسير الوحيد لهذه الألغاز هو فى الربط بين عز الدين بن عبد السلام والدعوة السرية الشيعية ونشاط الشيعة المستتر بالتصوف فى عهد حاكم داهية كالظاهر بيبرس يعالج أموره بالكتمان ويقابل التآمر بتآمر أعتى وأشد ويتبع خيوط المؤامرة بنفسه ويبادر بالقضاء على أعوانها مهما سمت مراكزهم إذا توفر له دليل أى دليل .

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٥ .

لقد انحسرت الأضواء عن ابن عبد السلام منذ حركة الكورانى إلى أن مات سنة ٦٦٠هـ ، ونحن لا نجزم بوجود علاقة ما بين الكورانى وابن عبد السلام ولكننا نرجح أن يكون موقف ابن عبد السلام من الكوران فى محنته سنة ٦٥٧ نابعا من تأثره وتشبعه بالدعوة الشيعية الصوفية التى أشربها عن طريق الشاذلى صديقه . . ولم يجد الظاهر بيبرس فى موقف ابن عبد السلام إلا ما يستوجب الاتهام فاتهمه . . ولعله كانت لديه أدلة أكثر حسما من مجرد الشكوك برر بها التطور الجديد الذى قام به الكورانى ، ففى أقل من عام بعد خروجه من المعتقل كانت جماعاته المسلحة تطوف القاهرة وتبغى الاستيلاء على السلطة وتهتف (يا آل على) .

انعكاسات حركة الكورانى على دعوة البدوى :

ومن الواضح أنه لا صلة مباشرة بين حركة الكورانى ودعوة البدوى مع اتفاقهما فى (الهدف) وهو إقامة الحكم الشيعى و (التخطيط الأساسى) وهو استغلال التصوف وتكوين الأتباع ، إلا أن هناك نوعاً من الاختلاف بين الحركتين نلمسه فى التمهل الذى تسير عليه الدعوة الشيعية الصوفية بدءاً من الرفاعى وانتهاءاً بالبدوى ، بالإضافة إلى ميل هذه الدعوة للابتعاد عن العواصم ومراكز التحكم السياسى مع شموليتها للمنطقة داخل وخارج مصر ، أما حركة الكورانى فالأغلب أنها حركة محلية من الأتباع المتبقين من أنصار الدولة الفاطمية الآفلة بدليل اعتماد صاحبها الكورانى على جماعات السودان ، وقد كان السودان يمثلون الحرس الفاطمى الذى أرهق صلاح الدين فى بدايته بالمؤامرات ، وإذا كان قد قضى عليهم عسكرياً فأن بقاياهم وذرياتهم كانت لاتزال موجودة تطوى القلوب على الجمر تتحين الفرصة ، وقد واتتها فى حركة الكورانى الفاشلة .

ومع ذلك فإن التسرع الذى اتسمت به حركة الكورانى وأدى إلى فشلها

كان عاملا هاماً فى لفت نظر بيبرس للتآمر الشيعى المستتر بالتصوف مما دفعه لبث العيون وتنظيم البريد حتى لا يؤخذ على حين غرة ، وإقامة الخلافة العباسية ليقطع الطريق على هدف الشيعة فى الخلافة الفاطمية ، ثم اجتث جذور التآمر أو ما يشك فيه كتآمر فقتل الشريفين حصن الدين والسرسناوى وعزل صديقه المملوكى مدعى النسب العلوى وحاكم عز الدين بن عبد السلام .

ثم بدأت عيونه ترصد تجمعات المتصوفة وفوجىء بيبرس بداعية مجهول غامض يحتل مكاناً هاماً فى وسط الدلتا هو أحمد البدوى ، ودعاته أو أتباعه منتشرون ، وكان كشف البدوى أمام أعين الظاهر بيبرس هو الهدية الغير منتظرة من السكورانى لرفيقه الشيعى الصوفى البدوى .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق (ولكن سرعان ما أدرك السيد البدوى أنه محاط بالجواسيس من كل مكان وأن صاحب مصر قد وقف على نيته فانقلب يعلم الناس النحو والصرف وقرأ دروساً فى الفقه على المذهب الشافعى ولبث سنين لا يجتمع بأحد من السطوحية فى مجلس ظاهر[١]) . ولم يكن البدوى بالشخص الذى يؤخذ على غرة ، فأتباعه منتشرون والاتصالات بينهم وبينه مستمرة ومستقرة ، وقد علم بشنق حصن الدين والسرسناوى فى الاسكندرية ، وبلغته أخبار فشل السكورانى ونهايته مع أتباعه فى القاهرة ، وقبل كل ذلك كانت لديه عين على الظاهر بيبرس نفسه ينبئه بما ينبغى عليه فعله ، إنه خضر العدوى المهرانى السكردى تلميذ أبى السعود بن أبى العشائر الواسطى[٢] مبعوث الرفاعى للقاهرة ، والذى أصبح شيخاً للظاهر بيبرس ومقدمها بالنفوذ فى عهده .

---

(١) مجلة السياسة ١١

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٤٠ ، ٢/٢

خضر العدوى بين الظاهر بيبرس والبدوى :

ففى فترة (التيه) التى قضاها الأمير بيبرس البندقدارى فى الشام الأيوبى بعد هروبه من مصر التقى بخضر العدوى ، وكان خضر العدوى الكردى تلميذاً نشطاً لأبى السعود بن أبى العشائر فى مصر . وفد إليه وكون مع داود (المغربى) وشرف الدين (الكردى) وحسين (الجاكى) خلية صوفية متحركة بين الشام والعراق ومصر .

وفى فترة الاضطراب هذه والتى تنبىء بعلو شأن البحرية وضع الشيعة أعينهم على بعض الطموحين من المماليك البحرية يبشرونهم بالسلطنة حيث شاع فى العصر الإيمان بكرامات الأولياء وعلمهم بالغيب ، وكان من نصيب خضر العدوى أن التقى بالظاهر بيبرس وقت أن كان أميراً هارباً فى الشام فبشره بالسلطنة ، وفى هذا الوقت حيث كان بيبرس يعيش بحد سيفه خادماً لهذا الأمير الأيوبى أو ذاك فإن تبشيره بالسلطنة من صوفى معتقد كالشيخ خضر لابد أن يترك فى نفسه أثراً ، ويحفزه لتحقيق أطماعه التى أضاعها قطز حين قتل أقطاى أستاذ بيبرس . وبينما يسير بيبرس فى الشام شريداً بين صغار الأيوبيين المتنازعين فان غريمه قطز يتولى السلطنة بعد أن مهد لعز الدين أيبك أستاذه من قبل وعلى حساب أقطاى وبيبرس .

وهكذا فمن بين سياسة (التبشير) بالسلطنة بين الأمراء البحرية فى هذا العصر المضطرب أفلح خضر العدوى فى حفز الأمير بيبرس البندقدارى ليرجع إلى غريمه قطز فى مصر رافعاً راية الاستسلام وفى نفسه عزم على الانتقام والوصول للسلطنة .

يقول أبو الفدا (سار بيبرس إلى غزة وراسل قطز وأرسل إليه علاء الدين

طيبرس يطلب منه الأمان فكتب إليه قطز بالأمان ووعده بالوعود الجميلة[١]) وسارت الأمور على نحو ما نعرف . عاد بيبرس فشارك فى حرب المغول ثم انتهز الفرصة حين الأوبة من الانتصار فقتل السلطان قطز وتولى مكانه .

وتحقق أمل الشيعة الصوفيه مع أمل بيبرس الذى رفع من شأن خضر العدوى واعتقد ولايته وتقدم خضر فى سلطنته وسمح له بنفوذ وهو الذى يهابه الجميع ولا يسمح لرأس بالظهور فى دولته .

واستخدم خضر هذا النفوذ فى خدمة الدعوة ، وإن كنا لا نعرف على وجه القطع أوجه العلاقات بين البدوى وخضر العدوى وسبل الاتصال بينهما ، وإن كنا نلحظ هذه العلاقة الغامضة بين الأطراف الثلاثة (الظاهر بيبرس ـ خضر العدوى ـ البدوى) من تتبع المصير الذى آل إليه خضر العدوى ثم البدوى فى دولة الظاهر بيبرس .

والملاحظ أنه مع اهتمام المؤرخين برصد تاريخ الشيخ خضر العدوى وعلاقته بالظاهر بيبرس فإن الغموض وجد طريقة إلى هذه العلاقة مع أنها تطفو إلى السطح الذى يهتم به المؤرخون عادة فى هذا العصر .

وقد أبانت المصادر التاريخية النفوذ الذى تمتع به خضر العدوى فى دولة الظاهر بيبرس وأن مرد ذلك النفوذ إلى أن الظاهر كان يعتقده ويعظمة منذ أن بشره بتولى السلطنة ثم يتحدثون عن نكبته واعتقاله ، ويلخص السيوطى ذلك كلة فى ترجمة لخضر العدوى بقوله فيه (كان الظاهر بيبرس يخضع له ثم تغير عليه وأراد قتله سنة ٦٧١ فقال له : إنما بينى وبينك فى الموت شىء يسير فوجم لها السلطان وتركة)[٢] ونحو ذلك مايقوله الشعرانى (الشيخ

(١) المختصر فى أخبار البشر ٣/٢٠٠

(٢) حسن المحاضرة ٥٢١/١ . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

خضر الكردى شيخ الملك الظاهر بيبرس أبى الفتوحات ، كان به الإلمام الكثير والتصوف والكشف والهمة والمدد ، وكان السلطان ينزل كثيراً لزيارته ويحادثه بأسراره ويستصحبه فى إسفاره فرمى أولاد الحلال بينه وبينه فنقم عليه وحبسه فطلع للسلطان جمرة رعت ظهره فأرسل يتعطف بالشيخ وأطلقه فقال : أجلى قريب من أجل السلطان فماتا قريبا من بعضهما والشيخ خضر قبله بأيام فى سنة خمس وسبعين وستمائة وكان حبس الشيخ أربع سنين ومع ذلك كان يرسل له الأطعمة الفاخرة إلى الحبس)[1] .

وبغض النظر عن تلك (الجمرة) التى ألصقها الشعرانى ـ دون غيره ـ بالظاهر بيبرس ظلما وعدوانا وإثباتا لنفوذ مزعوم للأولياء الصوفية ـ فإن الترجمة التى أوردها لخضر العدوى لم تخل من بعض الصدق كقوله عن علاقة الظاهر بخضر (وكان السلطان ينزل كثيراً لزيارته ويحادثه بأسراره ويستصحبه فى اسفاره) فقد أشار الكثيرون إلى نفوذ خضر الواسع فى دولة الظاهر الذى كان يعتقد بعلمه بالغيب ويستشيره ويسمع له ويطيع وحين وصل الشعرانى إلى نكبة خضر أسندها إلى (أولاد الحلال) وتدخلهم بين السلطان وخضر .

والواقع أنه مهما قال (أولاد الحلال) فى شأن الشيخ خضر فلن يكون ذلك سبباً فى إصرار السلطان على قتله إلا إذا كان خضر متآمراً على السلطان ، فتلك هى الجريمة الكبرى فى نظر بيبرس والتى لا يعدلها إلا اعتقاده فى خضر ومعرفته بالغيب إلى درجة أنه أوسع لنفوذه فى الظهور فى دولته ، وهكذا عدل الظاهر بيبرس عن تصميمه على قتل خضر حين هدده الأخير بعلم الكشف ـ أو الغيب ـ أنهما متقاربان فى وقت الوفاة .. فكان أن اعتقله مكرما إلى أن مات ، وتخلص خضر بهذه الحيلة وكان لا بد أن ينجو بها .

---

(١) الطبقات الكبرى ، ٢/٢

وجدير بالذكر أن النويرى[١] أسهب فى الحديث عن انحرافات الشيخ خضر الخلقية مع النساء والصبيان وجعل منها سبباً سياسياً فى نكبته ، وأشار إلى ذلك ابن كثير بإيجاز[٢] ، ولعل الشيخ خضر وقد بلغ حينئذ من الكبر عتيا — كان يموه بعلاقاته تلك عن حقيقته كداعية سرى فى مركز خطير بدليل أنه لم يدفع عن نفسه هذا الاتهام الذى جاء فى أخريات حياته ، وتلك عادة الشيعة المتصوفة كما رأينا مع الرفاعى ونسج القصة المنسوبة للبدوى مع فاطمة بنت برى ومع أبى العباس الملثم .

وما كان للظاهر بيبرس أن يعول على هذا الاتهام ويجعل منه سبباً لقتل شيخه العجوز الذى يعتقد ولايته واطلاعه على غيب الله — فالسبب الحقيقى هام وخطير يتعلق بالسياسة والتآمر ، خاصة وأن المؤرخين اللاحقين للنويرى تجاهلوا هذا الاتهام بل أن النويرى نفسه ذكر أن من اتهم خضر العدوى بتلك التهم كانوا الأمراء القريبين من الظاهر بيبرس ولم يخل اتهامهم من محاولات التلفيق وقد استند إلى ماضى خضر أكثر من حاضره ، والواقع أن ماضى خضر الخلقى لم يكن نظيفا ، إلا أن بعثه من مرقده فجأة ومحاسبته به حين اشتعل رأسه شيباً ليمد دليلا على محاولة متعمدة للتغطية على شىء أخطر ، ولما كان خضر لا يمانع فى هذه التغطية أيضاً فقد شارك فيها بعدم الدفاع عن حاضره حرصاً على بقاء الدعوة الشيعية وخوفا أن تمتد أصابع بيبرس لتصل إلى عنق البدوى فى طنطا وأتباعه فى الشام والحجاز .

لقد كان الظاهر بيبرس يعتقد فى التصوف اعتقاداً زائداً ولم تؤثر نكبة خضر فى هذا الاعتقاد بشىء .. وإذا عرفنا أن الظاهر بيبرس ظل من سنة

---

(١) نهاية الأرب مخطوط ٤١/٢٨ : ٤٢ ، ١١٩ : ١٢٠

(٢) تاريخ ابن كثير ٢٧٨/١٣

٦٥٩ إلى ٦٧١ يسمع لخضر العدوى ويطيع ، ويستشيره ويستصحبه فى أسفاره لأدركنا أن محاولات بيبرس الخفية لكشف غموض البدوى ودعوته ذهبت هباءاً .. حتى إذا حدثت نكبة خضر وانحصرت فيه وحده كان بيبرس قد تيقن تماما ـ كما أرادوا له ـ من أن البدوى مجرد صوفى مجذوب . . وكان البدوى ـ من ناحيته ـ قد أيقن أن آماله مستحيلة فى وجود حاكم شديد التحرز والدهاء كالظاهر بيبرس كثير الشكوك والارتياب ، ميال للعنف والانتقام ـ وبعد ذلك كله فهو شديد الاعتقاد فى التصوف ، إذن فلتظل راية التصوف مرفوعة ولتتجمد الحركة السرية إلى حين . وهذا ما حدث وموعدنا الآن مع تفصيل لذلك .

الظاهر بيبرس والبدوى :

فى أعقاب حركة الكورانى الفاشلة جاءت الأنباء للظاهر بيبرس باكتشاف شيخ صوفى مجهول فى طنطا تحيطه الأساطير والألغاز ومع تستره وغموضه فأتباعه منتشرون فيما بين القاهرة والاسكندرية والدلتا ، ولاشك أن ذلك الاكتشاف لم يأت دفعة واحدة فجائية ، ولم يتعرف أعوان الظاهر بيبرس على أتباع البدوى الموزعين فى الأمصار من أول نظرة .. وإنما تم ذلك على دفعات ومراحل يمكن أن نرصدها من محاولات بيبرس المتصاعدة لكشف هذا اللغز .

وقد بدأت الأخبار ترد عن البدوى كداعية صوفى مجهول فى طنطا . . ولتخوف بيبرس من هذا الصنف فأنه أولا كلف القاضى تقى الدين بن دقيق العيد بأن يتحرى أمر البدوى ، ولما كانت السلطات لاتعرف الصلة بين البدوى والدربى فقد عهد ابن دقيق العيد للدربى بالذهاب للبدوى والكشف عن حاله .. ومن الطبيعى أن يرتب الدربى الأمر مع البدوى ليقتنع ابن دقيق العيد ببراءة موقف البدوى . .

وقد رددت المصادر الصوفية تكليف الدريني من لدن ابن دقيق العيد بتحرى أمر البدوى فقالت (أن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد أرسل إلى سيدى عبد العزيز الدرينى وقال له امتحن هذا الرجل الذى اشتغل الناس بأمره . أو أن الشيخ تقى الدين قاضى القضاة لما سمع بسيدى أحمد البدوى واشتهر أمره أرسل إليه سيدى عبد العزيز الدرينى ليخبره عن حاله ، أو أن قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوى فأرسل كتابا إلى الشيخ عبد العزيز الدرينى يقول له . توجه إلى الشيخ أحمد البدوى واسأله عن العلم فإن أجابك فاسأله الدعاء وعرفنى بجميع أحواله فتوجه الشيخ عبد العزيز إلى ناحية طندتا وكان المتولى بها القاضى علاء الدين ، فلما وصل الشيخ إلى طندتا قصد القاضى علاء الدين وأعلمه بأن قاضى القضاة أرسل كتابا يسمى كتاب الشجرة وفيه أحاديث ونقه وأضمر فى نفسه أن الشيخ أحمد البدوى إن قرأ هذا الكتاب وأخبر بما فيه فأنا أعتقده وأرد الجواب عنه إلى قاضى القضاة فقيل له : هو فى بيت الشيخ ركين مقيم على سطح البيت فمشى الشيخ عبد العزيز حتى وصل إلى بيت الشيخ ركين واستأذن الشيخ عبد العال فأذن له فسلم على الشيخ فرد عليه السلام وقال يا عبد العزيز من وصل إلى مقام التسليم فاز برياض النعيم جئت تسأل عن العلم وفى كمك كتاب الشجرة .. إلخ[1]) .

ومع أن المصادر الصوفية تتجاهل الصلة بين الدرينى تلميذ أبى الفتح الواسطى والبدوى خليفة أبى الفتح الواسطى ومع أنها أحالت الموضوع إلى اختبار لعلم البدوى بالغيب — ولا يعلم الغيب إلا الله — وأنهم جعلوا من البدوى

---

(١) عبد الصمد الجواهر ١١ : ١٥ ، والنفحات الأحمدية للخفاجى ٢٣٦ ، والصحة العلوية للحلبي ٢٩ مخطوط .

فاتراً فى هذا الاختبار .. مع ذلك كله فإن رائحة الاتفاق المسبق بين البدوى والدربى تبدو من خلال السطور وتنبىء عن أن ذلك اللقاء الذى تم بحضور القاضى المحلى كان مرتباً معداً له من قبل ليخدع قاضى القضاة ابن دقيق العيد وممثله علاء الدين فى الناحية ، واقتنع ابن دقيق العيد مؤقتاً ، ولكن الظاهر بيبرس كثير الشكوك لم يقتنع فقد جاءته أخبار عن أتباع آخرين للبدوى فكلف ابن دقيق العيد بأن يذهب بنفسه لاختبار البدوى .. وكان البدوى مستعداً للقائه ، وتم اللقاء وخرج منه ابن دقيق العيد وقد سلم للبدوى بحاله .

وتختلف المصادر فى إظهار الصورة التى قابل بها البدوى ابن دقيق العيد ، يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق (نزح ابن دقيق العيد إلى طندتا ، واجتمع بالسيد البدوى فوجده رجلا عالماً فاضلا ولم يجد لما نقل إليهم عنه من الضلالات أثراً ولم يشم رائحة الدعوة السياسية لأن البدوى وصحبه كانوا أهل حذق ومهارة وحيطة فعاد ابن دقيق العيد إلى الملك مثنياً على الرجل وكانت هذه الزيارة من أكبر أسباب ترويج الدعوة الأحمدية البدوية(١)) أى أن البدوى ظهر له بمظهر العالم الورع .

ولكن كتب المناقب تظهر صورة أخرى للبدوى ، صورة المجذوب تارك الصلاة ، يقول عبدالصمد عن كرامات البدوى (ومما وقع لسيدى أحمد البدوى من الكرامات أن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وكان قاضى القضاة بالديار المصرية سمع بالشيخ وأحواله فنزل إليه واجتمع به بناحية طندتا وقال له : يا أحمد هذا الحال الذى أنت فيه ما هو مشكور فإنه مخالف للشرع الشريف فانك لا تصلى ولا تحضر الجماعة وما هذه طريقة الصالحين)(٢) . وقد

---

(١) مجلة السياسة ١١

(٢) الجواهر السنية ٤٢ النفحات الاحمدية ٢٣٧ . النصيحة العلوية ٣٠

يبدو هناك تناقض بين الصورتين ، صورة العالم وصورة المجذوب . وقد يدفع هذا التناقض البعض لتصديق رواية دون أخرى. ولكننا نرى أن الصورتين معاً تعبران عن شخص واحد بالغ الدهاء ، فهو مجذوب حين يريد وعالم صوفى حين يرغب فى ذلك ، وقد ظهر بالصورتين معاً للفقيه المسكين ابن دقيق العيد فسلم له بحاله حين يكون عالماً وحين تأخذه الجذبة فينقلب إلى النقيض تماماً ، وترك ابن دقيق العيد وقد انشغل عن القضية الأساسية وهى الشكوك فى الدعوة السرية إلى محاولة الحكم على البدوى وشخصيته المتناقضة بين العلم والجذب ، وبينما أثنى على علمه وحديثه عاتبه برفق على جذبته وتركه الصلاة ، وعلى الرغم من أن تقى الدين كان قاضيا للقضاة ومنتظرا منه ألا يسامح فى ترك الصلاة فإنه ترفق بحال البدوى وجذبته المزعومة فلم يشتد فى الإنكار عليه فى هذه التهمة الخطيرة التى كان شاهدها الأول .

ومعنى ذلك أن البدوى قد نجح تماماً مع ابن دقيق العيد فقد جذب انتباهه إلى قضية جديدة لم تكن تدور فى خلده وترك البدوى وقد اقتنع تماما بسلامة موقفه من الناحية السياسية المصرية ، والواقع أن اختيار تقى الدين ابن دقيق العيد بالذات لفحص حالة البدوى كان بمشورة خضر العدوى مستشار الظاهر بيبرس وأمينه على أسراره ، وقد كان اختياراً موفقاً من جميع النواحى فلابن دقيق العيد جهد سابق فى حرب الشيعة بالصعيد ومن هذه الناحية فترشيحه للظاهر بيبرس لاغبار عليه إطلاقا .. ومن الناحية الأخرى كان ابن دقيق العيد من الفقهاء الميالين للتصوف المؤمنين برجاله ومن هنا يمكن خداعه والتمويه عليه وخداع الظاهر بيبرس من خلاله .. وكانت لابن دقيق العيد صلات بالصوفية المتورطين فى الدعوة الشيعية بدليل أنه لجأ أولا للدريني جاهلا بالصلة بينه وبين البدوى ، وقد أوسع له الصوفية اللاحقون مكانا فى التراجم الصوفية وعدوه من ضمن الصوفية لارتباطه بقصة البدوى وعلاقته بالدريني ..

والجدير بالذكر أن فى ذلك الوقت كان المقدم من بين القضاة هو تاج الدين ابن بنت الأعز ، وكان منتظرا أن يقوم بالمهمة دون ابن دقيق العيد الذى انحسرت عنه الأضواء لولا أن خضر العدوى كان فى عداء مستمر مع ابن بنت الأعز كما تدل على ذلك المراسلات بينهما[١] .

ومع ذلك فإن بعثة ابن دقيق لم تفلح فى إزالة الشكوك عند بيبرس ، تلك الشكوك التى أكدتها اكتشافات متتالية عن أتباع للبدوى منتشرين فى الاسكندرية وطنطا والقاهرة وما حولها ، ولكى يقطع بيبرس الشك باليقين عزم على التحقق من الأمر بنفسه وبطريقة التخفى أو التنكر التى اشتهر بها .

وبدأت عين الظاهر بيبرس تتركز على الاسكندرية مهبط أبى الفتح الواسطى ومدرسته والشاذلى وصديقه عز الدين بن عبد السلام ، وحيث أعدم حصن الدين والسرسفاوى ، وفى ٦٦١ زار الاسكندرية (فأصلح من شأنها وعامل أهلها بلطف) وهى نفس السياسة التى سار عليها مع القاهرة فى أعقاب حركة الكورانى .. ولم يكن إصلاح الحال فى الاسكندرية هو الهدف الوحيد للظاهر بيبرس فقد قابل الصوفى أبا القاسم القبارى ثم مضى لزيارة الشيخ الشاطبى وعين لدنه قاضياً للثغر وصف بالتصوف والزهد[٢] .

والملاحظ أن الشاطبى والقبارى لم ينتميا إلى مدرسة التشيع الصوفى المستتر ، والمنتظر أن بيبرس فى لقائه الغامض بهما قد حصل على معلومات هامة عن التحرك الصوفى فى الأسكندرية وما حولها وسمع الشىء الكثير عن البدوى فعزم على التوجه إليه بنفسه سراً .

ويقول المقريزى فى حوادث السنة التالية سنة ٦٦٢ (وفيه سار السلطان

---

(١) النويرى . نهاية الأرب ٢٨/١١٩

(٢) السلوك ٤٩٩/١ : ٥٠٠

إلى أوسيم ومضى إلى الغربية فصار يسير منفرداً فى خفية ويسأل عن والى الغربية الأمير ابن الهمام وعن سيرة نوابه وغلمانه ومباشريه فذكرت عنه سيرة سيئة فقبض عليه وأدبه وأقام غيره ..)[1] أى أن بيبرس خص منطقة الغربية ـ حيث البدوى وطنطا ـ بزيارته متخفياً وتصرف بحزم مع واليها وعزله وأقام والياً جديداً ينفذ السياسة الجديدة التى ارتآها فى رحلته السرية ..

ويقول المقريزى فى حوادث السنة التالية سنة ٦٦٣ أن السلطان طاف بالقاهرة متنكراً ليعرف أحوال الناس[2] ثم يذكر المقريزى ما يفيد أن الظاهر بيبرس مر على البدوى فى السنة التالية سنة ٦٦٤ عند ما خرج إلى الأسكندرية لمباشرة حفر خليجها[3] فمن المحتمل ألا يكون حفر الخليج هو السبب الأهم فى حضور بيبرس بنفسه مع كثرة مشاغله وأسفاره وأن يكون مجرد ساتر لغرض أهم ، خاصة وأنه عاد للقاهرة عن طريق أبيار (وطنطا تقع على الطريق بين أبيار والقاهرة)[4] ..

وإذا كان المؤرخون المعاصرون لم يذكروا عن رحلات بيبرس السابقة إلا الغرض المعلن فقط فلم يكن منتظراً منهم أكثر من ذلك وهم يؤرخون لسلطان داهية بارع فى التخفى والتنكر والتعمية ، ثم إن طنطا فى ذلك العهد ورجلها القائم فيها لم يستحوذا بعد على أى انتباه للمؤرخين المشغوفين بالمدن الكبرى والرجال الظاهرين من الأمراء والقضاة ومشاهير الصوفية والعلماء . ولذلك اكتفوا بتعليل سفره إلى طنطا بأنه لمعاقبة أمير الغربية ، وعودته إلى الأسكندرية بأنه لمباشرة حفر خليجها وهو ما يعلنه السلطان الداهية . .

---

(١) نفس المرجع ٥٠٥/١
(٢) نفس المرجع ٥٤٠/١
(٣) نفس المرجع ٥٤٣/١
(٤) نور الدين . البدوى ١٠٠

ويذكر الشعرانى أن الظاهر بيبرس اجتمع بالبدوى يقول (وكان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات يعتقد فى سيدى أحمد اعتقاداً عظيما وكان ينزل إلى زيارته[١]) ومن المرجح أن يكون ذلك قد تم أثناء مروره على طنطا متخفياً وانتشر ذلك وردده المريدون الأحمدية حتى وجد طريقه لكتاب الشعرانى .

ومع الأسف فان كتب المناقب ـ وطبقات الشعرانى أحداها ـ لم تسعفنا بأخبار تلك المقابلة على الرغم من أنها المصدر الوحيد وكنا نأمل أن نعرف بأى صورة تبدى البدوى بها للظاهر بيبرس .

ولكننا نكتفى بالقول بأن الظاهر بيبرس لم يقتنع تماما ولم تهدأ شكوكه إذ يبدو أن مصادره السرية أوضحت له أن مكة هى النقطة الأساسية للدعوة ومنها أتى البدوى مبعوثا ، وربما أتت للظاهر بعض معلومات عن التحركات الشيعية الصوفية فى الشام حيث كان يقيم عز الدين الصياد ، والظاهر بيبرس كان كما نعرف طوافا بين الشام وحلب والحجاز ومصر ، ومع أن رحلاته للحجاز كانت شيئا عاديا لا يثير الريبه إلا أنه فى سنة ٦٦٧ قام بزيارة سرية مفاجئة لمكة أعد لها إعداداً خاصاً ، ونصطحب للمقريزى ليحدثنا عن هذه الرحلة فيقول عن بيبرس وكان فى الشام وقتها .

(وصل للسلطان عيسى بن مهنا فأوهمه السلطان أنه يريد الحركة للعراق ، وكان السلطان فى الباطن إنما يريد بحركته الحجاز ثم تحرك بهم للكرك كأنه يتصيد ولم يجسر أحد أن يتحدث بأنه متوجه للحجاز وذلك لأن الأمير جمال الدين بن الداية الحاجب كتب للسلطان « إنى أشتهى أن أتوجه فى صحبة السلطان إلى الحجاز » فأمر بقطع لسانه فما تفوه أحد بعدها بذلك ،

(١) الطبقات الكبرى ١/١٦٠

ووصل إلى الكرك وكان قد دبر أموره خفية من غير أن يطلع أحدا على ذلك فنزل الشوبك ورسم باخفاء خبره ووصل إلى المدينة المنورة ورحل منها فدخل مكة وأعطى خواصه من المال ليفرقوها سراً وفرق كساوى على أهل الحرمين وصار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ، وهو منفرد ، وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين وأحسن إلى أميرى مكة وينبع وقضى مناسك الحج ثم عاد للكرك ولم يعلم أحد بوصوله)(١) .

ومن الحمق أن يقال أن الحج كان السبب الوحيد الذى حمل بيبرس على كل هذا التخفى والتحرز إلى درجة أنه يقطع لسان حاجبه حين صرح برغبته فى أن يصحب السلطان فى تلك الرحلة السرية ، والمعقول أن تخفيه فى هذه الرحلة لسبب يتصل بقضية تشغل باله حين زار الاسكندرية ثم الغربية متخفياً . فأسلوبه واحد فى تلك الرحلات .. الاحسان للعامة ومقابلة الصالحين والاهتمام بأمر الحكام المحليين ، ثم الغموض الزائد والتعمية عن كل تلك المقابلات بالحج أو حفر الخليج أو تقبيع حاكم ظالم وعزله .

وقد ورد فى كتاب المناقب أن الظاهر بيبرس ورد مكة متخفياً فقابل شقيق البدوى ، يروى عنه عبد الصمد (فبينما نتحدث وإذا برجل راكب على هجين وهو متنكر فى زى بدوى وهو ملثم فقلت للعبيد : على بهذا الرجل الراكب على الهجين فجاءوا به فسلمت عليه وقلت له فى أذنه . أهلا وسهلا ومرحبا بالملك الظاهر بيبرس فكاشفته بأمارات مخفية بينى وبينه فتبسم ضاحكا وقال : نعم أنا الملك الظاهر بيبرس(٢)) وقد أورد عبد الصمد هذا

---

(١) السلوك ١/٥٨٠ : ٥٨٢ (٢) الجواهر السنية ٦١

النص بعد حديثه عن الحسن وهو يتتبع أخبار شقيقه البدوى فى مصر .

ويبدو أن الظاهر بيبرس تحقق فى هذه الرحلة السرية من صدق تصوف البدوى وتيقن من أنه لا يخفى هدفا سياسيا سريا فكتب المناقب تفيض بما ينم عن اعتقاد الظاهر بيبرس فى البدوى وأخيه الحسن إلى درجة الحفاوة والكرم للتبادل بينهما .

لقد استغل الشيعة المتصوفة نقطة الضعف عند الظاهر بيبرس ألا وهى اعتقاده فى التصوف ورجاله فظهروا له بالوجه الصوفى وتوقفوا عن دعوتهم السرية خوفا من جواسيسه ودهاته وعقابه .

وقد سبقت لهم الأمثلة فى الكورانى وحصن الدين والسرسناوى ، ثم زاد الأمر حين اكتشف بيبرس أن شيخه خضر ليس بالمخلص له وكانت نكبته سنة ٦٧١ وكانت أيضا النهاية لأحلام البدوى وشركائه .

سابعاً : بعد الفشل

(ا) لماذا فشل البدوى سياسياً :

أدت سياسة الظاهر بيبرس وتحرزه ودهاؤه إلى نهاية خضر العدوى معتقلا ، وإلى نهاية البدوى معتقلا أيضا داخل إطار التصوف الذى رفع رايته ليستتر تحته فاضطر فى نهاية الأمر أن يحتمى به من خصمه الجبار العنيد الداهية. لقد استرسل البدوى فى دعواه الصوفية إلى نهايتها وترك هدفه السياسى الذى قصر حياته عليه ، وهو الآن فى شيخوخته أصبح لا يطمع إلا فى النجاة من مخالب بيبرس وجواسيسه الذين يحصون عليه أنفاسه ، وظل كذلك من سنة ٦٧١ إلى أن مات سنة ٦٧٥ فى زمن قريب من وفاة خضر سنة ٦٧٦ وبيبرس (محرم سنة ٦٧٦) .

لقد أرعب بيبرس أعداءه وأصدقاءه على السواء ، وحين كان يفكر أو يسير خفية لا يستطيع أحد أن يتحدث بخبره خوفا منه ومن جواسيسه ، ودفع حياته ثمناً لمؤامرة قتل بالسم حاكها لأحد أصدقائه (القاهر الأيوبى) الذين يتخوف منهم ، ولكنه أخطأ فشرب الكوب المسمم المقدم للضحية ، ومات بدمشق فأشيع أنه مريض وحمل للقاهرة ، ولم يجسر أحد أن يتفوه بموته حتى وصلوا به للقاهرة ، وظل مخيفاً للأمراء المماليك حتى وهو مريض مرض الموت حتى أن أحدهم (لم يجسر أن يدخل عليه فى مرضه إلا بإذنه[1])

ذلكم هو بيبرس الذى قدر على البدوى أن يواجهه فى شيخوخته حين بلغ من الكبر عتيا (وقد توفى البدوى فى حدود الثمانين) .

وربما أدرك البدوى فى هذه السن استحالة تحقيق أحلامه لأن الظروف

---

(١) السلوك ٦٤١/١ ، ٦٣٧

السياسية التى انتشرت بها دعوته فى عصر الاضطراب (٦٣٧ ـ ٦٥٨) قد تغيرت إلى توطيد للدولة المملوكية على يد حاكم جبار كالظاهر بيبرس .

وربما أدرك البدوى متأخرا خطأ الاعتماد على المصريين الذين جعلهم أساس دعوته وعصبيته، فالمصريون على استعداد عميق لحب آل البيت بل وتقديسهم إلا أنهم مع ذلك آخر المتحمسين للقيام بعمل عسكرى لنصرتهم ، وما تاريخ الفاطميين ببعيد، فالدعوة الإسماعيلية تمت فى شمال أفريقيا وتحركت إلى مصر بعد أن أصبحت دولة فاتحة ، فانتقلت إلى مصر دولة كاملة بجيش ونظم واتخذت منها مركزا جديداً للدعوة تساندها قوة الدولة الوافدة ، ولقد تنبه لهذه الحقيقة باحث مصرى قرر (أن التشيع فى مصر يكاد ينحصر فى حب آل البيت ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن تحرك المصريين لتأييد حملات الفاطميين[1]).

بل على العكس انصرف المصريون عن الدعوة الإسماعيلية الشيعية وانضم بعضهم إلى دعوة الكيزانى الصوفية السنية .

ثم إن المتصوفة المصريين بالذات هم أبعد الناس عن الجهاد فى سبيل عقيدة دينية حتى ولو كانت صوفية ، فغايتهم فى التصوف أن يستفيدوا به فى سمو المكانة لدى الحاكم والمحكوم ، وهم أسرع الناس نفاقا للحاكم طالما ظل فى سلطته ، وأسرع الناس انفضاضا عنه إذا حاقت به المحن[2] . وهذا ما تمخضت عنه دعوى البدوى بعد موته فقد تحولت إلى طريقة صوفية مصرية صميمة واسعة الانتشار وبها ازدادت شهرة البدوى ذلك الداعية المجهول فى

(١) محمد كامل حسين : حوليات القاهرة ١٥/٥٧ : ٨٨

(٢) راجع أقوال الشعرانى فى نفاق الحاكم طالما ظل حاكما: فى البحر المورود : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦

عصره .. وظلت شهرته تزداد بازدياد التصوف والفروع المتشعبة للطرق الأحدية السطوحية بحيث يمكن القول بأنه إذا كانت دولة الظاهر بيبرس والمماليك قد انتقلت إلى متحف التاريخ فان دولة البدوى لا تزال قائمة فى نفوس المصريين حتى الآن ، ويستشعرها القارىء لهذا الكتاب فى نفسه ، فلقد نشأنا جميعاً على تقديس البدوى والاعتقاد فى ضريحه ، وتلك هى دولته التى فشل فى إقامتها على أرض مصر فأقامها مع أتباعه فى عقيدة المصريين وقلوبهم .

والبدوى فارس قديم قيل فيه (اتفق وقوع حرب بمكة فخرج وضرب فيها بالسيفين وطعن فيها بالرمحين فتعجب الناس من شجاعته[١]) وكفارس قديم داهية أدرك البدوى اختلاف طبيعة الشعب المصرى عن الشعوب الصحراوية فى أفريقيا والجزيرة العربية ، إن المصريين كشعب زراعى أميل للاستقرار والهدوء ومعايشة الأمر الواقع والصبر عليه ، أما البدو فى الصحراء الكبرى وصحراء الجزيرة العربية فالدماء تخط تاريخهم اليومى بين نزاع وثأر وصراع مستمر لأى سبب وبدون سبب ، ومن السهل أن تقوم هناك الدول سريعاً ومن السهل أن تسقط سريعا أيضا .. وشاهد على ذلك الصراع المستمر بين أمراء مكة والذى شارك فيه البدوى (بسيفين .. ورمحين) والقلاقل المستمرة فى أفريقيا وقيام الدول وسقوطها ، والجند فيها من بين أبناء المنطقة أنفسهم .

أما فى مصر فالحاكم – وقتها – كان دائماً وافداً ، وبجيش وافد ، وغالبا ما يتشكل من طوائف شتى ليس من بينها بالقطع مصرى زراعى ، وقد ظل الأمر كذلك إلى أن فرض محمد على فى نهضته الحديثة التجنيد على المصريين فكان الشاب يودع أهله بالصرخات والدموع كأنه ذاهب للمقصلة .

(١) الحلبي . النصيحة العلوية مخطوط ٢٣ب مكتبة الازهر

ولعل البدوى أدرك متأخراً أن مركز القوة فى المنطقة انتقل من العصبيات القبلية المحلية الشعبية إلى الطوائف العسكرية ، فلم تعد القوة لعصبيات النسب وصلات الدم والقرابة وتجمعات القبائل ، لقد اضمحلت القبائل العربية كقوة سياسية بعد أن أقامت دولا كالدولة الإسلامية العربية فى عهد الراشدين ودولة الأمويين ، ثم بدأ الضعف يستشرى فيها بقيام الدولة العباسية وانتهت كقوة حربية رسمية بعد أن قطع المتوكل العباسى العرب من ديوان الجند ، وبدأت صولة الغلمان الأتراك فى التحكم فى الخليفة وجيش الخلافة ثم انتهت سطوتهم ليرثهم البويهيون من الديالمة الوافدين من الشرق وبعدأن سقطوا ورثتهم قبائل السلاجقة الأتراك ، وسرعان ماسقطت تلك العصبيات الوافدة فاضطر الخليفة الناصر العباسى وهو يحكم منفردا للاستعانة بالعامة المدربين عسكرياً ممن انخرطوا فى سلك الفتوة وعرفوا بالعياورين والشطار . . وكان الحل الحاسم النهائى هو شراء المماليك صغارا وتنشئتهم على الفروسية والطاعة العمياء للسلطان ، وقد اشتهر بذلك بنو أيوب منذ صلاح الدين . . وأصبح نظاما عاماً منذ ذلك الوقت طبقه المماليك أنفسهم فكان السلطان المملوكى يستكثر من شراء المماليك ليواجه بهم خصومه وليضمن لذريته الحكم من بعده ولكن يخيب ظنه دائما فالمماليك الذين اشتراهم لحماية ولده هم الأسرع فى تنحيته عن السلطة .. ولقد تابع العثمانيون تلك السياسة (شراء الرقيق وتنشئتهم حربياً وسياسياً) فكان عماد القوة العثمانية يتركز فى الانكشارية .

وإذا كان ذلك واضحاً فى مناطق جبلية كالعراق وآسيا الصغرى فهو فى مصر ـ البلد الزراعى ـ أوضح وأظهر . . فالأغلبية العظمى الساحقة من المصريين زراعيون يدينون بالطاعة والولاء للسلطان القائم . . والأقلية الضئيلة هم من العرب ـ أو البدو ـ الذين وفدوا لمصر مع الفتوح وبعدها . . وبعدأن قطعهم المتوكل عن الجندية اضطر بعضهم للاستقرار والعمل بالتجارة

وظل الآخرون على بداوتهم وحياتهم العسكرية ، يعيشون على أطراف التجمعات الزراعية فى الحوف الشرقى (الشرقية) والبحيرة والصعيد ، يمارسون قطع الطريق والتسلط على الفلاحين ويعلو سلطانهم مع ضعف السلطة المركزية ولا تخلو قلاقل محلية من مشاركتهم فيها .. وكان لابد أن تحدث المواجهة بين المماليك ـ كقوة حاكمة جديدة ـ والعربان ، ومن المنتظر أن ينهزم الأعراب فالوقت لم يعد وقتهم فهم الماضى الذى أفل نجمه وانطوت صفحته ، وهكذا كانت حركة حصن الدين ثعلب النهاية لطموح الأعراب أبان قوة الدولة المملوكية وعنفوانها .. يقول المقريزى فى حوادث ٦٥١ . (ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحرى وقطعوا الطريق براً وبحراً وقام الشريف حصن الدين ثعلب وقال : « نحن أصحاب البلاد » ، ومنع الجند من تناول الخراج وقال : « أنا أحق بالملك من المماليك وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد » ، وأنفوا من خدمة الترك وقال « أنهم عبيد للخوارج » .. واجتمع العرب وهم يومئذ كثرة فى المال والخيل والرجال إلى حصن الدين ثعلب وهو بناحية دهروط وأتوه من أقصى الصعيد وأطراف البحيرة والجيزة والفيوم وحلفوا له كلهم فبلغ عدة الفرسان اثنى عشر ألف فارس وتجاوز عدة الرجالة الاحصاء لكثرتهم)(١) ولم تغن هذه الكثرة شيئاً أمام قوة المماليك المنظمة المدربة التى تعيش حياتها للقتال ، وانهزم حصن الدين بجموعه من الأعراب أمام أقطاى كبير البحرية ، وبعث يطلب الأمان من السلطان أيبك فأمنه ووعده بالاقطاعات له ولأصحابه فقدم حصن الدين ومعه نحو ألف فارس من العربان وستمائة راجل فغدر به أيبك وشنق أتباعه وبعث به معتقلا إلى الاسكندرية . وخمدت بذلك قوة الاعراب من يومها إلى عصر المقريزى فى القرن التاسع . يقول معقبا (وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ .. وأمر المعز

(١) السلوك ١ / ٣٨٦

أيبك بزيادة الضرائب على العرب ومعاملتهم بالعسف والقهر فذلوا وقلوا حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال إلى وقتنا هذا[١]) .

أى أن المماليك فى بداية دولتهم – وقت دعوة البدوى – كانوا قد أجهزوا على القوة الحربية الوحيدة بين المصريين التى يمكن أن تقف فى وجههم ثم التفتوا للشعب المصرى فى القاهرة وكانوا يكرهون تولية المماليك الحكم فسامهوه العسف والنكال حتى استكان لهم .. ويعلق المقريزى وابو المحاسن على ما فعله أيبك بالمصريين بأن الفرنج لو ملكوا مصر ما فعلوا بأهلها مثلما فعل بهم المماليك فى ذلك الوقت[٢] .

ثم جاء الظاهر بيبرس فحصر الشدة والعنف فيمن يتآمر عليه ولو كان أقرب الناس إليه بينما اكتسب محبة الخاضعين لسلطانه فأقفل الباب نهائياً أمام طموح البدوى .. فلم تعد أمام البدوى قوة حربية يواجه بها العسكرية المملوكية .. فى الوقت الذى تحول فيه الشعور الشعبى لناحية الظاهر بيبرس قاهر المغول والتتار والمحسن للمساكين والرعية .

والطريف أن الاعراب عادت إليهم قوتهم حين ضعفت السلطة المملوكية البرجية فى أوائل القرن العاشر . ولم يترك الصوفية مشايخ الاعراب فى حالهم فتكالبوا عليهم تسولا واستجداء حتى أضجروهم فيقول أحدهم (قد عجزنا فى رضا هؤلاء المشايخ « الصوفية » من كثرة ما يشحذون منا .. وكيف تطيب نفوسهم أن يأكلوا من طعامنا ويقبلوا صدقاتنا مع علمهم بأن أموالنا لا تسلم من الحرام[٣]) .

---

(١) السلوك ١/ ٣٨٧ ، ٣٨٨

(٢) السلوك ١ – ٣٨٠ ، النجوم الزاهرة ٧ – ٩

(٣) لطائف المنن للشعرانى ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ط ١٢٨٨

ونعود للبدوى وفشله فى دعوته السرية فقد تحول ميزان القوة إلى الدولة المملوكية بعد توطيدها على يد الظاهر بيبرس الداهية . . ولم يجد البدوى عنصراً حربياً يستطيع أن يواجه به العسكرية المملوكية التى تفوقت على الصليبيين والأرمن والمغول والنوبيين . . وخاب أمله فى المصريين وكلهم فلاحون سلاحهم الفأس وأملهم الاستقرار وراحة البال وطريقتهم فى مقاومة الظالم الصبر عليه أو التندر والسخرية منه .. وكانت الخيبة أكبر فى الصوفية المصريين — وهم عماد دعوته، فهم أصدقاء كل حاكم حالى وأعداء كل حاكم سابق ينافقون القائم فى السلطة وما أسرع ما يلعنونه إذا دارت به الأيام.. وأعوان البدوى من السطوحية الأربعين ماذا يفعلون ؟؟ وقد تحول ميزان القوة الحربية للعصبيات العسكرية التى تنشأ وتربى على القتال كالمماليك .. وقد صار نظام المماليك الحربية سائدا فى المنطقة بعد انهيار قوة القبائل المتحركة كالعرب والبربر والترك والبويهيين والسلاجقة .. أى أنه حتى لو كان الفلاحون المصريون شعبا مقاتلا كالعرب والبربر فما كانوا ليغنوا شيئاً أمام نظام المماليك الذى استقر وحكم فى مصر وانتصر على الصليبيين والمغول والأرمن والنوبيين . . لقد كانت هناك طائفة عسكرية وحيدة من بين المصريين هم البدو الذين تسلطوا على المصريين نهبا وسرقة حين تضعف السلطة الحاكمة ، وقد بدأت العسكرية المملوكية بالاجهاز على قوة البدو الأعراب حين ساندوا حصن الدين ثعلب ولم يسمحوا لهم بالاستمرار أى لم يسمحوا لأى قوة تحمل السلاح أو تجيد استخدامه بالوجود فخدعوا حصن الدين واعتقلوه بعد الامان وقتلوا كل أتباعه من الاعراب فلم تقم لهم قائمة كما يقول المقريزى .. وظلوا هكذا إلى أن ضعفت الدولة فى عصر الشعرانى فصار لهم بعض النفوذ .

لقد خاب أمل البدوى فى المصريين والصوفية المصريين ووقفت ضده

ظروف لاطاقة له بها ولا يد له فيها فاسترسل فى دعواه الصوفية إلى نهايتها خوفاً على حياته من خصم لا يرحم .. وبالتصوف استفاد وأتباعه من بعده إذ تعود المصريون الحج إلى طنطا فى (مولد) البدوى ، وبالتصوف ازدادت شهرة طنطا فى عهد الأشرف شعبان المملوكى فأصبحت قصبة محافظة الغربية ، أى عادت لمكانتها القديمة التى كانت عليها فى الدولة الفاطمية .. وما لم يستطعه البدوى لطنطا بالسياسة وصلت إليه طنطا بضريحه وبالتصوف .

وتقديس البدوى وشهرة مولده وانتشار طريقته فى مصر وخارجها آثار لدعوته السياسية المستترة بالتصوف .. ولكنها ليست الآثار الوحيدة .. فالمنتظر من دعوة سياسية سرية كدعوة البدوى أن تكون لها ذيول سياسية أيضاً .

(ب) الآثار السياسية لدعوة البدوى :

لم يكن لدعوة سرية منتظمة منتشرة كدعوة البدوى أن تنتهى إلى لاشىء ، وإذا كان الصوفية المصريون قد قنعوا بالتصوف وهو الهدف المعلن فإن بعض الأتباع ظلوا على ولائهم للهدف السياسى وكان أبرزهم أبو العباس الملثم مبعوث المدرسة العراقية ، ذلك الرجل (الملثم) الغامض المختلف فى عمره وفى مكان موته (هل فى قوص أو فى القاهرة) ووقت وفاته (هل سنة ٦٧٢ أو سنة ٧٤٠) ، ولقد كان ذلك الغموض مقصودا فالراوى عن أبى العباس الملثم هو تلميذه المخلص عبد الغفار بن نوح ، يقول الأدفوى عنه (قال : صحبته وانتفعت به ، ويحكى عنه عجائب ويذكر عنه غرائب[١]) .

يذكر ابن حجر فى ترجمة أبى العباس الملثم أنه ادعى المهدية وأن الله شافهه وأمره بانذار الناس ودعوتهم إلى الله (فاشتهر أمره فأخذ وحبس) ثم

---

(١) الطالع السعيد ١٣١

(قيل للسلطان فأفرج عنه) ثم ثار سنة ٦٩٩ فأمسكوه وحبسوه واتفقوا على شنقه فأرسل إليه القاضى تقى الدين بن دقيق العيد فأوعز إليه (أن يظهر التجانن ففعل فأثبت القاضى أنه مجنون وحكم بذلك[1]) ونجا بفضل ابن دقيق العيد ، ومعلوم موقف ابن دقيق العيد السابق من البدوى حين أرسل إليه ليختبره فاقتنع بسلامة موقفه أو أظهر أنه مقتنع وإن لم يقتنع الظاهر بيبرس ، ثم كان موقفه من أبى العباس الملثم تصميداً فى تأييده للدعوة الشيعية المستترة . وما كان لابن دقيق أن يخدع بسهولة فله جولات سابقة فى حرب الشيعة بالصعيد ، ولكنه مال للتصوف فى أخريات عمره ووقع فى براثن أصحابه من المتصوفة الشيعة ، وإلا فبم نفسر موقفه من ادعاء الملثم للمهدية والمهدية مرتبطة بالتشيع والثورة الشيعية فى كل عصر . وأبو العباس الملثم كان مصراً على دعواه فثار من أجلها مرتين ، وأنقذ فى المرتين بتدخل ذوى الشأن .

ومع أن أبا العباس الملثم صعد إلى قمة الأحداث والشهرة فى حركته تلك فان الغموض وجد سبيلا إلى تاريخه حين بان وظهر كقول ابن حجر عنه (ثم قيل للسلطان فأخرج منه) فنحن لم نعرف من تدخل ليطلق سراحه فى المرة الأولى .

والمؤرخون الآخرون سجلوا حركة الملثم فى حوادث سنة ٧٠١ وإن لم يذكروه بالاسم ، يقول المقريزى (ظهر بالقاهرة رجل لدعى أنه المهدى فعزر ثم خلى عنه[2]) ويقول العينى (ظهر بالقاهرة إنسان سمى نفسه المهدى وادعى أنه من ذرية الحسين بن على بن أبى طالب وأنه ينذر بوقائع يعلم بوقوعها فاعتقل امتحانا فلم يصح شىء من قوله وظهر أن به فسادا فى عقله فعزر تأديباً له ثم خلى سبيله[3]) ، والعينى والمقريزى من مؤرخى القرن

---

(١) الدرر الكامنة ١ - ١٩٧ : ١٩٨ (٢) السلوك ١/٩٦٩

(٣) عقد الجمان مخطوط مصور ٢٦٦

التاسع ويبدو أنهما أخذا هذه الرواية عن بيبرس الداودار (ت ٧٢٥) المعاصر لأبى العباس الملثم فى القرن الثامن يقول الداودار فى تاريخه (ظهر بالقاهرة إنسان سمى نفسه المهدى وادعى أنه من ذرية الحسين بن على وأنه ينذر بوقائع يعلم وقوعها فاعتقل امتحانا لنقله فلم يصح شىء من قوله وظهر أن به فساداً فى عقله فعزر تأديبا له ثم خلى سبيله[1]) أى هى نفس رواية العينى ونقلها العينى عن المؤرخ بيبرس الداودار المعاصر للملثم .

ولقد كان أبو العباس (الملثم) رفيقاً للبدوى (الملثم) فى الدعوة ، وإذا حظى أبو العباس ببعض الذكر فى المصادر التاريخية مشوبا بكثير من الغموض والخلط فإن رفيقه البدوى الملثم حرم من التأريخ له جملة وتفصيلا فى القرنين السابع والثامن .

وهناك أكثر من صلة تربطهما غير اللثام والقدوم من المغرب والتتلمذ للمدرسة الرفاعية والغموض ... الخ .

من هذه الصلة ادعاء المهدية .. فالظاهر أن البدوى كان يدعى المهدية أيضا وكان يعامل أتباعه السريين على هذا الأساس ، وليس لدينا من دليل فى الواقع إلا ما ألحقت إليه كتب المناقب فيما بعد بعده قرون ، فيقال أن البدوى حين قدم به أبوه من المغرب إلى الحجاز تلقاه سلطان مكة - وكان البدوى صغيراً - فقال لأبيه (ابن الشريف أحمد الملثم فقال له والدى على ابن ابراهيم لم يكن عندنا أحد إسمه أحمد الملثم غير ولدى أحمد فقال لنا : اجمعوا بينى وبينه فإن جدى رسول الله ﷺ وصفه لى وأرانى صفته وحليته فى المنام وقال لى يخرج من المغرب وهو ابن سبع سنين ويدخل مكة وهو ابن أحدى عشرة سنة وأشار إلى أن أسير إليكم وأجتمع بكم وأسلم عليكم وعلى الشريف أحمد الملثم وأسلم عليه وأتبرك به وقال لى : أنه سيظهر له

(١) بدة الفكره مخطوط مصور ٤٠٨ ب

حال وأى حال ويربى المريدين ويجىء منهم رجال وأى رجال[١]) ، وادعاء المهدية هو نفس مقوله (الفاطمى المنتظر) للمدرسة المغربية .. وعلى ذلك فإذا فشلت دعوى البدوى السرية فى المهدية فأن رفيقه أبا العباس الملثم جاهر بها بعد موت البدوى وأصر عليها ثم أذعن لمصيره ورضى باعلان الجنون . . والجنون كان سترا للبدوى حين كان يصيح فوق السطح . . وابن دقيق العيد شاهد على جنون (الملثم أبى العباس) وشاهد أيضاً على حذبة (البدوى الملثم) تارك الصلاة .. إلا أن أبا العباس الملثم يتميز بطابع الثورية والمبادرة أكثر من البدوى فقد جاهر بدعوته فى ظل دولة قوية وطيدة الأركان ولم يجرؤ البدوى إلا على التستر بالتصوف والاسترسال فيه حرصاً على حياته . . بل إن أبا العباس قد أعذر من نفسه فأعاد مقالته وهنا لم ينجه من الموت شنقا إلا ابن دقيق العيد وادعاء الجنون .

وهذه الثورية المشتعلة فى نفس أبى العباس والتى جعلته يتنقل بين الصعيد والقاهرة فى حركة مستمرة ـ انتقلت منه إلى تلميذه وصفيه وحوارييه عبدالغفار ابن نوح فأثرت فى مجرى حياته وجعلته نسيج وحده ومختلفا عن رفاقه من المتصوفة المصريين محبي السلبية والسكون والموائد والولائم وملء البطون .

وهو عبد الغفار ابن نوح (الاقصرائى ثم القوصى) أى (الأقصرى المولد القوصى الدار صحب أبا العباس الملثم وسمع الحديث بالقاهرة وحدث بقوص وسمع بمكة) وكان مستقره فى قوص مع شيخه أبى العباس الملثم[٢].

أى ولد عبد الغفار فى الاقصر حيث مدرسة أبى الحجاج الاقصرى ومنها انتقل إلى قوص فاستقر بها مع أبى العباس الملثم ومن قوص تنقل بين القاهرة ومكة ولهما مكانة فى الدعوة الشيعية السرية .

(١) عبد الصمد ، الجواهر ١٧ .

(٢) الطالع السعيد ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، حسن المحاضرة ٥٢١/١ .

وتأثر عبد الغفار بشيخه الملثم وتشرب مبادئه وثوريته ، وقد شهد شيخه فى ارذل العمر يجهرون بدعوته ويتعرض للنكال فى عهد سلطنة الصبى محمد ابن قلاوون الثانية ، ومرت الأيام وتتقلب الأمور بالسلطان الصغير ابن قلاوون بسبب تحكم أمراء أبيه المماليك فيه حتى عاد فى نهاية الأمر ليتولى بنفسه الحكم منفردا أو مستبداً فى السلطنة الثالثة (٧٠٩-٧٤١) ، وقد شهدت هذه الفترة علو شأن الصوفية فقد أقام لهم الناصر محمد خانقاه سرياقوس سنة ٧٢٥ وضحى فى سبيلهم بصديقه السابق ابن تيمية فاعتقله سنة ٧٢٦ بعد أن وقف إلى جانبه فى محنته حين كان مقهوراً يتحكم فيه بيبرس الجاشنكير مغتصب السلطنة منه ، ورفض ابن تيمية وهو فى سجن بيبرس الجاشنكير أن يعترف بصحة تولى الجاشنكير السلطنة ، وفضل الوقوف مع الحق الضائع وصاحبه (محمد الناصر) المغلوب بينما كان الصوفية يظاهرون الجاشنكير ، ثم تخلوا عنه حين تخلت عنه الدنيا وأسرعوا بتأييد (الناصر محمد) حين تسلطن . . وجاء الناصر محمد ينشد الاستبداد فبدأ يتصاعد النفور بينه وبين صديقه ابن تيمية ، ووجد من الصوفية استعدادا لتأييده فكانت محنة ابن تيمية الأخيرة وفيها كانت وفاته معتقلا وتم بذلك انتقام الصوفية الأحمدية والرفاعية منه منذ بدأ حركته باضطهادهم بالشام قبلا، وفى (شهور العسل) هذه بين الناصر محمد بن قلاوون والصوفية قام عبد الغفار بن نوح باستغلال أدوات الدعوة السرية وأتباعها الموزعين فى المدن المصرية وقام باحراق الكنائس المصرية فى الصعيد والقاهرة والدلتا والاسكندرية فى وقت واحد سنة ٧٢١ .

وقد تعرضت المصادر التاريخية لهذا الحديث الفريد وذيوله بين تفصيل وإيجاز .. فالنويرى تعرض لها بتفصيل وتابعه العينى فى عقد الجمان ناقلا عن النويرى الذى عاصر الحدث .. أما بيبرس الداودار وهو معاصر كالنويرى

فقد أشار للموضوع بإيجاز وتابعه المقريزى فى السلوك .. والأدفوى مع معاصرته إلا أنه حصر الحديث عما حدث فى الصعيد فى ترجمته لعبد الغفار باعتباره مهتما بالصعيد ورجاله فى كتابه (الطالع السعيد فى أخبار نجباء الصعيد) والشعرانى أشار للحادث فى كتابه لطائف المنن .

وبدأت القصة والسلطان يصلى فى جامع القلعة وحين فرغ الناس من الصلاة فاذا رجل مجذوب يصيح بهدم كنيسة القلعة ، فتعجب السلطان والناس من أمره ، ثم ذهبوا للكنيسة للاستطلاع فوجدوها قد هدمت ، وحدث نفس الشيء بعد صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ، وحين خرج الناس من الأزهر وجدوا الكنائس القريبة قد دمرت ، وفى يوم الأحد التالى ورد من والى الاسكندرية ما يفيد أنه قد هدمت أربع كنائس فى وقت الصلاة يوم الجمعة وفى نفس الوقت هدمت كنيستان فى دمنهور ، وست كنائس فى قوص بقيادة الشيخ عبد الغفار وأعوانه (ولما وقف السلطان على ذلك انزعج وتواترت الأخبار بعد ذلك من المسافرين من الوجه البحرى والوجه القبلى أنه هدمت كنائس كثيرة من البلاد التى لا يؤبه لها وكان هدم الجميع فى وقت واحد نخشى أن يفسد عليه أمر مملكته فقال له الأمراء : يامولانا السلطان هذا ليس من العامة ولا من الناس المعتبرين وإنما هو إرادة الله تعالى وأجراه على يد بعض خلقه ، وإلا كيف يقع هذا فى وقت واحد وساعة واحدة ، وقال القاضى فخر الدين : ياخوند أنت تريد تعارض فعل الله والله إذا أراد أمرا فلا معاند له فى حكمه وأنت مع حرمتك العظيمة لو رسمت بهدم كنيسة فى دمياط وأخرى فى إسكندرية لما وقع ذلك فى ساعة بعينها)[1] .

(١) النويرى : نهاية الأرب ٣/٣١ : ٤ . مخطوط ، عقد الجمان للعينى حوادث ٧٢١ ورقة ٢٧٣ : ٢٧٧ .

واعتقل الشيخ عبد الغفار وحمل للقاهرة ثم أفرج عنه بعد قليل[1] .

وقد ذكر العينى أسماء الكنائس التى دمرت فبلغت نحو ستين كنيسة أحرقت كلها فى وقت واحد حين الانشغال بصلاة الجمعة .. و (السيناريو) واحد فى كل بلد .. يقوم مجذوب يصيح مضطربا داعيا لهدم الكنائس ويختفى فيتعجب الناس وحين يخرجون من المسجد تطالعهم الكنائس المهدمة ودخان الحريق فيها .. ولغرابة الأمر فقد اعتقد السلطان ومستشاروه أن تلك إرادة الله فالسلطان نفسه لو أراد أن يحرق كنيستين فى وقت واحد فى الاسكندرية ودمياط ما استطاع .

وما كان للشيخ عبد الغفار وحده أن تمتد يده بإحراق الكنائس المصرية كلها فى وقت محدد ، وما كان بطاقة مجموعة من الناس أن يفعلوا ذلك بالدقة التى نفذ بها وبالتخطيط الذى تم ، إن الأمر أبعد من ذلك ، أن هدم بناء ضخم يستلزم عصبة من الرجال تحكم الأمر وتمد له وتنفذه فى الوقت المحدد ، وإذا تصورنا أننا أمام ستين مبنى قد دمروا فى نفس الوقت لوقفنا على التنظيم والدقة والتخطيط الذى صاحب هذه العملية الفريدة من نوعها فى التاريخ المصرى والذى جعل مصر كلها له مسرحاً .

لقد استغل عبد الغفار بن نوح الدعاة السريين للدعوة الشيعية الصوفية وهم موزعون فى كل مدينة والاتصال بينهم مستمر ومتجدد وقد بقوا بلا عمل بعد موت البدوى ، وإذ عجز أولئك عن مواجهة القوة الحربية المملوكية فى أرض المعركة فهم أقدر على إحراق مصر كلها بمؤامرة تنفذ فى الخفاء لإفساد الأمر على صاحب السلطة ، وهذا ما توجسه الناصر محمد لولا أن مستشاريه استبعدوا ذلك وأقنعوه أن الأمر قضاء وقدر .. إلا أن المسيحيين لم يقتنعوا

---

(١) بيبرس الداوادار ، زبدة الفكرة مخطوط ٩/٤٧٤ ، ٤٧٥ السلوك ٢/٥٠٠

فقاموا باشعال الحريق فى القاهرة (ولا يكاد يفرغ الناس من حريق حتى يفاجأوا بحريق آخر) وكانوا يعزون السبب إلى أنه إرادة الله إلا أنهم فوجئوا بفتيلة كبيرة ملوثة بالنفط فبحثوا عن الفاعل واعتقلوا أربعة من الرهبان متلبسين ، وشرع الناس فى أذى النصارى وكادت تقوم فتنة فأمر الناصر محمد باعتقال المتظاهرين من الحرافيش والعامة فاعتقل جماعة كيفما اتفق وصلبوهم ، ولكن الحريق لم ينقطع وقبض على ثلاثة من النصارى واعترفوا ، فقامت مظاهرة ضخمة من العامة واجهوا السلطان دون خوف وصاحوا فيه بالانتصار للاسلام — بزعمهم — فخشع لهم السلطان (وحصل له بهته فتوجس خاطره فأنه رأى هذا العمل منهم بعد أن عمل فيهم من الصلب والقطع — أى قطع الأيدى — وبقى متفكراً إلى أن وصل الميدان وجلس وهو يسمع ضجيج هؤلاء .. فطلب الحاجب وأمره أن ينادى من وجد نصرانيا فيكون دمه وماله حلالا للسلطان فلما نادى الحاجب فيهم بذلك طابت خواطرهم وصاحوا نصرك الله ودعوا له) .. ثم تدارك السلطان الأمر وخففه إلى تعزير النصارى وتنكيلهم دون القتل(١) .

وانعكس ما حصل للنصارى على صعيد العلاقات الخارجية مع الحبشة وعلاقة الحبشة بالامارات الإسلامية المجاورة لها ذلك أن ملك الحبشة كان يعتبر نفسه مسئولا عن حماية الأقباط المصريين لأنه يتبع الكنيسة المصرية مذهبا وكانت مصر ترسل له بطريقا مصريا للاشراف على الكنيسة الحبشية(٢) . وعندما علم ملك الحبشة (عمد صهيون) بما حدث للكنائس المصرية والمسيحيين بعث للناصر محمد باحتجاج شديد اللهجة يهدد فيه باجراءات مماثلة ضد مسلمى الحبشة وتحويل مجرى النيل ليجيع مصر ، غيرأن

---

(١) نهاية الأرب نفس المرجع ٣١/٨ وعقد الجمان ٢٧٨ : ٢٩٦ .
(٢) ابن حجر أبناء الغمر مخطوط حوادث ٨٤١ ورقة ٣٠٠٨ .

الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرد السفارة الحبشية ، فبدأ (عمد صهيون) الحرب ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة وتابع إبنه بعده (سيف أرعد) أعماله العدوانية ضد التجار المصريين واعترض طريق القوافل بين القاهرة وشرق أفريقيا(١) .

وهكذا كان لمؤامرة الشيخ عبد الغفار آثارها المدمرة داخلياً وخارجياً فقد كادت مصر أن تصرعها الحرب الأهلية وكاد الحريق أن يأتى على القاهرة واكتسبت السلطنة المملوكية عداء الحبشة ودفعت الإمارات الإسلامية فى زيلع وبربره والصومال ثمن المؤامرة التى نفذها الشيعة الصوفية فى مصر ..

لقد أعلن عبد الغفار السبب فى حركته تلك فقال (كثر فسادهم وزاد طغيانهم فنودى بالانتقام منهم(٢)) وقد يكون السبب فى كراهيته للنصارى مظاهرة السلطات المملوكية فى قوص وأسيوط للنصارى ضد المسلمين وذلك ما اعترف به فى كتابه الوحيد ونقله عنه الشعرانى(٣) .

ولكننا نقول أن المقصود بهذه المؤامرة الشاملة أحداث قلاقل داخلية وخارجية للانتقام من الدولة المملوكية التى وطدت سلطانها على حساب الدعوة الشيعية ودعاتها المنتشرين فى كل مكان ، وإذ عجز أولئك عن المواجهة الصريحة فقد ارتأوا أن يصيبوا الدولة فى مقتل عن طريق التآمر بليل وهم لا يستطيعون سوى ذلك .. وقد أفلحوا فى مسعاهم فلم يلق عبدالغفار إلا قليلا من الاعتقال ثم أفرج عنه فاعتكف فى جامع عمرو حتى مات وأحرز شهرة بعد موته حتى يبعث ثيابه التى مات فيها للتبرك بها وفرقت على الزوايا الصوفية(٤) .

---

(١) طرخان : المجلة التاريخية ٨/٢ ، ٥٦ سنة ١٩٥٩ .

(٢) العينى : عقد الجمان ٢٧٧ : ٢٧٨ .

(٣) لطائف المنن ٤٥٩ ط ١٢٨٨ .　　　(٤) السلوك ٢/ ٥٠ .

لقد انتقم عبد الغفار لشيخه أبي العباس الملثم وانتقم الجميع للبدوى الذى زرع البلاد بأعوانه حتى إذا قرب تحقيق الأمل جاء الظاهر بيبرس فجر عليه ومنعه من جنى الثمار ، ودفعت مصر الثمن قتلا وإحراقا ، ولم تكن مصر فى يوم من الأيام بلدا للتعصب الدينى ولكن ربما كانت البلد الوحيد الذى نفذت فيه مؤامرة شاملة بهذا الاقتدار والتخطيط ضد طائفة لا ذنب لها إلا لمجرد غرض سياسى وتصفية حسابات قديمة مع السلطة .

إن حركة عبد الغفار ـ وقبله خضر العدوى ـ أمر لا يقره الإسلام .. ولكن من قال أن الصوفية مسلمون ؟؟ إن عقيدتهم المخالفة للاسلام ـ والتى نشروها مع الأسف فى مصر ـ تمثلت فى عبادة البـــدوى وذلك ما سنتعرض له فى الفصل الثانى .

هذا .. ولقد كان لسياسة الناصر محمد فى تقريب الصوفية أن تشجع الشيعة المستترون بالتصوف وادعوا المهدية كما حدث من المهدى النصيرى الذى ظهر بالشام سنة ٧١٧ ، وبعده بست سنوات اعتلى أحد المماليك منبر جامع الحاكم الفاطمى وادعى أنه المهدى وسجع سجعات يسيرة على طريقة الكهان (فأنزل فى شرخيبة[١]) . ولم تكن تلك الحركات سوى نقزات فردية لا تعبر عن تخطيط جماعى كما شهدنا فى دعوة البدوى فى القرن السابع ، ولم تكن دعوة البدوى هى الأخيرة ، فقد كانت للشيعة الصوفية وحلفائهم الأعراب حركة إبان ظهور تيمور لنك ولكنها لم توقف ثم نجح الشيعة الصوفية فى إيران فى تشييد أول دولة على أساس التصوف الشيعى هى دولة الصوفيين .

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٤/٨٣، ١٤٤

(جـ) الحركات الشيعية الصوفية بعد البدوى :

أفلحت حركة البدوى فى استغلال التصوف والاستكثار من الأتباع وتنظيمهم .. إلا أنها أخطأت فى التركيز على مصر والاعتماد على المصريين كأساس للتحرك الشيعى الصوفى ، ثم إن الظروف تغيرت بسقوط دولة ضعيفة هى الدولة الأيوبية وقيام دولة فتية هى دولة المماليك البحرية .

وفى نهاية القرن الثامن شهدت مصر اضطراباً سياسياً بسبب تحكم المماليك الجراكسة فى أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده ، وصراع الجراكسة فيما بينهم على التحكم فى السلطان القلاوونى الصغير وحكم مصر من خلاله . وقد انتهت هذه الفترة بتكوين برقوق للدولة المملوكية البرجية منذ بداية القرن التاسع .

وفى هذه الآونة كان تيمور لنك يؤسس مملكته فى الشرق ويتجه بأطماعه نحو الغرب والدولة المملوكية .. ووجد الشيعة الصوفية فى المغول وزعيمهم الجديد تيمور الفرصة فى استعادة ملكهم الزائل والانتقام من الدولة المملوكية التى قضت على أحلامهم فى القرن السابع . وكانت لتيمور اهتمامات شيعية وحدب على الأشراف ، وبدت فى المشرق تحركات غامضة بين أعوان تيمور من الشيعة فى خراسان واليمن ، مما دفع بالدولة المملوكية رغم متاعبها الداخلية إلى مراقبة الأشراف وتمييزهم بعصائب خضر على العمائم سنة ٧٧٣ (١) .

ثم وقع على برقوق عبء المواجهة مع الحركة الصوفية الشيعية الجديدة ، وكان برقوق كفؤاً للمواجهة فقد استغل بنفسه التصوف فى تنصيب نفسه سلطاناً وهو أدرى باستغلال التصوف ولن يسمح لأحد بأن ينتصر عليه فى

---

(١) النجوم ١١/١٢٠ ، السلوك ٣/١٩٩ ،

هذا المجال .. ولم يكد السلطان برقوق يهدأ فى مقعد السلطنة حتى واجة خطر تيمور لنك سنة ٧٩٦ ، وبينما كان يستعد للتحرك للقائه ـ ذلك اللقاء الذى لم يتم ـ إذ علم بمؤامرة ضده يقوم بها الشريف العنابى المتواطىء مع تيمور وكانت خطة العنابى تتلخص فى الاستيلاء على السلطة مع أتباعه من أعراب العائذ حين يخرج برقوق بجنده لمقابلة تيمور لنك فى الشام ويكمل تيمور لنك الاجهاز على برقوق وجنده ، وحظى العنابى بتأييد بعض المماليك ، وفشلت الخطة لأن موسى العائذى شيخ العرب العائذية أفشى بالسر إلى برقوق الذى أسرع بقتل الشريف العنابى وأعوانه[1] واشتدفى معاملة الأشراف عموما[2]

ومهما يكن من أمر فان أحلام الصوفية الشيعة لم تتحقق مع تيمور إذ انهارت دولته بعد موته بأسرع مما يتوقعون كما إنه فى حياته لم ينشغل إلا بالفتوح والحروب والدماء ولم يكن فى وقته أو طموحه متسع لتحقيق أهداف الشيعة .

وبعد تيمور اقتنع الشيعة المتصوفة اللاحقون بضرورة الاعتماد على النفس وتكوين الأتباع حربياً وصوفياً فى نفس الوقت وتم ذلك فى فارس حيث قامت دولة الصفويين فى أوائل القرن العاشر الهجرى .

واسماعيل الصفوى رأس هذه الدولة تسمية المراجع التاريخية باسم (الصوفى) ، وهو (صفوى) بالنسبة لبيته أى (صفى الدين الاردبيلى) جده الأكبر . . وهو (صوفى) نسبة إلى مذهبه (التصوف الشيعى) الذى قام به جده صدر الدين من مزج التصوف بالتشيع والانشغال بالسياسة والاصهار إلى حسن أوزون صاحب ديار بكر . . إلى أن جاء حفيده (اسماعيل) وقد كثر أتباعه من

(١) إنباء الغمر ١/٤٧٠ ، نزهة النفوس ١/٣٨٧ .

(٢) إنباء الغمر ٢/٣٦٦ : ٣٦٧ : ٥٠٢ : ٥٠٣ ، الضوء اللامع ٣/١٢٢ : ١٢٣ .

(القزل باش) وبهم استطاع أن يمد ملكه فاستولى (على سائر ملوك العجم وخراسان واذربيجان وتبريز وبغداد وعراق العجم وقهر ملوكهم وقتل عساكرهم بحيث قتل ما يزيد على ألف ألف وكان عسكره يسجدون له[١]) .

وحين اتجه اسماعيل الصوفى (الصفوى) بفتوحه ناحية الغرب كان لابد أن يصطدم بالقوتين الإسلاميتين السنيتين (الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى والدولة المملوكية فى الشام ومصر) والحدود متقاربة بين الأطراف الثلاثة . وبدأ اسماعيل الصوفى تحرشاته بالمماليك والعثمانيين فى وقت واحد مما أدى بالعثمانيين والمماليك للتعاون بينهما ضده .. وخشى اسماعيل مغبة هذا التعاون فعمل على أن يستميل إحدى القوتين إليه ليضرب بها الأخرى، ولأنه كان مستحيلا بالنسبة إليه أن يستميل السلطان سليم العثمانى الذى تولى السلطنة بعد عزل أبيه لتهاونه ضد اسماعيل الصوفى - فقد ركز اسماعيل على استمالة الغورى ، وتم له ذلك عن طريق داعية صوفى شيعى تسلل إلى حاشية الغورى وأصبح من أخص ندمائه وسيطر على عقله وجعله فى النهاية يخرج بجيشه بحجة الصلح بين اسماعيل الصوفى وسليم العثمانى ليمنع الحرب بينهما ثم يتورط فى حرب مع سليم العثمانى ويخسر الحرب وحياته وجيشه وتنهار الدولة المملوكية أمام العثمانيين بدون قصد من العثمانيين وبدون نية حقيقية من السلطان العثمانى للقضاء على الدولة المملوكية السنية .

والمتتبع لتاريخ ابن أياس يلاحظ الهلع الذى كان يصيب الغورى والقاهرة من تحركات الشاه اسماعيل الصوفى ضد حلب على الحدود المصرية المملوكية[٢] .

---

(١) أخبار القرن العاشر . مخطوط ٤١ , تاريخ القدس ، مخطوط ٦٧

(٢) تاريخ ابن اياس ٤/ ٣٩ ، ١١٨ : ١٢٣ ، ١٩١ ، ٢٠٥

وفى هذه الأثناء كانت الشيعة تتحرك بمصر بتوقيت متناغم مع الخطر الخارجى الذى يمثله اسماعيل الصوفى . وأثار فزع الغورى تحالف العربان ضده وميل الأشراف للثورة حتى لقد ثار بالصعيد صوفى شيعى وادعى المهدية وضربت عنقه ، وعقد الغورى مجلساً للبحث فيمن انتحل النسب الشريف مخافة أن يكون بينهم جاسوس لاسماعيل الصوفى[١] .

ثم تغير الوضع بمجىء المبعوث السرى الذى لعب بالغورى وقضى عليه ، يقول ابن اياس (حضر إلى الأبواب الشريفة « يقصد مكان السلطان » الشريف العجمى الشنقحى نديم السلطان الذى كان توجه بأشغال إلى نائب الشام ونائب حلب (للاستعانة بها فى حرب العثمانيين) وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة فظهر أن السلطان كان أرسله إلى شاه اسماعيل الصوفى فى الخفية فى خبر سر للسلطان بينه وبين الصوفى كما أشيع بين الناس ذلك ... فلما كان يوم السبت خامس عشر ربيع الآخرة خرج السلطان قاصداً نحو البلاد الشامية والحلبية[٢]) أى نحو حتفه فى مرج دابق ، ويقول الغزى (قبل معركة مرج دابق قرب الغورى إليه أعجميا كان ينسج المودة فى الباطن بينه وبين شاه اسماعيل حتى أخرجه من مصر لقتال سليم بحجة الاصلاح بينه وبين الصوفى[٣]) وبهذا تم الانتقام من الدولة المملوكية .

ولم يكن اسماعيل الصوفى يتوقع أن تنهار الدولة المملوكية بهذه السرعة أمام خصمه سليم العثمانى لذا فسرعان ما استغل الشيعة المحليين فى الكيد للعثمانيين فى مصر والشام كما فعل ابن حنش وابن حرفوش وغيرهما من أمراء

(١) تاريخ ابن اياس ٤ / ٢١٩ : ٢٢١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٨٧ ، وتاريخ ابن طولون ٣٠٢/١

(٢) تاريخ ابن اياس ٣٥/٥ ، ٣٨ (٣) الكواكب السائرة ٢٩٧/١

الشام ثم حرب حظة مع الأمير المملوكى جان بردى الغزالى نائب الشام من قبل العثمانيين ، وأفشل العثمانيون تلك الحركات كلها .

وأخيراً لجأ اسماعيل الصوفى إلى طريقته المفضلة وهى استمالة الحاكم عن طريق مبعوث صوفى شيعى سرى . وتم ذلك عن طريق الشيخ ظهير الدين الأردبيلى وكان من الدعاة السريين للشاه اسماعيل ولكنه استطاع أن يخدع سليم العثمانى فاصطحبه معه إلى تركيا ولكن سرعان ماعمل الأردبيلى لصالح عقيدته الشيعية فرجع إلى مصر مع أحمد باشا والى مصر ومملوك سليم ومازال بأحمد باشا حتى تحول إلى مذهب التشيع وقام بثورة على العثمانيين وكان نصيبه القتل(١) .

تلك لمحات سريعة عن الحركات الشيعية الصوفية وموقفها من الدولة المملوكية فى مصر ، ورأينا أنها أفلحت فى نهاية الأمر فى إقامة دولة شيعية صوفية فى إيران بقيادة الشاه اسماعيل الصوفى (الصفوى) وعلى يده كان انهيار الدولة المملوكية فى مصر عن طريق مبعوثه السرى الشريف العجمى الشنقجى الذى تسلط على عقل الغورى وانتزعه من التحالف مع العثمانيين رفاقه فى المذهب السنى ، وجعله يتحالف مع الشاه اسماعيل الصوفى ويخرج بنفسه لحتفه ، ووقف الشاه اسماعيل يتفرج على قوة سنية فتية تجهز على رفيقه لها هرمة دون أن يحرك ساكناً .. لقد كان سليم العثمانى فى طريقه لمحاربة اسماعيل الصوفى فوضع اسماعيل فى طريقه الغورى فقامت بينهما الحرب بحمق الغورى ودهاء الشنقجى المبعوث السرى الذى عقد معه اتفاقاً سرياً أخرج الغورى من مأمنه إلى مقتله ، ومع الأسف (فان هذا الاتفاق السرى لم يذكر التاريخ شيئاً عن بنوده(٢)) طبقاً للتعامل الشيعى الذى ينزع دائماً للسرية .

---

(١) الغزى : الكواكب السائرة ١/٢١٦ ، ١٥٩ .

(٢) مصطفى زيادة : المجلة التاريخية ٤/١/٢١٥ .

وبعـــد . . .

لقد تعرضت المصادر التاريخية بالتفصيل لتحركات الشيعة المسترة بالزهد والتصوف والتى نجحت فى تحركاتها فيما قبل القرن السادس كحركات الزنج والقرامطة والدولة الفاطمية ، وتعرضت بالتفصيل أيضا لنجاح الحركة الصوفية الشيعية فى القرن العاشر فى إقامة الدولة الصوفية الشيعية الصوفية فى إيران .

ومعلوم أن السرية كان الطابع الأساسى لبداية تلك الحركات وبالسرية نجحت فى إقامة حركتها ، وحين نجحت اهتم بها المؤرخون وبحثوا بداياتها وتطورها .. ومع أن تلك الدول الشيعية الصوفية ظهرت إلى عالم النور فإنها لم تتخل عن السرية فى إدارة أمورها السياسية الخاصة بالدعوة والمؤامرات وتلك سمة رئيسية فى السياسات الشيعية ألمحنا إلى بعضها حين قضى الشاه اسماعيل الصوفى على الدولة المملوكية بخديعة مبعوثه السرى لدى الغورى .

ونرجع إلى الحركة الصوفية الشيعية فى القرنين السادس والسابع تلك الحركة التى بدأت فى المغرب وانتقلت إلى مكة ثم العراق وتزعمها الرفاعى فى العراق ثم البدوى فى مصر .. ونقول أن السرية والغموض لازم تلك الحركة المستترة بالتصوف منذ بدايتها إلى نهايتها لأنها لم تتم ، وما كان لها أن تظهر واقعا فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها طالما لم تظهر واقعاً فى دنيا الدول وعالم السياسة .. لقد قضى على تلك الحركة المستترة بالتصوف أن تظل ترفع راية التصوف وتتحول إلى طرق صوفية ذائعة الصيت فى الأماكن التى كانت تصبو لإقامة دولة شيعية فيها ، وكأنها حين فشلت فى السياسة اكتفت (بدولة الباطن) دولة التصوف من الأقطاب المتحكمين فى العالم بزعمهم .. وليس غريباً بعد ذلك أن يصير زعماء هذه الحركة من أبرز الأقطاب فى اعتقاد العامة .

ومع أن المؤرخين لم يسجلوا ما يقطع بوجود هذه الحركة السرية فإن كتاباتهم تشى بكثير من التحرك السرى للشيعة يؤيده الكثير من اللمحات فى كتب المناقب والطبقات الصوفية التى تبرز الدوافع والتحركات السياسية فى إطار من الكرامات الموحية والتى تعبر عن أحلام يقظة لم يقدر لها أن تتحقق إلا فى عالم التمنى ودنيا الباطن وادعاء الكرامات الزائفة .

ومهمة الباحث التاريخى فى عصرنا ألا يقتصر عما كتبه المؤرخون السابقون ممن عاصروا الحدث وكتبوا عن إقامة الدول التى نجحت فعلا ، فالسابقون لم يتركوا لنا إلا القليل .. إن التحدى الحقيقى يكمن فى أن يحاول باحث التاريخ اليوم تتبع الحركات السرية التى لم تتم ، يجمع لها الأدلة وينفذ بفكره إلى ماتحت الظاهر من الأحداث والأخبار ، ويلقى بالأنوار الكاشفة من التاريخ السياسى المعاصر للحركة السرية لكى يطل ماخفى منها من أحداث ، ولا يأخذ ما تعارف عليه الناس كقضية مسلمة طالما لا تجد لها سنداً من التاريخ أو العقل أو الدين .. وهذا ما حاولت أن أفعله فى رصد حركة البدوى وأرجو أن أكون قد وفقنى الله تعالى فيه ..

قد ينكر الكثيرون القضية بأكلها .. قضية أن يكون البدوى والرفاعى أصحاب طموح سياسى ودعوة سرية لقلب نظام الحكم فى المنطقة ، ولكننا نؤكد أن عناصر التآمر واضحة جلية فى سيرة أولئك الصوفية إلى درجة تجعلهم مختلفين عن الصوفية العاديين ممن تخففوا من الطموح السياسى والحركة السياسية السرية .

(د) ونلخص عناصر التآمر لهذه الحركة السرية فيما يلى :

أولا : كونهم يداً واحدة دون بادرة اختلاف وشقاق ، والصوفية شأنهم التفرق والاختلاف إذا كانت حياتهم فى التصوف وحده .. يقول د. م

الصوفى ت ٣٠٣ (ما تزال الصوفيه بخير ما تنافروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم[١]) . واختلاف الصوفيه يظهر فى اختلافاتهم المستمرة فى تعريف التصوف والزهد ومقامات التصوف واشتقاقاته وعقائده التفصيلية ، وحين تحول التصوف من النظريات إلى التطبيق العملى وتكوين الطرق الصوفيه انتشر الخلاف بين أرباب الطرق الصوفيه وانحدر إلى تنافس حول الأتباع والموائد والولائم والرغيف والدرهم والدينار .

أما أصحابنا ممن تستر بالتصوف فقط فلم يعرفوا هذا الشقاق . فابن عربى مثلا وهو من أساطين الدعوة والتصوف النظرى الفلسفى يقول فى صراحة (العصى والقضبان إذا تفرقت تكسرت وإذا جمعت لم تقووا على كسرها فاجتمعوا ولا تتفرقوا)[٢] . وحين بدأت الدعوة حقق أولئك تعاليم ابن عربى فكانوا يداً واحدة على من عداهم من الصوفية الآخرين ، فالبدوى يكن الود لمعاصره الدسوقى ويستقبل البلقينى والبلتاجى فى نفس الوقت الذى يطرد فيه الصوفية الآخرين ويقول (عليكم الطمس والخفاء إلى يوم القيامة) وأتباع مدرسة الواسطى يتخلون بكل بساطة عن الأسكندرية ليخلو الجو للشاذلى الذى احتل مكانة أستاذهم فيها ، والدسوقى يعتبر نفسه ضمن المدرسة الشاذلية لأنه تابع طريق الشاذلى فى الدعوة ، وأبو السعود بن أبى العشائر على صلة وثيقة بمعاصره أبى العباس البصير الوافد من المغرب فى نفس الوقت الذى نحس فيه بنفورهم من عبد الرحيم القنائى المنشق على الدعوة ، والبدوى لا يستريح إلا إذا أنهى كل وجود صوفى مخالف فى طنطا وفى نفس الوقت يسمح لسالم المغربى بالبقاء لأنه زميل فى الدعوة ، والدسوقى يقر بتبعيته للبدوى

---

(١) الرسالة القشيرية ٢١٨ .

(١) رسائل ابن عربى (كتاب التراجم ٣١) ط حيدر أباد ١٩٤٨

فيقول (وأما ولد العم سيدى أحمد البدوى فإنه الأسد الكاظم ، وفى ذلك يقول :

قال ابن أبى المجد فضل الله علينا عم
كل الجماعة تبع والسيد أحمد عم)(١)

وبانحسار العامل السياسى وتحول الطريقة الأحمدية إلى تصوف بحت ساد التنافس والتنازع بين أشياخها وألمح إليه عبد الصمد(٢) .

ثانياً : برغم تتابع الزمن واختلاف المكان إلا أن التخطيط واحد بين المدرستين الرفاعية والبدوية ، فالرفاعى يؤمر فى البقاء فى أم عبيدة إلى أن يموت والرفاعى يأمر خلفاءه بنفس الأمر ويأمر أبا الفتح الواسطى بالاقامة فى الأسكندرية إلى أن يموت ، والبدوى يظل فى طنطا إلى أن يموت ، وكلما أرسل مبعوث إلى مكان قال له (مقامك ومماتك بها) ، ثم إن السياسة واحدة لدى الرفاعى والبدوى فكلاهما ساق أتباعه بمزيد من الحزم وفى الوقت نفسه واجه المجتمع بالتصوف (إما بالتصوف الخانع كالرفاعى أو الجنون والجذب كالبدوى) . . وكلاهما أرسل بعوثاً إلى الأماكن الهامة فى ناحيته وجعل من مقره مركزاً للدعوة تعلن التصوف وترسل الوفود فى الخفاء ، وكلاهما ادعى لنفسه نسباً علوياً هاشمياً وسار الأتباع على نفس الطريق (ادعاء النسب العلوى) . وادعاء النسب العلوى عادة سيئة بدأ بها ثوار الشيعة واشتهر بها

---

(١) عبد الصمد الجواهر ٨٢

(٢) يقول عن الشيخ عبد المجيد الأحمدى الذى كان شيخا سنة ٩٦٥ (ولم تزل أخوته يخاصمونه ويشكونه للحكام ومع ذلك يصبر على أذاهم) وقد أدى تنافس الأشياخ الأحمدية إلى مقتل الشيخ عبد الكريم الأحمدى سنة ٦٨٢ ، راجع الجواهر لعبد الصمد ٢٥ ، ٢٦ .

الفاطميون ثم سار على منوالهم أساطين الحركة الشيعية كالرفاعى والشاذلى والدسوقى والبدوى ، وحتى لو صح هذا النسب فلن يغنى عنهم من الله شيئاً .

— ونلمح تخطيطاً آخر على مستوى أعلى وأعم .. فكل الرءوس أتت من المغرب وأقامت فى مكة وتحركت منها إلى العراق ـ ثم اتجه البدوى إلى طنطا .. ومن العراق والمغرب كانت تأتى الوفود إلى مصر بشيخ ومريدين أجانب يكونون مدرسة تجمع الأتباع من بين المصريين كما فعل أبو السعود الواسطى وأبو الفتح الواسطى وأبو العباس الملثم وأبو العباس البصير وأبو الحسن الشاذلى . ثم البدوى وأتباعه من خارج مصر .

— وهناك تخطيط آخر نلمحه على نطاق ضيق فى تاريخ البدوى فى طنطا فهو سلسلة من الأحداث المرتبة المخططة لاوجود للصدفة فيها ، فقد قدم لطنطا مباشرة واتجه رأساً إلى بيت ركين الدين[٦] وسرعان ما أتته الوفود من العراق والحجاز واليمن والشام وكانوا من أوائل أتباعه ، وبادر بالتخلص من الصوفية الآخرين فى طنطا ثم كانت بعوثه إلى داخل وخارج مصر وصلاته الغامضة بمدرسة أبى الفتح الواسطى والدسوقى ، وهو مع ذلك كله مجهول فى مكان مجهول يتظاهر بالجذب والجنون ، وهو حاكم بأمره فى طنطا التى أصبحت مدينة كاملة للدعوة بإتباع يتزعمهم عبد العال وتحت امرته مشرفون على الكنس والطبخ والبريد والماشية ، وبهذا التخطيط أصبحت طنطا مركزاً للدعوة يضارع أم عبيدة فى العراق .. أى أن البدوى فى رحلته لأم عبيدة لم تضع أيامه سدى أو فى صراع ووفاق مع فاطمة بنت برى كما تزعم كتب المناقب . .

— والأسلوب واحد بين أشياخ الدعوة فهم يغضون الطرف عن

---

(٦) يقول الشعرانى فى ذلك (ثم قصد طنتدا فدخل على الحال مسرعا دار شخص من مشايخ البلد اسمه ابن شحيط فصعد إلى سطح غرفته ١٥٩/١)

الاتهامات الخاصة بالنساء والانحراف الخلقى بل قد توحى بذلك عن عمد سيرتهم لإلهاء الخصم عن الغرض السياسى ، فالرفاعى اتهم بالجمع بين النساء والرجال وقريبا من ذلك اتهام أبى العباس الملثم ولم يحاول أحدهما الدفاع عن نفسه ، وخضر العدوى كان يتشدق علنا بفجوره وكتب المناقب نسجت قصة فاطمة بنت برى كغطاء على هدف البدوى من رحلته إلى العراق وأم عبيده .

والشيعة كرواد للتصوف ابتكروا الطرق الصوفية ليستطيعوا بها التغلغل فى أعماق المجتمعات . وقد بدأ عبد القادر الجيلانى (٤٧٨-٥٦٢) تكوين الطريقة القادرية ، وسيرته تنضح بالطموح السياسى الشيعى[١] كما يبدو من ترجمته فى الطبقات الكبرى للشعرانى ، ثم تابعه ابن عربى فأسس الطريقة الأكبرية ، وفى القرن السابع كان انشاء الطرق الرفاعية والأحمدية السطوحية والبرهامية الدسوقية والشاذلية اسـوة بالدولة الفاطمية[٢] ، وفيما بعد انتشرت الطرق الصوفية حتى أصبح فى عهد الشعرانى من إحدى العادات السيئة للصوفى أن يبادر بتكوين طريقة صوفية ينافس بها شيخه ويزاحم بها الآخرين .

والمهم أن ابتداع الطرق الصوفية لم يكن عبثاً ، فقد كانت الطرق ستاراً يجمع الأتباع وينشر الدعوة ويرسل الوفود وفيها تعقد الاجتماعات وتتم المراسلات .. حتى إذا خاب السعى السياسى استغلت إمكانيات الطرق الصوفية فى اعلاء مكانة الأشياخ وتقديسهم وجمع النذور (والنقوط) ونصب الولائم .. ثم تابعهم الآخرون فعمت البلوى بالطرق الصوفية وفروعها العديدة فى كل شارع حتى كان فى عصر الشعرانى بين كل طريقة صوفية وأخرى شيخ ناشىء يحاول تكوين طريقة لنفسه ، وأصبح عملا مربحاً أن تنشىء

---

(١) كان شيخا لأبى مدين الغوث زعيم المدرسة المغربية .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن الفاطميين ابتكروا الطرق الصوفية كما حدث من ابن مرزوق القرشى .

لنفسك وأبنائك طريقة صوفية تتيح لك أكبر قدر من التمتع المريح والبطالة اللذيذة .. وقد أثار أولئك حنق الشعرانى فهب ساخطا عليهم فى كتبه « لطائف المنن » و « رسالة إلى مدعى الولاية فى القرن العاشر » و « تنبيه المغترين » و « ردع الفقراء عن ادعاء الولايه الكبرى » .. إلخ .

وبالإضافة لعناصر التآمر السابقة فهناك غموض ومعميات وتساؤلات لاتوجد إجابه واضحه لها ولا تعليل مناسب إلا فى ضوء الدعوة السريه .. من ذلك مثلا : —

لماذا ظل البدوى مجهولا منذ وفاته فى القرن السابع إلى نهايه القرن التاسع حين بدأ التأريخ له على استحياء فيما ذكره السيوطى فى حسن المحاضرة مع أن السيوطى لم يذكره فى الوفيات فى كتابه « تاريخ الخلفاء » وحتى حين ذكر ترجمته المختصرة فى « حسن المحاضرة » كان الترجمه الوحيدة التى لم يذكر فيها مصدراً أخذ عنه .. ثم كانت ترجمته التاليه فى طبقات الشعرانى فى القرن العاشر بدون مصدر أيضاً .

و (البدوى) هو من أشهر الأعلام فى مصر بل ربما يكون أشهرهم على الإطلاق . ولا لتعليل للجهل به حين كان حياً يرزق فى القرن السابع إلا أنه كان داعيه مستتراً ، ولا تعليل لشهرته فيما بعد إلا أن له أتباعا سريين نشروا الدعايه له فى كل أرجاء مصر وخارجها وبهم اشتهر البدوى واشتهرت طنطا والمولد الأحمدى والطريقه الأحمديه السطوحيه وبهم استمرت سيرة البدوى تراثا شعبياً تحفظه الصدور مختلطا بالكرامات فيقول عبد الصمد « إن الناقلين لتلك الكرامات غير معلومين والمؤلفين لها غير مشهورين والحاكين للاقوال غير مذكورين[1]) .

(١) الجواهر ١

و .. لماذا ساس الرفاعي أو البدوى أتباعه بالحزم بينما واجه الآخرين بالتصوف والجذب ؟ إن الشأن فى الصوفى العادى أن يكون واضحاً صريحا فهو إما (مجذوب) أمام الجميع وإما (سالك) أمام الجميع . فليس لديه شيء يخفيه، والتصوف فى ذلك العصر كان ولا يزال مرعى الجانب ، والصوفى يتمتع بالحظوة لدى الناس والحكام فلا داعى حينئذ للتلون اللهم إذا كانت هناك خبيئة فى النفس ودعوة سرية تخشى مواجهة الحاكم ومن لا يوثق بهم .

* ويلفت النظر أن البدوى دخل طنطا فى أسوأ حال ، ماشياً على قدميه متورم العينين تشيعه الصبيان لغرابة مظهره كما ورد فى ترجمته فى الطبقات الكبرى للشعرانى وذلك أمر منتظر من مسافر أتى من مكان بعيد وقاسى الكثير من وعثاء السفر . ولكن من غير المنتظر أن يجد ذلك المسافر بيتا يؤويه بسرعة وأتباعا يلحقون به من الشام والعراق والحجاز واليمن، ثم لا يلبث أن يصير متحكما فى طنطا ، وصاحب دور وماشية وحاشية ، وذلك لا يحدث إلا فى أساطير ألف ليلة ، ولسنا نجد فيها حلا مقنعاً .. والحل المقنع يتجلى فى الدعوة السرية المخطط لها بأحكام من قبل الشيعة أساطين الدهاء والسرية.

* ثم لماذا يرسل الصوفى العادى بعوثا ويلزمهم بالبقاء فى أماكنهم حتى الموت ؟ . الشأن فى الصوفى العادى أن يحاول بقدر الإمكان أن يكثر الأتباع حوله، فكلما كثر الأتباع زاد المدد وتعاظمت (النفحات) من المريدين والمحبين ، أما صاحبنا الذى يصطنع التصوف ستاراً فهو يزرع البلاد بأتباع دائمين ويعزز الاتصال بهم حتى إذا حانت ساعة الصفر تحركوا فى ساعة واحدة كل منهم بأتباعه فى بلده واستولوا على السلطة .

* ثم كيف نعلل إحراق الكنائس المصرية كلها ـ ماعدا واحدة هى الكنيسة المعلقة ـ فى وقت واحد فى جميع البلاد على امتداد العمران المصرى

من أقصى الصعيد إلى الأسكندرية ؟ ثم يلصق ذلك بأحد أنواع الدعوة .

ويكون واضحاً أن ذلك الحدث قد خطط له بإحكام ونفذ بطريقة واحدة فى كل البلاد .. ثم يأتى الحدث بآثار مدمرة داخلياً وخارجياً لا يمكن فهمها إلا فى ضوء الانتقام من السلطات التى حالت دون تحقيق الهدف الذى كان أصحاب الدعوة المنتشرون فى كل البلاد ـ يأملون فى الوصول إليه ، وقد عاشوا على أمل تحقيقه أياما طوالا .

* ويلفت النظر أن أصحابنا من المتصوفة الشيعة قد عانوا الكثير من الاضطهاد إلى درجة الاغتيال ومؤامرات القتل كما حدث للشاذلى فى المغرب وأبى العباس الملثم فى مصر وأبى الحجاج الأقصرى فى الصعيد وأبى الفتح الواسطى فى الاسكندرية واسماعيل الانبابى فى انبابه وخضر العدوى مع الظاهر بيبرس وابن عبد السلام .

ثم أبو مدين فى المغرب والبدوى فى طنطا ـ حين امتحنه ابن دقيق العيد ـ والرفاعى فى أم عبيدة حين أنكر عليه المعارضون ، وقد أدت المؤامرات إلى قتل بعض أساطين الدعوة كابن بشيش وعز الدين الصياد الرفاعى .. والعهد بالدعاية الصوفية أن تضخم الحديث فيما يعد منقبة للأولياء وأن تثير السخط والهجوم على أعدائهم ، وليس اغتيال ابن بشيش والصياد بالشىء الهين ، ولكننا نفاجأ بسكوت مريب عن ظروف القتل وملابسات الاغتيال ، فكل ماهناك أن يقال إن ابن أبى الطواجن هو قاتل ابن بشيش وأن يوصف عز الدين الصياد بأنه (الشهيد عز الدين الصياد) .

ولا تعليل هنا إلا بالدعوة السرية والحرص على كتمان ظروفها ، ولو تجسدت هذه الظروف فى مقتل أحد الكبار .. ولا تعليل لهذه السلسلة من الاغتيالات والاضطهاد والمحاكمات إلا أن أولئك أصحاب هدف سرى

مضاد للدولة الحاكمة ، والحرب الخفية مستمرة بين الطرفين .. وبينما تقرب السلطات المتصوفة العاديين وتقيم لهم الخوانق والزوايا والربط فأنها تلاحق المتسترين بالتصوف بالاضطهاد والمحاكمات وأولئك ينتقمون منهم بكرامات مزعومة ..

* ثم هذه الرسائل الشفرية التى كان يرسلها الدسوقى لأعوانه فى مصر ومكة ويدعى أنها باللغة السريانية ، وماهى فى السريانية بشىء ، وقد عرضتها على متخصصين فى السريانية فأنكروها ، ولا تفسير لهذه الشفرة إلا فى الدعوة الشيعية السرية واتصالاتها الشفرية .

وفى النهاية فإن عناصر المؤامرة وظروفها ووقائعها تتمشى مع الواقع التاريخى للمنطقة ، فى التطورات التاريخية المعاصرة لهذه الدعوة الإجابة الكافية على ازدهار الدعوة ثم اضمحلالها . . فقد انتشرت الدعوة الرفاعية وتغلغلت بعوثها فى الشرق ولكن قضى عليها هناك ظهور الخطر المغولى والدولة الخوارزمية السنية ، ثم تغيرت ظروف العراق إلى الأسوأ وبموت الرفاعى وانهيار الدولة الفاطمية فى مصر كان التركيز على مصر الأيوبية ، وزاد التركيز على مصر الأيوبية بمجىء البدوى حين ضعف الحكام الأيوبيون وانشغلوا فى صراع عائلى مستمر مع اضطراب مبعثه الحروب الصليبية الوافدة إلى مصر وتحالف بعض الأيوبيين مع الصليبيين فى الشام وبوادر الخطر المغولى الزاحف من الشرق وضغطه على الدولة الخوارزمية التى تضغط بدورها على الحكام الأيوبيين فى العراق والشام .. وازداد الضعف الأيوبى حتى سقطت الدولة فى مصر وانشغل الحكام الجدد بمنافساتهم الداخلية ومشاكلهم الخارجية مع الأيوبيين والمغول ، وفى هذه الأثناء وصل نشاط البدوى إلى الذروة ، ولكن بدأ توطيد الدولة المملوكية على يد الظاهر بيبرس وهو

خبير فى المؤامرات شديد الدهاء، سريع التحرك لمواجهة أى خطر أو مؤامرة ووضح أن آمال الدعوة قد خابت على يد هذا العاهل القوى ، وهذا ما حدث .

ثم إن غموض الحوادث وسريتها أمر لازم وضرورى فى بداية أى دعوة سرية .. ويكون أشد لزوما وأكثر ضرورة إذا كانت تلك الدعوة شيعية ، فالشيعة هم أهل التقية والأسرار وتكوين الدعاة والأنصار والتأثير على الخصوم واصطناع الجواسيس ، وهم أصحاب الرموز والتأويلات والسراديب والامام المستور والألغاز، وهم مبتدعو جميع المذاهب والعقائد المنحرفة التى تقدس الأئمة والأولياء .. ثم هم الذين نشروا عبادة البدوى وتأليهه فى مصر .. وهذا موضوع الفصل الثانى ...

* * *

الفصل الثانى

خرافة البدوى

تمهيد

تعاملنا فى الفصل الأول مع « حقيقة البدوى » كداعية سرى استغل التصوف ستاراً لهدف سياسى وحين فشل اضطر للاستمرار فى حمل راية التصوف للنهاية .. وموعدنا فى هذا الفصل مع « خرافة البدوى » ، فمن طريق التصوف ارتسمت للبدوى صورة أبعد ما تكون عن الواقع التاريخى أو حتى الواقع البشرى . فالكتابات الصوفية عن البدوى تضاءلت فيها صفات البشر بقدر ما ظهرت فيها سمات التأليه .. ومن نافلة القول أن نذكر أن حقيقة البدوى كداعية سرى لم تظهر فى تلك الكتابات الصوفية إلا فى صورة منامات وإيحاءات ورموز ، وبمرور الزمن وكثرة الأتباع وانتشارهم تسرب البدوى للعقل المصرى بالصورة التى رسمها أعوانه من الشيعة المتصوفة .. وقد وجدت صورة البدوى تلك مكانة هامة فى الوجدان الشعبى الذى يحفل بالكرامات ويعشق الأساطير ويردد الأقاصيص ، حتى إن الشعرانى فى ترجمته عن البدوى يقول « وشهرته فى جميع أقطار الأرض تغنى عن تعريفه[1] » أى أصبحت الأقاصيص الشعبية عن البدوى مصدراً يأخذ عنها الشعرانى وغيره فى التأريخ للبدوى .

ولسنا فى مجال التمحيص لشخصية البدوى فى التراث الشعبى ولكننا نقرر أن الوجدان الصوفى حول شخصية البدوى التاريخية إلى « خرافة » فى اعتقاد

---

(١) الطبقات الكبرى ، ١ / ١٥٨ .

الناس ، خرافة تحول بها البدوى من داعية مجهول إلى ولى معلوم ، ومن إنسان وبشر إلى إله ، ومن تراب ورفات إلى ضريح ووثن .

ويتحمل الصوفية الشيعية هذا الوزر أمام الله تعالى فقد ضلوا وأضلوا . . ثم توالت الأيام وينشأ الجيل بعد الجيل فيجد تقديس البدوى فى ازدياد فلا يسعه إلا التسليم وإلا اتهم بالخروج على ماتعوده الآباء والأسلاف، وتحولت « الخرافة » إلى « قداسة » لا يصح أن يقترب منها عقل أو علم إلا بحذر وتخوف .. ولـكن هل يدوم الحال .. طبعاً لا ، فدوام الحال من المحال ، وقد كانت دولة البدوى فى أوج ازدهارها حين كان الناس فى حضيض التأخر والجهالة ، ثم تأثرت دولة البدوى تدريجياً بالصحوة العقلية والنهضة العلمية ، ومع كل ازدياد فى رصيد العلم والعقل يتضاءل حظ البدوى والصوفية من التقديس وتنقشع سحب من الخرافة ، ولا أدل على هذا الرأى من أننا لو قرأنا الآن ما كتبه السابقون فى القرون التاسع والعاشر وما يليها عن البدوى لما استطاع عقلنا أن يهضم كتاباتهم لأنهم يعبرون عن عقيدتهم فى البدوى وغيره من الصوفية ، وهناك مثل آخر ، ففى عصرنا هذا نجد البيئات الشعبية حيث يعم الجهل وتقل حركة التطور ـ نجدها أكثر احتفالا بالبدوى والصوفية من الأوساط الراقية والمثقفة ، فـكلما ازداد العلم والثقافة كلما تضاءلت الخرافة وأصحابها .

وبعـد . . فعلينا الآن أن نبحث « خرافة البدوى » من وجهة النظر الدينية ، ومصادرنا الأساسية تتمثل فى القرآن الـكريم الذى نحتـكم إليه ونعول عليه ثم فى كتابات الصوفية أنفسهم عن البدوى طبقا لنظرتهم إليه واعتقادهم فيه ، وهو ما نعتبره خرافة تستحق وقفة للمناقشة ليظهر الحق مهما كان مؤلما ويدحض الباطل مهما كان عالى الصوت ، والباطل مهما دامت دولته فهى قصيرة لا تصمد أمام أنوار الحق وآيات الله تعالى فى كتابه العزيز .

وقد آن الأوان بعد قرون من التضليل والجهالة أن تزول الخرافة وأن تطهر منها عقول الناس رحمة بهم من أكاذيب وأفك مفترى يضل الناس عن طريق الله الواضح المبين ويحبط أعمالهم الصالحة ويقعد بهم عن التطور الخلاق فى دنيا الحضارة ، كما يحرمهم رضى الله تعالى الذى ينهى عن تقديس غيره من بشر وحجر حتى لو كان ذلك البشر هو البدوى ولو كان ذلك الحجر هو ضريحه .

لقد جعل الصوفية الشيعية من البدوى ولياً لله تعالى ، وهذه خرافة .. وجعلوه إلها متصرفا فى ملك الله تعالى وعالما للغيب وهذه خرافة أخرى ، ثم قصدوا البدوى بالعبادة من صلاة وحج وتوسل ونذر وموالد ، وكلها تجسيد لخرافة البدوى الإله فى نظرهم ثم بالغوا ففضلوا البدوى على الله تعالى فى التقديس والعبادة . . وهذا أفك مفترى وغلو ربما لم يقع فيه المشركون السابقون .

ثم اتبعوا خرافاتهم فى البدوى بتأويلات « خرافية » تسمح لهم بالانحلال الخلقى فى الموالد وغيرها ، وقد يسأل سائل ، وما ذنب البدوى إذا انحرف أتباعه ؟ وقد أجبنا على هذا فى ختام الفصل .

* * *

أولا : هل يعتبر البدوى وليا لله تعالى ؟ ومن هو ولى الله ؟

ولنبدأ بإجابة السؤال الثانى « من هو ولى الله ؟ » ففيه الإجابة على السؤال الأول ، يقول تعالى « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »..

يونس ٦٢ : ٦٤

فولى الله تعالى موصوف بالإيمان والتقوى ، وفى آيات أخر يقول الله تعالى عن اتصاف الولى بالتقوى « .. والله ولى المتقين » الجاثية ١٩ ويقول « إن أولياؤه إلا المتقون » الأنفال : ٣٤ وفى الآية الأخيرة جرى الأسلوب بالقصر أى أن الله تعالى لا يوالى إلا من كان تقيا .

ويقول تعالى عن اتصاف وليه بالإيمان « والله ولى المؤمنين » آل عمران ٦٨ ويقول « والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » البقرة ٢٥٧

ومعنى ذلك أن ولى الله تعالى لابد أن يتصف بصفتين أساسيتين هما الإيمان والتقوى ، وإذا حللنا هاتين الصفتين فى القرآن الكريم لتعرفنا على سمات الولى فى المنظور القرآنى وهى :-

١ - العمومية : أى صفات عامة : - ومعناها أن الإيمان والتقوى صفات عامة لا يختص بها شخص بعينه أو جنس محدد أو طائفة خاصة ، وإنما هى صفات مطروحة أمام البشر جميعاً فى دنيا التعامل ومطلوب من بنى آدم كلهم أن يتحلوا بها عربا كانوا أم عجما ، أغنياء أم فقراء ، رجالا أو نساءاً ، صغارا أو كباراً ، من أتباع محمد أو عيسى أو موسى عليهم السلام .

فمن الإيمان يقول تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى

والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » البقرة ٦٢ . أى إنه بغض النظر عن الأسماء والطوائف فكل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فجزاؤه جزاء أولياء الله تعالى الذين « لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

ونظير ذلك ما يقوله تعالى عن أتباع الرسل جميعاً « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » الأنعام ٤٨ ، أى أنه من آمن وأصلح من جميع أتباع الرسل فهو من أولياء الله تعالى الذين « لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

والتقوى : أيضاً مطالب بها بنوا آدم جميعاً منذ أنزل أبوهم آدم إلى الأرض يقول تعالى « يابنى آدم أما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الأعراف ٣٥ . فلابد لبنى آدم جميعاً من الاتصاف بالتقوى ليكونوا من أولياء الله الذين « لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

ويقول تعالى للناس جميعا « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » النساء : ١ ، ويقول « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة لشىء عظيم » الحج : ١ ، وفى سورة الشعراء كان كل نبى يدعو قومه فى كل عصر بكلمة واحدة هى « فاتقوا الله وأطيعون » ويقول تعالى لأمة محمد « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » النساء : ١٣١ . فالمؤمنون المتقون هم أولياء الله فى كل عصر ..

٢ ـ العرضية : أى أنها صفات تقبل الزيادة والنقص ، أى ليست صفات لازمة للمرء طيلة حياته ، بل تتغير زيادة ونقصا حسب الصراع القائم فى داخل

الإنسان بين الخير والشر ، بين الهوى والخشية ، بين الشيطان الذى يجرى من الإنسان مجرى الدم والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، والعصمة لله وحده وللرسل فيما يوحى الله إليهم به، وقد خلق الله تعالى النفس البشرية وسواها على أساس الفجور والتقوى وقدم الفجور فيها على التقوى فقال : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس ٧ ، ٨) . وصراع الشيطان مع الفطرة السليمة فى المؤمن مستمر باستمرار الحياة ، وبينما تكون السيطرة الكاملة للشيطان على الكافر فإن المؤمن يظل فى صراع مع الشيطان فى داخل نفسه ، وهذا الصراع قد ينجم عنه بعض زلات ومعاص فيسارع المؤمن بالاستغفار والتوبة ، وقد يخرج منه منتصراً على هواه وغرائزه وحينئذ يكون تقياً .

يقول تعالى عن سيطرة الشيطان على المشركين دون المؤمنين « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » النحل : ٩٩ ، ١٠٠ ، ويقول « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » ، الحجر : ٤٢ .

ويزيد من حدة الصراع فى داخل المؤمن أنه متفاعل مع البيئة مطالب ليس فقط بمراعاة التقوى فى نفسه أثناء تعامله مع خضم الحياة — ولكن مطالب أيضا بأن يؤثر فى مجتمعه بالخير ، ومن الطبيعى وهو بشر غير معصوم أن تؤثر فيه بعض المحن وأن يستسلم حينا للهوى وحظ النفس وحيل الشيطان، وحين يقع فى حبائل الشيطان فلن يكون تقياً ، وحين يسارع بالتوبة والندم يكون تائباً ، وحين ينجح فى السيطرة على نفسه وغرائزه وينجو من الوقوع فى الإثم يكون تقياً نقياً ، وتلك مجرد حالة من حالاته . وهكذا ، فإيمانه وتقواه فى حالة تغير مستمر وارتفاع وانخفاض طالما بقى حياً .

يقول تعالى عن الإيمان كصفة قابلة للزيادة والنقص « .. وإذا تليت

عليهم آياته زادتهم إيمانا » الأنفال : ٢ « .. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون » يونس ١٢٤ ، وما يقبل الزيادة يقبل النقص ، فيقول تعالى عن المعاصى وكيف أنها تذهب بالإيمان « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » المطففين ١٤ .

ويقول عليه السلام عن المؤمن حين يقع فى المعصية (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) . والمؤمن إذا وقع فى المعصية — ولا بد أن يحدث هذا — فسارع بالتوبة وعزم على ألا يعود فيكون حينئذ ضمن المتقين طالما بر بوعده وأقلع ، يقول تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » آل عمران ١٣٥ . فجعل من صفات المتقين المسارعة بذكر الله إذا وقع فعلا فى معصية والعزم الصادق على ألا يصر على فعل المعصية .

فالتقوى حركة مستمرة باستمرار الحياة يقويها فى نفس المؤمن الاستمرار فى ذكر الله تعالى ، ومعنى أن يداوم على ذكر الله أن يخشاه « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » الأعراف ٢٠١ ، وليس معنى ذلك أن المؤمن ملتزم تماماً بذكر الله تعالى ، فليس معصوماً وإنما بين الله تعالى لأتباعه الوسائل الكفيلة بمحاربة الشيطان الذى يجرى فى نفوسهم مجرى الدم والنفس التى خلقت على الفجور والتقوى ، وتتركز هذه الوسائل فى ذكر الله تعالى واستغفاره ، حتى يضمن لنفسه أن يخفف بقدر الإمكان من ذنوبه ومعاصيه حتى إذا انتهت حياته كانت النتيجة النهائية فى صالحه .

٣ — صفات غيبية : أى لا يعلم حقيقتها إلا الله وحده ، فالإيمان والتقوى

صفات قلبية وسبحان من يعلم (خائنة الأعين وما تخفى الصدور) والمظهر خداع ، بل ربما يكون أكثر الناس تظاهرا بالإيمان هو أكثرهم رياءا ونفاقا ، فالإيمان تعامل خاص بين العبد وربه المطلع وحده على السرائر ، والتقوى أكثر من الإيمان خفاء وسرية ، لأنها تشمل حديث النفس ، ومحاربة الهوى الكامن فى الغرائز وتلك أمور بالغة الخصوصية لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

والرسول ﷺ لا يعلم الغيب (ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسنى السوء) الأعراف ١٨٨ . ولذلك فانه لم يعلم بحقيقة النفاق لدى بعض الناس فى المدينة « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » التوبة ١٠١ .

وإذا كان هذا حال الرسول فنحن أولى بالجهل بحقيقة اتصاف البعض منا بالإيمان والتقوى ، وفى ذلك يقول تعالى : « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » النساء ٢٥ ، ويقول للرسول والصحابة فيمن أسلم من المؤمنات المهاجرات « فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » الممتحنة ١٠ .

ويقول فى الهداية والتقوى « وهو أعلم بالمهتدين » القصص ٥٦ « هو أعلم بمن اتقى » النجم ٣٢ ، ويقول « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين » الإسراء ٢٥ .

وهكذا فالإيمان والتقوى صفات قلبية اختص تعالى نفسه بمعرفتها ولم يطلع عليها أحداً من البشر حتى الرسل المكرمين فنحن لا نستطيع أن نحكم على إيمان شخص ولا نستطيع تبين درجة تقواه فكل ذلك غيب عنا وسبحان من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

٤ ـ ثم إن المؤمن الحق يتهم نفسه ولا يزكيها ولسان حاله يقول : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى إن ربى غفور رحيم » يوسف ٥٣ .

والمؤمن الحق ملتزم بطاعة الله تعالى القائل « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » النجم ٣٢ .

والمؤمن الحق يأبى على نفسه أن يتابع اليهود الذين زكوا أنفسهم فاستحقوا نقمة الله حين قال فيهم « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ، أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا » النساء ٤٩ و ٥٠ . فمن زكى نفسه ووصفها بالإيمان الكامل والتقوى الخاشعة فقد أشبه الكفرة من اليهود والنصارى وصار أبعد عما يدعيه ، ناهيك بمن يدعى الولاية ليضل الناس عن دينهم ويجعل من نفسه واسطة بين الله وخلقه .. وذلك موضوع آخر .

والمهم أن الولاية لله تعالى صفات عامة للناس جميعاً ولا يعلم حقيقة الاتصاف بها إلا المطلع على ما تخفيه الصدور ثم هى صفات عرضية غير لازمة تزيد وتنقص حسب العمل الصالح والنية والصراع المستمر بين الخير والشر فى كل إنسان .

وعلى ذلك فلن يوجد ـ بعد الأنبياء ـ شخص بعينه على أنه ولى لله .. لأن هذا الشخص لا بد أن يقع فى معصية ، وحين يعصى تنتفى عنه صفة التقوى فتنتفى عنه صفة الولاية ، ثم إن الإنسان طالما بقى حياً يرزق يسعى ويكافح ، يناضل فى الحياة بيده ولسانه وجوارحه فسجل أعماله مفتوح ، وأعماله تتراوح بين الطاعة والمعصية ، ولن يكون حسابه الختامى إلا بنهاية حياته ،

شأنه فى ذلك شأن الطالب فى الدراسة فهو بين مذاكرة أو لعب ، لا يمكن أن يحكم عليه حكماً قاطعاً إلا حين تظهر نتيجة الامتحان .

وإذا صح أن يوصف إنسان فى موقف معين بالتقوى - على فرض أننا تيقنا من سريرته - فمن يدرينا بمستقبل حياته ، وهو مجال مفتوح لا ندرى بما سيحدث منه فيه .

بيد أن هناك لحظة على مفترق الطرق فى حياة الإنسان قبل أن يدخل إلى عالم الموت حين تقبض روحه ، لحظة تعدل الحياة بأسرها ، لحظة يتذكر الإنسان فيها ما سعى ، يتوقف لسانه وتتعطل جوارحه ويرى قبيل موته - نتيجة سعيه فى الدنيا ، حينئذ يعرف مكانه بين الجنة والنار . فالمؤمن يبشر بالجنة وأنه لا خوف عليه ولا حزن ، والكافر يرى سوء عمله ماثلا فى مكانه فى النار .

فالملائكة تنزل على المحتضر فى لحظة انطوى فيها سجل أعماله فلم يعد بمقدوره أن يزيد من عمله أو ينقص منه باليد أو باللسان ، يحيط به أهله لا يستطيعون له شيئاً « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » الواقعة ٨٣ : ٨٥ .

فى هذه اللحظة يرى كل إنسان من البشر موضعه من الجنة أو النار كما ورد فى حديث شريف (متفق عليه) . « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار ، ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة » .

فولى الله يعرف نفسه حينئذ حيث لا مجال للادعاء أو التظاهر أو المزايدة وحينئذ لا يخاف ولى الله ولا يحزن فالله يوم الدين يحميه ويدافع عنه ،

يقول تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. فصلت ٣٠ ، ٣١ ﴾ ، فالملائكة تنزل على من أمضى حياته كلها مؤمناً مستقيماً فتبشره ساعة النزع وتقول ﴿ وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ أى التى كنتم توعدون بها فى سابق العهد من الدنيا ، وفى هـذا الموقف بين الدنيـا والآخرة بين الحيـاة والموت تقول لهم ﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. ﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى ﴿ الذين تتوفاهم الملائـكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . النحل ٣٢ ﴾ وقبلها يقول عن الـكفرة ﴿ الذين تتوفاهم الملائـكة ظالمى أنفسهم .. فادخلوا أبواب جهنم .. النحل ٢٨ ، ٢٩ ﴾ . أى فالملائـكة تعرض على المؤمن مقعده من الجنة ويـكون حينئذ ولياً لله تعالى ﴿ الله والذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وتعرض على الـكافر مقعده من النار ويكون حينئذ من أولياء الشيطان ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت .. البقرة ٢٥٧ ﴾ .

تلـكم هى البشرى التى يتلقاها المؤمن حين النزع وهذا هو المقصود بقوله تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ .

نخلص مما سبق إلى أنه لا يوجد فى الحياة الدنيا ولى لله تعالى كشخص ، وإنما الولاية لله صفات عامة تزيد وتنقص ولا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب .. وإذا طبقنا ذلك على البدوى لاستحال أن نحكم عليه لأننا لا نعلم سريرته وحقيقة تقواه أو إيمانه ، ثم أننا إذا كنا لا نستطيع أن نحكم حكما صادقاً على شخص بيننا نعامله ونحتك به فـكيف لنا أن نحكم على سريرة شخص هو أقرب للأسطورة منه إلى الواقع التاريخى . بل إن ما وصل إلينا من سيرته وأقواله يخرجه عن الإسلام .

والواقع أن التصميم على أن البدوى ولى لله تعالى ، وأنه حاز الكمال فى الصفات والأفعال ، وأنه واسطة بين الله وخلقه ، الواقع أن هذه الادعاءات كلها تدخل ضمن موضوع آخر هو (ولى الشرك) فالبدوى تنطبق عليه سمات الولى فى عقيدة الشرك كما وضحها القرآن الكريم ..

البدوى كولى للشرك

اهتم القرآن الكريم بقضايا العقيدة فأوضح عقيدة التوحيد الإسلامية أيما إيضاح وفصل القول فى عقائد المشركين أيما تفصيل ، وفى هذا التفصيل كان يتحدث بصيغة العموم ، وبالصفات التى تنطبق على كل مجتمع فى أى زمان وأى مكان ، فلم يقل مثلا « يا مشركى مكة » أو « يا كفار العرب » وإنما قال « الذين أشركوا » « الذين كفروا » .

فالإسلام هو الدين الخاتم ، والقرآن الكريم هو المعجزة الباقية للاسلام إلى قيام الساعة ، وفى القرآن توضيح لكل عقائد المشركين مهما تخفت خلف أسماء وصفات وألقاب فكلهم فى كل زمان ومكان « الذين أشركوا » و « الذين كفروا » . والإسلام والشرك فى صراع مستمر طالما بقيت الحياة ، وطالما ظل الشيطان يسرى فى دم الإنسان يزين له سوء عمله فيحسبه حسناً ويعتقد أنه على شىء أو أنه على الحق . مع أنه لو رجع إلى القرآن الكريم مخلصاً فى طلب الهداية لوجد القول الفصل .

فالقرآن الكريم أبان الحديث عن (ولى الله) وأنه صفات لا يمكن أن تنطبق على شخص بعينه أو أن تلزمه لزوماً دائماً حتى يعرف به ، وأن الولاية لله صفات عامة لمن شاء أن يؤمن ويتقى وهى صفات عارضه حسب مجاهدة الشيطان والنفس التى ألهمت الفجور والتقوى ، وأنه لا يمكن لبشر أن يحكم على إيمان إنسان ما أو تقواه فرجع ذلك لله وحده علام الغيوب ، كما لا يمكن لأى شخص أن يزكى نفسه أو غيره بالتقوى فذلك اجتراء على علم الله تعالى وكفى به إثماً مبيناً .

ويجرنا ذلك إلى حديث القرآن الكريم عن النوع الآخر من الأولياء ، ألا وهو (ولى الشيطان) . وطالما يصر الصوفية على جعل البدوى وليا لله فليس أمامنا خيار فى التحقق من هذه القضية إلا بالرجوع لكتاب الله تعالى، فالله تعالى وحده هو صاحب الشأن فى الفصل فى هذه القضية ـ وقد أوضح فى كتابه العزيز ملامح الولى فى الإسلام ، وقد عرضنا لها ، وظهر لنا أنها لا تنطبق على البدوى أو أى شخص بعينه ، فلم يبق لنا إلا النوع الآخر وهو حديث القرآن الكريم عن ولى الشرك أو الولى الذى يتخذه الناس من دون الله لنرى كيف ينطبق النوع الآخر على البدوى .

ونقطة البداية الفاصلة بين (ولى الله) و (ولى الشرك) تتمثل فى أن المسلم الحق كما لا يزكى نفسه فلا يزكى غيره أو لا يزكى على الله أحداً ، حتى أن الرسول ﷺ قال (لا تخيروا بين الأنبياء) وقال (ما ينبغى لعبد أن يقول أنى خير من يونس بن متى[1]) وقال تعالى لنبيه (قل ما كنت بدعا من الرسل) الأحقاف : ٩ ، فالرسول الخاتم عليه السلام لا يفضل نفسه على من سبقه من الأنبياء وينهى أتباعه عن ذلك ، وينهاهم عن تزكية بعضهم بعضا ، فقال لرجل اثنى على صاحبه (ويلك قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك مراراً ، ثم قال : من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانا ، والله حسيبه ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، أن كان يعلم ذلك منه) وحين مات عثمان بن مظعون قالت عنه امرأة من الأنصار (لقد أكرمك الله فقال النبى وما يدريك أن الله أكرمه فقلت : يا أبى أنت وأمى يارسول الله فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو ـ أى عثمان ابن مظعون ـ فقد جاءه اليقين ـ أى الموت ـ والله أنى لأرجو له الخير والله

---

(١) متفق عليهما .

ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ، قالت المرأة : فوالله لا أزكى أحداً بعده)[1] أى بعد عثمان بن مظعون .

فتزكية الغير ممنوعة كتزكية النفس تماما . ولقد قال عمر لمن أثنى عليه (أهلكتنى وتهلك نفسك) وقال محمد بن على بن أبى طالب (ابن الحنفية) (والله لا أزكى أحداً غير رسول الله ولا أبى الذى ولدنى) ، فالصوفية حين اعتبروا أنفسهم أولياء الله وصفوة خلقه من دون العالمين قد وقعوا فى خطيئة تزكية النفس على الله تعالى ، وهم بذلك تلامذة لليهود الذين زكوا أنفسهم « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء .. أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا » النساء ٤٩ ، ٥٠ ، وأشبهوا اليهود حين ادعوا أنهم أولياء الله من دون البشر جميعاً فكان جزاؤهم أن قال تعالى لهم متحديا « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » الجمعة : ٦ ، واشبهوا مشركى قريش وقد ادعوا أنهم أولياء الله لقيامهم على بيته الحرام فقال تعالى فيهم « وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون » . الأنفال : ٣٤ .

ومع ذلك فإن للصوفية عادة سيئة تتمثل فى بدء كتبهم بتزكية أوليائهم واضفاء شتى المناقب والمحامد إليهم ونسبتهم لله تعالى جرأة على الله تعالى واستخفافا بشرعه وتهاونا بأوامره وتدخلا فى إرادته ، فسبحانه وتعالى وهو الفعال لما يريد لا يسمح لأحد من خلقه أن يتدخل فى إرادته فيدعى أنه يحب هذا من دون خلقه ، وهو تعالى لم يعطنا علمه ولم يصرح لنا أنه اختار فلانا هذا وحده من دون الناس جميعاً .. وهنا مكمن الخطورة .

(١) متفق عليهما .

١ ـ فاتخاذ أولياء لله من دون أمر من الله أو اختياره أو تعيين منه فيه افتراء على الله وظلم عظيم لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(ا) فهو اجتراء على علم الله تعالى ، فالصوفية يدعون أن الله قد أطلعهم على علمه وعلى من يختاره من بين عباده وأنه اختارهم دون غيرهم ، واختار البدوى من دون أقرانه ، مع أن الله لم يطلع أحداً على علمه فهنا اجتراء وافتراء .

(ب) وهو تدخل بشع فى اختيار الله تعالى وادعاء بالتسلط على إرادته وفرض لأهوائهم على مشيئته حيث يختارون بأنفسهم مايشاءون من أولياء ، ويجعلون أنفسهم الأوصياء على الله يختارون له الأولياء الذين يريدون زاعمين أن تلك إرادته فيسلبون منه الاختيار فى شىء يتعلق بذاته وجلاله ، والمؤسف أن أحداً من البشر لا يرضى لأحد أن يتدخل فى حريته فيعين له من يحبه ومن يختاره صديقاً أو حليفاً ، ومن عجب أن الله تعالى وهو الخالق المسيطر ترك الحرية للانسان فى أن يحب من يشاء ولم يتدخل فى أعمال القلوب قال تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال : ٢٤ ، ولكن الصوفية والمشركين تدخلوا فى إرادة الله تعالى واختياره ففرضوا عليه ما يشاءون من أوليائهم وزعموا أن ذلك اختيار الله وإنهم المتحدثون باسمه .

٢ ـ واتخاذ أولياء من دون الله ـ والادعاء بأنهم أولياء الله الذين اختارهم ـ فيه وصف لله تعالى بالعجز والجهل والظلم ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

فكأنهم وصفوه بالعجز حيث أوكل للصوفية اختيار أولياء له يتحكمون فى ملكه من دونه ، فلم يجعلوا له شأناً لا فى الاختيار ولا فى التصريف .

وكأنهم وصفوه تعالى ـ بالجهل ـ حيث لم يستطع أن يميز من يستحق الولاية فى مخلوقاته فلجأ إليهم وإلى علمهم ليختاروا له ثم رضى باختيارهم .

وكأنهم وصفوه تعالى - بالظلم - حيث فضل نفراً من خلقة وجعل لهم اختصاصات ومميزات فى الدنيا والآخرة وحرم منها الآخرين بدون وجه حق ، وبدون معيار ثابت فى الاختيار أو حرية فى تكافؤ الفرص أمام البشر جميعاً ، وتلك صفات لا يرضى مخلوق أن يوصف بها . فكيف بالله تعالى ، لذا فأن الله تعالى كثيرا ما يقول « سبحان الله عما يصفون » « فتعالى الله عما يشركون » « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب إن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » النحل : ٦٢

وصدق الله العظيم .. حقاً .. « إن الشرك لظلم عظيم » وحقاً أنهم ما قدروا الله حق قدره ، وحقاً أنهم أساءوا الظن بالله تعالى « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا » الفتح : ٦ .

فالله سبحانه وتعالى له مطلق الإرادة فى الاختيار « إن الله يحكم مايريد » المائدة : ١ « إن ربك فعال لما يريد » هود : ١٠٧ « إن الله يفعل مايريد » الحج : ١٤ .

والله تعالى بإرادته المطلقة يمن على من يشاء من عباده بفضله ويستحيل عقلا ونقلا أن تملى عليه طائفة من خلقة أهواءها « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » آل عمران : ٧٣ ، ٧٤ « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » إبراهيم : ١١ « نرفع درجات من نشاء » يوسف : ٧٦ ، فالمشيئة راجعة إليه وحده فى الإختيار والتخصيص فهو الخالق المسيطر على خلقة « وربك

يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » القصص : ٦٨ .

وبعد الأنبياء الذين يختارهم بالاصطفاء فإن الله تعالى راعى العدالة وتكافؤ الفرص فى اختيار أوليائه وترك المجال مفتوحا لخلقه جميعا فجعل أكرمهم عنده أتقاهم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣

وفى نفس الوقت جعل المشركين فى الدرك الأسفل بين مخلوقاته مهما ارتفعت لهم القباب وزينت لهم الأضرحة ، يقول تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون ـ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » الأنفال : ٢٢ ، ٥٥ ، وتأمل قوله « الدواب » أى كل ما يدب على الأرض ، شرهم جميعا المشركون الذين يتدخلون ـ بزعمهم ـ فى إرادة الله ويفرضون أهواءهم عليه ويقولون مثلا ـ أن البدوى هو ولى الله أو اللات والعزى أولياء الله .. كمجرد مثال .

لقد أصدر الصوفية ـ وأتباعهم من العامة ـ فرمانا بتعيين البدوى وليا لله تعالى ، دون استشارة صاحب الشأن ـ وهو الله تعالى ـ ودون أن ينتظروا تفويضا منه بأن يختاروا له وليا أو أولياء .

واتبعوا الفرمان السابق بفرمان آخر جعلوا فيه البدوى واسطة بين الناس والله ، وتأسيسا على ذلك الفرمان فإن الصوفية وقطيع العامة يولون وجوههم شطر البدوى متوسلين متبركين من دون الله ، وتوجهوا له بالتقديس والعبادة التى ينبغى ألا يتوجهوا بهما إلا لله وحده .

واتخاذ البدوى ـ وهو عبد من عبيد الله ـ وليا له ـ بدون تفويض من الله

هو نفس ما يفعله المشركون فى كل عصر وأوان وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، يقول تعالى « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء أنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا ، قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . الكهف : ١٠٠ : ١٠٤ .

ونسى أولئك أن الولى المقصود بالتقديس والعبادة لا يكون إلا الله . . فالله هو الولى المعبود ولا ينبغى أن يتخذ ولياً غيره . يقول تعالى « أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » الشورى : ٩ ، فالله هو الولى المستحق وحده للعبادة والتقديس ، أما هذه الأولياء فلا تنفع ولا تضر ولا تسمن ولا تغنى من جوع .

والمؤمن يكتفى بالله ولياً ، « وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » النساء ٤٥ « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا » الأعراف : ١٥٥ ، والمؤمن يعتقد أن الله الولى يكفيه فهو مالك السماوات والأرض فلا يخشى ادعاءات المشركين حول تصريف أوليائهم المزعومة « أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه » الزمر : ٣٦ .

لقد جعل الصوفية وأتباعهم من البدوى ولياً كامل الألوهية ولا سند لهم إلا الافتراء والكذب والزيف ، أى الخرافة وهم لا يدرون أنهم بذلك يحققون إعجازاً للقرآن الكريم الذى فصل عقائد الشرك قبل التصوف بقرون ، فجاء أولئك يكررون مقالة السابقين ويحكمون على أنفسهم بالشرك وآيات القرآن الكريم تثبت ذلك . أليس الذكر الحكيم حجة على كل منحرف مهما توارى خلف أسماء وشعارات ؟؟

ثانياً : عناصر تأليه البدوى وعبادته

بين التوحيد والشرك :

أمر الله تعالى المسلمين بأن يكون دينهم خالصا له وألا يجعلوا بينهم وبينه وسائط كما كانت الجاهلية تفعل ، يقول تعالى : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار » الزمر : ٣ ، ٤

وبين الله تعالى أنه قريب من عباده « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » البقرة : ١٨٦ ، بل هو قريب منهم أكثر مما يتخيلون « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق : ١٦ ، وأوضح سبحانه وتعالى أن له تمام التحكم فى كل مخلوقاته « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » هود : ٥٦ ، وأنه فى هذا التحكم لا يشرك معه أحداً « ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً » الكهف : ٢٦ .

وحينئذ فلا مجال للواسطة بينه وبين عباده ، وهذا هو جوهر الإسلام ، أن يسلم الإنسان وجهه وقلبه وجوارحه لله وحده ، فلا يحب إلا الله ولا يرهب إلا الله ولا يعبد إلا الله ولا يقدس إلا الله ، فلله وحده تكون صلاته ونسكه وحياته ومماته أو كما يقول تعالى « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا ؟ وهو رب كل شىء » الأنعام : ١٦٢ : ١٦٤ .

فالمؤمن الحق لا يرى فى البدوى إلا مجرد شخص من ملايين ملايين

الأشخاص الذين حملتهم الأرض على ظهرها ثم ابتلعتهم فى باطنها ، والمؤمن يخشى أن يزكى البدوى أو غيره ، لأن الله تعالى أولا : نهاه عن ذلك وثانياً فهو عقلا لا يستطيع أن يحكم عليه الحكم الصحيح قطعا لا يعرف سريرته ، وكل ما يملكه عن تاريخه ـ وتاريخ السابقين جميعاً ـ هو ما كتبه الآخرون عنهم ، وذلك القول بعض الحقيقة وليس كلها .. والمؤمن الحق ـ وهذا هو الأهم ـ يرفض أن يجعل من البدوى جزءا فى عقيدته الدينية فذلك يتنافى مع الإخلاص ، إخلاص الدين لله . ومهما تلمس الأسباب وتحيل فى الأعذار فلن يكون بأمهر من العرب الجاهليين القائلين عن أوليائهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .. فالجاهليون عبروا بأسلوب القصر وقالوا إن عبادتهم لهذه الآلهة ليس لها لذاتها أو ليست مقصودة بنفسها وإنما فقط لتكون سببا يقربهم لله ، وهو منطق عقيم رد عليه القرآن الكريم بأن الله لو أراد أن يصطفى ولداً أو ولياً لاختار هو أو اصطفى بنفسه مما يخلق ما يشاء ولكنه لم يفعل لأنه الواحد القهار الذى لا يحتاج إلى معين أو مساعد سبحانه وتعالى عما يشركون .

وإخلاص الدين لله معناه بالحساب العددى أن يكون الدين كله ١٠٠٪ لله وحده .. فإذا شابت هذه النسبة الكاملة ولو ١ ٪ شائبة من شرك فقد أحبط العمل وضاعت الثمرة المرجوة معه . ولذلك فإن العقيدة الإسلامية لا تعرف التوسط .. فأما إيمان كامل ١٠٠ ٪ بالله وحده وإما شرك .. ولاوسطية ، يقول تعالى « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ » يونس : ٣٢ ، أى فأما حق وهو الله وإما ضلال وهو أى وسيط مع الله مهما تضاءل ذلك الوسيط ، ويقول تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » الحج : ٦٢ ، أى فلا توسط بين الحق

والباطل .. وهو جوهر شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) القائم على أسلوب القصر ، فهى إيمان كامل بالله وحده وكفر كامل بجميع الآلهة الأخرى معه.

والدين ـ أى دين ـ له وجهان .. عقيدة وشريعة ، أو تقديس وعبادة . أو قلب وجوارح ، أو بالتعبير القرآنى (دعاء) و (عباده) فالمؤمن الحق لا يدعو إلا الله أى لا يتوسل إلا به ولا يقدس غيره والمؤمن الحق لا يعبد إلا الله ولا يتدين إلا لله ، أى فهو مخلص فى دعائه لله مخلص أيضا فى عبادته له، فكما قال تعالى « إلا لله الدين الخالص » قال « فاعبد الله مخلصا له الدين » الزمر ١ وقال « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ـ قل الله أعبد مخلصا له دينى » الزمر:١١ : ١٤ وقال عن العقيدة أو التوسل أو الدعاء « وادعوه مخلصين له الدين » الأعراف : ٢٩ ، وقال « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ـ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين »

غافر : ١٤ ، ٦٥

وإذا أخلص الإنسان فى دعائه أو عقيدته لله وحده ، وإذا أخلص فى عبادته لله وحده فلن يكون هناك مكان للبدوى أو لغيره فى قلبه أو جوارحه أما الآخرون فقد زين لهم الشيطان أعمالهم « ويحسبون أنهم مهتدون » ، « ويحسبون أنهم على شىء » « ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً » ، أولئك لا تستقيم فى نظرهم عبادة الله وتقديسه إلا إذا ارتبطتا بعبادة الولى وتقديسه وإذا دعوتهم للتوحيد الخالص كفروا ، ويوم القيامة يؤنبهم ربهم فيقول « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير » غافر : ١٢ ، فهم لا يعبدون الله إلا إذا وضعوا حوله ثلة من الأولياء المقدسة ولا يؤمنون به إلا إذا أشركوا بعبادته غيره معه ، وهذا

حال الأكثرية من بنى البشر يقول تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

وقد افتقر الجاهليون العرب لهذا الإخلاص فى الدين ، فجعلوا للأولياء نسبة فى اعتقادهم ، مع أنهم يؤمنون بالله تعالى ربما إلى درجه تفوق إيمان الصوفية بالله .

فالعرب فى الجاهلية كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق للسماوات والأرض والمسخر للشمس والقمر وهو الذى أنزل المطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، يقول تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله . فإنى يؤفكون ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ العنكبوت : ٦١ : ٦٣ .

وهم يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم كما هو رازقهم ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ الزخرف : ٨٧ ، بل أنهم يقرون بأن لله الأرض ومن فيها والسماوات السبع والعرش العظيم ، وإن لله وحده الملكوت والتحكم فيه بحيث يجير من يشاء ولا يستطيع أحد أن يجير عليه فى ملكه ، يقول تعالى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله : قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ المؤمنون : ٨٤ : ٨٩ .

ويلاحظ أن القرآن الكريم اتخذ من إيمانهم بالله حجة عليهم وأمر الله رسوله بأن يحاججهم ويسائلهم عمن خلق السماوات والأرض والبشر وأنزل الرزق وعمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وأخبر تعالى بصيغة التأكيد بأنه سيقرون ويعترفون بأن الله تعالى هو وحده الخالق الرازق المسيطر وعبر عن التأكيد بقوله تعالى ﴿ ليقولن ﴾ ثم يختم الآيات بالتعجب والاستهزاء بهم حين يتمسكون مع ذلك بأوليائهم وآلهتهم ..

وأصحابنا الصوفية من أتباع البدوى يؤمنون بالله كخالق للسماوات والأرض والشمس والقمر ومصدر للرزق والخير ، ويؤمنون أيضاً بالبدوى وتصريفه وشفاعته ومكانته . كما كان الجاهليون يؤمنون باللات والعزى ومناة وهبل ، وكما كان المصريون القدماء يؤمنون بأزوريس وإيزيس وحوريس وآمون ورع مع أنهم يقرون بألوهية الله تعالى .

والقرآن الكريم أشار إلى معرفة المصريين بالله تعالى ففى قصة يوسف ورد أن النسوة حين رأين يوسف عليه السلام ﴿ قلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ يوسف ٣١ وحين استجوبهن الملك ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ يوسف : ٥١ . وقولهن ﴿ حاش لله ﴾ فيه تعظيم لله وتقديس ، بل إن امرأة العزيز نفسها تلمح فى اعترافها صدق المؤمن التائب حين قالت أمام الجميع ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ يوسف ٥١ : ٥٣ ، وهم مع هذه المعرفة بالله كانوا يعرفون الأرباب الأخرى معه يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه فى السجن ﴿ ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ﴾ يوسف ٣٩ .

ويقول أرمان فى كتابه (ديانة مصر القديمة) (ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيراً ما تحدثوا ـ علاوة على آلهتهم المعينة ـ عن إله عام . فمثلا يقولون : (ما يحدث هو أمر الله) ، (وصائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لا يجعل النجاح من نصيبه) و (ماتزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند الله) و (من أحبه الله وجبت عليه الطاعة) و (الله يعرف أهل السوء) ويعقب أرمان بقوله (هؤلاء القوم الذين كان هذا هوشعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ولو أنهم فى واقع الأمر تعلقوا أيضاً بدينهم الموروث وبقوا عباداً أمناء لإلهتهم)(١)

فالمصريون القدماء والعرب الجاهليون والصوفية عرفوا الله تعالى وعرفوا معه غيره من الأولياء والآلهة .. وقدسوا الله وقدسوه معه غيره ، وعبدوا الله وعبدوا معه غيره ، وهذا ينافى عقيدة التوحيد التى تتطلب الاخلاص التام فى الدين لله وحده والكفر بكل الآلهة المعبودة مع الله ، والتوحيد أو الاخلاص هو الايمان الكامل أو كما قلنا هو الإيمان بالله وحده وقصر الدين عليه بنسبة (١٠٠ ٪) .

وعدا ذلك فهو إيمان ناقص ، وهذا الايمان الناقص لا يجدى يوم القيامة أو يوم الفتح ، يقول تعالى بصيغة العموم عن الكفار فى كل زمان ومكان ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا أيمانهم ﴾ السجدة ٢٩ ، فللذين كفروا إيمان .. ولكنه لا يغنى ولا ينفع لأنه إيمان ناقص بالله ، إيمان يقل عن نسبة ١٠٠ ٪ ، إيمان مشترك بالله وبغيره من الالهة والاولياء ، والله لا يقبل هذه الشركة فهـــو أغنى الاغنياء عن الشرك ، ويوم الحساب لا ينفع الكافرين هذا الإيمان الناقص الملوث .

---

(١) أرمان . ديانة مصر القديمة ٧٠ . ط البابى الحلبى .

١ ـ تأليه البدوى :

يبدأ تأليه إنسان ما برفعه فوق مستوى البشر ، ولاشك أن الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق وخيرة الله فى خلقه ، ومع تميزهم بالنبوة والتزكية والاجتباء فهم بشر كسائر البشر ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد ﴾ الكهف ١١٠ ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا توحى إليهم ﴾ الأنبياء ٧ . فهم رجال .. وهم بشر ولكن يوحى إليهم .

فبالوحى تميز الرسول عن باقى قومه . . وخصوصيات الرسل من وحى ومعجزات سنعرض لهـا فى موقع المقارنة بتصريف البدوى المزعوم وخصوصياته ، وإنما نؤكد هنا أن خصوصيات الرسل لا ترفعهم فوق مستوى البشر ، فهم بها بشر يسرى عليهم ما يسرى على سائر البشر من احتياج للخالق تعالى ، وعجز عن مواجهة نواميسه فى الكون من مرض وموت ومصائب وأحزان ، وكل ماهنالك أن تلك الخصوصيات فضل من الله لهدف معين هو خدمة الدعوة والرسالة .

أما التأليه أو إضفاء صفات الألوهية على شخص بعينه فمعناها أن تلصق به صفات الله تعالى ورفعه فوق مستوى الأنبياء وإمكاناتهم حسبما أورده الله تعالى فى كتابه العزيز ..

فإلى أى حد كان تأليه البدوى؟ لنستعرض معاً عناصر تأليههم له معتمدين فى الأساس على كتاب عبد الصمد الجواهر السنية .

١ ـ الصفات الإلهية :

لقد مر بنا أن الإسلام يحرم تزكية الآخرين بصفات الصلاح والتقوى ، وأكثر منه حرمة وجرما أن تزكى شخصا بصفات إلهية فهنا خروج كامل عن دائرة الإسلام ، وفارق بين المعصية العادية فى إطار الإسلام وبين الوقوع

فى جريمة الشرك المحبطة للأعمال الصالحة ، وذلك ما وقع فيه الصوفية حين زكوا البدوى بصفات إلهية نكتفى منها ما أورده عبد الصمد فى مقدمة كتابه عن البدوى يقول (أحببت أن أتوسل لبلوغ مقصدى من الجانب الشريف الأحمدى بجمع شىء من الرسائل والقصائد على أحسن الأشكال سعيا بذلك فى مرضاة الدال على تلك الطريقة عين أعيان أهل الشريعة والحقيقة سيد طائفة الأولياء من القرن السادس إلى هذا الحين وصاحب الفضل على أهل المشارق والمغارب ذى الفضل المبين سند السالكين سيد الواصلين قدوة العاشقين عمدة العارفين ، صاحب المقامات العالية ، صاحب الأسرار البهية سيد سادات الصوفية صاحب الكرامات الظاهرة والبراهين الباهرة الفرد الجامع والأسد القامع والنور المشرق الساطع الأستاذ الأعظم والغوث الأفخم والملاذ المقدم والشيخ الأكرم والقطب النبوى والبحر الذى منه الأنام ترتوى سيدى أبى العباس أحمد البدوى) فالبدوى فى اعتقاده هو (سيد طائفة الأولياء وسيد الواصلين وسيد سادات الصوفية) فإذا كان أولئك أولياء لهم تصريف ومعجزات وشفاعات وبهم يتوسل الناس ويتخذونهم أربابا فالبدوى على ذلك هو (رب الأرباب) فى اعتقاد عبد الصمد ، أو (قطب الأقطاب) فى اعتقاد الجميع ، والبدوى أيضا (صاحب الفضل على أهل المشارق والمغارب) أى صاحب الفضل على الكرة الأرضية بدءاً من الصين ومنغوليا شرقاً إلى أمريكا والاسكا وأمريكا الجنوبية غرباً . ولم يبق لله تعالى شىء من الفضل يمتن به على عباده فقد استحوذ البدوى على كل الفضل ، كيف لا وهو (البحر الذى منه الأنام ترتوى) على حد قول عبد الصمد ، ثم هو (الأعظم) و (الأكرم) و (الغوث الأفخم) الذى يستغيث به الناس وهو أفخم من يغيثهم ، وحينئذ فلماذا يحتاجون لله .

ويقول عبد الصمد أنه أحب أن يتوسل لبلوغ مقصده وحاجته (من الجناب الشريف الأحمدى) بكتابة هذا الكتاب ، ويقول بعدها (وشرعت فى ذلك راجياً من فضل جوده وكرمه قبول تلك الخدمة مع علمى بأنى لست من ذلك القبيل ولاأستطيع أن أسلك إلا بتوفيق الله ذلك السبيل وأن الخطأ على مسلط وانى فى بحر السهو والغلط مخبط) فعبد الصمد يتقرب إلى إلهه البدوى بهذا المؤلف ويقر بالتقصير ويعترف بالذنب إذا وقع منه خطأ فهو — أى عبد الصمد — كبشر مسلط عليه الخطأ والسهو فلعل إلهه يتجاوز عن ذلك الخطأ والسهو غير المتعمد خصوصا وأن صفات البدوى لا يحصيها العد ولا تقع تحت إحصاء كما يقر بذلك بنفسه حين يقول (وصح فيه قول بعض محبيه فى وصف كمالات معاليه :

كيف السبيل لمدحه بعدما وصفوا علاه بأنه لايوصف)(١)

وقال عابد آخر للبدوى(٢) :

أيا بدوى العـــزم ياذا الملثم ويا واحد الأقطاب ياذا المعظم
ويا باب رب العرش ياأحمد الورى ويا سيدا عنـــد النبى مقدم
ويا ناصر المظلوم من كل ظالم ويا من له الأصل العلى المكرم
ويا حاكما بالحق فى كل وجهـــة أأظلم فى أرض بها أنت تحكم ؟

وقد سمى سبحانه وتعالى ذاته المقدسة بالأسماء الحسنى وجعل من شعائر عبادته أن يرددها المسلم فى خشوع واخبات يقول تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ الأعراف ١٨٠ ، ومعنى (يلحدون فى أسمائه) أى يطلقون أشباهها على أوليائهم وألهتهم وأولئك سيجزون ما كانوا يعملون ، فشأن المشركين فى كل زمان

---

(١) الجواهر السنية : ٣ ، ٤ (٢) نفس المرجع : ١٢٨

ومكان ـ والصوفية منهم ـ أن يطلقوا على أوليائهم وألهتهم الصفات الإلهية التى اختص الله تعالى بها ذاته المقدسة يقول الغزالى (إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق ـ أى الصوفى فى بدايته ـ تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له)(١) أى أن الصوفى فى بدايته يوصف بأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين كالخالق البارىء المصور العزيز الجبار، وإذا كان ذلك حال الصوفى المبتدىء فكيف بالهدوى قطب الاقطاب وصدق الله العظيم ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ .

وقد كان الجاهليون يطلقون على أوليائهم أسماء مختلفة كاللات والعزى ومناه وذى الخلصة وغيرها ، وقد نبه سبحانه وتعالى على أن مصدر هذه الأسماء اعلام أتباعها الذين يطلقون الأساطير والمسميات ثم يصدقونها ويعتقدون أن ذلك اختيار الله تعالى يقول تعالى ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناه الثالثة الأخرى ؟ . . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ .

النجم : ١٩ : ٢٠ ، ٢٣

وفى مصر القديمة كان للمصريين غرام بإطلاق شتى المسميات على الآلهة ولكل منها تخصص معين ، ويوسف عليه السلام قال لصاحبيه فى السجن (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ يوسف : ٣٩ ، ٤٠ .

وأرجع الصوفية للمصريين هذه العادة فلكل صوفى لقب يسمى به ويصبح

(١) احياء علوم الدين : ٤/١٧٦ .

علما عليه لا يعرف بدونه ، فإذا قلت لأحد الصوفية مثلا من هو أحمد بن علي ابن ابراهيم ؟ لن يعرف .. مع أن ذلك هو الإسم الحقيقي للبدوى ، فالبدوى لقب لذلك المسمى بأحمد بن على بن ابراهيم[1] ، وله ألقاب أخرى كالسيد وشيخ العرب والملثم وأبى الفتيان والعطاب وقطب الرجال وأبى فراج ومجيب الأسرى وندهة المنضام .

ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء تضمنت تخصصات معينة لتصريف البدوى المزعوم فى ملك الله ، كقولهم (مجيب الأسرى) أو (العطاب) وكان المصريون القدامى يصفون آلهتهم بتلك الصفات المتخصصة فهناك إله للحصاد وآخر للزرع وثالث للموسيقى أو الانجاب .. إلخ .

ويلاحظ أيضا أن نشاط البدوى السياسى ترك ظلا على مسمياته كقولهم الملثم وأبى الفتيان والعطاب والصامت ، ثم يلاحظ أخيراً أن تلك الألقاب أطلقت فى عصور مختلفة فبعضها انمحى من أذهان العامة وظل لقبا مجهولا قائماً بمكانه فى الكتب القديمة مثل الصامت وفحل الرجال والمجذوب .. وبعضها اخترع حديثا بعد أن زادت شهرة البدوى وعم التوسل به من دون الله كأبى فراج ومجيب الأسرى وندهة المنضام ، وبعضها ظل علما على البدوى منذ وجوده إلى عهدنا كالسيد والبدوى .

ومعلوم أننا ـ نحن المصريين ـ الذين أطلقنا على البدوى هذه الصفات وجعلناها له أسماء لكل منها دلالة معينة تعبر عن اعتقادنا نحن فيه ولا شأن للبدوى بها ، وخلف كل منها أسطورة اخترعناها وحكيناها فصدقناها وآمنا بها ، ثم بعد أن نشأنا عليها صغاراً وكباراً وتوارثناها جيلا عن جيل عز علينا أن تكون مجرد أوهام وأكاذيب ، وزين لنا الشيطان أن التخلى عن هذه الأوهام إنما هو التخلى عن تراثنا وقصة عمرنا وأساس ديننا وعقيدتنا

مع أنه لاسند ولا أصل لهذه المسميات وتلك المعتقدات إلا الأوهام والخرافات ولا شأن لله تعالى بها ﴿ إن هى الأسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾

هذا .. وبعد إطلاق الصفات الإلهية الإجمالية يكون التفصيل والاسهاب فلابد للولى الإله أن يكون حياً أزليا ولا يجرى عليه الموت كباقى البشر.

٢ ـ الحياة الأزلية : الموت نهاية كل إنسان فى الدنيا ، يستوى فى ذلك الأنبياء والكفار ، يقول تعالى لرسوله عليه السلام ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ الزمر : ٣٠ ، فالقرآن الكريم ساوى بين رسول الله وأعدائه الكفار فى استحقاق الموت ، فنفس الفعل ـ وهو الموت ـ سيقع للرسول ولأبى جهل مثلا ، وأكد وقوع الموت لهما (بإن) وإسمية الجملة ، بل زاد التأكيد فى حق الرسول ـ وهنا لفتة جميلة موجهة لنا ـ وزيادة التأكيد فى الموت الفعلى للرسول عن باقى البشر والكفار تتجلى فى البدء به عليه السلام فقال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ ولم يقل أنهم ميتون وأنك ميت ، ثم كان الخطاب موجها للرسول عليه السلام بكاف الخطاب (إنك) والخطاب جاء عنهم بهاء الغيبة (وإنهم) ومعلوم أن ضمير المخاطب أعرف من ضمير الغائب ، ومن إعجاز القرآن الكريم أن يؤكد لنا موت الرسول كأى بشر ليرد بذلك على من انحرف عن الصراط المستقيم فادعى أن الرسول حى فى قبره كما يهرف الصوفية دائما فى مناماتهم .

وقد حرص القرآن الكريم على أن يؤكد أن المشركين دائما يعبدون الأولياء الموتى ويعتقدون فيهم النفع والحياة الأزلية فى القبور ، يقول تعالى ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء

وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ النحل ٢٠ ، ٢١ ، فهذه الآلهة موتى لا تشعر ولا تعرف حتى ميعاد بعثها . ويقول تعالى عن تلك الآلهة الميتة التى تحولت إلى رماد وتراب فى القبور ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ﴾ الأعراف : ١٩٤ ، ١٩٥ .

فالقرآن الكريم يسخر من المشركين الذين يعبدون رفات الموتى ويعتقدون فيه النفع والضر ومن باب أولى يعتقدون فيه الحياة الأزلية الخالدة ، وقد رد القرآن الكريم على هذه النقطة فى موضع آخر فقال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ؟ ﴾ الأنبياء : ٣٤ .

وفى مصر القديمة كانوا يعتقدون بخلود الفراعنة ، ولا يلبث الفرعون بعد موته أن ينضم إلى ثلة الآلهة المتحكمين فى السماء بعد أن كان متحكما فى الأرض .

ثم جاء الصوفية ونسجوا على منوال السابقين فجعلوا الخضر يعيش حياة أزلية مع أن الله تعالى يقول ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، ثم جعلوا من الأولياء الصوفية أحياء فى قبورهم يتصرفون منها فى ملكوت الله يمنحون ويمنعون ، وجعلوا البدوى قطب الأقطاب الحى دائما .. والشعرانى أحد من روج لهذه الفرية يقول أن شيخه الشناوى أخذ العهد عليه فى قبة البدوى بأن يحضر مولد البدوى كل عام وأن يد البدوى قد خرجت من الضريح وقبضت على يده وأن البدوى أجاب من داخل الضريح بأن سيرعى الشعرانى[1]

ونقل عبد الصمد عن الشعرانى قوله عن الشناوى (أنه عين أعيان أتباع سيدى أحمد وهو يكلمه من ضريحه[2]) .

---

(١) الطبقات الكبرى ، ١/١٦١ (٢) الجواهر السنية ، ٥٢

وقد شاع فى عصر الشعرانى ادعاء الكثيرين بأخذ العهد على البدوى رأسا فى ضريحه دون الحاجة إلى السلوك على الشيوخ الأحياء كالشعرانى ، فهب الشعرانى يهاجم هذه الظاهرة ويعد عن المنن (كثرة ارشادى الفقراء الأحدية والبرهامية وغيرهم من أصحاب الخرق أن يتلمذوا لشيخ من الأحياء ولا يتقيدوا على من مات إلا أن يكون ذلك الشيخ من يقتدى به) ويقول : (وممن بلغنا أنه يربى مريده وهو فى البرزخ سيدى أحمد البدوى ولكن ذلك خاص بمريده الصادق الذى يسمع كلامه من القبر كسيدى وشيخى الشناوى فانى زرت معه سيدى أحمد البدوى فشاوره الشيخ محمد على سفره إلى مصر فى حاجة فقال له سيدى أحمد من القبر : سافر وتوكل على الله ، وهذا كلام سمعته بأذنى الظاهرة[١]) .

والشعرانى على عادته يقرر القاعدة ولكن يقصر تطبيقها على أشياخه دون معاصريه المنافسين له فى الموالد والولائم والنذور والنقوط .

وفى عصرنا الراهن لا يزال البعض يتمتع بمقدرة على الافتراء فيدعى أنه يحادث البدوى ويسجل ذلك على نفسه فى كتابه كما فعل عبد الحليم محمود فى كتابه عن البدوى فقال إن الإذن أتاه من المقصورة المباركة بأن يكتب فكتب[٢] ، وكما فعل الشيخ حجاب فى كتابه عن البدوى الذى ادعى فيه أن البدوى يتولى تربيته من البرزخ[٣] ، كأنما عجز الأحياء عن تربية الشيخ حجاب فالتمس من الأموات أن يؤدبوه .

وإقامة المولد للبدوى كان فرصة متجددة لتذكرة الناس بحياة البدوى

(١) لطائف المنن ٤٦٥ : ٤٦٦ . ط عالم الفكر .

(٢) كتاب البدوى لعبد الحليم محمود . المقدمة

(٣) كتاب البدوى لاحمد حجاب ٧٩ ، ٨٠ . وعنوان الكتاب (آراء فى حياة السيد البدوى البرزخية) أى حياته فى القبر

الأزلية فى قبره يحمى الواردين إليه من شتى البقاع ويدفع عنهم أذى اللصوص فحكى أحدهم مثلا أنه كان مسافراً للمولد ومعه قماش فقطع عليه اللصوص الطريق (.. فقلت فى نفسى ياسيدى أحمد أنا فى دركك اليوم ، فلم يستتم منى الكلام حتى خرج عليهم فارس راكب على فرس أبيض ملثم لا يرى منه إلا عيناه فقط فطاردهم حتى غابوا عنى فعرفت أنه سيدى أحمد البدوى[١]) .

وبانتشار أتباع البدوى من السطوحية وقد أصبح لكل منهم ضريح ومولد فقد أضيفت لهم الحياة الأزلية فى القبور أسوة بشيخهم ، وطبعا كان المراد من تلك الحياة المزعومة الترويج والدعاية للموالد فيقول عبد الصمد عن عمر الشناوى الأشعث (ومن كراماته أنه يخرج من قبره راكبا فرساً مغيثاً لمن قطع العرب عليه الطريق ويطردهم عنه ثم يرجع إلى قبره[٢]) ويقول عن يوسف البرلسى (ورأوه مراراً عديدة وهو يطلع من القبر ويخلص من تعرض له قطاع الطرق[٣]) ويقول عن كل من خلف الحبيشى وعماد الدين (وله كرامات كثيرة فى حياته وبعد موته[٤]) .

أى أن أصحابنا أولئك لم تكن حياتهم الأزلية سدى وإنما كانوا فيها حراساً لأتباعهم متصرفين فى قبورهم .. وندخل بذلك على (التصريف) كصفة إلهية أضافوها للبدوى وأتباعه .

٣ ـ التصريف : ومعناه الاتيان بالخوارق التى يعجز البشر عن الاتيان بها عادة .. والتصريف على أنواع منه مايتم فى الدنيا فى حياة الولى أو فى قبره ومنه ما يتم فى الآخرة وهو الشفاعة ، وقد أضيفت للبدوى وأصحابه أنواع كثيرة من الخوارق كان يتصرف فيها فى الأحياء (من بشر وحيوان) وفى الأرض والكون .

---

(١) عبد الصمد ٧٤ : ٧٥ (٢ ، ٣ ، ٤) نفس المرجع ٣٠ ، ٣٢

وقد حظيت الحيوانات باهتمام واضعى الكرامات فافسحوا لها مجالا فى أكاذيبهم .. فيقال عن الانبابى حين رضى عنه البدوى (وكلمته البهائم[١]) أى أن كلام البهائم لاسماعيل الانبابى دليل الرضى السامى عنه ، ومثله عماد الدين (كان جمالا تكلمه الجمال وغيرها من الحيوانات[٢]) والجمال عرفت البدوى حين اشتغل راعيا لفاطمة بنت برى فأقبلت نحوه ترحب به (قال سيدى أحمد البدوى فلما وصلت إلى الجمال جاءت إلى وكرفت رأسها وقبلت أقدامى وحنت حنينا وسكبت دموعا غزارا[٣]) وكانت الطيور والأسماك تأتى للبرلسى حين يدعوها[٤] .

أما الأسد ملك الحيوانات المتوحشة فقد عاقبوه فى الكرامات بأن جعلوه مطية ذلولا يركبه أحدهم إذا شاء فلا يستطيع الأسد إلا السمع والطاعة ، فالبرلسى سالف الذكر كان يركب الأسد ومثله البعلبكى[٥] .

وبعضهم استغل كراماته فى عقد الصلح بين الحيوانات المتوحشة والأليفة فالشيخ عبد العظيم الراعى آخى بين الذئب والغنم وكلف الذئب بحراسة أغنامه (وكان يشارط الذئاب على أن لهم منها ما يموت فقط[٦]) .

أما الكوردى (فكانت الحيوانات المتعادية تجتمع عنده فلا يبغى بعضها على بعض كالقط والفار والثعلب والدجاج والذئب والغنم وكان مكانه كله حيات وعقارب لا يستطيع أحد أن يجلس عنده[٧]) أى أقام من موطنه محكمة عدل دولية للحيوانات على أرض محايدة .. وقيل فى الكيروانى (كان يركب الوحوش وإذا قال لها لا تأكلى الحيوان الفلانى وبيت ذلك الحيوان عندها فلا تكسره[٨]) .

(١ ، ٢) نفس المرجع ٢٨ ، ٣٢
(٣) نفس المرجع ٥٥
(٤) نفس المرجع ٣٠
(٥) نفس المرجع ٣٠ ، ٣١
(٦ ، ٧) الجواهر ٢٩ ، ٣٢
(٨) الجواهر ٣٢

ونقم بعضهم على الذئاب والثعالب لأنها تسرق الدواجن والأغنام التى من المفروض أن يتوجه أصحابها بها إلى الموالد . وتجلى هذا الشعور عند الشيخ وهيب البرشومى وقد (طلع الذئب والثعلب ليأخذا الدجاج فسمرهما على الحائط حتى طلع النهار[1]) أما الشيخ سعدون فقد (سمر الذئب كذا كذا مرة[2]) والتسمير هو شل الحركة . .

والطريف أن تسمير الذئاب قريب من تسميرهم اللصوص فالشيخ نعمة كان يسمر اللصوص فى الأرض حتى يأتى الوالى فيمسكهم[3] . . واللصوص كانت تتعرض للقادمين الموالد بالنقود والنذور لتسلبهم إياها كالذئاب والثعالب .

ويقول الشعرانى أن أم عبد العال وضعته وهو رضيع فى معلف الثور فدخل قرن الثور فى قماط الرضيع (فشال ـ الثور ـ عبدالعال على قرنيه فهيج الثور فلم يقدر أحد على تخليصه منه فمد سيدى أحمد يده وهو بالعراق تخلصه من القرن[4]) . والكذب فى هذه الرواية لا يستطيع أن يمشى على قدمين . . إذ يعنى أن عبد العال كان رضيعاً أبان وجود البدوى فى العراق .!. ولكن الشعرانى يذكر فى نفس الصفحة أن البدوى كان فى العراق سنة ٦٣٣ وأمره الهاتف بدخول طنطا سنة ٦٣٤ وكان عبد العال ـ حسب رواية الأسطورة السابقة ـ رضيعا لا يزال ـ فكيف يصبح يافعا طفرة واحدة ومن أبرز أصحاب البدوى منذ أن دخل طنطا ؟؟

واخترع الصوفية وسيلة سريعة للانتقال بأسرع من الصوت وهى طى الأرض والوصول إلى المكان المراد بعد عدة خطوات مهما تناءت المسافة ، فحين كان البدوى فى العراق مع أخيه الحسن قرأ أخوه الحسن الاسم الأعظم

(١ ، ٢) الجواهر ، ٢٨ ، ٣١ .

(٣) الجواهر ٣٣ . (٤) الطبقات الكبرى ١٥٩/١ :

وسار سبع عشرة خطوة فوصل إلى أم عبيدة[1] ، وفى نهاية قصته مع فاطمة بنت برى انتهز الفرصة والفقراء مشغولون فانتقل إلى مكة بخطوة واحدة (فتولهت الفقراء وحصل لها وقت طيب فخليت الفقراء متولهين مشغولين بأحوالها وغطست من بينهم وسرت إلى مكة ولم يشعر بى أحد منهم) [2] ، وحين كان ابن الحسن يشتاق اسمه البدوى وهو فى طنطا جاءه البدوى فى المنام (وقال يا ابن أخى إذا اشتقت إلى فاطلع على جبل أبى قبيس وقل : اللهم يا من ساق عمى أحمد إلى طندتا سقه لى هنا) وفعل فاذا (بكف خطفتنى فى الهواء فما وعيت على نفسى إلا وأنا فى دار عمى أحمد فى طندتا على السطح فعانقته ثم قال ياحسين غمض عينيك فغمضت عينى وإذ أنا على جبل أبى قبيس كأنى لارحت ولا جيت)[3] ، ويروى عبد الصمد أن البدوى انتقل من مكة إلى طنطا فى إحدى عشرة خطوة[4] وهى بلا شك نزهة جميلة أن ينتقل الإنسان من قطر لآخر فى بضع خطوات ، ولكن — ومع الأسف الشديد — فإن بعض الروايات توحى بأن البدوى وصل طنطا وآثار الإجهاد بادية عليه وعيناه منتفختان حتى أنه طلب من عبد العال — فى بداية تعرفهما وأثناء مروره على بلده فيشا — طلب منه بيضة ليضعها على عينيه ، ودخل دار ابن شخيط وآثار الإرهاق واضحة عليه حتى لقد أفزع بمنظره النسوة التى رأينه فأنكرنه وصحن أعوذ بالله إن هذا إلا شيطان رجيم .

وللأسف أنه فى الوقت الذى أشغل فيه الصوفية الناس بكرامات الخطوة وأهل الخطوة كانت أوربا تخترع البخار والقوى المحركة بعد أن وضعت عن كاهلها تحكم الكهنة والكهنوت فى الكنيسة .

نعود إلى البدوى وأصحابه ونقول إن كرامة الطى أو الخطوة قد أضيفت أيضا إلى قمر الدولة حين هرب من عبد العال ولحقه عبد العال عند بئر

(١ ، ٢) الجواهر ٥٢ ، ٦٠ (٣) الجواهر ٦٥ (٤) الجواهر ٣٩

(فدس سيدى قمر الدولة فرسه فى البئر فغطس فيها تحت الأرض حتى طلع من بئر ناحية نفيا[١]) .

وإذا كانت أوربا قد اخترعت وسائل للانتقال تقارب سرعة الصوفية فى الطى والخطوات .. فإن أوربا لا تزال عاجزة عن اختراع آخر سبق به الصوفية ، وهو عكس الطى أو تجميد الحركة وتضييع أثرها بحيث يظل الشخص يسير فى مكان واحد مهما قطع من مسافات . وقد استعمل الحسن أخو البدوى هذا السلاح العجيب مع الظاهر بيبرس حين أضافه الحسن رغم أنفه ولكن بيبرس صمم على الرحيل بدون إذن يقول (فعشيت عند الشريف حسن ثم غافلته وركبت هجينى وسرت ليلى كله إلى الصباح وقلت فى نفسى أنا قطعت بلاداً بعيدة فلما أصبحت رأيت نفسى فى بيت الشريف حسن كأنى لا رحت ولا جيت)[٢] وفعلوا نفس الشيء مع اللصوص فأحدهم سرق ثورا للشيخ وهرب (ومشى به من بعد العشاء إلى الصبح فنظر فإذا هو دائر حول البلدة لا يتعداها فمسكه الناس[٣] .

وإلى جانب طى الأرض وبسطها كان البدوى يخسف الأرض إذا أراد وقد فعل ذلك بفاطمة بنت برى وفرسها فغاصت بهما الأرض وظلت تستنجد بأهلها دون جدوى ثم عفا عنها البدوى فخرجت بفرسها من الأرض[٤] .

وتصرف البدوى فى البشر كما يحلو له فكان يميت من يشاء من الأحياء ويحيى من يشاء من الأموات . فادعوا أن من كراماته أن امرأة استغاثت به ليحيى ولدها الذى مات (فمد سيدى أحمد البدوى يده إليه ودعا له فأحياه الله تعالى)[٥] وقال بعضهم فى ذلك مادحاً .

---

(١) الجواهر ٢٧ (٢) الجواهر ٦١ ، ٦٢ (٣) الجواهر ٢٨
(٤) الجواهر ٥٦ ، ٥٧ (٥) نفس المرجع ٤٦

أنت أحييت ميتا بعد أن قد فتك الذود لحمه والعلاء[1]

والبدوى يميت من يتعرض له من الأحياء كما فعل مع معارضيه فى العراق فقد قال لهم موتوا فوقعوا على الأرض قتلى ، ثم قال : قوموا بإذن من يحيى الموتى ويميت الأحياء فقاموا[2] ، ومع أن الجمال – جمال فاطمة بنت برى – رحبت بالبدوى بدموعها إلا أنه استعرض معها كراماته فأماتها ليغيظ فاطمة بنت برى (قلت فى خاطرى أقضى أربى من فاطمة بنت برى فالتفت إلى الجمال وقلت لها موتى بإذن من يحيي الموتى ويميت الأحياء فمات الجميع[3]).

ووصل سلطان البدوى للجن فأمرهم ببناء زاويته بعد أن يموت حسبما يروى عبد العال أن البدوى قال له (يا عبد المتعال أنى أمرت الملك الأحمر أن يطيعك ، قال سيدى عبد العال فلما انتقل أستاذى بالوفاة سألت الملك الأحمر وقلت له أرحنى من هذا الكوم قال: فأمر جنوده وكانوا يومئذ اثنى عشر ألفا فرفعوا الكوم وبددوه فى الهواء فى أسرع من طرفة عين)[4] ..

ومن المنتظر أن توجه أساطير الكرامات لخدمة المولد وهو الهدف الرئيسى لنشاط الصوفية واهتماماتهم . . وقد مر بنا أن بعضهم كان يسمر اللصوص المتعرضين لرواد المولد . وأن آخرين من الأولياء الأحدية كانوا يخرجون من قبورهم خصيصاً لنجدة القادمين للمولد . . والواقع أن الموالد الأحدية كانت – ولا تزال – فرصة متجددة لاسترزاق اللصوص كما هو الحال بالنسبة للصوفية ، فكلا الفريقين يسعى لاجتلاب رزقه من القادمين للمولد ومعظمهم من الفلاحين ، إلا أن طريقة الحصول على الرزق تختلف .. فبينما يقدمها الفلاحون للصوفية عن رضى وطواعية وخضوع فإن اللصوص

---

(١) نفس المرجع ٩٣ (٢) نفس المرجع ٥١
(٣) الجواهر ٥٥ (٢) الجواهر ٨٨

يضطرون لسلبها منهم عنوة ، وقد رأى الصوفية فى اللصوص منافساً خطيراً فى الرزق وتهديداً عظيما للمولد ورواده فوجهوا نحوهم حرباً لا تهدأ من أساطير الكرامات لتهدئة الرواد القادمين من فلاحين وتجار وجعلوا البدوى - شخصيا - يتولى حماية القادمين لمولده فيروى عبد الصمد ضمن كرامات البدوى (إن جماعة من إقليم بلبيس أعتقدوا فى سيدى أحمد البدوى وحددوا لهم شارة يطلعون بها المولد فطلعوا فى أول سنة ونزلوا بخيمة وربطوا فرسين لهم على باب الخيمة وناموا مستأنسين بما شاع بين الناس من حفظ من يحضر المولد فجاء اللصوص ليلا وأخذوا الفرسين فطلع أصحاب الخيل إلى الأستاذ واستغاثوا به فبينما هم جالسون إذ مرت عليهم فرس منهما وعليها سرج الأخرى فتعلقوا بها ومسكوا راكبها فجاءت الفرس الأخرى)[١] ..

وكالبدوى كان تلميذه عماد الدين المدفون فى بركة الناصرية ومن كراماته بعد موته أن اللصوص أرادوا أن يسرقوا الدرب الذى فيه فمنعهم من الخروج حتى طلع عليهم النهار وقبض عليهم الوالى[٢] .

وفى اجتماع ضخم كالمولد الاحمدى كانت تضيع الممتلكات والأغراض ، ولم يترك الصوفية هذا الباب دون علاج فادعوا أن البدوى أرجع خاتماً ضاع لبعضهم (ومن كراماته أن خاتم وقاده وقع فى بحر عميق فطلبه من سيدى أحمد البدوى فأتى له بالخاتم فى بطن حوت اشتراه من صياد)[٣] .

وقالوا إن أبا الحمائل السروى (نزل من مصر لمولد سيدى أحمد البدوى فى المركب فوقع خاتمه فى البحر فقال ياسيدى أحمد ما أعرف خاتمى إلا منك فلما دخل طندتا نفض كمه فوقع الخاتم منه)[٤] .

(١) الجواهر ٧٦ (٢) نفس المرجع ٣٢
(٣) الجواهر ٨٣ (٤) نفس المرجع ٧٤

وإذا كان البدوى قد تكفل بإرجاع الضائع ولو كان خاتماً صغيراً فأولى بالزوار أن يطمئنوا على أغراضهم وحاجاتهم فهى فى أمن ..

وطنطا تقع فى منتصف الدلتا وهى المركز الزواعى لمصر وكان المولد مناسبة سنوية للفلاحين من جميع الأنحاء المحيطة بطنطا شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، ووقع على كاهل الحمير توصيل الفلاحين من قراهم بما يحملون من نذور ، وكانت ساحة المولد تمتلىء بالحمير الوافدة من كل قرية ، ومن الطبيعى أن يكون المولد سوقاً رائجة لضياع الحمير أو سرقتها ، ومن الطبيعى أيضاً أن يتكفل البدوى ـ شخصياً ـ بارجاع الحمير الضالة والضائعة والمسروقة لكى تطمئن النفوس وتعود (الحمير) إلى قراها بسلام لتعاود المجىء فى العام التالى ..

يقول محمد الشناوى (ضاعت حمارة أخى الشيخ محمد فى أيام المولد فأتى إلى قبر أحمد البدوى فقال والله لا أخرج حتى تجىء حمارتى فبينما هو جالس فى قبة سيدى أحمد البدوى وإذا بالحمارة واقفة بجانب التابوت)[١] وقد روى الحلبى هذه الكرامة المائلة للحمارة المروية عن الشناوى وأردفها بكرامات أخرى (لحمير) آخرين يقول (ضاعت حمارة لجماعة من الرفاعية فأكثروا أسفهم عليها ووقع منهم اللوم على سيدى أحمد فلما انقضى المولد الأحمدى فروا على بعض القرى فوجدوا تلك الحمارة على سطح فطلبوا صاحب الدار فإذا هو رجل لا يتوهم منه السرقة ولا المولسة فكلموه فقال : انظروا لى مرقى هذا السطح أى سلمه فإنه لا يمكن أن يرقى عليه الجدى فضلا عن الحمارة فإذا هو كذلك ولم ينزلوا الحمارة إلا بالسلب ، ووقع أن شخصاً يقال له إبراهيم الحلاب كان من أتباع الشيخ عبد المجيد الخليفة ضاعت حمارته ببركة الحاج ، فلما ضاعت

---

(١) نفس المرجع ٧٥

جاء إلى الشيخ عبد الكريم الخليفة وقال : ضـــاعت حمارتى فقال الشيخ يا سيدى أحمد احتسبها عليك ، ثم جاء هذا الرجل ونام فجاءه شخص فى النوم وقال له : قم لتحصل المدينة فقام فوجد الحمارة)(١) .

ويلاحظ نوعاً من التخصص فى حبك الكرامات فالبدوى مثلا كفارس قديم جعلوه متخصصاً فى إحضار الأسرى المسلمين من عند الفرنجة ، وربما أحس أتباع البدوى بالخجل وهم يرونه مشغولا بالصياح على السطح بينما تدور الحرب الصليبية على أشدها بين المسلمين والنصارى الأوربيين فى الشام ودمياط والمنصورة فاخترعوا أكذوبة إحضاره الأسرى المسلمين مشاركة منه فى الجهاد الدينى . وبمرور الزمن وازدياد شهرة البدوى وكثرة أتباعه وزيادة العداء الدينى بين المسلمين والصليبيين ترسخت شهرة البدوى فى إنقاذ الأسرى المسلمين حتى بعد إنتهاء الوجود الصليبى فى الشام ، يروى المقدسى أن للبدوى كرامات كثيرة (من أشهرها قصة المرأة التى أسر الأفرنج ولدها فلاذت به فأحضره إليها فى قيوده)(٢) .

ثم جاء الشعرانى فى القرن العاشر الهجرى فأوسع - كعادته - فى مجال الافتراء بما أوتى من مقدرة هائلة على اختراع الأكاذيب وجرأة عجيبة على إلباس ثوب الحقيقة والصدق فيقول عن نشاط البدوى المزعوم فى تخليص الأسرى (وأخباره ومجيئه بالأسرى من بلاد الفرنج وإغاثة الناس من قطاع الطريق وحيلولته بينهم وبين ما استنجد به لا تحويها الدفاتر وقد شاهدت أنا بعينى ستة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدى عبد العال

(١) النصيحة العلوية مخطوط بمكتبة الأزهر ٣٤ ، ٣٥

(٢) الجواهر : ٣٨ ، ٣٩

مقيداً مغلولا وهو مخبط العقل فسألته عن ذلك فقال : بينما أنا فى بلاد الافرنج آخر الليل توجهت إلى سيدى أحمد فإذا أنا به فأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى هنا . فمكث يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة)(١).

وابتهج عبد الصمد بروايات الشعرانى فأوردها فى كتابه الجواهر يقول : (.. وقال - أى الشعرانى - فى الطبقات الصغرى ومما بلغنى من جماعة من أهل بيروت قالوا : أسرنا الأفرنج وكنا اثنى عشر رجلا فأقمنا فى بلاد الأفرنج يستخدموننا فى الأعمال الشاقة حتى كدنا أن نموت فألهمنا الحق تعالى يوما أن قلنا : ياسيدى أحمد يابدوى أن الناس يقولون أنك تأتى بالأسارى إلى إلى بلادهم وقد سألناك بالنبى أن تردنا إلى بلادنا ، قالوا ففى ذلك اليوم نزلنا مركبا ليس فيها سد وقذفنا فلم يشعر بنا الأفرنج حتى سرنا فى البحر نحو ميلين فخرجوا وراءنا فلم يدركونا إلى أن وصلنا إلى بلادنا ببركة سيدى أحمد البدوى ، وقال سيدى عبد الوهاب الشعرانى ومما رأيته بعينى سنة ثلاث وأربعون وتسمائة إنى كنت جالساً فى مقام سيدى أحمد البدوى فسمعت صيحة عظيمة فى منارة سيدى عبد العال آخر الليل فطلعت فإذا أسير مقيد مغلول وهو غائب اللب فنزلوا به فمكث ثلاثة أيام ثم أفاق فسألناه فقال : كنت أسيراً فى بلاد الأفرنج فبينا أنا واقف على سطح إذ توسلت بسيدى أحمد البدوى فأتانى شىء فخطفنى وطار فى الهواء حتى نزلت على المأذنة فطاش عقلى من شدة الخطفة والطيران، ففككنا قيوده وجاور فى المقام حتى مات ، قال : وحكى لى شخص آخر اسمه الشيخ سالم قال : كنت أسيراً فى بلاد الأفرنج فكان الأفرنجى يقول : إن سمعتك تقول ياأحمد يابدوى ضربتك وعاقبتك ثم خاف أن يخطفنى فصار ينومنى فى صندوق كبير ويقفله على بقفل وينام فوقه فقلت

(١) الطبقات الكبرى ١٦٢/١ : ١٦٣ .

فى نفسى ليلة من الليالى : ياسيد أحمد يابدوى انجدنى ، فما تم القول إلا وجاء سيدى أحمد البدوى وحمل الصندوق بى وبالافرنجى فصرت أسمع دويا تحتى عظيما فما أصبح الصباح إلا وأنا أسمع أصواتا وكلاما كثيراً نفتحوا الصندوق وأخرجونى فوجدت نفسى فى ساحل القيروان والافرنجى واقف والناس حوله يحكى لهم قصة سيدى أحمد البدو ثم أسلم الافرنجى[1]) .

وأشهد أن الشعرانى لو عاش فى عصرنا لصـــار أشهر كاتب للأفلام والمسلسلات بجميع أنواعها وأحجامها ، ولـكن معطيات القرن العاشر كانت تعطى للشيخ الصوفى حرية القول كيفما يشاء و يتمتع بالصدق والتقديس إذ لم يكن فى العصر أى أثر لعقل أو علم ، فقد انحدر العقل إلى درجة تقديس المجانين والمجاذيب وتضاءل العلم إلى متون صفراء وشروح باهتة وخرافات تحظى بالتصديق والتقديس ، وفى هذا الجو بزغ الشعرانى وبرز ، ولم يصله بعد أن الحملات الصليبية قد توقفت منذ انهيار عكا كآخر معقل صليبى على يد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٣ ، وأن الحركات الصليبية ضد المسلمين قد تباعدت وخفت تدريجيا وانشغلت أوربا فى القرن العاشر الهجرى بصد غارات العثمانيين على شرق أوربا ووسطها .

ونسى الشعرانى أن أيامه التى يعيشها شهدت تربع الدولة العثمانية وسيطرتها على حواف البحر المتوسط من الجنوب الأوربى فى اليونان إلى السواحل الشامية والمصرية والأفريقية حتى حدود المغرب العربى ، نسى الشعرانى ذلك كله وتخيل أنه يعيش فى القرن السادس حيث يؤسر المسلمون فى بيروت وما أن ينطق أحدهم باسم البدوى متوسلا حتى يطير فى الهواء إلى بر الأمان وأن أوربا أخذت حذرها من البدوى (مجيب الأسرى) لخطورت على

---

(١) الجواهر ٨١ ، ٨٢ .

الأسرى التلفظ باسمه ولكن البدوى يأتى بمجرد التوسل بالخاطر مهما اتخذ الفرنجة من احتياطات وصناديق وأقفال ومفاتيح .

لقد ظلت سيطرة الشعرانى على العقلية المصرية طيلة العصر العثمانى وما أورده عن كرامات البدوى قصصاً تحكى نظمه الآخرون شعراً يحفظ ، وأغلب القصائد التى أوردها عبد الصمد فى ختام كتابه كانت تتغنى بكرامات البدوى وخصوصاً إحضاره الاسرى . .

يقول أحدهم :

ويجىء الأسير فى كل زمان   غير خاف فكم أتت أسراء
وبهذا فى كل دهر شهود   بالقيود التى تراها اكتفاء(١)

والشعرانى هو الذى أوحى بتخصص البدوى فى كرامة إحضار الأسرى وأنه لا يشركه أحد فى هذا المقام فيروى أن امرأة استغاثت بالشيخ المتبولى وقالت (يا سيدى ابنى أسير فى بلاد الافرنج وما أعرف مجيئه إلا منك فقال : هذه لسيدى أحمد البدوى ، ما هى لى)(٢) .

وقد تابع الصوفية الأحمدية طريقة الشعرانى فى التخصص فى إسناد الكرامات لأناس بعينهم حسب الوظيفة أو الموقع الجغرافى ، وهم على أى حال أقل خبرة من الشعرانى فى سبك الاكاذيب وترويجها . .

ولقد قلنا أن البدوى كان قد استبقى من أتباعه السطوحية نفراً للخدمة فى طنطا كالشيخ عبد العظيم الراعى للرعى والشيخ محمد الكناس للكنس ومحمد الفران للفرن . . وقد أسند الصوفية لكل منهم كرامات فى مجال عمله (وتخصصه الدقيق) فالشيخ عبد العظيم الراعى كان يجعل الذئاب تحرس الغنم وكانت البهائم التى يرعاها تعرف حدود الزرع بالبدوى فلا تتعداه إلى غيره ، والشيخ محمد الفران (الذى يخبز لسيدى أحمد كان يحرك نار الفرن

(١) الجواهر ٩٢   (٢) الجواهر ٨٥

بهده ويخرج الخبز من الفرن بيده) أى لا تضره النار (وكان يخبز الأردب بنحو قدحين من الوقيد[1]) أما الشيخ محمد الكناس فكان (يكنس كل يوم مقام سيدى أحمد البدوى ومقام سيدى عبد القادر الجيلى ومقام سيدى أحمد ابن الرفاعى وعدة مقامات فى بلاد المغرب وغيره ويرجع إلى طندتا فى ساعة واحدة[2]) منتهى الهمة والنشاط أن ينظف مقامات الأولياء الموزعة فيما بين العراق ومصر والمغرب فى ساعة واحدة ، أى يقوم بمهمة الكنس من (المحيط إلى الخليج) بأسرع من الطائرة (البوينج) .

وكان عماد الدين السطوحى جمالا يرعى الجمال فى مصر فكانت الجمال تكلمه ، وكان الشيخ نعمة خفيراً لمدينة صفد ولأنه خفير فقد اتجهت كراماته للصوص فكانوا (لا يقدرون يسرقون شيئاً من صفد خوفاً من الشيخ فإما أن يسمرهم فى الأرض حتى يأتى الوالى فيمسكهم وإما أن يخرج من قبره فيطرد اللصوص[3]) وطبعاً يعود بعدها إلى قبره بين التصفيق والهتاف فيدخله ويقول للناس (باى باى) .

وتلونت كرامات البعض بالإقليم الذى يعيش فيه فالبرلسى الذى يعيش عند بحيرة البرلس كان (يدعو سمك البحر فيطلع له ويدعو الطير من جو السماء فتنزل إليه) . وابن علوان اليمنى حيكت له كرامة على مثال فيل أبرهة فقيل (وجاءوا إليه بالفيل فى الزاوية وطلبوا علفه فما وجدوا إلا قوت الفقراء من الأرز فأرادوا أخذه فمنعهم الشيخ فأبوا فأشار إلى الفيل فغاصت قوائمه فى الجبل خارج الزاوية[4]) ، ولا ندرى ما الحكمة فى الإغارة بفيل ضخم على زاوية للصوفية ليس فيها إلا القليل من الأرز .. فالواضح أن الهدف هو الاتيان بكرامة لابن علوان اليمنى يكون بطلها فيلا (والسلام) . ولو كان

(١ : ٤) الجواهر السنية : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣

الشعرانى هو الرواية لأضاف بعض (الرتوش) و (البهارات) حتى يبتلعها القارىء وهو مغمض العينين .

تلك بعض تصريفات البدوى وأتباعه فى مخلوقات الله على الأرض ، ومن المؤكد أن البعض سيعتبر هذا الكلام ماسا (بكرامات الأولياء) التى أصبحت فى عقيدتهم جزءاً معلوماً من الدين بالضرورة . وحتى نربح ونستريح فأننا نضع بعض الحقائق التى تنفى هذه الأكذوبة الكبرى التى عشنا عليها قرونا نؤمن بها وندافع عنها مع أنها - أعنى كرامات الأولياء - هى من أساطير الشرك التى أدخلها الشيعة الصوفية فى عقائد الناس وأضلوهم بها وجعلوهم لا يفترقون فى شىء عن سائر المشركين فى كل زمان ومكان ، فشأن المشركين أن يتخذوا لهم أولياء ويضيفون لهم التحكم فى ملكوت الله والتصرف فى ملكه مع أن الله تعالى يقول ﴿ مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً ﴾ الكهف : ٢٦ .

أولى هذه الحقائق : أن التصريف فى ملك الله تعالى مقصور على الله تعالى الذى لا يشرك فى حكمه أحداً وله وحده الخلق والأمر ﴿ الا له الخلق والأمر ﴾ الأعراف : ٥٤ ، والله تعالى يعبر عن تصرفه فى الكون بالإيجاد والعدم بلفظ (كن) أى أنه تعالى إذا ما قال للشىء (كن) فسرعان ما يكون ، (وفى بداية كل شىء كانت الكلمه) أى (كن)، وهذه الكلمة (كن) لا يقولها قادرا على تجسيدها واقعا حيا إلا الله تعالى، لذا كان أسلوب القرآن الكريم فى التعبير عنها أسلوب قصر (بإنما) أى يقصر القول بها وتحقيق معناها على الله وحده .. وأقرأ قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ النحل ٤٠ ، ﴿سبحانه إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ﴾ مريم : ٣٥ ، ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾

يس : ٨٢ ، فمنه وحده القول والأمر والفعل .. وفى ذلك كله لا يشرك فى حكمه أحداً ، وهو وحده المسيطر على خلقه وما من دابة على وجه الأرض إلا وهو آخذ بناصيتها ، فيستحيل أن يكون من بين خلقه من غير الأنبياء من يأتى بخوارق .

وثانى هذه الحقائق : أن الله تعالى أرسل للبشر من لدنه رسلا يدعونهم للتوحيد .. وقد قص علينا بعض أولئك الرسل إما بالإسم أو الوصف والاحداث دون الإسم ، وكتدليل على صدق أولئك الرسل فى الاخبار عن الله عز وجل فقد أيدهم بالمعجزات والخصوصيات ليقتنع أقوامهم بصدقهم فى الاخبار عن الله .

ومع أن الرسول مؤيد بالمعجزة إلا أنه ليس مصدراً لها فهى من عندالله وهو ـ تعالى ـ الذى يملك التصريف والتوقيت للمعجزة التى يجريها على رسوله .. بل أن بعض الرسل كموسى عليه السلام حين شاهد معجزته جرى خوفا ورعباً ﴿ والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف ﴾ النمل : ١٠ ، ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ القصص : ٣١

فالرسول ـ أى رسول ـ لا يملك أن يأتى بمعجزة وقتما يشاء يقول تعالى ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله ﴾ الرعد : ٣٨ وغافر : ٧٨ ، والرسل تعلن ذلك صراحة لأقوامهم ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله ﴾ إبراهيم : ١١ فالرسل إذا طلبت منهم معجزات يعلنون أن مردها لله وحده الذى يملك الفعل والتوقيت ولاشأن لهم بأيهما ،

وإذا كانت المعجزات خوارق يعطاها بعض الرسل للتحدى وكدليل على صدق النبي فان الخصوصية خوارق تأتى للرسول نفسه لإنقاذه من أزمة ما كانقاذ إبراهيم من النار وإنقاذ يونس من الغرق وإنقاذ الرسل الآخرين كهود وصالح وموسى وشعيب مما أصاب أقوامهم من تدمير وعذاب وإهلاك، وقد تأتى الخصوصية دلالة على التنعم والرضى كتسخير الجان والريح والملك لسليمان .. وقد تأتى الخصوصية للتعزية والتسلية والتطمين كحادث الإسراء والمعراج لمحمد عليه وعلى الأنبياء الصلاة والسلام .. إذا فان الله تعالى حين قص حادث الإسراء ختمه بقوله (.. لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير ﴾ الإسراء : ١ ، أى لنريه هو لا لنرى قومه .

وبعض الخصوصيات قد تضم إلى جانب النبي بعض أصحابه ـ والأغلب أنهم أنبياء لم يذكر القرآن لهم إسما ـ مثل إحضار عرش بلقيس على يد الذى عنده علم الكتاب تكريما لسليمان عليه السلام ، فالأغلب أن (الذى عنده علم من الكتاب) نبى كسليمان .. والله سبحانه وتعالى لا يعطى علمه اللدنى إلا للأنبياء فقط فكل نبى لا بد أن يؤيده الله تعالى بعلم من لدنه بوحى أو بغيره .. والقرآن الكريم وصف كثيرين بالنبوة دون اخبار بالاسم كقوله تعالى ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ يس : ١٤ ووصف البعض بمستلزمات النبوة من العلم اللدنى والتصريف كصاحب موسى ﴿ فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ الكهف : ٦٥ ، وكصاحب سليمان ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ﴾ النمل: ٤٠ ،فالقرآن الكريم ليس إلا كتابا فى التوحيد وما يستتبعه من تشريع ووعظ وأحكام وسمعيات إلخ .. وهكذا فمع أن القرآن أخبر أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير ﴿ وإن من أمة

إلا خلا فيها نذير ﴾ فاطر : ٢٤ ، إلا أنه لم يقص علينا إلا بعضهم فقط ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ النساء ١٦٤ ، وبعض الرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم - كما سبق قوله - ذكروا بالوصف فقط فالعبرة هى بالنتيجة وهى ترسيخ عقيدة التوحيد .

وقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام وأمه العذراء ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ الأنبياء ٩١ ، فعيسى فى حد ذاته معجزة لخلقه بدون أب والعذراء معجزة لحملها بدون زوج ، وصاحب هذا الإعجاز - أى ولادة عيسى - كثير من الارهاص الذى ينبىء عن اقتراب الحدث العظيم ، فكان أن رزق زكريا عليه السلام بولد وقد بلغ من الكبر عتيا .. ثم توجهت الأنظار إلى مريم بفاكهة الشتاء والصيف وهى فى محرابها ..

فكل ذلك ارهاص ينبه الاذهان لمجىء عيسى ويضاف للخوارق التى صاحبت مولده وكلامه فى المهد إلى أن بعث رسولا .. ولم يكن مقصوداً بها أن تكون معجزات للتحدى فقد بدأت معجزات التحدى حين بعث إلى بنى إسرائيل ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ آل عمران ٤٩ .

وثالث هذه الحقائق : إن مبعث محمد عليه الصلاة والسلام كان عهداً جديداً فى عالم النبوة والمرسلين ، فقد جاء رسولا عالمياً لكل البشر منذ مولده وحتى قيام الساعة فى كل زمان ومكان ، بل وللجن أيضاً ، وكان الرسول قبله يرسل إلى قوم بعينهم فى مكان بعينه فى زمان بعينه ، لذا كان حتماً أن تختلف المعجزات لاختلاف الظروف ، فالمعجزات السابقة كانت مناسبة لظروف النبى وقومه أى كانت حسية محلية تنتهى بنهاية القوم الذين يطلبونها

من الرسول .. ثم يصاحبها إهلاك القوم ، ومجىء رسول آخر تتجدد معه نفس القصة إلى أن ختم النبوة بالرسول الخاتم عليه وعليهم الصلاة السلام ، ولأن الرسول بشر كسائر البشر محكوم عليه بالموت ، ولأن رسالته يجب أن تبقى فلا بد أن تكون معجزته على نفس المستوى أى معجزة عقلية عالمية مستمرة إلى قيام الساعة ، وهنا يكون اهلاك القرشيين أمراً غير وارد مهما تعنتوا فالرسالة ليست موجهة لهم فقط وإنما للعالم كله وإلى النهاية فكان القرآن المعجزة الوحيدة لمحمد عليه السلام بدليل قوله تعالى عن القرشيين وطلبهم معجزة حسية ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم إنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ العنكبوت ٥١ ، وقد بين سبحانه وتعالى أن المعجزات الحسية السابقه لم تأت بنتيجة مع الأقوام السابقين فكانوا يصرون على طلبها ثم حين تأتى يكذبون بها فامتنع لذلك الإتيان بآية حسية لمحمد عليه السلام . يقول تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ الإسراء ٥٩ ، وبين تعالى أن القرشيين لن يؤمنوا مهما جاءتهم آيات ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ يونس : ٩٦ ، ٩٧ حتى لو أصعدهم الله إلى السماوات فعرجوا فيها لقالوا إن ما نراه إلا وهم وسحر ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ الحجر : ١٤ ، ١٥ . وهكذا فعالم الخوارق والمعجزات الحسية قد انتهى بإنزال القرآن كمعجزة عقلية يتحدى بها الله تعالى كل عصر بخصائصه ، تحدى به العرب بالفصاحة ويتحدى به القرن العشرين بعلمه ومكتشفاته ..

وسيظل القرآن الكريم معجزاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ، قال صلى الله عليه وسلم (مامن نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة . رواه أحمد) .

ونخلص مما سبق إن الله تعالى قصر التصرف فى الكون بالاعجاز والخوارق على ذاته المقدسة وأنه منح بعض الرسل بعض الخوارق تأييداً لهم وتأكيداً على أنهم صادقون فى الأخبار عنه تعالى ، وأن تلك الخوارق إما أن تكون خصوصيات للرسل أنفسهم وإما أن تكون معجزات تجرى على الرسل وموجهة إلى قومهم المكذبين ليصدقوا ويؤمنوا ، وأن الرسل لا شأن لهم فى أحداث المعجزة أو الاختصاص أو فى توقيت أيهما ، وأن بعض المحيطين بالرسل ـ وقد يكونون رسلاهم الآخرون ـ قد شملتهم ظهور المعجزة أو الاختصاص عليهم تأييداً لنفس الرسول الذى يحيطون به ، وفى النهاية فإن المعجزات الحسية قد انتهى عصرها بالنبى الخاتم حيث دخلت البشرية فى عهد جديد ارتقى فيه العقل البشرى وتضاءلت فيه المسافات بين التجمعات البشرية وتهيأت الدنيا لمعجزة جديدة تجمع بين العقلية والعلمية والعالمية ، وتمثلت تلك المعجزة فى القرآن الكريم . وليس بعده اعجاز كما ليس بعد محمد من نبى .

ويكفى فى اعجازه أنه فضح ويفضح المشركين فى كل عصر مهما تستروا خلف أسماء وصفات ، ومهما ادعوا الإسلام كذباً وافتراء ، وينطبق ذلك على الصوفية والشيعة ، حين كرروا مقالة المشركين السابقين فى اتخاذ أولياء لهم وأضفوا عليهم التصريف فى كون الله تعالى تحت اسم (الكرامات)، وسيرة الرسول عليه السلام تؤكد أنه كان أحوج الناس إلى تلك الكرامات

حين أوذى فى مكة ، وحين هاجر منها يتعقبه المشركون لقتله ، وحين هزم فى أحد ، وحين كان يستعد فى كل غزوة لقتال الأعداء بالتخطيط والتجهيز وجمع المعلومات والمشاركة بنفسه بالقتال ، أين كان الرسول من (أهل الخطوة) وهو يعانى من مطاردة المشركين فى طريقه الطويل من مكة إلى المدينة ؟ وأين كان الرسول عليه السلام من كرامات (تسمير الأعداء) و (إماتة الأحياء) وهو يدافع عن نفسه بالسلاح وقد أحاط به المشركون فى (أحد) و (حنين) ؟ ثم لماذا كان التعب فى الاعداد والتخطيط وكتمان التحركات حين كان يسير لغزوة من غزواته إذا كان قد أيده الله بمعجزات حسية وقتما يشاء .؟؟

فالرسول عليه السلام صاحب رسالة ودولة تواجه مكائد الأعداء وعليه مهمة توطيد الدعوة ومواجهة الأخطار .. ومع تلك المسئولية الضخمة فقد قام الرسول بالمهام كلها بجهده البشرى مع أتباعه المؤمنين وتوفيق الله فى النهاية ، وحين كان يخطىء أو يهزم كان ينتظر التصحيح والتوجيه من الله العلى القدير .

أما أصحابنا من أتباع الآلهة والأولياء فقد أضفوا عليهم التصرف فى ملك الله دون داع اللهم إلا اعتبارهم آلهة . ولابد للآلهة ـ طبعا ـ مادامت آلهة فى اعتقادهم أن تحظى ببعض التصريف فى الملكوت وذلك برضى الله تعالى وتأييده كما يزعمون ، وليس لهم سند أو دليل إلا الافتراء والتزييف .

وواقع الأمر أن ما يدعيه الصوفية والشيعة للأولياء والأئمة هو عين ما كان يعرف به العرب الجاهليون عن آلهتهم . وهو ما كان القرآن الكريم ينفيه نفيا باتا ، يقول تعالى ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة

ولا نشورا ﴾ الفرقان : ٣ ، ومن إعجاز القرآن الكريم فى هذه الآية أنه قال عن تلك الآلهة التى يتخذونها ويدعون أنها تحيى وتميت إنها فى حقيقة الأمر مخلوقة .. أى مخلوقة من أساطير وأكاذيب لا تمت إلى الواقع بصلة ، وحين نطبق ذلك على (السيد البدوى) الذى يحيى ويميت ويخسف الأرض نجد أنها أكاذيب مختلقة من وضع الأتباع لا تمت لحقيقة (أحمد بن على ابن ابراهيم بن محمد) الذى أعطوه ألقاب (السيد ، البدوى ، ندهة المنضام وأبو فراج ، مجيب الأسرى .. إلخ) وربما كان لا يدرى عن تلك الألقاب المستحدثة شيئا . وأضافوا له خوارق الإحياء والإماتة والنفع والضر وهو لا يملك لنفسه – فضلا عن غـــيره – ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً .

والمشركون دائما وهم يحيطون آلهتهم بأساطير التصرف والتحكم فى ملكوت الله يستخدمونها فى إخافة من يتصدى لحرب تلك الأكاذيب ، وقد واجه الرسل هذه الحرب النفسية بمنتهى الإيمان والثقة فى أن تلك الاشاعات والأضاليل إنما هى من نسج المشركين أنفسهم اختلقوها ونشروها وصدقوها وأخافوا بها من يفكر فى الاعتراض أو تغيير المنكر .. وعلى مدى القرون التى قضاها نوح عليه السلام فى دعوة قومه لنبذ تلك الآلهة فإنه اضطر فى نهاية الأمر إلى إعلان تحديه السافر لكل تلك الآلهة ودعا المشركين صراحة إلى الاتحاد معا بآلهتهم وتصريفها لإلحاق الأذى به إن استطاعت هذه الآلهة شيئا .. واقرأ معنى ذلك فى قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون ﴾ يونس : ٧١ .

وقوم عاد اتهموا نبيهم هودا بأن آلهتهم مسته بسوء فأشهد الله على كفرهم

وأعلن براءته من ذلك الاعتقاد وتحداهم أن يحاولوا مع آلهتهم ما استطاعوا له كيداً يقول تعالى ﴿ .. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال : إني أشهد الله وأشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيدون جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ هود ٥٣ : ٥٦ .

وحين حاج ابراهيم قومه أخافوه بغضب الآلهة عليه ، ورد عليهم ابراهيم مبينا وجه الحق بما عرف عنه من حلم ورفق ، (وحاجه قومه قال: أتحاجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ الأنعام ٨٠ : ٨٣ .

ومحمد عليه وعلى الأنبياء أفضل الصلاة والتسليمات لم ينج من تلك الحرب النفسية وقد أخبر بها الله في كتابه العزيز إذ قال ﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ الزمر : ٣٦ ، فكان كفار قومه يخوفونه بغضب اللات والعزى وهبل ومناه وقد رد عليهم القرآن مبينا أن تلك الالهة الأموات قد أصبحت ترابا لا يد لها لتبطش ولا عين لها لترى ولا اذن لتسمع وأمر الرسول ﷺ باعلان التحدى أسوة بالرسل السابقين ، التحدى لتلك الألهة فالله هو وليه وحاميه ووكيله ، أما تلك الأولياء فلا تستطيع أن تنصر أتباعها أو أنفسها .. وفي ذلك يقول تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم اعين يبصرون بها

أم لهم آذان يسمعون بها قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ الأعراف ١٧٤ : ١٩٧ .

ثم جاء الصوفية يكررون مقالة السابقين ويخيفون المعترض على أوليائهم بالويل والثبور وغضب الآلهة آلهتهم المزعومة ، وقد صاغوا هذه الادعاءات فى قصص مؤثرة تخيروا لها بعضا من الأسماء اللامعة فى التاريخ أو عزوها لبعض الشخصيات المجهولة ، والمهم أن (الحبكة الدرامية) لها فعل السحر عند القارىء ، خاصة إذا كان عامى الفكر أو صوفيا معتقداً فى الأولياء .

وقد تولى الشعرانى كبر هذه الدعوة فى القرن العاشر فاخترع كثيرا من القصص جعل البلاء ينزل فيها على من يعترض على المولد الأحمدى يقول مثلا (أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى أن شخصاً أنكر حضور مولده — أى مولد البدوى — فسلب الإيمان فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام فاستغاث بسيدى أحمد فقال بشرط أن لا تعود فقال : نعم فرد عليه ثوب إيمانه[1]) أى أن للبدوى التحكم فى خطرات القلوب ودقائق الاعتقادات ، ومن هنا يستطيع أن يجعل المعترض على مولده كارهاً فى الإسلام فإذا تاب واقلع حببه فى الإسلام .. وغريب مايقوله هذا الشعرانى ، فالله سبحانه وتعالى الأجل الأعظم الأقدس قد ترك حرية الاختيار فى كل قلب بشرى مسلما كان أم كافراً ، وجعل للبشر الحرية المطلقة والاختيار التام فى النية وخطرات القلوب فقال عز من قائل ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ . الأنفال : ٤٢

إلا أن الشعرانى يجعل من سيده البدوى متحكما حتى فيما رغب عن التحكم فيه المتحكم القيوم الجبار .

(١) الطبقات الكبرى ١٦٢/١ .

وإلى جانب التهديد بسلب الإيمان خوفوا المترضين بسلب العلم ، وفى هذا العصر كان العلم لا يزيد عن كونه حفظا للمتون والنقول دون ابتكار أو تجديد أو شخصية علمية ، فكان الفقيه المتعلم يخشى على حصيلته من النصوص التى يحفظها دون فقه أو فهم ، والذاكرة البشرية معرضة للنسيان ، وقد استغل الصوفية هذه الحال المتردية فأخافوا أقزام العلماء فى أواخر العصر المملوكى وفى العصر العثمانى بأنهم إذا اعترضوا على البدوى فسيمصف بما يمتلكون من حفظ ويتساوون حينئذ بأى جاهل عامى .. يقول الشعرانى (ووقع ابن اللبان فى حق سيدى احمد فسلب القرآن والعلم والإيمان فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدروا أن يدخلوا فى أمره فدلوه على سيدى ياقوت العرشى فمضى إلى سيدى احمد وكلمه فى القبر وأجابه وقال له : أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رسماله فقال : بشرط التوبة ، فتاب ورد عليه رسماله[1]) .

والذى تعرفه مصادر التاريخ للقرن الثامن أن ابن اللبان لم يكن أبداً من المنكرين على الصوفية لسبب بسيط وهو أنه نفسه كان من أبرز الصوفية الملحدين ، يقول فيه المقريزى (نسبت إليه عظائم منها أنه قال فى ميعاده بجامع مصر أن السجود للصنم غير محرم وإنه يفضل الشيخ ياقوت العرشى شيخه على بعض الصحابة[2]) وعقد له مجلس لمحاكمته وادعى عليه الفقهاء (بأشياء منكرة من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه[3]) كما ورد نفس الشىء فى تاريخ ابن كثير وهو معاصر لابن اللبان ـ ومصادر تاريخية أخرى[4] .

وقد حلا لبعض الصوفية أن يزايد على الشعرانى فأورد قصة ابن اللبان

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٦٢   (٢) السلوك ٢/٢/٢٠٨ .

(٣) تاريخ ابن كثير ١٤/١٧٧ .

(٤) فتوح النصر لابن بهادر مخطوط ٢ / ١٧١ وشذرات الذهب ٦ / ١٦٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٩/٩٤

واعتراضه المزعوم على البدوى فى صورة حافلة بالتفصيلات الدقيقة ومنها أن الرسول بنفسه تشفع لابن اللبان عند البدوى فى نهاية الأمر ورد عليه العلم والقرآن والإيمان[1] أورد عليه (رسماله) .

وفى عصر كالعصر المملوكى اضطربت فيه العقيدة الدينية بين إسلام معلن كدين رسمى وتصوف مشرك كدين عملى كانت حوادث الارتداد والاتهام بالكفر تلطخ صفحات هذا العصر، ومن المنتظر على هذا ألا يعول الصوفية على التخويف بسلاح سلب العلم والإيمان فقط ، فاخترعوا سلاحا إضافيا هو التخويف الجسدى وهو سلاح مضمون المفعول ، يقول الشعرانى (وحكى لى شيخنا ـ الشناوى ـ أيضاً أن سيدى أبا الغيث بن كتيلة أحد العلماء بالمحلة الكبرى وأحد الصالحين بها كان بمصر فجاء إلى بولاق فوجد الناس مهتمين بأمر المولد ـ مولد البدوى ـ والنزول فى المراكب فأنكر ذلك وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم مثل اهتمامهم باحمد البدوى فقال له شخص: سيدى أحمد ولى عظيم فقال: ثم ـ أى هناك ـ فى هذا المجلس من هو أعلى منه مقاما ، فعزم عليه شخص فأطعمه سمكا فدخلت حلقه شوكة تصلبت فلم يقدر على نزولها بدهن أو عطاس ولا بحيلة من الحيل ، وورمت رقبته حتى صارت كخلية النحل تسعة شهور وهو لا يلتذ بطعام ولا شراب ولا منام ، وأنساه الله السبب فبعد التسعة شهور ذكره الله بالسبب فقال : احملونى إلى قبة سيدى أحمد فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس فعطس عطسة شديدة فخرجت الشوكة مغمسة دما فقال : تبت إلى الله تعالى ياسيدى وذهب الوجع والورم من ساعته[2]) .

ومن منا لا يقرأ هذا الكلام ولا يتحسس حلقه ، أو يحاذر من أكل

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ٧٧ ، ٨٠ (٢) الطبقات الكبرى ١٦٢/١

السمك ؟؟ لقد وضع الشعرانى أصابعه على موضع الضعف عند كل إنسان ولعب على هذا الوتر بمهارة ليخيف من يعترض على البدوى .. ويقول : (وأنكر ابن الشيخ خليفة بناحية ابيار بالغربية حضور أهل بلده إلى المولد فوعظه شيخنا الشيخ محمد الشناوى فلم يرجع فاشتكاه لسيدى أحمد فقال : ستطلع له حبة ترعى فمه ولسانه فطلعت من يومه ذلك وأتلفت وجهه ومات بها[1]) إلى هذا الحد بلغت حدة الصوفية فى تصوير انتقامهم الشفهى ممن يعترض على مولد البدوى وسلطانه على النفوس ، وهو انتقام يعبر عما يجول فى نفوسهم وأحلامهم من حقد على خصومهم فى الرأى والعقيدة .

وجهد البدوى وأتباعه فى التآمر السياسى ترك ظلا على ادعاءات التخويف والتهديد التى يشيعونها فكان للحكام منها نصيب ، وقد كانت العلاقة بين الحكام والصوفية العاديين على أفضل ما يكون .. وحرم الصوفية المتشيعين المتآمرين من هذه المعاملة .. ومع تخفف الأحمدية فيما بعد من أثقال الدعوة السياسية السرية فإن حقدهم على الحكم المملوكى الذى أفشل جهودهم ـ تجلى فى تخويفه بالكرامات كما يفعلون بالمنكرين، مع أن السلاطين المماليك كانوا فى الأعم الأغلب ممن يقدسون الصوفية ويقبلون شفاعتهم ويقيمون لهم الخوانق والربط والزوايا .. ولكن الأحمدية وشركاءهم فيما بعد تحسبوا لأى انكار من جهة الحاكم كما كان يحدث مع أسلافهم فى عصر البدوى فعملوا على تخويفه مسبقا فأطلقوا على وليهم البدوى لقب (العطاب) وروجوا لهذا اللقب فيقول فيه الحلبى فى العصر العثمانى (ولا مانع أن يكون عطابا فى الحرب والنزال ثم صار عطابا بسلب الأحوال وإيقاع السوء لمن يؤذيه[2]) .

واشتهر بهذا اللقب (العطاب) الشيشينى فقيل فيه (كان عطابا فكل

---

(١) الطبقات الكبرى ، ١/١٦٢ .

(٢) النصيحة العلوية ٢٧ المكتبة الأزهرية : مخطوط .

من تعرض له بسوء عطب) وقد نفخ السكاشف ـ أى والى المقاطعة ـ (فانتفخ وارتفعت يداه ورجلاه وصار يصيح[١]) وكان محمد بطاله كثير العطب لمن يرد شفاعته من الحكام[٢]، وكان للأحمدية الآخرين كالأشعث والفوان بطولات وهمية مع الحكام[٣] ، وقال (أبو طرطور) « كل فقير لا يقتل بعدد شعر رأسه من الظلمة فليس هو بفقير[٤] » .

ونحن فى حيرة من هذه المقالة . فهل نفذها (أبو طرطور) الموصوف بأن له (كرامات كثيرة مع الحكام) وإذا حدث فمعناه أنه قضى على الظلم فى عصره وهذا ما لم يحدث ، أم أنه (أبو طرطور) لا يعترف بوجود فقراء أو صوفية يستحقون هذا الوصف لأنهم يعجزون عن قتل حكام بعدد شعر الرأس .. لا ندرى .. ماذا يقصده بالضبط أبو طرطور .. وإن كنا نعرف بالقطع انه ناقم على الحكام كباقى زملائه فى الدعوة السرية ويعتبرهم ظلمة مع ان اولئك الظلمة يتقرب إليهم سائر الصوفية الآخرين ويحظون بنوالهم بينما يظل ابو طرطور مبعداً عن الساحة يجتر حقده وغيظه ولا يملك إلا طرطورا من الجلد .

على ان الأحمدية اهتموا بابراز عنفهم الشفهى مع الظلمة كتعبير عن رأيهم السياسى فى السلطة المملوكية فأشاعوا ان المظاليم يحتمون بقبر البدوى وان تابوته يتقرقع إذا حاول ظالم ان يؤذى مستجيراً به وان تابوت عبد العال أحرق أحد الظلمة وأنه ـ اى عبد العال امات الملتزم فى بلدة الشناوى[٥] .

وكان اخوف ما يخافه الأحمدية ان يتعرض الحكام للمولد الأحمدى

---

(١) : (٤) الجواهر ٣١ ، ٣٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦ .

(٥) نفس المرجع ٧٦ ، ٨٢ : ٨٥ ، ٨٩ .

مصدر الرزق الأساسي لديهم ، وقد حدث أن السلطان جقمق أبطله سنة ٨٥٢ فتوالت الكرامات فيا بعد تفسر كل المصائب في ضوء غضب البدوي على تعطيل مولده واهتمت تلك الأساطير بعقاب من أفتى بإبطال المولد (ثم بعد قليل حصل لكل واحد من المفتين والمتعصبين في إبطال المولد المذكور غاية الضرر فبعض المفتين عزل من منصبه وأمر السلطان بنفيه فحصلت له شفاعة وبعضهم هرب إلى دمياط ثم أحضر وعزر ووضع في الزنجير وحبس في المقشرة .. إلخ). إلى أن يقول (فنسأل الله العافية والسلامة[1]) مع أنه من المألوف في العصر المملوكي أن من يقترب من السلطان الحاكم فلابد له من أن يذوق النكال بعد النعيم . فهو حكم عسكري قائم على التآمر والفتن ومن يصل إلى مقربة من السلطة فلابد برغم أنفه أن يشارك في تلك السياسة وأن يذوق حلوها ومرها ، ولا شأن للبدوي أو مولده بما يجري من مألوف السياسة المملوكية الذي تحكيه كل صفحة في التاريخ المملوكي .

وقد أقام الأحمدية حجرا أسود في مقام البدوي وتبركوا به ودعوا الناس لتقديسه بدعوى أنه أثر لقدم النبي ﷺ ، والإسلام ينكر أن يتوسل المسلم بالنبي نفسه لا بقدمه أو حجر مجهول الأصل ولكنها العودة الوثنية الفصيحة وعبادة الأحجار ، وفطن الأحمدية إلى ما يمكن أن يترتب على هذا العمل من إنكار متوقع فبادروا بحرب التخويف ضد من يحاول إخراج ذلك الحجر من حكام أو محكومين ، يقول عبد الصمد عن حجرهم المقدس (وكل من زار الأستاذ يتبرك بمحل القدمين وسعى جماعة عند بعض السلاطين في إخراجه من محله ونقله للسلطان ليتبرك به فأرسل السلطان جماعة من الجند يأخذون الحجر فلما هموا بقلعه صار الحجر مما لا يقدر أحد أن يأخذه وهو على الهيئة التي كان عليها قبل ذلك فخافوا وتركوه في محله إلى وقتنا هذا[2]) .

---

(١) الجواهر ٧٠ : ٧١ (٢) عبد الصمد ، الجواهر ٨٣ .

ومن المهارة فى سبك هذه الرواية أنه يقول أن ذلك السلطان المجهول الذى لا نعرف له إسما ولا لقبا أرسل الجند لاقتلاع الحجر لا لأنه منكر يجب إزالته ولكن ليتبرك السلطان به وحده دون الناس جميعا ، ومع ذلك فان الحجر المقدس استعصى على ثلة الجند وأخافهم كما يدعى .

وفى الوقت الذى يخيف فيه البدوى أعداءه والمنكرين عليه فى الأساطير الأحمدية فأن أتباعه ومريديه يحظون بلحظة .. و (اللحظ) معناه العناية والمدد والعون ، أى أن البدوى (يلحظ) أتباعه بالرعاية والعون والحفظ . وذلك طبعا ما يشيعه الأحمدية .. يقول بعضهم فى ذلك :

أبو اللثامين بالالحاظ قد لحظا   من حل حيه من الأسواء قد حفظا

ويقول آخر :

وهو الذى للزائرين ملاحظ   ولهم بأنواع اللطائف يتحف
لا سيما فى المولد الزاهى الذى   شمس الفضائل فيه ليست تكشف

ويقول آخر أن البدوى يمد الأولياء أنفسهم بلحظة : —

يمـــد الأولياء ببعض لحظ   ويحمى الجار حيث الحال حالا(١)

وإذا كانت الأولياء الأخرى تستمد العون من البدوى فإن صاحبنا قد أوتى عظيما من التصرف فى الملك والملكوت . . وهذا ما يعتقده الصوفية ويعبرون عنه فى أشعارهم فيقولون عنه : —

أنت فى الكون حاكم وخصيم   لعدو يعدو عـــلاه الشقاء
أنت تعطى الزوار خير عطاء   من ضريح به التقى والغنـــاء

ويقولون :

هو الوابل الهطال عم انتفاعه   على الكون أحيا كل أرض جدبه
له ينصب الكرسى فى شاهد العلا   ويقضى بأمر الله بين الخليقة(٢)

---

(١) نفس المرجع : ١١٤ ، ١١٨ ، ١٣٩ .
(٢) نفس المرجع : ٩٤ ، ١٠١ : ١٠٢ .

أى أن البدوى يتحكم فى الكون بأمره فيقسم الشقاء لأعدائه والسعادة لأتباعه ، وهو الذى ينزل الغيث فيحيي كل أرض جدباء فى الكون وهو الذى ينتصب له الكرسى فيجلس فيه ليقضى بين الخلق

ولم يعد ثمة ما يبقى لله تعالى فى اعتقاد الصوفية الأحمدية طالما أن للبدوى فى الكون الملك والأمر .

وهكذا يقول أحدهم فيه :

أنت الذى عمت الدنيا مآثره   أنت المجيب لمن فى الكرب ناداكا

ويقول آخر :

من عمنا إحسانه فبحمده   وبمدحه وبشكره نترنم (١)

ويقصد البدوى !!

ولعل الإحساس بالفشل السياسى فى دنيا الواقع دفع بالأحمدية إلى المبالغة فى الادعاءات الكافرة فى دنيا الخيال ، وهنا نلمح نوعا من التوافق وتقسيم أحلام اليقظة فى التحكم فى ملك الله بين البدوى والدسوقى شريكه فى المؤامرة السياسية مع الرفاعى شيخ الجميع وفى ذلك يقول الحلبى (سئل الدسوقى عن البدوى فقال : الدنيا مقسومة بيننا وبينه أربعة أقسام ربع لى وربع لأخى أحمد الرفاعى وربع لسيدى عبد القادر الجيلانى ـ وهو شيخ أبى مدين زعيم الدعوة فى المغرب ـ وربع لحضرة الأستاذ سيدى أحمد البدوى ، وكل منا يتصرف فى ربعه إلا حضرة الأستاذ الأعظم أحمد البدوى فأنه يتصرف فى الجميع وخصه الله تعالى بخصيصة لم يخص بها أحداً سواه وهو أن الله تعالى جعل له كرسياً فى مكان بين السماء والأرض يتصرف فى أمور العالم العلوى والعالم السفلى (٢)) .

---

(١) نفس المرجع ١٢٢ ، ١٢٨ .

(٢) النصيحة العلوية ، مخطوط مكتبة الأزهر ورقة ٣٧ ب

ونقول لأولئك ما يقوله تعالى للمشركين فى كل عصر وأوان على لسان رسله وأتباعه ﴿قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا﴾ فاطر : ٤٠ ، و ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثرة من علم إن كنتم صادقين﴾ الاحقاف : ٤ ، وفعلا .. فيا أتباع البدوى وأولياء الصوفية ويا من تعتقدون فيهم التصريف والنفع والضر أرونا ماذا خلق أولئك فى الأرض .. وما لهم من تصريف فى السماء .. ثم أرونا دليلا وشاهداً مكتوبا على تلك الملكية وذلك التصريف .

إن حقيقة الأمر أن هذه الآلهة المزعومة لا تملك فى كون الله وملكوته مثقال ذرة ، وإذا شاء الصوفية التحقق من هذا الأمر فعليهم بالوقوف معاً أمام أى وثن أو ضريح صوفى وليتوسلوا به بأى كيفية فلن يرد ، وكيف يرد وهو تراب رميم « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير » سبأ : ٢٢ ، ثم إذا شاء الصوفية فعليهم بكل أوليائهم وجاههم المزعوم وتصريفهم الكاذب وليرونا هل يستطيع البدوى قطب الأقطاب وسيد الأولياء الصوفية أن يخلق ذبابة واحدة . « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره » الحج : ٧٣ ، ٧٤ .

وثمة ناحية أخرى فى مظاهر الشرك أبى الصوفية الأحمدية إلا المشاركة

فيها أسوة بسلفهم من كفار قريش ألا وهى التماس الشفاعة من الأولياء كاحدى مستلزمات التصريف والمكانة فى السماء يوم القيامة .

يقول تعالى عن كفار قريش « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ ، أى كانوا يسمون الآلهة بالشفعاء عند الله تعالى ، وكان اتخاذ الشفعاء مرادفا لاتخاذ الأولياء يقول تعالى « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل : أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعا » الزمر : ٤٣ ، ٤٤ ، أى تصرفوا بدافع ذاتى فاتخذوا لهم أولياء يشفعون لهم عند الله ، وقد رد تعالى بأن هذه الأولياء لا تملك شيئاً وأصحابها لا يعقلون فلله وحده الشفاعة ومن شأنه وحده تقرير الأمر فيها .

والبدوى طالما يجلس على كرسى بين السماء والأرض يتصرف فى العالمين العلوى والسفلى ويقسم بالخير لأتباعه والسوء لأعدائه ـ فى هذه الحالة لابد أن تكون الشفاعة فى يوم القيامة إحدى مهامه وهو يتبختر فى مقعده بين السماء والأرض .. ليتم له السلطان فى الدنيا والآخرة خاصة وهو فى برزخ بين الدنيا والقيامة .

وإتخاذ البدوى شفيعاً بدأ فيما رواه خليفته عبد العال الذى يروى أن البدوى رأى قبل وفاته بثلاثة أيام (كأن القيامة قد قامت وأنى واقف بالمحشر فألهمنى الله عز وجل هذا الدعاء فرفعت رأسى إلى السماء وقلت اللهم يارب كل شىء . . اغفر لى كل شىء . . قال وإذا النداء من العلا يافتى محق ما سألناك عن شىء اذهب يا أحمد أنت ومن معك وادخل الجنة قال فبينما أنا كذلك وإذ بالذى يهنئنى ويقول لى هنيئاً لك يا أحمد فرفعت رأسى ونظرت وإذ أنا بعلم كبير على رأسى وتحته خلق كثير منهم من أعرفه ومنهم

من لا أعرفه ومكتوب عليه بالنور : نصر من الله وفتح قريب لأحمد البدوى ومن معه من المريدين والفقراء الصادقين ، فلما انتشر العلم فوق رأسى رأيت تحته من الخلائق ما لا يحصى وهم يمشون خلفى حتى دخلت الجنة)[١] .

وبهذه الأسطورة المفتراه ضمن الصوفية الأحمدية لأنفسهم الجنة بشفاعة وليهم البدوى مهما ارتكبوا فى مولده من آثام . فيكفى أنهم يحجون إليه فى مولده ويتمتعون بما يشاءون من اختلاط بالنساء (والبساط أحمدى) والبدوى بما له من تصريف فى الدنيا والآخرة قد كفل لهم الجنة وأراحهم من العمل فى سبيلها ..

يقول الشعرانى راوياً عن الشناوى المريد الأحمدى (أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى أن شخصاً أنكر حضور مولده فسلب الإيمان فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام فاستغاث بسيدى أحمد فقال : بشرط أن لا تعود فقال نعم فرد عليه ثوب إيمانه ثم قال له : وماذا تنكر علينا قال : اختلاط الرجال والنساء فقال له سيدى أحمد : ذلك واقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه ثم قال: وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته ، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار وأحميهم من بعضهم أفيعجزنى الله عن حماية من يحضر مولدى)[٢] .

وفى ذلك يقول البعض متباهياً بالمولد الأحمدى وما يحدث فيه برضى البدوى ورعايته وشفاعته :

ومولده فى كل عام يزيدنا … سروراً له شدت من البعد أنيق(٣)
به تجمع الأضداد جمع أحبه … ويحفظهم حتى يكون التفرق

(١) الجواهر ٤٧ .
(٢) نفس المرجع ٧٤ ، الطبقات الكبرى للشعرانى ١٦٢/١
(٣) (أنيق) جمع ناقة . أى تجهز له الرحال من كل فج عميق .

وأعجب شيء إن من كان عاصياً بمولده يعنى به ويرفق(١)

وادعوا أن البدوى قال :

ومن عاش بعدى سوف يشهد مولدآ به تجمع الأضداد ليس له مثل
وتأتى له الزوار من كل وجهة رجالا وركبانا كأنهم نمل
فمن زارنى فيه تنحت ذنوبه وفاز بغفران لما قد جنى قبل
وعاد إلى أوطانه فى جلاله وعز وتكريم وقد عمه الفضل(٢)

ودعا الصوفية الأحمدية إلى التشفع بالبدوى واتخاذه شفيعا يقول أحدهم :

فاخلع عذارك واغتنم صرف الهوى بالسعى مجتهداً إلى حاناته
وإذا ضللت فبالملثم لذ عسى يهديك نشر السر من نفحاته(٣)

ويقول آخر متشفعاً به :

فيابدوى العزم عبد ببابكم لطائفه المداح جاه يكاثر
وأنت له عند النبى وسيلة إذا هى ضاقت بالقلوب الحناجر(٤)

وآخر يقول :

واشفع لنا يا سيدى يا منجدى يا مقصدى يا من أزال تحيرآ
عولت فى أمرى عليك فلا تكن يا سيدى فيما أريد مقصرآ(٥)

وإلى أولئك جميعاً يقول تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ فاطر ١٣ ، ١٤ .

ويقول تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءا وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ الأحقاف ٥ ، ٦ .

ومع أن الله تعالى منح بعض أنبيائه بعض المعجزات خدمة للرسالة فإن

---

(١) الجواهر ١٢٠ (٢) الجواهر ، ١٢٣ (٣) نفس المرجع ١٣٦ .
(٤) نفس المرجع ، ١٠٩ (٥) نفس المرجع ١١٠ .

الرسل يعلنون أنهم لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا وأن النفع والضر بيد الله وحده . . وقد لخص القرآن ذلك كله فى كلمة واحدة قالها لمحمد ﷺ « ليس لك من الأمر شيء » آل عمران : ١٢٨ . ويقول عليه السلام كما أمره الله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله » الأعراف : ١٨٨ » و « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله » يونس : ٤٩ ، وكل مسلم - أو حتى كل إنسان عاقل - يقر ويعترف بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا . . فالرسول ساوى بين نفسه وبين كل إنسان فى هذه الكلمة . . وهنا يتجلى التأليه الذى يعتقده الصوفية فى أوليائهم حين يرفعونهم فوق مستوى الرسل خير الخلق أجمعين .

٣ - الغيب : والله سبحانه وتعالى كما اختص ذاته المقدسة بالتصريف - اختصها بعلم الغيب ، وإسناد علم الغيب لله تعالى وحده جاء بأسلوب القصر وهو الأسلوب المتبع فيما يختص بعقائد التوحيد فى القرآن الكريم ، فكما أن شهادة التوحيد « لا إله إلا الله » هى قصر للألوهية على الله تعالى وحده فانه تعالى يقول مثلا « قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله» النمل : ٦٥ .

ويلاحظ أن بعض الآيات التى قصر الله تعالى فيها علم الغيب على نفسه كانت ترد على المشركين ممن يدعون أن آلهتهم تعلم الغيب ، فالآية السابقة مثلا تقول « قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون » أى فلا أحد فى سماء أو أرض يعلم الغيب إلا الله وحده ، أما هذه الآلهة الميتة المقبورة فلا تعلم حتى مستقبلها الشخصى وهو متى تبعث من موتها . . وفى آية أخرى يقول تعالى « له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً » الكهف ٢٦

وهو تعريض بالمشركين ممن يعتقدون فى أوليائهم التصريف وعلم الغيب ، ومثله قوله تعالى ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ النحل ١٩ : ٢١ ، وهذه الآية الكريمة لخصت كل ما سبق فبينت أن الله هو وحده الذى يعلم السر والعلن أما الآلهة الأخرى فهى مجرد مخلوقات خلقها الله وخلق الناس حولها أساطير وأباطيل ، وإذا كانت هكذا فأحرى بها ألا تخلق شيئاً ، خاصة وهى ميتة ولا تشعر حتى بميعاد بعثها ..

وكالتصريف أيضاً . أسند الله تعالى لبعض الرسل العلم ببعض الغيب خدمة للرسالة وحتى يؤمن بها قوم الرسول ، يقول تعالى للمؤمنين ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾ آل عمران ١٧٩ ، أى فالمؤمن لا يعلم شيئاً من الغيب ولا يطلع الله أحداً من البشر على غيبه إلا من يجتبيه من رسله ، بل إن بعض الرسل كان يعلن أنه لا يعلم شيئاً من الغيب فيقول كل من محمد ونوح عليهما السلام ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ الأنعام ٥٠ ، هود ٣١ ، وخاتم الأنبياء عليه السلام أمره الله تعالى بذلك كثيراً ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء ﴾ الاعراف ١٨٨ ﴿ قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمداً عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول ﴾ الجن ٢٦ . أى أن محمداً ﷺ يعلن أنه لا يعلم شيئاً من غيب الله الذى لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى واجتبى من رسول ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾ صدق الله العظيم .

وجاء الصوفية فادعوا لأنفسهم ولأوليائهم علم الغيب شأن المشركين فى كل عصر وأوان ، حتى إن من أولى المستلزمات لأى صوفى أن يكون

متمتعاً (بالكشف) والكشف هو علم الغيب وبالتعبير الشعبي (مكشوف عنه الحجاب) . . وترسب فى الشعور الشعبي إن الغيب الآلهى مباح لكل من هب ودب من دجال أو نصاب ، وأولئك الدجالون يرتدون زى التصوف ويعرفون بلقب « الشيخ » والتصوف بالقطع هو المسئول عن ذلك الخلط بين « الشيخ » العالم و « الشيخ » ، الدجال صاحب البخور والفنجان والعفاريت والجان . .

وإذا التفتنا للبدوى وجدنا أتباعه قد أحاطوه بعلم الغيب فجعلوا من أشهر كراماته أنه علم بالغيب أن ثعباناً يقبع داخل قربة لبن يحملها رجل ، وبما يتمتع به من تصريف أومأ للقربة « بإصبعه الشريف فانقدت وانسكب اللبن وخرجت منه حية »[١] وقالوا إنه دعا ركين الدين يوماً وقال له « ياركين إن الله تعالى اطلعنى على غلاء عظيم يقع فى الكون » ونصحه بشراء القمح وتخزينه وهو رخيص ليبيعه حين يرتفع السعر[٢] . أى أن الاتباع كافأوا التاجر ركين الدين شفهياً بهذه الكرامة نظير ضيافته للبدوى . .

وحين حوصر البدوى بشكوك السلطات الحاكمة وتولى ابن دقيق العيد كشف حقيقته وانتهى الأمر إلى لا شىء لم يشأ الأحمدية أن تمر هذه المسألة دون فائدة فادعوا أن البدوى أظهر لابن دقيق العيد بعض الكشف والعلم بالغيب تدليلا على ولايته وبرهاناً على صدقه . من ذلك أنه قال للدرينى رسول ابن دقيق العيد « إن الاجوبة مسطرة فى كتاب الشجرة فوجدوها فى الكتاب كما قال » ولا نعرف ما هو كتاب الشجرة هذا . . وقالوا إن البدوى قال للدرينى « قل لقاضى القضاة ـ ابن دقيق العيد ـ يصلح غلطاً فى المصحف الذى عنده معلقاً فى صدر بيته غلطة فى موضع كذا وغلطة

(١ ، ٢) الجواهر ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١

فى موضع كذا »[1] .

وبعد موت البدوى أسبغ بعض أتباعه على أنفسهم ماشاءوا من علم الغيب فيوسف الانبابى عزل وولوا إبنه إسماعيل المرضى عنه وسرعان ما أصبح إسماعيل الإنبابى يخبر بالغيب « وكان يقول رأيت فى اللوح المحفوظ كذا وكذا »[2] .. وقالوا عن مبارك السطوحى « إنه يخبر الناس بما يخطر فى قلوبهم »[3] أى يعلم ما تخفى الصدور .

وهذا التوسع فى إسناد العلم بالغيب للأتباع السطوحين شمل بعض ممتلكات البدوى كالبهائم التى يرعى بها الشيخ عبد العظيم الراعى . فتلك البهائم — وياللعجب — كان لها من الإلهام نصيب ، وليس ذلك عليها بغريب . . أليست بهائم البدوى شخصياً .. يقول عبد الصمد فى ترجمة عبد العظيم الراعى « وكان كثيراً ما يرسل البهائم والغنم إلى البرسيم من غير راع فتأكل من مارس سيدى أحمد البدوى ولا تتعدى للجار بل تخلى للجار من البرسيم نحو خط محراث وكانت تعرف مارس سيدى أحمد بالإلهام »[4] .

وفى القرن العاشر أبى الشعرانى إلا أن يشارك فى هذه المباراة — مباراة الافتراء والإدعاء بعلم الغيب للبدوى وأتباعه ومتعلقاته فجعل هلال المئذنة لقبة البدوى يشارك الله تعالى فى علمه بالغيب .

يقول (ومما رأيته إنى كنت جالساً على سطح للقام وقت الزوال فرأيت هلال قبة سيدى أحمد البدوى يدور ويزعق كالحجر العظيم من حجارة المعصرة الذى ليس تحته حب فدار نحو ثلاث دورات ثم جاء الخبر بنصرة السلطان سليمان بن سليم بن آل عثمان على أهل رودس فى ذلك الوقت) واسند

---

(١) الجواهر ٤٤ ، ٤٥

(٢) نفس المرجع ٢٨

(٣) نفس المرجع ٣١

(٤) نفس المرجع ٢٨

الشعرانى لتابوت البدوى نفس الإمتياز يقول (وكذلك ما سمعنا تابوته يفرقع ويزعق إلا ويحدث فى المملكة أمر)(١) وفى الجملة الاخيرة جرى أسلوب الشعرانى بالقصر (ما سمعنا تابوته يفرقع . . إلا ويحدث . .) وهو نفس الأسلوب الذى يُقصَر به علم الغيب على الله تعالى ﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله) ونكمل الآية فنقول للصوفية عن البدوى وغيره من الأولياء الموتى « وما يشعرون أيان يبعثون » .

وواقع الأمر أن ميل الصوفية الأحمدية لتقديس الأحجار شديد شديد .. فأعظم الأحجار تقديساً لديهم هو قبر البدوى وهو حجر، و(الحجر الاسود) فيه يتبركون به و (هلال المئذنة) يخبر بالغيب ومثله (التابوت) ، وللتابوت وظيفة أخرى هو الدفاع عن المظلوم فحين هجم جندى ظالم على صبى احتمى بالتابوت (فرقع التابوت ذلك الوقت وارتفع نور عظيم حتى ملأ بين السماء والارض ورآه أهل البلاد المجاورة لبلد الاسعاذ فظنوا أنه حريق وقع بها وجاءوا ليحطاوا فى إطفائه مع أهل البلد فوجدوا ذلك الحال ، ووقع جماعة إلى الارض صرعى من شدة الحال وثارت حركات شديدة خارجة عن الحد نخاف الجندى وأتباعه وتركوا الصبى واعتقدوا فى سيدى أحمد البدوى منذ ذلك الوقت)(٢) أى إن كل هذه الجلبة والضوضاء والاضواء والنيران والجرى والاغماء لكى يخاف الجندى فى النهاية ويترك الصبى المسكين ويعتقد فى البدوى وتابوته .. وكم كان أسهل عليهم وعلينا أن يدعوا تسمير الجندى « وخلاص ويادار ما دخلك شر » ، لأننا فى حالة الهيجان التى ادعوها سنطالبهم بدليل فى المراجع التاريخية المعاصرة للحدث .. وقد كان ضريح البدوى وقتها مشهوراً ولن تمر حادثة عجيبة كهذه دون أن يطنب فى ذكرها

(١) نفس المرجع ٨٢ . (٢) الجواهر ٨٤ .

المؤرخون وهم جميعاً بلا استثناء يقدسون البدوى ويحجون إليه وإلى تابوته.

ونضيف إلى مجموعة الأحجار المقدسة تابوت عبد العال خليفة البدوى فـ (بعض الفقراء شاهد نارا خرجت من تابوته فأحرقت واحداً من الظالمين حصل منه تعرض لبعض أتباع سيدى احمد البدوى)[1] .

هذا . . وإذا أصر الصوفية المعاصرون على أن توابيت البدوى وخلفائه تضر وتنفع فلنحتكم للتجربة، وليذهب البعض من المؤمنين بها بمعاول لهدم تلك التوابيت ولنر هل ستخرج منها النيران أو ستطفح منها المجارى . . « وإنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

والذى لاشك فيه أن موقف الناس من هذه القضية ينبع من العقيدة الإيمانية .. فمن « يؤمن » بالبدوى ويعتقد فيه لن يرى فى أحجار ضريحه وتراب قبره إلا ما يستوجب التقديس والتبجيل ، وإليها يتوجه بالحب والحج .. أما من لا يؤمن بالبدوى وأنداده فلا يرى فى تلك الأحجار إلا إنها أحجار ، مجرد أحجار حملت إلى هذا المكان وبنيت ، ولا تفترق عن غيرها من الأحجار والأخشاب سواء دخلت فى بناء ضريح أو كنيسة أو بيت أو حظيرة للدواجن ، أما مايضاف لها من تقديس فهو أساطير زينها الشيطان فى العقول والقلوب . وهنا ندخل على عنصر آخر من عناصر تأليه البدوى ورفعه فوق مستوى البشر .. إنه عنصر الإيمان به .

٥ ـ الإيمان بالبدوى : فى الإسلام تكون « الشهادة » إقرارا بالألوهية والربوبية لله وحده وبأن محمدا وما سبقه من الأنبياء صادقون فى أخبارهم عن الله تعالى، فشهادة التوحيد تقصر الألوهية والربوبية على الله وحده فلا إله إلا الله وتؤمن بالرسول كرسول .. وقد سبق أن الرسل قد حددت خصائصهم

---

(١) الجواهر ٨٩ .

بما لا يتعدى مستوى البشر حتى فيما يظهره الله عليهم من خوارق وغيب لتأييدهم فى وظيفة الرسالة والدعوة.. فهم بها فى نهاية الأمر بشر ولكن يوحى إليهم .. وهذا الوحى لا يعلو بهم إلى مستوى الألوهية ولكن يحملهم مسئوليات تفوق مسئولية البشر العاديين مع تساويهم مع باقى الناس حتى المشركين فى الوقوف أمام الله يوم الحساب حين المساءلة « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين » الأعراف : ٦ ، ويقول تعالى لمحمد ﷺ مساوياً بينه وبين القرشيين فى المسئولية والحساب « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » الزخرف : ٤٤ ، ويقول له مساويا بينه وبينهم فى الموت والتخاصم أمام الله حين الحساب « إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » الزمر : ٣٠، ٣١، وفى النهاية يعبر القرآن عن منتهى المساواة بين البشر جميعاً وقت الحساب باطلاق لفظ « النفس » ، أى كل نفس بشرية تأتى لتدافع عن نفسها أمام الله تعالى يوم الحساب سواء أكانت نفس نبى مرسل أو نفساً مؤمنة أو نفساً كافرة. يقول تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » النحل : ١١١، فهنا مساواة أمام البشر جميعاً أنبياء وكفرة ـ فى المساءلة ، وعدالة فى الثواب والعقاب.

بهذا يؤمن المؤمن حين يقر بشهادة الإسلام .. فهو يشهد بالربوبية والألوهية والتحكم لله وحده ، ويقر بأن نبيه فلانا « محمد أو عيسى أو موسى أو هود » هو الرسول المخبر عن الله .. فكل الرسل جاءوا لأقوامهم برسالة واحدة هى توحيد الله وأنه لا إله إلا هو . . « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ والإسلام هو الدين الإلهى الوحيد الذى قال به كل الأنبياء . كل بلغته ولسانه « إن الدين عند الله الإسلام .. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » آل عمران : ١٩، ٨٥ (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ..) إبراهيم ٤ .

وشهادة التوحيد هى التى تجمع المسلمين فى كل عصر .. وكل مسلم يؤمن بكل الأنبياء فى حدود إمكاناتهم كبشر .. أما إذا غالى فى رسوله فأضفى عليه صفات الإله الواحد تعالى وتقدس فقد خرج عن التوحيد والإسلام وأصبح مشركا ..

على أن بعضهم غالى فى المغالاة .. وأضفى صفات الألوهية على غير الرسل وجعل من البشر آلهة وطالب غيره بأن يؤمن بأن « فلانا ابن فلانه » يتصرف فى ملك الله ويعلم غيب الله ويدخل أتباعه الجنة ويقسم لأعدائه النار ومن عاداه حقت عليه اللعنة و(دخلت فى حلقه شوكة) و « طلعت فى وجهة حبة رعت وجهه فات » وان تابوته يحرق من يتعرض لأتباعه بسوء .. ومطلوب من الناس ان يؤمنوا بهذا وإلا « فمن اعترض انطرد » وحاقت به لعنة الأولياء ومقتهم وسخطهم ... وهذا ما يتردد فى ترجمة البدوى الذى جعله عبد الصمد واسطة بين الله والناس إذ يقول فى مقدمة كتابه « ومن المعلوم ان اجتماع القلوب على محبته وخدمته وذكر مناقبه ومآثره ونشر ما انطوى من فضائله وفواضله أسباب نشرها البارى جل وعلا مقتضية لفيوض الرحمة وتنزلات غيث النعمة[1] » .

ثم جعل من عبد العال واسطة عند البدوى ـ اى واسطة للواسطة ـ يقول عن عبد العال « إن كل حاجة عرضت عليه أولا قضيت فى باب استاذه الأعظم سيدى احمد البدوى لكونه الواسطة العظمى بينه وبين أتباعه ومريديه حيا وميتا[2] » أى أن كل حاجة تقدم للبدوى لابد لكى تقضى أن تمر أولا بقبر عبد العال الواسطة بين البدوى واتباعه .. ونسوا ان الله تعالى سهل الامر على المؤمنين ومنع أن تكون واسطة بينه وبين عباده فقال « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا

(١) و (٢) الجواهر ٤ ، ٨٩ .

لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » البقرة : ١٨٦ ، ولـكن اولئك الذين حرموا الرشاد دعوا الناس للايمان بالواسطة التى يتوجهون إليها ـ من دون الله ـ له بالتوسل والعبادة والتقديس ، ثم قرنوا دعوتهم تلك بالتخويف والإرهاب للمعترض على عقيدتهم ونحلتهم وسوق لنا التعرض للحرب النفسية التى أعلنوها على المنـكرين عليهم .

وكما أن الله تعالى يدعو الناس للايمان بألوهيته ويحذر من عصاه فأتباع البدوى يسلـكون نفس الطريق يدعون الغـير للايمان بالبدوى كإله ويحذرونه من العصيان والانـكار عليه ، يقول أحدهم[١] .

سلم إلى البدوى القطب ياهذا .. ولا تفه بنـكير مثل من هذا
واذكـر مناقبه فى أى طائفـة بأى قول من الأقوال بدأ ذا
وما عليك إذا حدثت من حرج وليس تدعى بما قد قلت ملاذا
وارض به سنداً تأوى لعزته واجعله بين الورى مولى وأستاذا

فهنا أمر بالتسليم للقطب ـ أى البدوى ـ وألا يتفوه بأى اعتراض ، وأن يذكر مناقبه بلاأدنى حرج وأن يرضى به سنداً ومولى من دون الله تعالى.

ثم هنا أمر آخر بالإيمان لا يخلو من إشارة للتخويف .. يقول صاحبنا[٢]

عليك ببيت فيه المحتمى العز وللظالم الأسواء والذل والعجز
وذلك بيت القطب أحمد كنزا من المدح فيه بالصريح كذا والرمز
ولى كساه الله من خلع الرضا ملابس عز والجلال لها طرز

وآخر يصف من لم يؤمن بالبدوى بالـكفر واليهودية وعبادة الطاغوت يقول[٣] :

ومن عاداه من أصحاب سبت وعبـــاد لطاغوت وجبت

(١ : ٣) الجواهر ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٩ .

رماهم ربهـــم فى بكل مقت   عليه صـلاة ربى فى كل وقت
بتسليم له المولى يضاعف

ويقول آخر(١) :

فمن يشك أنه القطب   بنـــار يكتوى
فياعزيز الأوليـــــا   وردى بذكرى روى

وعبد الصمد فى مقدمة كتابه يشيد بالمؤمنين بالبدوى ويحط من شأن من لم يؤمن به يقول « أما بعد فلما كانت الطريقة الأحمدية واضحة يهتدى بها الضالون ويتوصل بها إلى بلوغ مقاصدهم السالـكون ويتشرف بسلوكها الواصلون ويتفقه باتباع عالمها الجاهلون ويتدانى من الرأفة والرحمة من هم فى أهلها معتقدون ويتباعد عن ذلك الذين هم على أصحابها منـكرون ومنتقدون .. »(٢) .

وكان الإيمان شهادة وإقرار بالالوهية لله فالبدوى هو الآخر شهادة وإقرار بالالوهية . يقول احدهم فيه(٣) .

السيد العـــالى الذى بعـــلوه   شهدت له الأموات فى الأمارس
فضلا عن الأحياء من رب السما   والأرض بل من سائر الاجناس

ويقول آخر(٤) :

له قد أقر العرب والعجم مثلما   أقر له البادون والحضر والقبط
وهـــذا عجيب ما سمعنا بمثـله   ومنـكره لاشك فى باله الخلط ..

ولا نمل من تـكرار القول بأنه لا يجتمع إيمان حقيقى بالله مع الإيمان بغيره من ولى أو إله .. هذا هو الشرك بعينه . والتوحيد هو الإيمان بإله واحد لا يكون إلا الله وحده وليس معه بدوى أوغيره ..

(١ ، ٢) الجواهر ١٣٨ .
(٣ ، ٤) الجواهر ١١١ ، ١١٤ .

٦ - حب البدوى كإله :

ويقترن بالإيمان الحب حب تقديس .. وحب التقديس هو حب الخضوع والخشية والإخبات والخوف والرجاء ، هو الحب المقترن بالعبادة أو هو حب العبادة أو العبادة حباً .. أو الحب الذى يتوجه به العابد للمعبود والإنسان للإله الذى يتوسل به .. ومن نافلة القول أن نذكر أن هذا الحب - حب التقديس - لا يتوجه به المسلم إلا لله وحده ويحققه عمليا بالطاعة ، فطاعة الله هى الحب الحقيقى من المسلم لربه .

أما فى الشرك فإن المشرك يحب آلهته حب تقديس وخضوع - أى يحبهم الحب الواجب لله وحده ، أى يحبهم كحب الله ، يقول تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ البقرة : ١٦٥ ، فحب المشركين لأوليائهم المتخذة يختلف فى طبيعته عن حب الإنسان لأخيه الإنسان .. فالحب بين البشر له دوافعه وأسبابه المختلفة والتى تخضع لعنصر المساواة والتقلب والزيادة والنقص حسب التعامل المستمر والأهواء وحظ النفس ، فأنت تحب فلانا أو فلانة لهدف فإذا نلت الهدف أو تغير شعورك ضاع الحب أو خفت ، وفى دنيا الواقع فإن الإنسان يطالب المحبوب بحب مماثل وإلا فلا ، فالمساواة أساس فى التعامل العاطفى بين الطرفين ولابد من هدف للحب ، أما حب الإنسان لمعبوده فلا يتصور أن يكون فيه مساواة - وإن كان ثم هدف لجلب نفع أو دفع ضرر ، ولأن طرفى الحب - حب التقديس - يزيد أحدهما عن الآخر كان على الأقل شأنا أن يصبغ حبه بالخضوع والخنوع والخشية والخوف والرجاء والطاعة والتقديس .. وهذا ما توجه به الصوفية للبدوى وحفلت به أشعارهم .

ولقد ارتبط مدح البدوى باعلان المريد لحبه حب تقديس مقترن بطلب

النفع والنوال مثلما يفعل المؤمن العابد لربه حين يثنى على ربه فى الدعاء طالبا ما يريد من خير فى الدنيا والآخرة .

وحرص الصوفية على بدء قصائدهم فى البدوى ببث لواعج هذا الحب وشرحه والإفاضة فيه .. يقول أحدهم(١) .

زال العنا وتجمعت كل العجائب   فى حجرة البدوى فراج النوائب
قطب الوجود صاحب العزم الذى   لعلوه وجـلاله سعت الركائب
وبه القربى لذوى القربى ولمن قرى   وبه الحماية والمنافع والمشارب

ويقول آخر(٢) :

هو البدوى العزم فى القلب راسخ   فغير مديح القطب ما أنا ناسخ
ففى مدحـه نفع عظيم لمـادح   ومستمع القول بالحب شارخ
فـكم من كرامات له قد تتابعت   رواها بحق الأنام المشـــايخ
ومنها اعتراف المـادحين لذاته   بعجز ومن يبغى لحصر فدائخ

فصاحبنا لا يرى غير البدوى مستحقا للمدح ، وإن مدح البدوى عظيم النفع للقائل والمستمع ، وإن المادحين للبدوى اعترفوا بعجزهم عن حصر كمالاته ومن يحاول حصرها (فدائخ) أى تصيبه الدوخة .

وعن التصميم على حب البدوى والسرعة فى نظم المديح فيه حبا ورغبة يقول مريد أحمدى(٣) .

حديثى عن البدوى فى السكون قد فشا   وقد ملت عمن لامنى فيه أو وشى
فـكيف التوانى عن مدائح سيدى   هواه بقلبى والمفاصل والحشا

ويقول آخر(٤) :

قسما بمن يشفى الأنام ويمرض   عن مدح أحـمـد لا أعرض

(١ : ٣) الجواهر ٩٦ ، ٥٠ ، ١١٢ .

(٤) الجواهر ١١٣ .

بل ما حييت فأنني بمدائحى ... لجنابه بين الورى أتعرض
وإذا دعيت لمدحه فى مجمع ... أسرعت فى عزم شديد أركض
فمديحه نفع ويوم بجيئه ... إن دوام التمداح فيه أبيض
تالله ما فى الأولياء كمثله ... والبيتى حق وليست تنقض
فهو الذى فى الكرب يدعى دائما ... وإلى الأسير بهمة هو ينهض
وأنا أعود إلى مديح ملثم ... أرضى الأنام وللإله بتفرض
بجنابه لذنا فمن أوطاننا ... كل المخاوف والمهالك تدحض

ويطالب آخر بالمغالاة فى البدوى (١) :

أيها الفكر فى علاه تغالى ... وامتدحه فالمدح فيه يهون
وامتدح شيخه مجيب الأسارى ... وابن بنت النبى طه الأمين

وفى موشح يدعى آخر بأن من يحب البدوى يأمن من الخوف (٢) :

قطب شريف من أشراف ... من حبه فلا يخاف

والواقع إن التوسل وطلب النفع المرتجى من البدوى كان السمة الغالبة فى أشعار الحب الأحدية كقول أحدهم (٣) :

ها خاطرى لم يزل بالبعد منكسرا ... لكن لقلبى نسيم البشر منك سرى
وشاقنى منك عهد طاب موثقه ... به لقد فزت فى الدنيا وفى الأخرى
وسرنى انتمائى والتجأت إلى ... أبواب عزك ياحامى حمى الفقراء
أنت الملثم قطب الكون معتمدى ... فحل الرجال أبو الفرحات بحر قرا
وأنت شيخى وملاذى وقدوتى وكفى ... لك الكرامات فى الإنجاد للأسرى

ويقول آخر (٤) :

إن قلبى يحب غوث البرايا ... من يسامى أبا اللثامين فينا
سيد العارفين أحمد من قد ... كان قطب الوجود صدقا ويقينا

(١ ، ٢) الجواهر ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣ ، ٤) الجواهر ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

بدوى يحمى الحمى بحماه ... كم له من كرامة تحيينا
حدث فى مدحه بقيل وقال ... وهو فى غنية عن المادحينا
غيرانى لحبه مستند ... مستمد من الوارد كينا
ذكره ينعش القلوب وتحيى ... كل روح ويطرب السامعينا
فلهذا صرفت قصدى إليه ... وجعلت الفؤاد منى رهينا

ثم يقول عبد الصمد فى ختام كتابه[1] :

لقد جاء تأليفاً وجيزاً مباركاً ... بنسبته للقطب ذى الجود أحمدا
يرغب فى حب الملثم دائماً ... ويوجب فيه الاعتقاد المؤيدا

والحب بين البشر ليس فيه هذا التوسل وتلك العبادة . فذلك الحب هو ما عنته الآية الشريفة ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

والمشهور أن محمداً ﷺ قال « لا تطرونى – أى لا تمدحونى – كما اطرت النصارى عيسى بن مريم » .

ولكن ذلك هو محمد وهو بشر .. ولكن صاحبنا هو البدوى وهو عند أتباعه إله .. وهذا الفرق . .

(ب) عبادة البدوى

قد يبدو هذا العنوان غريبا لأننا تعارفنا لفظا على أن العبادة لا تكون إلا لله ، مع أننا فعلا نمارس العبادة لغير الله باستمرار دون أن ندرى . . والسبب أننا نشأنا على أن العبادة هى ما نؤديه لله تعالى من صلاة متعجلة بحركات سريعة وهمهمات يتولى اللسان إخراجها بلا عقل أو فقه ، أو ما نقوم به من امتناع عن طعام أو شراب فى رمضان دون امتناع عن زلات اللسان

(١) الجواهر : ١٤٢ .

بل على العكس يصبح صيامنا فى رمضان تكأة للانفعال والسباب والشتم ومبرراً لملء البطون فى الليل وللنوم فى النهار .. وحين نقوم بالحج فإن غاية الغنى هى السياحة والهدايا وزيارة (قبر الحبيب) واكتساب لقب (الحاج) .

لقد فرغنا عناصر العبادة الإسلامية من مضمونها الأساسى وهو التقوى ومراقبة الله وخشيته وأن تكون وسيلة للسلوك الحسن مع النفس والناس ، لا ان تكون مجرد هدف شكلى نخدع به أنفسنا قبل أن نخدع به الغير .

وفى الوقت الذى حولنا فيه العبادة الإسلامية إلى مجرد مظاهر وأشكال خالية من مضمون حقيقى فإننا فعلا نمارس شعائر التصوف وعباداته بنفس الأشكال الإسلامية تقريبا ولكن بدرجة أعلى من الإخلاص واليقظة والوعى .. ونحن هنا على موعد لإثبات ذلك فى بحثنا عن عبادة البدوى أشهر الأولياء فى مصر (ومحل تقديس أهلها من قرون) كما تقول دائرة المعارف .

الصلاة للبدوى : الصلاة فى المعنى هى الدعاء والتوسل يقول تعالى (وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم) التوبة : ١٠٣ ، أى ادع لهم بالرحمة ، فالرسول مأمور بالصلاة علينا نحن المسلمين ، ونحن مأمورون بالصلاة عليه أو بالدعاء له بالرحمة كما أن الله تعالى يصلى عليه أن يرحمه والملائكة أيضا أى تدعو له يقول تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ الأحزاب : ٥٦ ، اللهم صلى عليه وسلم .. والله تعالى يصلى علينا كما يصلى على رسوله يقول تعالى ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ الأحزاب : ٤٣ .

والصلاة فى الشكل هى قيام وركوع وسجود فى هيئة خاشعة ، والقرآن الكريم عبر عن الصلاة بالركوع والسجود فقال عن الصحابة ﴿ تراهم ركعا

سجداً ﴾ الفتح : ٢٩ ، وقال لنا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ الحج : ٧٧ ، والذين آمنوا إذا أفلحوا كانوا خاشعين فى هذه الصلاة محافظين عليها ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . . . والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ المؤمنون : ١ ، ٢ ، ٩ .

فالله سبحانه وتعالى شرع لنا الكيفية التى نؤدى بها الصلاة له بنفس الشكل الذى نؤديها به من ركوع وسجود وقيام فى هيئة خاشعة وفى أثناء ذلك ندعوه ونتوسل به بالفاتحة فى صدر كل ركعة ـ والفاتحة هى ثناء على الله ودعاء وتوسل به وبالتسبيح والتضرع فى كل ركوع وسجود وتشهد .

هذه هى الصلاة الإسلامية فى حقيقتها دعاء وتوسل من حيث المضمون وركوع وسجود وقيام فى خشوع من حيث الشكل ولا تفترق الصلاة التى توجه بها الصوفية للبدوى عن الصلاة الإسلامية ففيها دعاء وتوسل ولا تخلو من قيام وركوع وسجود وإن كان ثمة اختلاف ففى أن الصلاة للبدوى تؤدى بلا سهو أو انشغال أو سرحان وإنما بحضور وخشوع ووعى ، ثم أنه لا يطلق عليها صلاة فاعتقدنا أن الصلاة ليست إلا ما نقوم به من حركات فى المواقيت الخمسة ونحن مشغولون بكل شىء سوى الصلاة .

الصلاة للبدوى كدعاء وتوسل :

وكما أنه فى الصلاة الإسلامية دعاء وتوسل بالله فان فى الصلاة (البدوية) توسل بالبدوى ودعاء موجه إليه لدفع ضرر أو جلب نفع ، خاصة وهو (ندهة المنضام) .. والتوسل بالبدوى عبادة كاملة يمارسها الصوفى فى كل وقت إذا حاقت به مصيبة .

يقول أحدهم[1] :

إذا ما أحاطت بى صنوف المتاعب ... وخفت من الخطب الكريه المتاعب
أتيت إلى كهف منيع وسـيد ... قضيت به فى كل أمر مطالبى

ويقول آخر[2] :

إذا الدهر قد آسـاك يوماً بريبة ... وأصبحت منها فى عناء وشـدة
وصارت صروف الدهر تبدى عواصفا ... بإعصار نار فيه أحـلاك وظلمة
وقد ضاق منك الزرع وانقطع الرجا ... وآيست من اجلاء تلك الغيومة
فبادر واسـع إلى نحـو طندتا ... بصدق وإخلاص وإصراف همة . .

فالصوفى إذا ألمت به مصيبة نسى الله وسافر سعيا للبدوى (بصدق وإخلاص واصراف همة) .. وإذا تباعدت المسافة بين الصوفى وطنطا فيمكن له الاكتفاء بالنداء فالبدوى قريب من أتباعه .. يقول أحدهم[3] :

يا من رماه الدهر بالازعاج ... ناد بعـزم يا أبا فراج
فهو الأمان من الحوادث إن أتت ... وهو الملاذ لنا وهون الراجى
وهو المراد إذا الخطوب تراكمت ... وهو المجيب لدعوة المحتاج

وتكفلت الأساطير الصوفية باعلان أن البدوى يسارع باجابة الملهوف فأولاد المطوف تمتعوا بحماية البدوى وإذا تعرض حاكم لأحدهم يقول : « ياسيدى أحمد فيجيبه فى الحال »[4] وفى أسطورة أخرى إن البدوى قال لإبن أخيه « إذا اشتقت إلى فاطلع على جبل أبى قبيس وناد بأعلى صوتك فأنى أجيبك ولو كنت خلف جبل ق[5] » والدسوقى رفيق البدوى فى الدعوة يخاطب مريده بمثل ذلك يقول « ياولدى إن صح عهدك معى فأنا منك قريب غير بعيد وأنا فى ذهنك وأنا فى سمعك وأنا فى طرفك وأنا فى جميع حواسك

(١ : ٥) الجواهر ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ٢٩ ، ٣٩ .

الظاهرة والباطنة)[١] وقد جعل الأحدية عامة الأولياء ومنهم ذلك الدسوقى يتوسلون بالبدوى قطب الأقطاب ، يقول أحدهم[٢] :

وقد سعت أوليـــاء الله فى ملأ من الرجال ذوى الأنفـــاس والهمم
بالشرق والغرب جاءوا طالبين قرى من صاحب الوقت والإمداد بالنعم
وكم ولى وكم قطب أتاه وكم من عارف جاءه يسعى عـــلى قدم
كيما يفوز بأقـــدام يسر به من فيض أفضـــاله للمنجى من النقم

وعلى ذلك فالبدوى أسرع فى الإجابة من الدسوقى الذى هو قريب من مريده وهو الذى يحل فى جميع حواس المريد إذا دعاه ، وأقرب إليه من حبل الوريد حسبما يزعمون .

وكما يترنم المسلم فى صلاته لله بأسماء الله الحسنى تزلفا إليه وطلبا لمرضاته وأملا فى نواله فان الصوفى يتغنى أيضا بصفات للبدوى نحتها من الاعتقاد فى تصريفه وغياثه للخلق المتوسلين به .

يقول أحدهم[٣] للبدوى فى توسله :

يا ملاذ الورى وكنز غناهم يا شريفا تسمو به الشرفاء
يا محط الرجال يا قطب غوث يا جوادا فى حبه الاعطاء
يا مرد الرجال فى كل كرب يا حليما من شأنه الاغضاء

ويقول آخر عنه[٤] :

يا من رماه الدهر بالازعاج ناد بعـــزم يا أبا فراج
فهو الأمان من الحوادث إن أتت وهو الملاذ لنا وعون الراجى
وهو المراد إذا الخطوب تراكمت وهو المجيب لدعوة المحتاج
وهو الطبيب لنـا ومرهم طبه يبرى ضعيف الحال دون علاج
ولقد دخلت إلى حمـاه بعلتى وقد استعذت به من الاحراج

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٥٣ (٢) الجواهر ١٣٦ .
(٣ ، ٤) الجواهر ٩٣ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ .

وآخر يقول(١) :

١ إن الملثم أحمد يتعرف — لمؤمل من طيبه يتعرف
وهو المجيب لسائل يتوسل — إذ باسمه عند المخاوف يهتف
وهو الملاذ إذا الخطوب تراكمت — وهو المعاذ فى الشدائد يعرف
وهو الذى فى الكرب يكشف غمه — وهو الذى للسوء عنا يصرف
وهو الذى تلقى السعادة عنده — وهو الذى يحنو عليك ويعطف
وهو الذى عمن أتى أعتابه — كل المخاوف والمتاعب يكشف . إلخ

وأسلوب التوسل كان يكشف عن أقصى قدر من الخشوع والابتهال للبدوى كقول أحدهم وهو الشهاب العلقمى(٢) .

قد آتيناك يا ملثم نرجو — مددا تنتفى به الضراء
ونزلنا نرجو قراك ضيوفا — أنت تدرى ما نبتغى ونشاء
عبدك العلقمى أحمد يرجو — ما به قد وعدت ومنك الوفاء

ويقول آخر(٣) :

أتيت حماك الرحب استمطر الندى — وبذل أياد مالهن مضارع
وحاشا وكلا أن أخيب وأن لى — فؤادا بقصد الخير ما هو قانع
نحوتك أرجو منك سالت حاذق — نجد لى واسعفنى بما أنا طامع
أغيرك ينحوه المؤمل أو سوى — رحابك أهل تثنى إليه المطالع

ونسى صاحبنا تماما أن الله أعز وأكرم وأرجى .

ويقول آخر مطالبا بنجدة(٤) سريعة .

بدوى النجاد أدرك ودارك — قد آتينا إلى حماك ودارك
أنت ذخرى دعوتى وملاذى — وأنا الآن داخل فى حلالك
انجد انجد هيا وهيا سريعا — ذمة العرب لا تضيع بذلك

---

(١) الجواهر ١١٧ ، ١١٨ .
(٢ : ٤) الجواهر ٩٢ ، ١١٦ ، ١٢٠ .

ونحوه آخر يقول[1] :

يا أيها البدوى إنى صرت جارك ... ولى البشـــارة حيثما يممت دارك
ولقد آتيتك ســـائلا متوسلا ... وبالانكسار نزلت منزلك المبارك
يا أيهـــا البطل العزيز بطنتدا ... قد مسنى الضر والتمس اقتدارك
وبباب عزتك احتميت من العـدا ... فتول نصرى أننى أرجو انتصارك
لا تتركنى للأراذل خاضـعا ... وأجر مضاما فى حماك قد استخارك
وأقام فى أبواب عزك داعيـــا ... وعلى الأحبة أجمعين قد استجارك
وانصره ياغوث الورى وأدم له ... فتحا على طول المدى وله تدارك
فالنصـــر والفتح المبين محقق ... لمن احتمى بك وارتجاك وحل دارك

ثم يقول آخر كأنه يخاطب الله تماما[2] :

إنى آتيتك يا ذا المشرع العـــالى ... فانظر بلحظك فى شأنى وفى حالى
ولا تكلنى إلى من ليس ينصرنى ... ولا إلى ذى جفـــا للعهد لى قالى
ففاقتى لك يا ذا الطول قد علمت ... من كسر قلبى ومن حالى ومن قالى
وقد تحاميت فى الجاه المديد فلا ... تردنى خائبـــا من فيض أفضالى
ومن أولى بغوث منك يا أمـــلى ... ومنتهى رحلتى ومنائى بل وآمالى
وصن بعزك ياذا الطول وجهى ... عن سؤال غيرك ممن حاله بالى
وقد نزلته ببـــاب فاز قاصده ... بكل قصد وتعظيم وإجـــلال

والفاتحة أشهر نصوص التوسل فى الصلاة ولا تحوى مبالغة فى الخضوع كما يظهر فى الأبيات السابقة .

الصلاة للبدوى من حيث الشكل :

والدعاء أو التوسل كان يقال للبدوى فى حالة قيام خاشع أو ركوع متبتل أو سجود خانع .

(١) الجواهر ١٣١ .
(٢) الجواهر ١٢٤ .

يقول أحدهم يشرح كيفية التوسل للبدوى[1] :

فيأيهـــا الملهوف لازم جنـــابه ولذ بالحمى والبس ثياب المـــذلة
وقبل ثرى الأعتاب وابدأ تحية بتحسين ألفـــاظ واتقان فطنة
وكن خاشعا قلبا وكن فى رحابه أدوبا خضوعا ذا حياء وخشية
وذرها ملأى بالدمع تبدو سواجما على صفحة الخدين تجرى بعبرة
وقل ياعظيم الجاه يا عمدة الرجى أيا شيخ كل العرب وابن النبوة
آتيتك ملهوفا وقلبى مـــوله أجرنى أبا العباس من نار لهفتى
أغثنى وادركنى ... الخ ..

فصاحبنا يأمر المتوسل بتقبيل تراب القبر وبدأ التحية بأحسن الألفاظ وبعقل واع مع خشوع القلب مع الأدب والخضوع والحياء والخشية ثم تهل العين بالدموع السواجم وبعدها يقول يا عظيم الجاه ياعمدة الرجى .. الخ .

وتقبيل التراب معناه السجود . فصاحبنا لا يستطيع أن يلمس بشفتيه التراب إلا إذا سجد وتقوس ظهره .. ونحوه ما يقول البكرى[2] :

فرغ الخـــد فى أعتاب حضرته لعـــله بالرضـــا والبشر يلقاكا
وناد يا سيدى بالباب منكسر عسى يجيب بمآثر جوده دعواكا

وتمريغ الخد فى الأعتاب نوع آخر من السجود يشارك فيه الخد والوجنتان الشفتين فى تقبيل التراب .

والوقوف أمام ضريح البدوى ليس وقوفا عاديا بل هو خضوع كامل وتوجه تام للرفات الميت لعله يسمع ويجيب وإن كانوا يعتقدون حياته الأزلية وتصريفه الكامل .

(١ ، ٢) الجواهر ١٠٢ ، ١٢١ .

يقول الملاح[1] :

قم بانكسار هــل يحصل جبره مرغ خدودك فى ثرى عتبــاته
واقرأ السلام وقف بجاه ضريحه بتأدب واستجل من نفحــاته
وانظر إلى الأنوار منه تصاعدت واشهد شــهود الحق من مرآته

فهنا أمر بالقيام بانكسار وذلة مع تمريغ الخدود فى التراب كالعادة ثم يقرأ السلام بتأدب ويحاول أن يرى الأنوار المتصاعدة من الضريح وبالطبع فلن يرى شيئاً إلا ما يزينه له شيطانه ، ثم تتم الفاجعة بقوله : « واشهد شهود الحق من مرآته » أى أشهد وجود الله فى ذلك الوثن . !!
ويصف البكرى وقوفه أمام البدوى[2] فيقول :

وقفنــا بخضــوع نرتجى فيض أفضال لهم تأتى لنــا
وبسطنا أيدى الفقــر نبتغى ساد من جاهم نال الهنــا

وفى الأقاصيص والأساطير الصوفية كان البعض يكب على يدى البدوى وقدمية يقبلهما ، وتقبيل اليدين مع الخشوع هو الركوع بعينية كما أن تقبيل الرجلين بنفس الخضوع هو السجود تماما .

وفى قصة دخول البدوى لبيت ركين الدين قالوا أن صاحب البيت حين عرف البدوى (قبل يديه ورجليه وتبرك به وجثا على ركبتيه وجلس متأدبا بين يديه[3]) وهذا النص لم يترك من أشكال الصلاة شيئاً فتقبيل اليدين ركوع وتقبيل الرجلين سجود والجثو على الركبة ركوع آخر والجلوس متأدبا كالجلوس للتشهد ثم التبرك به هو الدعاء والتوسل أو مضمون الحركات فى الصلاة .

وفى قصة اعتراض ابن دقيق العيد على البدوى وتركه للصــلاة حكوا

(١ ، ٢ ، ٣) الجواهر ١٣٤ ، ١٣٠ ، ٤٠ .

أسطورة تقول أن ابن دقيق رأى نفسه فى جزيرة واسعة ولم يعرف الطريق للعودة وقابله الخضر فيها ونصحه بأن يعتذر للبدوى حين يأتى للصلاة فى تلك الجزيرة المجهولة وحين أتى البدوى (تعلق الشيخ ابن دقيق العيد بأذياله وكشف رأسه وجعل يقبل يديه ورجليه ويبكى ويستغفر ويعتذر وأنصف من نفسه)[١] أى أن ابن دقيق العيد فى تلك الأسطورة انتهى إلى أن يصلى للبدوى بعد أن كان يعترض على ترك البدوى للصلاة .

وكأنما أصبح تقبيل اليدين والرجلين عادة سيئة عند كتاب الأساطير الأحمدية يعاقبون من خلالها من يشاءون من الحكام فقد قالوا أن الظاهر بيبرس جاء إلى مكة متنكرا فتعرف عليه الحسن أخو البدوى وحين أدرك الظاهر بيبرس أن تنكره لم يعد مجديا اكب بقبل أقدام الحسن[٢] ، وقالوا أن ابن اللبان حين اعترض على البدوى فسلبه العلم والدين استجار بياقوت العرشى فتوسط له عند البدوى فعفا عنه ثم علم السلطان حسن بهذه الواقعة وأكبر أن يكون لياقوت العرشى وهو عبد حبشى هذه المكانة فعرف ياقوت ما دار بخلد السلطان وخشى السلطان مغبة هذا الخاطر فأقبل على ياقوت (وجثا على ركبتيه وقبل يد الشيخ ورجله .. واستعطف السلطان خاطره[٣]) .

والمهم أن الصوفية مارسوا شعائر الصلاة شكلا بالوقوف والركوع والسجود مع الخشية والخشوع كما مارسوها قولا بالدعاء والتسبيح بأسماء البدوى وصفاته والتوسل به بمنتهى الخضوع والخنوع . فهل بقى من الصلاة شىء تناساه الصوفية أمام البدوى ؟؟ . طبعا تناسوا ما درج عليه الناس من غفلة فى الصلاة وإتيان بحركاتها دون إدراك لما يقولون . هذا إذا صلى ، والأغلب

---

(١) الجواهر ٤٣ .

(٢ ، ٣) الجواهر ٦١ ، ٨٠ .

أن من يصلى هذه الصلاة يحسب نفسه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .. ذلك أننا نعيش عصراً أصبح فيه الإسلام غريبا بحيث أننا نمدح الشخص بأنه (مصلى) كأنما أصبحت الصلاة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط التكليف عن الآخرين ..

البدوى فى الآذان :

ونعود للصوفية الأحمدية وقد عز عليهم أن يخلو الأذان الإسلامى (الله أكبر) من ذكر البدوى فتحايلوا لإدخال البدوى عنصراً من عناصر الآذان ليسبحوا بحمده من فوق كل مئذنة .

يقول عبد الصمد أن ابن اللبان كان يتمشى مع قاضى القضاة فى عصر السلطان الناصر حسن (وإذا هما برجل من جماعة سيدى أحمد البدوى من السادة السطوحية يذكر الله تعالى ويقول : السلام عليك يارسول الله والسلام عليك يا أحمد يا بدوى ويرفع صوته بلهجة السطوحية فقال الشيخ شمس الدين ابن اللبان لقاضى الإسلام : من هذا الذى جمع فى السلام بين سيد المرسلين وبين أحمد البدوى وأشرك البدوى مع رسول الله ﷺ فى السلام ، والله أن هذا الرجل يستحق التعزيز البالغ كيف يقول السلام عليك يا رسول الله والسلام عليك يا بدوى ، فقال القاضى : لعل حب شيخه قد غلب عليه لاعتقاده فى شيخه ، وما زال يقول له لا بل يستحق التعزيز ، وصار يستعطف بخاطر الشيخ شمس الدين بن اللبان فقال : لابد من تعزيزه ، فلما نام الشيخ شمس الدين بن اللبان تلك الليلة إذ رأى فى منامه كأن سقف الجامع قد فرج ونزل منه شخصان أحدهما جلس عند رأسه والآخر جلس عند رجليه فقال الذى عند رأسه للذى عند رجليه : اسلبه الإيمان فقال لا بل نسلبه العلم

والقرآن ونبقى عليه الإيمان فأنه وقع فى حق سيدى أحمد البدوى ثم إن كل واحد منهما مسكه من الناحية التى هو فى جهتها وهزه هزة فطمس الله على قلبه وانتزع العلم والقرآن من صدره فانتبه الشيخ فزعا مرعوباً مسلوب القرآن والعلم لا يحس أن يقرأ آيه ولا يعلم مسألة فى دين الله تعالى[1]) .

أى أن الملكين نزلا من السماء وسلبا المسكين ابن اللبان (رأسماله) من القرآن والعلم لأنه على حد قولهما (وقع فى حق سيدى أحمد البدوى) أى أن البدوى سيد للملائكة أيضاً .

والمهم أن السبب فى المعصية التى حاقت بابن اللبان هو اعتراضه على التسليم على البدوى فى الآذان إلى جانب النبى ﷺ ، والرواية كما سبق مصنوعة فابن اللبان صوفى ملحد لا يتصور من مثله أن ينكر على البدوى .

والواقع التاريخى يؤكد أن العصر المملوكى لم يعرف التسليم على البدوى بعد الأذان كما تدعى تلك الرواية الصوفية الموضوعة – فالعصر المملوكى لم يشهد إلا التحوير فى الأذان بإضافة التسليم على النبى ﷺ ، وقد بدأ ذلك فى سنة ٧٦٥ بأمر من المحتسب صلاح الدين البرلسى الصوفى فقد أمر المؤذنين بإضافة (السلام عليك يا رسول الله) بعد أذان العشاء ليالى الجمعة وقبل الفجر يقول المقريزى (فاستمر ذلك ولم يكن قبله إلا الأذان فقط)[2] وفى عام ٧٨٢ (أحدث السلام على النبى عقب أذان العشاء ليلة الاثنين[3]) أى أضيفت ليلة الاثنين إلى ليلة الجمعة .. ثم ادعى صوفى أنه رأى النبى ﷺ فى المنام وأنه كلفه برسالة للمحتسب نجم الدين الطنبدى يأمره فيها بأن يجعل المؤذنين يصلون عليه عقوب كل أذان ، يقول المؤرخون (وكان الطنبدى فى غاية الجهل

---

(١) الجواهر ٧٧ : ٧٨ (٢) السلوك ٣/٩٤

(٣) إنباء الغمر لابن حجر ٢١٨/١

ضمره قول الرائى فأمر بالصلاة على النبى بعد كل أذان واستمر ذلك)[١] .
وحدث هذا فى عام ٧٩١ .

وإلى القرن العاشر الهجرى حيث سجل الشعرانى دقائق الحياة الدينية والصوفية لم أجد ذكرا للتسليم على البدوى بعد الأذان مما يجعلنا نؤكد أن هذه الرواية وضعت خصيصا بعد عصر الشعرانى لتمهد لإضافة التسليم على البدوى بعد الأذان وتهدد مقدما كل من يعترض على إضافة البدوى للرسول عليه السلام بعد الأذان .. وأى تهديد أخطر ما حدث لابن اللبان فى تلك الأسطورة .

ولا يزال البدوى يتمتع حتى اليوم بالإشادة باسمه من فوق المآذن خاصة فى المساجد الصوفية . مع أن الأذان الإسلامى نص صريح لا يجوز تعديله ولا الزيادة عليه ، ثم إن هذه البدعة تتنافى فى تماما مع قول المؤذن (الله أكبر) فالله أكبر من كل شىء وأعظم من كل شىء ولا يستحق أن يذكر معه على وجه التعظيم شىء آخر من مخلوقاته . .

الحلف بالبدوى :

ولقد وجد البدوى سبيله لألسنة الناس يحلفون به فى إيمانهم المغلظة ، ومعلوم أن القسم لا يكون إلا بالله تعالى ومن حلف بغير الله فقد أشرك ، ويقول ابن عباس (لأن أحلف بالله وأكذب خير من أحلف بغير الله وأصدق) وقد صدق ابن عباس فن حلف بالله وكذب فقد وقع فى معصية وعليه كفارة ، أما من أقسم بغير الله فقد وقع فى الشرك و (أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ النساء ٤٨ ، ١١٦ . والفارق عظيم بين المؤمن العاصى والمشرك .

---

(١) السلوك ٣/٦٦٩ ، النجوم الزاهرة ١١/٣٣١

يقول الشعرانى أنه اجتمع مرة بأحد الأولياء من الهند وقد أتى لزيارة مولد البدوى (فقلنا لهم من عرفكم بسيدى أحمد فى بلاد الهند فقالوا يا لله العجب، أطفالنا الصغار لا يحلفون إلا ببركة سيدى أحمد وهو من أعظم إيمانهم وهل أحد يجهل سيدى أحمد، إن أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده)(١). فالشعرانى يفترى على الهند وصبيانها كذبا حين جعلهم (لا يحلفون إلا ببركة) سيده أحمد البدوى. وأن الحلف بالبدوى من أعظم إيمانهم هناك ـ والكلام لك يا جارة.. فإذا كان الهنود يحلفون بالبدوى فأنتم يا مصريون أحق وأولى بالحلف به وتقديسه.. وإذا كان سائر الأولياء فيما وراء المحيط والجبال يحضرون مولده فأنتم أيها المصريون أجدر بالحج إلى البدوى فى مولده.. هذا ما يقصده الشعرانى.. ويقول مريد احدى فى البدوى(٢):

وكلهم لاعتقاد يحلفون به ... وكم بتمداحه مداحهم لفظا..

ويقول آخر(٣):

وحقك عندى يا ملثم وهو لى ... يمين ثمين حقها ان يضيعا
وقدرك عند الله والبيت والصفا ... ومروة مع حجر وركن ومدعى
وفكك الأسرى وفضلك فى الورى ... وفضل مقام صار للجود موضعا
ونجدك العظمى لمن عندك احتمى ... وجعلك دور السوء بالبطش موضعا
لقد فاز من يسعى بأبواب عزكم ... وخاب الذى فى غير أبوابكم سعى

فذلك الصوفى يقسم بحق البدوى عنده وبقدره عند الله والكعبة والركن ويقسم بأمجاد البدوى المفتراه وضريحه وتصريفه.. يقسم بذلك كله على أن من يسعى فى غير أبوابه خاب، حتى ولو كان يسعى ويطوف حول الكعبة

---

(١) الطبقات الكبرى ١٦٢/١ (٢، ٣) الجواهر ١١٥

نفسها .. ألم يقل بعد تلك الإيمان :

لقد فاز من يسعى بأبواب عزكم وخاب الذى فى غير أبوابكم سعى

أليست الكعبة بيت الله ينطبق عليها قوله (غير أبوابكم) ، ولا نستكثر ذلك على الصوفية فقد جعلوا من (ضريح) البدوى (كعبتهم) المقدسة ، وجعلوا من قدومهم إليه (حجا) و (سعيا) وجعلوا من (مولده) الأشهر الحرم . .

الحج للبدوى :

الحج فى الأصل هو القدوم والقصد تقول حججت إلى فلان أى قدمت إليه وقصدته والحج لبيت الله هو القدوم للكعبة حرم الله فى مدة معلومة من الأشهر الحرم لإقامة شعائر الله من طواف بالبيت ووقوف بعرفة إلى آخر شعائر الحج المعروفة .

الحج بين الإسلام والجاهلية :

ولا حج فى الإسلام إلا لبيت الله الحرام (الكعبة) التى يتوجه إليها المسلم بوجهه خمس مرات فى كل صلاة يوميا ، أما الصوفية فلهم (كعباتهم) التى إليها يحجون فى (أيام حرم) هى الموالد .. ولا شك أن أشهر (الكعبات) التى يقصدونها هى طنطا وقبر البدوى فى مناسبة (المولد) .

وشعائر الحج الصوفى لضريح البدوى تتماثل مع الحج الإسلامى للكعبة بيت الله الحرام .. ففيه قدوم وسعى وطواف ، وضريح البدوى يعامل فى كتاباتهم كأنه الكعبة حتى لقد وضعوا فيه الحجر الأسود ، وزوار الضريح يطلق عليهم حجاج ، وللحج الصوفى أيام معلومة هى مناسبة المولد ، وفى النهاية فالزوار يقدمون النذر لصاحب الضريح كما يفعل الحجاج فى مكة حين يقدمون الهدى والكفارات .

وقد كان العرب الجاهليون مع تعظيمهم للكعبة وحجهم إليها - يحجون إلى أصنام أخر فى أوقات أخر جعلوا لها حرماً أو مكانا محمياً لها ينطوق عليه نفس التقديس الذى لتلك الأصنام والأنصاب ، تماما كما يعاملون الكعبة والحرم فى مكة . . ومن أشهر تلك الكعبات الجاهلية كعبة ذى الشرى فى بطرا حيث يقوم صنم ذى الشرى على قاعدة مكسوة بالذهب يحج إليه الناس على أنه رب البيت . . وإلى جانب كعبة ذى الشرى كانت للجاهليين جملة بيوت أخرى معظمة عرفت بالكعبات أى المكان المرتفع . . ومنها (سنداد) ، ثم كان لنجران بيت عبادة عرف (بكعبة نجران) . . والأصنام المشهورة كاللات والعزى بيوت أقيمت عليها وسدنة . . (فبيت اللات) بالطائف و (بيت العزى) بوادى حراض وتحج إليه قريش وغيرها فى مواسم معينة ، إذ كان لكل من هذه الأنصاب مواسم (أو موالد) يحج إليها الناس فيها ، ومن ذلك أنهم يقصدون كعبة ذى الشرى فى اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول كل عام .

وإذا غيرنا بعض الأسماء والألقاب فلن نجد فارقا بين ما يحدث من الصوفية الآن وما كان يفعله العرب الجاهليون ، فقبور الأولياء هى نفسها الأنصاب والأصنام المقصودة فى الجاهلية بالتقديس والحج . . وعلى سبيل المثال ضع على ضريح الدسوقى (كعبة سنداد) وعلى ضريح أبى العباس المرسى لقب (كعبة نجران) أما البدوى . أشهرهم وأكبرهم فلا يناسبه إلا بيت اللات أو بيت العزى أو على الأقل كعبة ذى الشرى .

ثم تبقى الكعبة بيت الله الحرام مقدسة ومقصودة بالحج فى العصرين الجاهلى والصوفى .

بين ضريح البدوى والكعبة :

لقد أضفى الصوفية على ضريح البدوى صفات الكعبة كما وصفوا زواره

بالحجاج .. فبعد موت البدوى وقيام عبد العال مكانه قيل فيه (لما مات سيدى أحمد البدوى تخلف بعده سيدى عبد المتعال فشيد أركان البيت ورتب الأشاير وقصده الناس للزيارة من سائر الأقطار)(١) أى أن عبد العال أقام ضريحاً للبدوى ولكن هذا العمل يوصف بأنه (شيد أركان البيت) تماما كما قال تعالى عن ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ..) البقرة : ١٢٧ فالله تعالى عبر عن الكعبة بالبيت ، على أنها البيت الحرام المعهود والمعروف ، ولكن عبد الصمد حين قال عن عبد العال (فشيد أركان البيت) لم يكن فى ذهنه إلا بيت البدوى الذى امتلك عليه أقطار عقله وقلبه ونسى أن لله بيتا هو الأحق بأن يكون فى بؤرة الشعور .

وإذ (شيد) عبد العال (أركان البيت) و (رتب الأشاير) أى نظم الأتباع ووزع المهام لرعاية الحجاج (قصده الناس للزيارة) أى حج إليه الناس من سائر الأقطار ، وبعد وفاته سنة ٧٣٣ (فتخلف من بعده أخوه شقيقه الصالح زين العابدين عبد الرحمن فعمر البيت وقصده الناس للزيارة من كل جانب وتبركوا به وأتوه بالنذور(٢)) أى أصبحت مهمة الخليفة تنحصر فى الاهتمام (بالبيت) الذى يحج إليه الناس للتبرك والتقديس وجيوبهم ملأى بالنذور ، وبعبارة أخرى فإن شعائر الحج اكتملت ونضجت على أيدى خلفاء البدوى حتى أصبحت ثابتة مرعية يقول عبد الصمد عن الخليفة الثالث (ثم تخلف من بعده الشيخ الصالح نور الدين شقيق عبد المتعال فلم يزل قائما بشعائر المقام حتى توفى(٣)) أى أصبحت (للبيت) أو (المقام) شعائر ونسك من حج وتزلف وتوسل وقرابين ..

(١) الجواهر ٢٤ (٢ ، ٣) الجواهر ٢٥

ولم يتخلف الشعر الصوفي عن الركب فوصفوا ضريح البدوي بأنه (الحرم) و (الحمى) و (والكعبة) .. من ذلك ما ينسبونه للبدوي(١) :

أنا حرمي المحمى ليس لظالم … عليه سبيل بل به للعدا القتل ..

ويقول آخر فيه(٢) :

ومنزله رحب عليه جلالة … وأحواله الحسنى بها الكون ينطق

ويقول زين الدين الصديقي(٣) :

بدوى النجاد أدرك ودارك … قد أتينا إلى حماك ودارك

ويقول آخر فيه(٤) .

هو الجوهر المكنون في معدن الرضا … بأسراره حلت شموس الحقيقة

هو الكعبة الغراء إذ بالتياذه … تحط الخطايا عن أناس وجنة

فالبدوي في حد ذاته (كعبة غراء) من يلوذ بها تحط عنه الخطايا ،وسواء كان إنساً أو جناً فهو يخرج من هذا الحج (كيوم ولدته أمه) مهما فعل في المولد .. ويقول أحمد الشامي المرحومي(٥) في زوار المولد :

وحجاج إلى بيت حرام … وآل ثم أصحاب كرام

وأتباع لهم أهل اللطائف

ويقول بعض العامة في البدوي موشحاً(٦) يعبر فيه عن مكانة البدوي في وجدان الرعاع :

أبو الثامين شريف ابن الأشراف … مقـــامه بمكة عند المطاف

وأمنـــه فيه الحمى لمن يخاف … بطندتنا في وجهـة الغربيـة

فصاحبنا إما أنه اختلط عليه الأمر أو بالغ فجعل مكة هي طندتنا (في وجهة الغربية) . وربما كان لصاحبنا بعض العذر فقد تعاظم التوافد لطنطا منذ القرن الثامن حتى إن السخاوي في القرن التاسع ذكر قول الغوغاء في مولد البدوي (جاء الزوار لسيدي أحمد من الشام وحلب ومكة والحجاز في المحاير

(١ : ٦) الجواهر ١٢٣ ، ١٢٠ ، ١٠١ ، ١١٩ ، ١٣٢

والماورديات أكثر من حجاج الحرمين)[1] وحتى يجعل الصوفية الأحمدية أولئك الزوار يقتنعون بأن الضريح هو كالكعبة تماماً فقد رصعوا مقام البدوى بحجر أسود يتمسح به الزوار .. يقول عبد الصمد (ومن كراماته ـ أى البدوى ـ إن حجراً أسود مثبتاً فى ركن قبته تجاه وجه الداخل من الجهة اليمنى وفيه موضع قدمين شاع بين الناس وذاع واستفاض وملأ البقاع والأسماع أنه أثر قدمى رسول الله ﷺ وكل من زار الأستاذ يتبرك بمحل القدمين)[2] فالصوفية وضعوا ذلك الحجر الأسود فى مواجهة الداخل وأشاعوا عنه أنه أثر لقدمى الرسول عليه السلام وأحاطوه بالكرامات التى تمنع إخراجه من هذا المكان ، وكل ذلك كى يتبرك به زوار البدوى ويتمسحوا به كما كانت العرب قديماً تفعل بالأحجار والأوثان ، وبذلك اكتمل لضريح البدوى كل صفات الكعبة فجعلوه (البيت الذى يشيد) و (يقصد بالزيارة) و (يعمر) و (تقام فيه الشعائر) ثم يوصف فى الشعر بأنه (الحرم المحمى) و (الكعبة الغراء) و (البيت الحرام) الذى لا يخلو من (حجر أسود) ..

مناسك الحج للبدوى :

القدوم : وقد تكفل الشعر أيضاً بوصف القدوم أو الحج للبدوى وضريحه .

يقول الدنوشرى :

يا سيدى البدوى ياقطب الورى   يا من له سر رفيع قد سرى
أنت الذى جمع الحقائق والعلا   ولك الكمال محققــا وموفراً

إلى أن يقول[3] :

يكفيك تشريفا مجىء عــوالم   من كل أقطار الوجود لهم سرى

ويقول الصديقى[4] يصف حجه للبدوى :

وقطعنا براً وبحراً وجئنا   بجهد العيش فى جميع المسالك

(١) التبر المسبوك ١٧٦   (٢) الجواهر ٨٣
(٣ ، ٤) الجواهر ١١٠ ، ١٢٠

ويقول آخر[١] :

له انقادت الزوار من كل وجهة ومنه جميع الناس ترجو نوالها

ويقول البكرى عن نفسه[٢] :

هاقد أتيت زائراً مستصحبا معى ذوى
بكل أبنائى أتيت راشداً وما غوى
مستمسكين كلنا بحبك الأعلى القوى

أما الشهاب الملقمى فيصف الزوار بالحجيج[٣] يقول :

وتداعت إلى زيارتك الناس كدعوى حجيجهم يوم جاءوا ..

الطواف والسعى :

وأولئك (الحجاج) أدوا مناسك (الحج) من طواف وسعى ونسك وتقديم للهدى أو النذر ، وقد لخص الصوفية تلك المناسك فى شعر نسبوه للبدوى يقول فيه[٤] .

ألا أيها الزوار حجوا لبيتنا وطوفوا بأستار له تبلغوا المنا
وعند الصفا فاسعوا وحلوا رحالكم تحط ذنوب فى مواطن أمننا
وفى يوم عيد الوصل أوفوا نذوركم كذا تفثا فاقضوا وطوفوا ببيتنا
فكل زمان فيه وصلى فعيدكم وكل مكان فيه قربى لكم منى

ففى الأبيات حج للبيت وطواف بأستاره وسعى عند الصفا ووفاء بالنذر يوم العيد ثم طواف الوداع وبعد انتهاء الموسم فكل زمان لمريد البدوى عيد يتمتع فيه بوصل البدوى وإحسانه ، وكل مكان غير طنطا منى فيمتنع المريد بقربى شيخه إذ هو دائماً على خاطره وفى كيانه .

وفى أسطورة ابن اللبان المعترض على البدوى والساعى لإرضائه كان التكفير بأن يطوف حول صندوق البدوى (فسافر الآن من وقتك وساعتك إلى طندتا وطف حول صندوق سيدى أحمد البدوى وأقم عنده ثلاثة أيام)[٥]

(١ : ٣) الجواهر ١٣٧ ، ١٣٨ : ١٣٩ ، ٩٠

(٤ : ٥) الجواهر ١٢٩ ، ٧١ ،

وفى الشعر بعض الاشارات لتلك المناسك فمن السعى يقول أحدهم[1] .

فبادر وأسع إلى نحو طندتا   بصدق واخلاص واصراف همة

ويقول آخر عن المولد كشهر حرام[2] .

لازال مولدك المشهور ياسندى   فى كل عام أتى بالأشهر الحرم

وفى طبقات الشعرانى قال البدوى للمعترض على ما يحدث فى المولد من إنحراف (ذلك واقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه)[3] .

أى أنه كما يقع اختلاط بين النساء والرجال فى الطواف حول الكعبة فلا بأس بأن يقع أيضاً فى الطواف حول البدوى .

النذر كاحد المناسك :

والنذر هو الهدف الأسمى لسدنة الضريح الأحمدى ، وكما يقدم الحاج لبيت الله الهدى من الأنعام فإن الحاج للبدوى يقدم هو الآخر نذراً من الحيوانات والمال ، وكلها يعرف (عجل السيد) الذى كان يجهز ويطاف به فى موكب إلى الضريح ..

يقول عبد الصمد عن خليفة عبد العال (فعمر البيت وقصده الناس للزيارة من كل جانب وتبركوا به وأتوه بالنذور)[4] ثم صارت للسطوحية أضرحة وموالد ونذور كشيخهم ، فالشيخ البريدى (ينذر له الناس النذورات)[5] . وأولاد المعلوف (لهم نذورات كل من قطعها خربت دياره فى تلك السنة[6]) والشيخ البرلسى (نذر له بدوى مرة مهراً ثم رجع فيه - أى رجع فى نذره - فبينما هو مار على ضريحه وإذا بالمهر قد رمح حتى دخل قبر الشيخ فلم يعرف أحد أين ذهب)[7] أى أن الصوفية استخدموا سلاح التخويف لضمان الانسياب والسيولة فى النذور وحتى لا يرجع أحد فى نذره للشيخ ، والولى الميت لا يأكل ولا يشرب أما الذى يأكل ويتمتع بالنذور فهم خلفاء الشيخ وسدنة الأضرحة

(١) الطبقات الكبرى ١٦٢/١   (٢ : ٧) الجواهر ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠

وأولئك لهم نصيب من التقديس الذى يحيط بالولى المقبور يقول تعالى ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ الأنعام ١٤ . أى أنتخذ أولياء غير الله والله هو الولى الذى فطر السماوات والأرض ثم هو الذى يطعم الناس ولا يطعمه الناس .. وهنا تعريض واضح بالأولياء المعبودة التى يتخذها الناس مقصدا للتوسل والتبرك ، فهذه الأولياء لا تخلق شيئاً والله هو الذى فطر السماوات والأرض ، وهذه الأولياء تعيش عالة على من يقدسها ويطعمها ويتبرك بها أما الله تعالى فهو الرزاق ذو القوة المتين .

وواقع الأمر أن النذر للآلهة الأولياء سمة أساسية من سمات الشرك فى كل عصر وحين وفى ذلك يقول تعالى ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ النحل : ٥٦ ، فالمشركون دائما يجعلون لتلك الآلهة والأولياء نصيباً من الرزق الذى تفضل الله تعالى به عليهم ، أى يستخدمون مال الله فى حرب الله ، ومن إعجاز القرآن الكريم فى تلك الآية الكريمة أن وصف الآلهة الأولياء بقوله ﴿ لما لا يعلمون ﴾ ، فالحقيقة أن المشركين دائما يجهلون حقيقة ما يعبدون ، فهم لا يعبدون فى الواقع إلا الأساطير التى نسجوها والأكاذيب التى انتحلوها وصدقوها وقدسوها ، ومن يعرف حقيقة البدوى مثلا يجدها مختلفة تماما عن نظرة الناس إليه واعتقادهم فيه ، ومع ذلك فهم على عقيدتهم مصرون متمسكون دون أى دليل من عقل أو نقل ، ثم هم يقدمون لضريحه النذور طواعية وتقربا وزلفى رغبة ورهبة ، أملا وخوفاً كما كان يفعل العرب قبل الإسلام .

فالجاهليون كانوا يقدمون لله نذورا وللآلهة التى يشركون بها نذوراً ، وإذا قدموا نذوراً لله لم يجدوا إلا تلك الآلهة ليقدموها إليها باعتبارها أنها

تقربهم لله زلفى .. أى قدموا كل النذور لآلهتهم أما بالأصالة أو بالنيابة عن الله تعالى .

وفى ذلك يقول تعالى ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ســـاء ما يحكمون ﴾ الأنعام : ١٣٦ ، ويؤخذ من قوله تعالى ﴿ من الحرث والأنعام ﴾ أن الماشية والحبوب كانت أهم النذور المقدمة للآلهة الأولياء فى العصر الجاهلى . وقد كانوا يطلقون عليها أسماء شتى اخترعوها كالسائبة والوصيلة والبحيرة والحام ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ المائدة : ١٠٣ .

وقد أشرنا إلى (عجل السيد) الذى يطاف به بين تهليل وتـكبير حين يقدم نذرا للبدوى وذلك نفس ما كان يفعله الجاهليون حين يذبحون الأنعام المقدمة للأنصاب ، وقد حرم الله سبحانه وتعالى الأكل مما يقدم على هذه الصفة وقرنه بلحم الميتة والخنزير يقول تعالى ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴾ أى ما قدم نذراً لإله أو ولى غير الله، وأكد ذلك فى نفس الآية فقال ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ المائدة : ٣ ، أى ما ذبح على ضريح الإله أو هيكله، فالنصب هو المـكان المرتفع الدال على الوثن المعبود ، (ومنه النصب التذكارى للجندى المجهول) وقد كان الجاهليون يذبحون الحيوان المنذور للإله بين يدى النصب وهم يهللون باسمه وصفاته وكراماته ، وفى مصر القديمة كان (الثور) أهم القرابين التى تقدم للآلهة ويصاحبها الغناء والرقص لتمجيد ذلك الإله وكان (الـكهنة) أهم المنتفعين بتلك النذور[1] .

والصوفية الأحدية كما أباحوا لأنفسهم النذور تطرفوا فأباحوا لأنفسهم

(١) أرمان : ديانة مصر القديمة ١٩٧ ، ٢١٤ .

أكل أموال الناس بالباطل فنهبوا أموال التجار فى المولد واغتصبوا ما فى يد الزوار إلى أن أبطل الشناوى هذه العادة فى القرن العاشر يقول الشعرانى فى ترجمته (وهو الذى أبطل البدع التى كانت الناس تطلع بها فى مولد سيدى أحمد البدوى من نهب أمتعة الناس وأكل أموالهم بغير طيبة نفس وتعلموا أنه حرام، وكانوا قبله يرون أن جميع ما يأخذونه من بلاد الغربية حلال ويقولون : هذه بلاد سيدى أحمد ونحن من فقرائه[1]) أى أن الفقراء الأحمدية اعتبروا السلب والنهب فى المولد حلالا باعتبار إن المهم البدوى هو صاحب الأمر والنهى والرزق وأنهم كهنته والمال ماله حتى جاء الشناوى (فتعلموا أنه حرام وكانوا قبله يرون أن جميع ما يأخذونه من بلاد الغربية حلال) أليس ذلك ديناً جديداً يحرمون به ماشاءوا ويحلون ما أرادوا ؟؟ والشناوى لم يفعل ذلك إلا حرصاً منه على المولد وصاحب المولد فهو الداعية الأكبر لها وهو المصدر الذى استقى منه الشعرانى حكايات الكرامات والأساطير التى تدعو للمولد والتى تهدد المنكرين عليه .. فهو (مصلح صوفى) إذا صح وجود هذا الصنف بين البشر .

المولد الأحمدى :

واختار الأحمدية موسماً سنوياً للحج للبدوى سموه (المولد) راعوا فيه أن يكون فى وقت فراغ سنوى للفلاحين ليمكنهم المجئ للترفيه والتبرك فالمولد الكبير فى نهاية شهر أبيب وأول شهر مسرى .. ولم تكن الحياة الزراعية فى مصر فى العصور الوسطى قد تعقدت ظروفها كما هو حالها اليوم ، والفلاح المصرى يومئذ كان أكثر ميلا للحبور والسرور فى تلك المناسبات وقد أحسن الصوفية استغلال هذه الظروف فأشاعوا من كرامات البدوى وعفوه وشفاعاته ما يهون الأمر على طالبى المتعة واللهو بنوعية البرىء وغير البرىء .

(١) الطبقات الكبرى ١٢١/٢ .

ويقول تعالى عن الحج لبيته العتيق ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ الحج ٢٨ ، فالإسلام لا يمانع من تبادل المنافع الحلال خلال تأدية الحج ، ولم يغفل الصوفية عن استغلال هذه النقطة فأصبحت طنطا ومولدها مناسبة تجارية تنفق فيها السلع الراكدة على حد قول الخفاجى[1] ، واشتهرت فيها تجارة الحمص ، وراج فى مولد الأنبابى بيع الترمس فجاء فى المثل الشعبى (ترمس إمبابة أحلى من اللوز قال دا جبر خاطر الفقرا)[2] والانبابى من أتباع البدوى ومثله المليجى ومولد المليجى كان (يحصل فيه جمعه - أى اجتماع - كبيرة وتنفيق سلع للناس)[3] ثم يقول عبد الصمد عن بعض كرامات البدوى الواقعة فى مولده (اجتماع التجار اليه من سائر الأقطار لما تقرر عندهم وتكرر لهم واستفاض لديهم وجربوه فى جميع الأعوام والسنين وشاع بين الناس الصادرين والواردين عند المزار أن كل من حضر المولد الشريف للزيارة بتجارته نفقت فى ذلك المولد بعد كسادها فى محل وطنهم وربحهم وأن فضل منها شىء ولم ينفق فى المولد فلابد أن ينفق ويربح فى سنته)[4] ولعل ذلك الاعتقاد سوغ للأحمدية نهب التجار فى المولد إذ اعتبروا أنفسهم شركاء للتجار فى الربح الذى يجنونه فى مولدهم .

وقد شرع الله الحج لبيته الحرام فى أيام معلومات ثم سن العمرة لمن يشاء فى أى وقت وهذا ما فعله الصوفية فى مولد البدوى فإلى جانب المولد الكبير كان هناك المولد الصغير والمولد الرجبى - وواضح أن العمرة لبيت الله الحرام تكون فى الغالب فى رجب - أى أن الصوفية نافسوا بمولد البدوى وضريحه الحج لبيت الله الحرام فى الشعائر والمواقيت . . إلى حد أن على مبارك يقول (وهكذا صار للبدوى ثلاثة موالد لا تفوقها فى الشهرة إلا موسم الحج)[5] .

ويقول تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم إلى نصب

---

(١) النفحات الأحمدية ٢٦٤ (٢) تيمور الأمثال الشعبية ٣٨٩/١
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١٧٦/١
(٤) الجواهر ٧٥ (٥) الخطط التوفيقية ٥١/١٣

يوفضون ﴾ المعارج ٤٢ ، فالقرآن الكريم يشبه البعث والحشر بصورة حسية تعودها المشركون العرب حين كانوا يخرجون من كل حدب وصوب مسرعين إلى أعيادهم عند الأنصاب المقدسة .. فالجاهليون عرفوا هذه الموالد حين كانوا يتجهون فى مواسم معينة إلى الكعبات المقامة حول الآلهة متوسلين متبركين ..

وتبدو الصورة القرآنية أوضح لدى المصريين القدامى حيث استقرت أمورهم على ضفاف النيل منذ آلاف السنين ومن الصعب أن يقهرها وافد جديد كالإسلام ، والأقرب أن تقوم مصر بحضارتها العليدة بتمصير هذا الوافد الجديد ، وهذا ما حدث إذ سرعان ما حل (البدوى) محل (آمون) أو (رع) كما حل (الحسين) و (السيدة زينب) محل إيزيس وأوزيريس.

ولا زالت الموالد تعقد بالتاريخ القبطى أو التاريخ المصرى القديم وتراعى فيها مواسم الزراعة والرى والحصاد ، وقد شاهد هيرودوت بنفسه توافد المصريين القدماء من جميع الأنحاء فى المراكب إلى عيد أو (مولد) الآلهة باسقت فى تل بسطة قرب الزقازيق.. يقول كأنه يصف عصرنا (والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة فى السنة بعيد شعبى عام ولكن أعيادهم العامة كثيرة أهمها ذلك الذى يتحمسون جداً لإقامته فى مدينة بوست (أى تل بسطة) ويليه عيد الآلهة إيزيس الذى يحتفل به فى مدينة بوزيريس حيث يوجد بها أكبر معبد لهذه الآلهة)[1] .

فالمصريون فى العصور الوسطى استمروا كأجدادهم يحتفلون بالآلهة التى اتخذوها فذهبوا لطنطا كما ذهب أسلافهم إلى تل بسطة ، واحتفلوا بمولد السيدة زينب كما احتفل أسلافهم القدامى بالآلهة إيزيس ، وقد وصف هيرودوت ذهاب المصريين لعيد أو موالد الإلهة باست فى تل بسطة بما لا يختلف عن حال

---

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر ١٥٩

المصريين فى العصور الوسطى من سرور وحبور وتوافد من كل أقاصى البلاد عن طريق المراكب الشراعية مع التهام كميات كبيرة من الطعام والشراب ووجود الخمر بكميات كبيرة لديهم فى المصريين فقد ذكر هيرودوت الحجم الهائل الذى استهلكه المصريون من الخمر فى عهد الآلهة باسنت ، ووردت المراجع المملوكية ما حدث فى مولد الامبابى من التهـام العشرات من جرار الخمر . .

الطعام فى الموالد :

لم يرد فى المصادر الصوفية ما يصرح بحجم الطعام المستهلك فى الموالد الأحدية ، إلا أن الطعام بشكل عام يشكل ركيزة هامة فى إحساس الصوفية كتعبير مناسب عن احتفائهم بالطعام واتخاذه نشاطاً أساسياً فى أعيادهم وموالدهم . ويكفى أنهم حولوا الأعياد والمناسبات الإسلامية إلى مناسبات للطعام والامتلاء ، ولولا الصوفية وسيطرتهم على الحياة الدينية لما كان هذا التحول عن تعاليم الإسلام التى تنهى عن الإسراف فى الطعام ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين ﴾ الأعراف ٣١ ، ويظهر التناقض أكثر فى صيام شهر رمضان الذى يتحول إلى شهر للامتلاء والتخمة . .

والشرك إذا تحكم أصبح الطعام هدفاً فى حد ذاته يقول تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ محمد ١٢ ويقول تعالى مشيراً للأعياد والموالد ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧ ، ويقول تعالى عنهم وهو يأكلون ويتمتعون فى الموالد والأعياد حالمين بشفاعة الأولياء ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ الحجر ٣ .

وما دمنا قد طرقنا هذا الموضوع (الساخن) فلا بأس من الإشارة لموقف الصوفية منه . . فقد بدأ المتصوفة يقلدون الزهاد فى تحريم ما أحل الله من

الطيبات إلا أنهم فى نفس جعلوا من الطعام عنصراً هاما فى جمع المريدين والاستكثار من الأتباع ونلمح هذا فى سيرة الجنيد (سيد الطائفة) كما يصفه الصوفيـة دائماً .

فالجنيد الذى ادعى أن هاتفاً وبخه على أكله تينا اشتهاه هو نفسه الجنيد القائل (تنزل الرحمة على الفقراء ـ أى الصوفية ـ فى ثلاثة مواطن عند السماع ـ أى الرقص ـ وعند الأكل فأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة[1] .) وقد قيل له مرة: (مابال أصحابك يأكلون كثيراً ؟ فقال : لأنهم يجوعون كثيراً[2])

وحين احتضر أوصى بأن (تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة فإذا انصرفوا من الجنازة رجعوا إلى ذلك حتى لا يقع لهم تشتيت[3]) فبالطعام يتوحد الصوفية وبه تتنزل عليهم الرحمة عند الجنيد وابراهيم بن أدهم اتخذ لنفسه مائدة حافلة فقيل له (أما تخاف أن يكون هذا إسرافا فقال: ليس فى الطعام إسراف[4]) ،

وقد أورد الغزالى إنـكار البعض على نهم الصوفية يقول (أنـكر بعض الناس حال الصوفية فقال له بعض ذوى الدين ما الذى تنـكره منهم قال يأكلون كثيراً . قال له : وأنت أيضا لوجعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون[5]) وصار النهم فى الطعام من مستلزمات التصوف وقد قال إمام الحرمين شيخ الغزالى عن الصوفية (ماشغل هؤلاء إلا الأكل والشرب والرقص[6]) ثم ازداد الأمر بعلو شأن الصوفية وتأسيس الخوانق والربط والزوايا يحتشدون فيها لا عمل لهم إلا الطعام والشراب والتـكاسل . . وغيرهم من المتصوفة (الشعبيين) اخترع لنفسه مناسبات الموالد ليمارس فيها هواياته وإشباع غرائزه . .

(١ : ٣) الطبقات الـكبرى للشعرانى ١ / ٧٣ ، ٧٤

(٤) إحياء علوم الدين ٢/١٦ ، ٣ / ٨٢

(٥) نفس المرجع ٢/٢٦ (٦) روض الرياحين لليافعى ١٤

وقد قلنا إن البدوى استتر بالتصوف ليعمل لهدف سياسى ، وقد كان قبلا فارسا بدويا ، والشأن فى البدو الرشاقة والنحافة وإذا كان أحدهم فارسا فهو أرشق وأخف جسما . وهكذا كان البدوى فى بدايته إلى أن وصل مصر يقول فيه عبد الصمد (وكان سيدى أحمد البدوى رفيع البشرة ممشوق اللحم نحيف البدن وكل واحد من الجماعة ـ أى أتباعه ـ أعتى وأشد وأجسم منه[1]) ثم تغير الحال . . فأصبح البدوى صاحب ضياع ومواشى وأصحاب وأتباع وصار كل عمله أن يقف على السطح سويعات يصرخ فيها ويصيح ، وما نحسب الصياح جهداً عنيفاً يزيل السمنة ، وبمرور الأيام وكثرة الطعام وقلة الحركة زحف الدهن إلى جسم البدوى فاستوى واستغلظ على سوقه فوصفه عبد الصمد فى موضع آخر بأنه (كان كبير البطن غليظ الساقين[2]) .

لقد دفع البدوى ـ وهو فارس بدوى ـ ضريبة اتخاذه التصوف ستاراً فقد ركن للهدوء والطعام وحمل أوزاراً من السمنة والبدانة ما كان أغناه عنها ، ولكنها ـ على أى حال ـ (لزوم الشغل) فالشأن فى الصوفى أن يكون سميناً متخماً بالطعام فهكذا كان الأولياء الصوفية فى العصور الوسطى حتى أن أبا العباس المرسى يقول (إياكم والاعتراض على من رأيتموه سمينا من الأولياء فإن الحب إذا تمكن من الأولياء سمن[3]) ويقول أبو المواهب الشاذلى مصححاً المفهوم الصوفى عن الولى (قد غلط أكثر الناس فى وصف أهل الصلاح بالنحول والتقشف وليس الأمر كما ظنوا ، بل فيهم السمين والمزيل والمترفة[4]) .

---

(١) الجواهر ٢ ، .

(٢) نفس المرجع ٧ وقد ناقش الشيخ محمد زكى إبراهيم (ما يجرى على ألسنة العوام من أن البدوى كانت له بطن كالمحيط يحشوها بطعام يكفى أمة ثم يخلطها بماء البحر الأعظم) وفسرها فى ضوء الكرم . . والمهم أن الخيال الشعبى تأثر بما قيل عن بطنة البدوى راجع (البدوى) للكوفى من العشيرة المحمدية ص ١٩٠

(٣) الشعرانى : قواعد الصوفية ١/١٢٨ (٤) الطبقات الكبرى ١/١١١

ونرجع للصوفية الأحمدية ونكاد نشم (رائحة) الطعام تغلف سيرتهم المكتوبة فى الجواهر السنية لعبد الصمد الأحمدى وترجمة الشعرانى للبدوى، فلقد خصص من كبار الأحمدية رجلان لأعداد الطعام والقيام بأمره فهناك عبد العظيم الراعى لرعى الماشية وإمداد الدولة الأحمدية باللحم واللبن وهناك محمد الفران رئيس المطبخ (الأحمدى). وحين تولى عبد العال الخلافة كان أول مراسيم خلافته يتعلق بالطعام، يقول الشعرانى (واستخلف بعده على الفقراء سيدى عبد العال وسار سيرة حسنة وعمر المقام والمنارات ورتب الطعام للفقراء وأرباب الشعائر وأمر بتصغير الخبز على الحال الذى هو عليه اليوم)(١) فترتيب الطعام ورسم سياسته أمر هام يضارع تعمير المقام أى إقامة ضريح للبدوى.

وعنصر الطعام يشكل أرضية للحكايات والأساطير الأحمدية، فحين دخل البدوى إلى طنطا فبيت ركين الدين قيل (وكان من عادة الشيخ ركين الدين أنه يصنع طعاماً فى بيته فى كل أسبوع ويجتمع فيه أقاربه من النساء والرجال فيطعمهم)(٢)، وفى أسطورة المقابلة بين بيبرس والحسن أخى البدوى استضاف الحسن السلطان بيبرس ثلاثة أيام يقول الظاهر بيبرس (فتعشيت عند الشريف حسن)(٣) ورداً على هذه الضيافة فإن الظاهر بيبرس استضاف الحسن، يقول الحسن (ودخلنا داخل قلعة مصر فجلسنا وقدموا لنا الأطعمة المختلفة الألوان فلما فرغنا من الأكل أخرجت لهم الخاتم فعرفوه)(٤).

وفى أسطورة يوسف الأنبابى مبعوث البدوى فى إنبابة دللوا على علو شأنه بأن (صار سماطه فى الأطعمة لايقدر عليه غالب الأمراء)(٥) أو (صار سماطه مثل سماط الملوك)(٦) وحين غضب البدوى على يوسف الإنبابى زعموا أن السبب فى كلمة قيلت عن طعام البدوى لأبى طرطور إذ قال يوسف (كلوا من

(١) نفس المرجع ١٦٠/١ (٢ : ٤) الجواهر ٤٠، ٦١، ٦٢

(٥، ٦) الجواهر ٢٨، الطبقات الكبرى ١٦٠/١

هذه الماوردية واغسلوا الغش الذى فى بطونكم من العدس والبسله لسيدى أحمد)[1] .

فغرام الصوفية الأحمدية بالطعام وازدراده فرض عليهم أن يدخلوه فى قصصهم التى يتناقلونها بل ومن خلاله يفسرون عزل الإنبابى عن نيابته فى إنبابة ..

وأكثر من ذلك ارتفعوا بالطعام إلى روايات الكرامات الأحمدية .. فالبدوى حول الشعير قمحاً[2] ومحمد الفران المختص بالطبخ كان يحضر الطعام من لاشىء أو على تعبيرهم (وكان يطبخ أيضاً فإذا لم يجد أدما للطعام يملأ الأبريق من البئر سيرجاً أو دهناً فيجد له الفقراء لذة عظيمة)[3] ومثله الشيخ عوسج المصرى الذى (كان يحمل معه الركوة فى البرارى فيخرج منها ماشاء من الماء أو العسل أو اللبن أو السمن)[4] .

وبعضهم كان يكفى بالطعام القليل الكثير من الآكلين فالبرلسى (من كراماته أنه كفى أربعين نفساً بسمكة واحدة ورغيف واحد)[5] وعوسج المصرى (كان يطعم المائة من إناء طعام صغير)[6] ومع أن ركوته فى يده ويخرج بها ما يشاء من البئر من لبن أو عسل فلماذا يقتر على المائة ويطعمهم من إناء صغير ؟ لابد أنه كان يستعرض أمامهم كراماته للذهلة ليجعل الإناء الصغير يكفيهم جيعاً ، والصوفية فى إحضارهم الطعام من لاشىء ربما كانوا يقولون شيئاً للآخرين ، فالصوفية دائماً يعيشون عالة على الناس أو (الأغيار) حسب التعبير الصوفى، فكأنهم يقولون (للأغيار) إن بإمكاننا أن نحضر الطعام من لا شىء وليست حياتنا متوقفة على نذوركم ونفحاتكم ، على أن بعض الكرامات الصوفية كانت تشى بالتسول الصوفى وجلوس الصوفية على

(١) الطبقات الكبرى ١٦٠/١ (٢ : ٤) الجواهر ٤٠ : ٤١ ، ٢٩ ، ٣٣
(٥ ، ٦) الجواهر ٣٠ ، ٣٣

موائد الناس آكلين فكانت الكرامات تجعل الصوفى يتنبأ بالطعام المقدم إليه كما قيل عن الشيخ بشير « وامتحنه أهل حانوت مرة وذبحوا له حماراً فى كشك فلما رأى الطعام قال : الفقراء لا يأكلون حميراً ثم قال : ترترتر فطار لحم الحمار من الزبادى ووقع على الأرض »[1] أى أن البعض حاول امتحان الشيخ بشير الأحمدى ليعرفوا مقداره من الكشف أو علم الغيب ، وكان الطعام هو الوسيلة كما كانت « ترترتر » هى كلمة السر التى نجح بها الشيخ بشير.

وحين حارب الصوفية الأحمدية المنكرين عليهم بأساطير الكرامات المهددة غلب عليهم حب الطعام فجعلوا المنكر عليهم يصاب بشوكة فى حلقه فكان « لا يلتذ بطعام ولا بشراب »[2] ، ثم إذا تركوا حلقه لم يتركوا طعامه بدون عقاب فجعلوا الدود يظهر فى إناء الطعام ليرجع المنكر عن إنكاره يقول عبد الصمد « ومن كراماته التى اشتهرت إنه فى كل حين يظهر دود كثير حى فى حلة الطعام حال حرارته، ويرى ذلك كل من حضر وقت طبيخ الطعام وغليانه ويظهر ذلك فيمن تعرض له أو لأحد من أتباعه بانكار أو أذية »[3] وشغف الشعراء الأحمدية بتلك الفكرة فتغنوا بها شعراً كقول أحدهم[4]:

وكم قد رأينا الدود حياً بحلة فيرجع ذو بغى طغى وهو مالغ ..

والظاهر إن « الملوخية » كانت أكثر الأطعمة تأثيراً فى خيال محبى البدوى ، فقالوا إن من كرامات الشيخ مبارك الأحمدى « . . . إنه راح بالملوخية إلى سيدة بعرفات »[5]، وربما اكتسبت « الملوخية » هذه المكانة لأنها الطعام الأرخص فى أوانها فى الدلتا ـ وطنطا تتوسط المنطقة الزراعية فى مصر ـ وتصبح صيفاً أم أطباق المائدة ، ولعل الخيال الصوفى غرق فى طبق الملوخية حين اختلق هذه الكرامات . .

---

(١) الجواهر ٣٥ (٢) الطبقات الكبرى ١٦٢/١

(٣ ، ٤ ، ٥) الجواهر ٨٣ ، ١٠٧ ، ٣١

ويقول الشعرانى عن البدوى «ثم إنى رأيته بمصر هو وسيدى عبد العال وهو يقول زرنا بطندتا ونحن نطبخ لك ملوخية ضيافتك فسافرت فأضافنى غالب أهلها وجماعة المقام ذلك اليوم كله بطبيخ الملوخية »[1] ..

الشعرانى والدعاية للمولد :

ولم يترك الصوفية الأحمدية سبيلا للدعاية للمولد إلا واستغلوها . . فجعلوا البدوى بنفسه يدعو الناس للحج بعد موته ويتكفل بغفران من أخطأ أو بالغ فى الاختلاط بالنساء فى المولد بل وتكفل باحضار التائه حتى لو كان حماراً أو خاتماً .. ثم التفتوا للآخرين فجعلوا البدوى يعاقب قطاع الطرق على الحجاج لبيته ثم جعلوه يعاقب من أنكر حضور المولد .

وشارك الشعرانى فى القرن العاشر فى الدعوة للمولد الأحمدى وإن لم يغفل عن الدعاية لنفسه ضمناً ، فادعى أن الشناوى أخذ عليه العهد فى قبة البدوى على أن يشمله البدوى برعايته ، ثم إن البدوى بنفسه زاره بمصر وبصحبته عبد العال ودعاه لزيارة المولد فى طنطا وأغراه بأن يأكل « ملوخية » ، ويقول « وتخلفت عن ميعاد حضورى للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وكان هناك بعض الأولياء فأخبرنى أن سيدى أحمد البدوى كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول : أبطأ عبد الوهاب ما جاء »[2] أى أن البدوى قلق وانشغل وتشوش بسبب غياب الشعرانى حتى كان يكشف ستر الضريح المدفون فيه ويقول «الواد الشعرانى اتأخر ليه ياجماعة» .. ومعنى قلق البدوى على تأخر الشعرانى أن البدوى وهو الإله علام الغيوب فى زعمهم لم يكن يعرف بكشفه المزعوم السبب فى تأخر الشعرانى عن موعده، فكيف يتأتى هذا وقد أخبرنا الشعرانى أنه حتى هلال المئذنة للبدوى يعلم الغيب .. والمهم أن دعاية الشعرانى لنفسه جعلته يقع فى هذا المطب فقد حرص على أن يكون له نصيب

(١ و ٢) الطبقات الكبرى ١ / ١٦١

من دعايته للمولد الأحمدى فجعل البدوى يقلق لغيابه ، ثم فى رواية أخرى يقول أنه أراد التخلف عن المولد فى سنة من السنين فرأى البدوى وهو يدعو الناس جميعاً من سائر الأقطار ثم مر عليه فى مصر وأصر على حضوره وكلف أسدين بإحضاره .. يقول الشعرانى فى تلك الأسطورة « فقوى عزمى على الحضور فقلت له إن شاء الله تعالى نحضر ، فقال : لابد من الترسيم عليك فرسم على بسبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال : لاتفارقاه حتى تحضرا به(١) » وطبعا فهم السبعان الأمر فأرغما الشعرانى على الطاعة ، وادعى الشعرانى أن أولياء الهند يسعون لزيارة المولد ويقطعون الطريق بكرامة أهل الخطوة فى خطوة ، وان الشيخ السروى تخلف عن المولد مرة « فعاتبه سيدى أحمد وقال : موضع يحضر فيه رسول الله ﷺ والأنبياء عليهم السلام وأصحابهم والأولياء ، فخرج الشيخ محمد (السروى) إلى المولد فوجد الناس راجعين وفات الاجتماع فكان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه(٢) » أى يتبرك بهم لأنهم لمسوا ضريح البدوى ولاتزال فيهم آثار البركة منه فكان يقتنص من تلك البركة حتى لا تتساقط منهم على الأرض أو يأكلها الذباب ..

والمهم أن الشعرانى جعل الأنبياء وفى مقدمتهم محمد عليه وعليهم السلام يحجون للبدوى فى مولده أو يسعون لزيارته والتبرك به مع سائر الناس ، وفى هذا تفضيل واضح للبدوى على أنبياء الله .. وتفضيل الصوفية للولى الصوفى على الرسول أمر واضح .. فالرسول لا يدعى لنفسه مزية على سائر البشر مع مع أنه رسول .. أما الصوفية فيدعون لأنفسهم صفات الله من غيب وتصريف ويدعون الناس لتقديسهم والتبرك بهم أسوة بالله تعالى .. بل أن الأحمدية تطرفوا ففضلوا البدوى على الله تعالى وهذا ما نحن بصدد توضيحه .

(١) نفس المرجع والصفحة (٢) نفس المرجع ١/١٦١ : ١٦٢

ثالثاً : الصوفية يفضلون البدوى على الله تعالى

كم كنا نتمنى ألا نصل لهذا الحد ، ولـكنه الشطط الذى وقع فيه الصوفية الأحمدية فاضطرونا لتبيين غلوهم فى تأليه البدوى وعبادته ، فهم قد اعترفوا بربوبية الله وقاموا بعبادته ولـكنهم أشركوا معه البدوى فى التقديس والعبادة فاقتضانا المنهج العلمى أن نمحص عقيدتهم لنصل إلى من يفضلونه أهو الله تعالى أم هو البدوى ، فـكانت النتيجة هى ما يعبر عنه العنوان السابق : « الصوفية يفضلون البدوى على الله تعالى » . .

بيد أنه لم يكن منتظرا من الصوفية الأحمدية أن يصرحوا بهذا التفضيل فمهما زادت سطوة التصوف فإن أحداً لن يوافقهم على هذا الإعلان الخطير فاكتفوا بالتلميح دون التصريح ، ولجأوا للأسلوب غير المباشر برواية الحـكايات وإلقاء الأشعار .. وبين سطور الحـكايات وأبيات الشعر يعبرون عن مكنون عقيدتهم فى البدوى الذى جعلوه فوق الله ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ . .

ولتفضيلهم البدوى على الله مظاهر كثيرة نـكتفى منها بما أورده الشعرانى وعبد الصمد فى الطبقات والجواهر . .

(١) فقد جعلوا الله تعالى واسطة عند البدوى .. وصاغوا لذلك أسطورة تقول (إن امرأة ماتت لها ولد صغير فجاءت إلى سيدى أحمد البدوى وهى باكية وقالت: ياسيدى ما أعرف ولدى إلا منك، وقام الفقراء إليها ليمنعوها فلم يقدروا وهى تقول : توسلت إليك بالله ورسوله [١]) وفى رواية الحلبى (سقت عليك الله ورسوله [٢]) أى أن الله تعالى يتوسط لدى البدوى ليحيى ابن المرأة . .

---

(١) الجواهر : ٤٦

(٢) وأوردها الحلبى فى النصيحة العلوية . ٣ مخطوط فى المـكتبة الأزهرية .

ويقول عبد الصمد نفسه فى مقدمة كتابه (وشرعت فى ذلك راجيا من فيض جوده — أى البدوى — وكرمه قبول تلك الخدمة مع علمى بأنى لست من ذلك القبيل ولا أستطيع أن أسلك إلا بتوفيق الله ذلك السبيل[١]) أى أن عبد الصمد شرع فى كتابه الجواهر لينال فضل البدوى وجوده ويعلن أنه لن ينال القبول وليس أهلا للخدمة ولن يستطيع أن يبلغ تلك المنزلة عند البدوى إلا إذا وفقه الله وتوسط له فبلغها .. أى أن وظيفة الله عند عبد الصمد أن يوفق عبد الصمد لكى يكون أهلا لخدمة البدوى وتسطير مناقبه .

وكرر عبد الصمد هذا المعنى شعرا فى خاتمة كتابه فقال[٢] :

وسميته عند الختام جواهرا سنية فاقت سمط در تنضدا
وإنى وبيت الله لم أك كفؤه ولكن جعلت الله عونا ومقصدا

وبالشعر يقول صوفى يخاطب البدوى[٣] :

فبعزة خالق ونبيه وبكل رسول عليه الله بارك
لا تتركنى للأراذل خاضعا وأجر مضاماً فى حماك استجارك

فصاحبنا يستغيث بالبدوى ليجيره ، ويتوسل إليه — أى إلى البدوى — بالله وبكل الرسل كى يتعطف ويجيره ..

وقد تخصص البدوى فى كرامة إحضار الأسرى وقد روى الشعرانى عن بعضهم فقال (مما بلغنى من جماعة من أهل بيروت قالوا أسرنا الإفرنج .. فأقمنا فى بلاد الإفرنج يستخدموننا فى الأعمال الشاقة حتى كدنا أن نموت فألهمنا الحق تعالى يوما أن قلنا : ياسيدى أحمد يابدوى إن الناس يقولون أنك تأتى بالأسارى إلى بلادهم وقد سألناك بالنبى أن تردنا ..[٤]) وتفضيل البدوى على الله تعالى يبدو بين السطور ، فأولئك الأسرى ألهمهم الله أن يستغيثوا بالبدوى لينجدهم .. أى كأن الله تعالى قد عجز عن نجدتهم ولم يعد

(١ ، ٢) الجواهر ٤ ، ١٤٢
(٣) الجواهر ١٢١ (٤) الجواهر ٨١

بوسعه إلا أن يدل الأسرى على من يستطيع وحده أن يخلصهم من الأسر بحكم التخصص فألهمهم أن يتوسلوا بالبدوى .. وهذا كل مايستطيعه الله فى عقيدة الشعرانى والصوفية أن يتوسط الله بين الناس والبدوى فيلهم المأسور للتوسل بالبدوى ويعلمه الصيغة التى يتوسل بها كى يتعطف البدوى ويستجيب .. ومن هنا نستطيع أن نفهم المغزى المقصود فى عبارة الصوفية (نفعنا الله به) أو كما يقول بعضهم[١] :

يا ربنـــا انفعنا بامداده فى كل حال فيه تسطو الخطوب

فالمقصود أن يتوسط الله تعالى فينفع الصوفى بامداد سيده البدوى ، فالصوفى لا يريد من الله مدداً ، وإنما يريده من شيخه ، وقد جعل الله وسيلة بينه وبين شيخه فاستغاث بالله لينفعه ببعض مدد الشيخ وتصريفه . . وقد شاعت هذه العبارة على الألسنة ولم تعد تراها عيباً .

(ب) وقد أضفى الصوفية على البدوى من الصفات مايزيد عما جعله الله تعالى لذاته المقدسة .. فالله سبحانه وتعالى هو المسيطر على خلقه المتحكم فيهم الخالق لأفعالهم ومع ذلك فقد ترك للعبد مساحة من النية على أساسها يكون الثواب والعقاب .. فلم يشأ تعالى أن يتحكم فى القلوب وحرية الإنسان فى أن يؤمن أو يكفر ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الكهف : ٢٩ .

ولكن الصوفية بالغوا فى إسناد التصريف فى ملك الله للبدوى فجعلوا له السيطرة على قلوب الناس أى يستطيع أن يحول المؤمن إلى كافر لمجرد أنه اعترض عليه فيستحق بكل بساطة أن يسلبه الإيمان كما ورد فى الكرامة التى رواها الشعرانى عن ابن اللبان والأسطورة الأخرى عن ذلك الشخص الذى أنكر حضور الناس لمولده (فسلب الإيمان فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام فاستغاث بسيدى أحمد فقال : بشرط أن لا تعود فقال نعم . فرد عليه

---

(١) الجواهر : ٩٨ .

ثوب إيمانه)[1] .

وفى تلك النصوص التى تعاقب المنكرين على البدوى نلمح وجها آخر فى تفضيل البدوى على الله تعالى .. هو سرعة العقاب المعجل .. فتعبيرها دائما يكون بالفاء « أى بالترتيب والتعقيب » فاذا نطق أحدهم بكلمة اعتراض فسرعان ما يحل به العقاب .. فصاحبنا حين أنكر حضور المولد فقد ساعتها الإيمان ، وابن كتيلة حين تلفظ بالاعتراض على البدوى ومولده سرعان مادخلت الشوكة فى حلقه ـ وفى هذه الأسطورة جعلوا الله تعالى واسطة أيضا بين البدوى وابن كتيلة ، ودوره ـ تعالى عن ذلك ـ فى تلك الأسطورة أن جعل ابن كتيلة ينسى السبب طيلة التسعة الشهور ذاق فيها ابن كتيلة العذاب فى حلقة ، يقول الشعرانى « وأنساه الله تعالى السبب فبعد التسعة شهور ذكره الله بالسبب فقال فقال احملونى إلى قبة سيدى أحمد[2] » .. فأى جرم اقترفه الشعرانى وغيره حين جعلوا من الحى القيوم مجرد أداه تعذيب للبدوى لمن يعترض عليه بكلمة ؟

ونعود إلى سرعة العقاب التى أسندوها للبدوى حين يعجل بعقوبة المعترض عليه ، ونقول أنها تعطى حرمة للبدوى تفوق مايفرضه الله تعالى على خلقه ، فالله تعالى لايسارع بعقوبة الجانى مهما بلغ ذنبه ولكن يمهل ولا يهمل .. بل ربما يصطنع الاستدراج والامهال مع أشد الناس ظلما ، كالصوفية مثلا مع كفرهم أليسوا ممتعين بالموالد والموائد والشهرة والصيت .. يقول تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ الطارق : ١٧ ، ويقول ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ﴾ القلم ٤٤ ، ٤٥ .

ويقول: (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧ ، ثم إن الله تعالى سريع العفو لمن تاب

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى ١/١٦٢

بصدق مع إنه الجبار .. ولكن الصوفية يصورون البدوى بصورة أخرى فمن يخطىء فى حق البدوى فلن يحظى بغفران البدوى إلا بعد جهد جهيد .. ففى أسطورة ابن اللبان مثلا عوقب على اعتراضه بسلب القرآن والعلم والإيمان فتوسل البدوى بجميع الأولياء فلم يستطيعوا له شيئاً ، فدلوه على ياقوت العرشى فأعظم الأمر عليه ثم أمره مؤقتا بالوضوء والذكر ثلاثة ليال حتى جاء النبى فتوسط لدى البدوى وتوسل له ليصفح عن ابن اللبان فى المقام ، ثم قال ياقوت العرشى له « يا محمد أبشر فقد قضيت حاجتك فانى سقت عليه جميع الأولياء فلم يقبل فسقت عليه سيد الأولين والآخرين ﷺ وقد رأيت ذلك بعينيك ، فسافر الآن من وقتك وساعتك إلى طندتا وطف حول صندوق سيدى أحمد البدوى وأقم عنده ثلاثة أيام فان حاجتك قد قضيت » وتنفذ ابن اللبان التعليمات (فسافر من وقته وساعته .. ولما دخل المقام أقام فيه ثلاثة أيام ولما دخل الضريح طاف بصندوقه وبكى وتضرع ثلاثة أيام وهو على هذه الحال ، وإذا نام نام تحت رجلى سيدى أحمد البدوى فبينما هو نائم إذ رأى سيدى أحمد البدوى فى المنام فقام بين يديه فقال له : تقدم فتقدم إليه وقال له : لا تعد لمثلها فوالله لولا جدى رسول الله لسلبتك الإيمان ثم وضع يده على صدره فرجع إليه حاله » .

وإذا تساءلنا عن الخطيئة الكبرى التى استحق من أجلها ابن اللبان هذا العذاب كله لوجدنا أنه أنكر فقط أن يقول فقير أحمدى « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أحمد يا بدوى » فقال ابن اللبان : « من هذا الذى جمع فى السلام بين سيد المرسلين وبين أحمد البدوى وأشرك البدوى مع رسول الله فى السلام[1] » لهذا فقد أسهبت الأسطورة فى بيان ما حاق بابن اللبان من عذاب وما قام به من تزلف وقربى ليحوز الغفران

(١) الجواهر : ٧٨ ، ٧٩ .

والرضا فيما بين الاسكندرية وطنطا ، وياقوت العرشى والرسول عليه السلام حتى عفا عنه البدوى فى النهاية ، هذا مع أن المشرك الذى يقضى حياته يحارب الله ثم يأذن الله فيدخل الإسلام لا يقاسى ماقاساه ابن اللبان فى تلك الأسطورة المزعومة ، وكل ما هنالك أن الإسلام يجب ما قبله ويبدأ صفحة جديدة يتمتع فيها بغفران الله عما سلف من عمل ، هكذا بمجرد النطق بالشهادتين باخلاص وإنابة ، أما البدوى فشأنه مختلف عند الصوفية فحرمته عندهم أعظم.

وكما صوروا البدوى سريع العقاب لمن عاداه بطيئا فى الغفران لهم جعلوه سريعاً أيضا فى نجدة من يتوسلون به .. ففى أساطير الانقاذ للأسرى فبمجرد أن ينطق أحدهم باسم البدوى يجد نفسه طائرا محمولا إلى مأمنه . . وهذا مالم يرد نظيره فى القرآن الكريم مسنداً لله تعالى . .

يحكى الشعرانى مثلا أنه رأى أسيراً مقيدا فى منارة عبدالعال وحكى الأسير قصته « كنت أسيراً فى بلاد الأفرنج فبينما أنا واقف على سطح إذ توسلت بسيدى أحمد البدوى فأتانى شيء فخطفنى وطارنى فى الهواء (١) » وفى أسطورة أخرى أخذ الفرنج حذرهم من البدوى ومنعوا الأسرى من التلفظ باسمه حتى أن إفرنجيا كان يقفل الصندوق على أسير وينام إلى جانبه حتى لا يخطفه البدوى ولكن الأسير فى قفصه توسل بالبدوى .. « فقلت فى نفسى ياسيدى أحمد يابدوى الحقنى فما تم القول إلا وجاء سيدى أحمد البدوى وحمل الصندوق بى وبالافرنجى (٢) » .. أى يريد الصوفية بهذه الأساطير أن يقولوا إن البدوى أسرع استجابة من الله .. فإذا كان الله تعالى قد يؤجل الإجابة ليعلم عباده الصبر وهو أعلم بما ينفعهم أكثر فإن البدوى جاهز دائما فى اعتقاد الصوفية وما أن ينطق أحدهم باسمه إلا ويجد الإجابة معجلة .

والله سبحانه وتعالى أدرى بما يصلح للعباد فى هذه الدنيا الزائلة ، والله

(١ ، ٢) الجواهر ٨١ ، ٩٧ .

سبحانه وتعالى يستجيب لكل من دعاه مخلصاً إما بتحقيق أمنية الداعى وإما بإدخارها له فى الآخرة وهى خير وأبقى ، ولأنه تعالى أعلم بما يصلح للعباد فإن الاستجابة المؤجلة للدار الباقية تكون الأنمى والأفضل ويكفى العبد أنه ينال فى الدنيا أجر الصبر على قضاء الله وأجر الاستغاثة والتوسل بالله ، يقول تعالى عن البشر جميعاً ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ الشورى ٢٨ ويقول عن رسله ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ يوسف ١١٠ . .

والصوفية يعلمون هذا فجعلت أساطيرهم من البدوى أسرع استجابة لمن دعاه مهما تباعدت المسافة يقصدون بذلك تفضيله على الله ـ تعالى الله عما يصفون.

(ح) والصوفية حين توسلوا بالبدوى وصفوه بصيغة أفعل التفضيل فكان عندهم الأعلى والأعظم والأكبر .. يقول صوفى[1] .

إذا ما أحاطت بى صنوف المناهب   وخفت من الخطب الكريه المتاعب
أتيت إلى كهف منيع وسيد   قضيت به فى كل أمر مطالبى
هو المطلب الأعلى وكنز روضة   ومنهاجه سهل على كل طالب

فالبدوى هو (المطلب الأعلى) فماذا عن الله تعالى ؟ ؟

ويقول آخر فى توسله بالبدوى[2] :

ألا يا كريم الأصل يا خير مرتجى   لكشف البلايا والأمور المهمة
عبيدك قد أهداك نزراً من الثنا   وجدك شيماه قبـــول الهدية

فقد وصف نفسه بأنه (عبيد) للبدوى (أى تصغير عبد) . . ثم وصف إلهه البدوى بأنه (خير مرتجى لكشف البلايا) . . فإذا كان البدوى خير مرتجى لكشف البلايا فماذا يكون الله تعالى عند ذلك الصوفى ؟ .. وفى نفس المعنى يقول آخر[3] :

---

(١) الجواهر ٩٧   (٣ ، ٢) الجواهر ١٠٠ ، ١٠٨

عليك بالبدر القطب منجدنا   عند الكروب إذا ما أستوقد الشرر
أبي الثامين روح الكون أعظم من   يجيب سـائله حالا ينتصر
فرد الزمان أبو الفرحات منقذنا   من قد أقر له بدو كذا وحضر
بحر الكرامات لا بحر يماثله   من ذلك البحر يطفو للورى درر

فهذا الآخر يصف البدوى بأنه المنجد إذا حلت مصيبة وأنه روح الكون ، ثم فضله على الله تعالى فقال عنه (أعظم من يجيب سائله حالا) كما قال السابق عنه إنه (خير مرتجى لكشف البلايا) . . والمسلم يعلم أنه لا يكشف السوء إلا الله (أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) النمل ٦٢ ، أما أصحابنا فلم يكتفوا بأن جعلوا من (بدويهم) يشارك الله فى إجابة المضطر وكشف السوء عنه بل فضلوا البدوى فجعلوه (أعظم من يجيب سائله حالا) و (خير مرتجى لكشف البلايا) .

وإذا كان المؤمن (يقر) بأن الله وحده هو الذى يكشف السوء ويجيب المضطر فإن ذلك الصوفى الآخر يجعل البشر من بدو ومن حضر (يقرون) بأن البدوى هو المنقذ (فرد الزمان أبو الفرحات منقذنا من قد أقر له بدو كذا وحضر) وهنا تفضيل آخر لم يأت على وزن افعل التفضيل وإن حوى معناه ، ذلك أن الله تعالى ترك الحرية للبشر فآمن به من آمن وكفر به من كفر بل وكان أكثر الناس كافرين مشركين .. وهذا ما تردد فى القرآن الكريم ، أما صاحبنا الصوفى فقد جعل الناس جميعاً من بدو وحضر يؤمنون بالبدوى ويقرون له بأنه « الفرد » أى الواحد الذى لا نظير له « فرد الزمان » ثم يؤمنون بأنه « المنقذ » « منقذنا » ، ثم فى البيت الأخير لذلك الصوفى تفضيل آخر بدون أفعل التفضيل ، فقد وصف البدوى بأنه « بحر الكرامات لا بحر يماثله » وأن « الورى » أى الخلق يتمتعون بفيض ذلك البحر ، والكرامات أو التصريف فى ملك الله بالمنع والمنح لا يكون إلا لله وحده ، وصاحبنا لم

يكتف بأن يجعل البدوى شريكا لله فى ملكه وإنما صرح بتفضيله على الله إذ قال إنه « لا بحر يماثله » أى لا تصريف وتحكم فى الكون يماثل تحكم البدوى وإن « من ذلك البحر يطفو للورى درر » ، مع أن الله تعالى وهو المتصرف فى الكون « لم يجعل الدرر تطفو للورى من بحر تصريفه » فمن الأفضل عند ذلك الصوفى ؟ ؟

والفجع أن ذلك التفضيل ينسحب على أتباع البدوى وطائفته فيقول المرحومى[1] عن البدوى وطائفته :

له العلياء إذا العلياء سيمت وطائفة إليه قد أضيفت
لها الرجحان بين الطوائف
لها فضل تعالى أن يضاهى وأشياء ليس يدرك منتهاها

ففضل الطائفة الأحمدية « تعالى أن يضاهى » وخصوصياتها أو أشياؤها « ليس يدرك منتهاها » مع أن المسلم يقر بأن فضل الله تعالى « تعالى أن يضاهى » ولا يضاهيه فضل آخر والاؤه سبحانه وتعالى « ليس يدرك منتهاها » ولو كره الكافرون « من جميع الطوائف » . .

(د) ولأنهم يخاطبون البدوى بأفعل التفضيل « المطلب الأعلى ، خير مرتجى ، أعظم من يجيب .. إلخ » . فقد أعلنوا أنهم لا يلجأون إلى سواه باعتباره الأفضل وتوسلوا إليه ألا يكلهم إلى غيره ممن هو دونه فى المنزلة ..

يقول صوفى[2] عنه :

فوالله مالى مسعف ومساعد سواه وعلى فى الخليقة ناصر

أى أنه يقسم بالله (وهنا المهزلة) إنه ليس له مسعف ومساعد سوى البدوى الذى يستطيع نصره على كل الخلق ، ويقينا فإن الله تعالى كان على

(١ ، ٢) الجواهر ٢٧٩ ، ٥٠٩

لسانه حين أقسم به ولـكنه لتفضيله البدوى على الله صرح بأنه ليس له نصير سوى البدوى ولا مسعف ولا مساعد سواه ..

وفى هذا المعنى يقول آخر[٣] مخاطباً البدوى :

وحياك أبغى يا أبا الفتيان فى ... خطب أهاج القلب من حسراته
من لى سواك أرومه فى كشفه ... أو ارتجى أن ضقت من وثباته
عار عليك إذا رددت خويدما ... قصر الفؤاد عليك فى حاجاته

فصاحبنا يقول بأسلوب القصر « وحياك أبغى يا أبا الفتيان » أى لا يبغى حى إلا حى البدوى إذا وقعت به كارثة ، ثم يقول بنفس الأسلوب « من لى سواك أرومه فى كشفه » أى ليس له إلا البدوى مقصداً لـكشف ذلك البلاء ، ولأنه ليس له سوى البدوى فعار على البدوى إذا رد « خويمده » « تصغير خادم » بدون أن يقضى حاجاته ، فصاحبنا يصف نفسه بأنه خادم صغير أو حقير للبدوى قد قصر على البدوى فؤاده وقلبه فعار على البدوى أن يرده عن أبوابه ..

ومنطق إنه لا وجه للتفضيل بين البدوى والله هنا .. فالله تعالى ليس موجوداً البتة فى عقيدة ذلك الصوفى الذى يصرح بأسلوب القصر إنه ليس له سوى البدوى اصيراً وإنه قصر الفؤاد عليه ، فالتفضيل إنما يكون إذا وجد لله مكان فى عقيدة الصوفى إلا إن مكان البدوى لديه أكبر وأعظم ، أما صاحبنا فقد محى مكانة الله تماماً من عقيدته .

والالتجاء للبدوى دون سواه تفضيلا له على الله جعل التوسل الصوفى بالبدوى يطرق معانى جديدة كأن يتوسل أحدهم بالبدوى ليصون وجهه عن سؤال غيره فيقول أحدهم[٢] .

(١) و (٢) الجواهر ١٣٤ ، ١٢٤ .

إنى أتيتك ياذا المشرع العالى فانظر بلحظك فى شأنى وفى حالى
ولا تكلنى إلى من ليس ينصرنى ولا إلى ذى جفا للعهد لى قالى
ومن أولى بغوثى منك يا أملى ومنتهى رحلتى ومنائى بل وآمالى
وصن بعزك ياذا الطول وجهى عن سؤالى غيرك ممن حاله بالى . . .

وبعضهم حكم على من يلجأ لله أو لغير البدوى بالخسران المبين ، فيقول[1]:

لقد فاز من يسعى بأبواب عزكم وخاب الذى فى غير أبوابكم سعى

وبعضهم استنكر أن يتوسل بالله أو بغير البدوى والبدوى موجود فيقول[2] :

أأطلب جاه سواك لنصرتى ؟؟ وأنت لك الشأن العظيم الأفخم

أو يقول آخر[3] :

آتيت حماك الرحب استمطر الندى وبذل أياد ما لهن مضـــارع
وحاشا وكلا أن أخيب وأن لى فؤادا بقصد الغـــير ما هو قانع
أغيرك ينحوه المؤمل أو سوى رحابك أهل تثنى إليه المطالع ؟

ويضيق الصدر عن متابعة الشرح ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . .

وبعد .. فلقد حكى القرآن أن مشركى العرب اتخذوا الآلهة والأولياء واسطة تقربهم إلى الله زلفى ، ورأينا الصوفية الأحمدية يجعلون من الله واسطة عند البدوى ، فالمرأة ـ على حد قولهم ـ توسط الله عند البدوى ليحيى لها إبنها ، وعبد الصمد جعل الله تعالى واسطة ليوفقه فى تأليف كتابه ليحوز رضا البدوى ، وآخر يقسم على البدوى ويتوسل إليه بكل رسول وبعزة الله لـكى يمتن عليه البدوى فلا يـكله إلى غيره .

ومشركو العرب آمنوا بأن لله التحكم فى ملكوته من سماء وأرض وعرش

(١ ـ ٣) الجواهر ١١٥ ، ١٢٨ ، ١١٦

وإنه يجير ولا يجار عليه « المؤمنون آيات ٨٤ : ٨٩ » وأن آلهتهم مجرد وسائط (الزمر ٣) . إلا أن الصوفية الأحمدية جعلوا من جبار السماوات والأرض الحي القيوم مجرد أداة فى تصريف البدوى فهو الذى يلهم الأسرى ليتوسلوا بالبدوى وهو الذى جعل ابن كتيلة ينسى السبب فيما أصابه ليقاسى العذاب لاعتراضه على المولد الأحمدى . . ثم هم يبالغون فى تحكم البدوى وتصريفه إلى الحد الذى يتضاءل معه نفوذ الله فى ملكه ويجعلون من الله تعالى النصيب الأدنى فى التحكم والسيطرة ، وللبدوى القدر الأعلى حين يغضب وحين يرضى ، وعلى هذا الأساس كان توسلهم بالبدوى بأفعل التفضيل وأنه لا إله لهم سواه ، يقول الصوفية كل هذا .. وهم يقرءون القرآن وينطقون باسم الله ، فلا نستطيع أن نقول إنهم لا يعرفون الله البتة ولكننا نقول إنهم ماقدروا الله حق قدره وما أعطوه حقه وهو الذى يتحكم فى خلقه حيث لا يتصرف فى الكون سواه « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » الزمر ٦٧ ولا نقول إنهم لا يقرأون القرآن ، فهم يقرأون كتاب الله ورب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه ، وقراءة القرآن تزيد المؤمن إيماناً وشفافية ولا تزيد الظالم إلا خساراً « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » الإسراء ٨٢ ، وفعلا فإن الصوفية زادوا عن مشركى قريش بأنهم أكثر قراءة للقرآن مع اتصافهم بالشرك والكفر مثلهم فكان إن زادهم القرآن خساراً وجاء التعبير القرآنى بالمضارع « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » لينطبق على مشركى المستقبل أكثر من انطباقه على مشركى الزمن الجاهلى الماضى .

وقد ينكر الصوفية اليوم تفضيل البدوى على الله وإن كانوا لا يستطيعون إنكار كونه واسطة لديهم يتقربون به لله زلفى ، وواقع الأمر أنهم عارسون

التفضيل فعلا وعملا وإن أنكروه قولا .. وكما يقول تعالى ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ﴾ سبأ ٤٦ ، فإننا نطلب منهم الاحتكام إلى أنفسهم ، فهم يصلون لله الصلوات الخمس ويتوسلون للبدوى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، نسألهم فى أى الحالين يكونون أخشع قلباً وأصفى ذهناً ؟ حين الصلاة لله ؟ أم حين التوسل بضريح البدوى ؟ ؟ . والاجابة معروفة مقدماً .

ثم ما هو الأقسى على قلوبهم ؟ ؟ أن يصرح بالانكار على البدوى والاعتراض عليه أم يصرح علناً « بسب الدين » ؟ لقد تعودت الأذان على « سب الدين » حتى لم تعد تنكره أما إذا وقف البعض وأعلن كفر البدوى مثلا فإن الصوفى يعتبر القيامة قد قامت فعلا ، وفى تلك اللحظة الخاطفة التى يهتز فيها الصوفى فرقاً إذا سمع اعتراضاً أو إنكاراً على شخص البدوى ، فإنه يعبر حقيقة وفعلا عما يعتمل فى كيانه من تفضيل للبدوى على الله تعالى ودينه الحنيف ، ذلك الدين الذى تعود الناس على لعنه وسبه بداع وبدون داع وبدون أن تهتز للقائل أو السامع أى شعره ، أليست هذه هى الحقيقة التى لا نستطيع لها إنكاراً بيننا وبين أنفسنا ؟؟

أرى أن مواجهة الحقيقة « وهى تفضيل الصوفية للبدوى على الله ودينه » أفضل من خداع النفس ، لو كنتم تعقلون ..

رابعا : الانحلال الخلقى فى الموالد الأحمدية

إذا فسدت العقيدة فسدت الأخلاق .. وقمة الأخلاق الحميدة تتمثل فى التقوى الإسلامية ، كما أن بداية الفساد الخلقى للصوفية تتمثل فى أنهم جعلوا من أهوائهم مشرعا أو مصدرا للتشريع ، فقد شرعوا لأنفسهم الموالد عيداً وجعلوها عنصراً دينياً ثم لم يتورعوا عن الوقوع فى الاثم من خلالها ثم مالبثوا أن سوغوا ذلك الإثم وبرروه بشتى التأويلات وفنون التخريجات.

لقد أصبح مولد البدوى والموالد الأحمدية أكبر بؤرة للفساد فى مصر المملوكية ولم تمنع مكانة البدوى وخلفائه من الأنكار على ما يقع فى مولده من الاثم والفجور ، ولم تكن السلطات المملوكية تهتم بما يحدث فى طنطا إلا بعد أن تولى السلطان جقمق سنة ٨٤٢ وقد وصفه أبو المحاسن بأنه (كان شديدا على من يفعل المنكرات فكسدت فى عصره حال أرباب الملاهى والمسكرات[١]) وفى عصر جقمق تزعم الفقهاء العلامة برهان الدين البقاعى كثائر ضد الصوفية وانحلالهم الدينى والخلقى وهو صاحب ما يعرف فى المراجع التاريخية المملوكية « بكائنة البقاعى وابن الفارض» .. وقد كان للبقاعى دور فى اطلاع جقمق على مايجرى فى مولد البدوى من انحلال خلقى شاع وذاع وملأ الأسماع فأصدر الظاهر جقمق أمراً بإبطال المولد الأحمدى سنة ٨٠١ ، وبسبب هذا الحادث تجرأ المؤرخون فأثبتوا ما يقع فى المولد من انحراف فالسخاوى يقول أن المولد الأحمدى « كانت تتخذ فيه أماكن تمد للفساد فى تلك الأيام لكثرة الجموع)[٢] ، ثم اضطر الصوفية لإثبات هذا الحادث يقول الحلبى عن المولد « وصار له يوم مشهود ويقصده الناس من النواحى البعيدة ، وشهرة هذا المولد فى عصرنا هذا تغنى عن وصفه ، وقد قام جماعة من العلماء وممن

(١) المنهل الصافى ، مخطوط ٣/٧٣٦ - ٧٣٧ (٢) التبر المسبوك ١٧٦

يتدين فى الأمر بإبطاله لأمور عرضت فيه منها وجود النساء الخطايا واختلاط بعض الفساق بهن فلم يتهيأ لهم إبطاله إلا سنة واحد وخمسين وثمانمائة وكان ذلك فى زمن السلطان جقمق ، وكانوا قد أنهوا إليه أن فى مولد سيدى أحمد البدوى يقع فيه محرمات ومفاسد كثيرة بسبب اختلاط الرجال بالنساء[1] »

وقد عرض عبد الصمد لإبطال المولد وقال أنه أبطل سنة ٨٥٢ ، ولم يذكر السبب ثم فصل القول فى موقف من توقف عن القضاة فى الافتاء بابطال المولد كيحيى المناوى الذى قال « أما أنا فلا سبيل إلى أن أكتب على الفتيا بإبطاله أبداً بل أفتى بمنع المحرمات التى تحضر فيه ومولانا السلطان يرسل خاصكيا أو أميراً من جهته يمنع المحرمات التى تحضر فى المولد ويبقى المولد على حاله)[2]

ويبدو أن الناس فى هذا العصر قد أدمنت الانحراف فى موسم المولد فلما أبطل المولد فى عام ٨٥١ أقاموا مولداً آخر قريبا من طنطا ليمارسوا فيه الإثم يقول السخاوى « عندما أبطل الظاهر جقمق مولد البدوى عمل شخص يسمى رمضان بناحية محل البرج بالقرب من المحلة الكبرى المولد ووقع فيه فساد كبير على العادة)[3] .

وقد نافس مولد الانبابى فى انبابه مولد البدوى فى طنطا فى مجال الانحلال الخلقى . ولأنه يقع على مشارف القاهرة فقد حظى باهتمام المؤرخين خصوصا مولد سنة ٧٩٠ هـ وهى السنة التى مات فيها إسماعيل الانبابى خليفة البدوى فى انبابه . يقول المقريزى عن هذا المولد « كان فيه من الفساد مالا يوصف ووجد من المزارع مائة وخمسين جرة خمر فارغة سوى ما حكى عن الزنا واللواط »[4] .

---

(١) النصيحة العلوية ـ مخطوط بمكتبة الأزهر ٤٨ ب .

(٢) الجواهر ٧٠ (٣) التبر المسبوك ١٧٧

(٤) السلوك ٣/٥٧٦ .

ويقول ابن الفرات عنه « فى مولد الشيخ اسماعيل بن يوسف الانبابى حصل فيه من الفساد مالا يحصى من كثرة الفساد والفساق حتى أشيع أنهم وجدوا فى ثانى يوم فى الزرع مائة وخمسين جرة فارغة من جرار الخمر ، وفتحت مئات بكورة « أى أبكار » وكان يعمل هذا المولد كل سنة ويحضر إلى مولده مالا يحصى من القاهرة ومصر والضواحى والبلاد)[1] وكرر ابن حجر ما تواتر عن المولد وبقايا الجرار الفارغة مع الزنا واللواط « والتجاهر بذلك » وقال عن اسماعيل أنه « انقطع بزاويته ثم صار يعمل عنده المولد كما يعمل بطنطا ويحمل فيه من المفاسد والقبائح مالا يعبر عنه)[2] .

ويقول ابن الصيرفى فى نفس الموضوع « عمله على عادته فى زاويته ، واتفق فيه من المفاسد والقبائح مالا يمكن شرحه حتى أن الناس وجدوا من الغد فى المزارع من جرار الخمر عدة كثيرة تزيد عن ألف جرة سوى ماشربوه فى الخيم ، وأما ما حكى من الزنا واللياطة فكثير حتى أرسل الله تعالى عليهم فى تلك الليلة ريحا كادت تقتلع الأرض بمن عليها ، ولم يجسر أحد من التعدية فى النيل فأقاموا بذلك البر أياما حتى سكن الريح .. وقد توفى إسماعيل فى هذه السنة)[3] .

وفى النهاية يقوله أبو المحاسن عن المولد وصاحبه « صار يعمل المولد فى كل سنة فيأتيه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف ، وتخرج إليه أهل مصر والقاهرة وتضرب بزاويته الخيم ، ويعقد سوق ويجتمع من النسوان والشباب خلق كثير فذكروا أنه عمل المولد على عادته فى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ فهرع الناس لحضور المجتمع حتى غص الفضاء بكثرة العالم وتنوعوا

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٢٧/١/٩ ، ٤٢ : ٤٣ .

(٢) أنباء الغمر ٣٥٠/١ : ٣٥١ ، ٣٥٧ .

(٣) نزهة النفوس ١٦٩/١ ، ١٨٠

تلك الليلة فى الفسوق لـكثرة اختلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة فتواتر الخبر بأنه وجد فى صبيحة تلك الليلة من جوار الخمر التى شربت بالليل فوق الخمسين فارغة ملقاه حول الزاوية فى المزارع ، وانفضت فى تلك الليلة عدة أبكار ، وأوقدت شموع بمال كثير ، فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح المولد قاصفا من الريح كدرت على من كان هناك وسفت فى وجوههم التراب واقتلعت الخيم ولم يقدر أحد على ركوب البحر ولم يعد يعمل مولدا بعدها فان الشيخ مات فى آخر شعبان من سنة ٧٩٠[1] » إلا أن موت الشيخ لم يؤثر على انعقاد المولد فـكان يعقد سنويا إلى القرن العاشر حيث سجله المؤرخ ابن إياس فى كل عام يؤرخ له من السنوات التى عاشها فى النصف الأول من هذا القرن .

وفى القرن العاشر تمت للتصوف السيطرة الـكاملة على الحياة المصرية الدينيه والخلقية والثقافية ، وما كان مستوجبا للأنـكار فيما قبل أصبح فى عصر الشعرانى وابن إياس شيئا عاديا طبيعيا ويظهر ذلك فى حديث ابن إياس المتكرر عن مولد الانبابى . . يقول مثلا فى حوادث صفر ٩١٣ « كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى ونصبت الخيام فى الجزيرة التى تجاه بولاق وخرجت الناس فى تلك الليلة عن الحد فى القصف والفرجة وكانت ليلة حافلة » وفى العام التالى قال « فى ليلة سيدى اسماعيل الانبابى كانت ليلة حافلة وضربت فى الجزيرة نحو خمسمائة خيمة وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد » وكرر نفس الـكلام فى العام التالى سنة ٩١٦ ، وهكذا[2] أى أصبحت ليلة الانبابى مناسبة سنوية « يخرج الناس فيها عن الحد » فى المجون والعبث دون استنـكار أو احتجاج .

(١) المنهل الصافى ١/٥٥٦ : ٥٥٧ .

(٢) تاريخ ابن إياس ٤/١١٤ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٨٢ ، ٢١٤ .

وهناك فى الصعيد كان يقام مولد لأبى الحجاج الاقصرى .. وهو عضو فى الحركة الشيعية السرية .. وقد قال فيه الأدفوى « ادعى أتباعه أنه عرج به للسماء وفى مولده السنوى كان عيداً تحضره أصحاب الشنوف والشبابات والدفوف وتختلط الرجال بالنسوان ويجتمع فيه الشباب والمردان وهى من الأمور الفظيعة والبدع الشنيعة[١] » ولو كان الأدفوى من مواليد القرن العاشر وما تلاه لما جرؤ على أن يقول هذا الكلام .

على أن الأضرحة الصوفية كانت مدعاة للخلوة المحرمة ومكانا للتلاقى الآثم كما كانت الموالد مواسم زمنية لممارسة الانحلال الخلقى، فأصبحت القرافة بما تضم من أضرحة وقباب مواطن مستمرة للانحلال الخلقى فى العصر المملوكى حتى إن النداء كان يتكرردون جدوى بمنع النساء من الخروج للقرافة لتحاشى ما يقع فيها من فسوق ، واستمرت القرافة بقبابها وأضرحتها تؤدى دورها المزرى حتى عصرنا الحديث يقول أحمد أمين فى قاموس العادات المصرية « وكان الناس عادة يبيتون فيها وكانت تحدث فظائع من هذا المبيت ولذلك منعته الحكومة المصرية[٢] » .

وفى العصر المملوكى كان بعض السلاطين يعين الحراس لطرد طلاب المتعة من اتخاذ قبته التى سيدفن فيها ، ففى وثيقة وقف السلطان حسن « يرتب عشرة من الخدام الأدبة الثقاة الأمنا يقيمون بالقبة المذكورة لحفظها وصيانتها ممن يتطرق إليها من أهل التهم والفساد على جارى عادة أمثالهم فى مثل ذلك[٣] » أى اتخذوا من القباب بحكم العادة موطنا للانحراف الخلقى .

ويقول الشعرانى فى ترجمة أبى الحسن بن الصائغ « حكى أن شخصا أراد

---

(١) الطالع السعيد ٤١٧ : ٤١٨ .

(٢) قاموس العادات والتقاليد المصرية ٣٢٢ .

(٣) وثيقة وقف الناصر حسن رقم ٨٨١ أوقاف ص ٤٥٢ .

أن يفعل فاحشة فى أمرد فى مقبرة الشيخ أبى الحسن فصاح الشيخ من داخل القبر : إما تستحى من الله يافقير[1] » أى الفاعل هنا فقير صوفى .. أى أن الصوفية أنفسهم كانوا روادا لهذا الإثم فى القباب التى هم قائمون على أمورها وأن هذا الإثم اتخذ عادة حتى اضطر الصوفية الكبار ممن لا يهوى هذا النوع من المجون إلى تأليف الكرامات التى تحذر من ذلك وإسنادها إلى الحسن ابن الصائغ بعد موته، وقد عرف الحسن بن الصائغ فى حياته بتحرزه من اتخاذ زاويته موطنا للشذوذ الجنسى كما اعتاد بعض الصوفية فهو القائل « لا ينبغى لشيخ رباط الفقراء أن يدع الشباب المرد يقيمون عنده إذا خاف من إقامتهم مفسدة على بعض الفقراء لاسيما جميل الصورة من الشباب)[2] ، ويذكر أن المتبولى شيخ الشعرانى يبدو فى ترجمته فى الطبقات الكبرى أنه ممن اتخذ زاويته وكرا لهذا النوع من الانحراف وكان متهما به[3] .

نعود للصوفية الأحمدية ونذكر أنهم لم يتخلفوا عن الركب فصارت قبابهم موطنا للانحلال أسوة بغيرها ، يروى عبد الصمد عن الشعرانى قوله « ومما شهدته من كراماته — أى كرامات عبد العال — فى سنة سبع وأربعين أن شخصا راود امرأة عن نفسها فى قبة سيدى عبد المتعال فسمره ويبس أعضاءه فصاح حتى كاد أن يموت فأخبرونى به فضبب إلى ضريحه وأمرت بعض الفقراء أن يسأل سيدى عبد المتعال فى الصفح عنه فقرأ الفاتحة ودعا الله فانتشرت أعضاؤه وتاب وصار من الفقراء الملاح)[4] أى بعد أن انتشرت (أعضاؤه) وتأدب (صار من الفقراء الملاح) وقبل ذلك لم يكن من الفقراء أى الصوفية (الملاح) ، ويبدو من النص أن القبة — قبة عبد العال الأحمدى —

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٤٠ .

(٢ ، ٣) نفس المرجع ١/١٣٩ ، ٢/٧٧ : ٧٨ ، ٨٠ .

(٤) الجواهر ٢٤ .

كانت داعية للخلوة المحرمة إذا وجدت فيها امرأة .. وأن وجود امرأة فيها كان باعثاً للصوفى إذا انفرد بها على أن يفكر فى الإثم ، ولم تكن النساء ممنوعة من دخول القباب ، وللقباب تاريخ طويل فى الانحراف أشرنا إليه فاضطر الصوفية لسبك هذه الكرامة التى تشى بما يحدث فى القباب ليحاولوا بها التخفيف أو المنع مما يحدث فيها . . ولو كانوا جادين مثلا لمنعوا دخول النساء للقباب على أى صورة ولكن اكتفوا بتأليف الكرامات وأسندوها للشيخ المقبور وهى على أى حال تزيد من الاعتقاد فيه .

نعود للشعرانى وقد حكى عن نفسه أنه حين دخل بزوجته (أم عبد الرحمن) عجز عنها فظلت إلى جانبه بكراً خمسة شهور ثم أنقذ الموقف فى قبة البدوى ، يقول « ولما دخلت بزوجتى فاطمة أم عبد الرحمن وهى بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها فجاءنى - أى البدوى - وأخذنى وهى معى وفرش لى فرشا فوق ركن القبة على يسار الداخل وطبخ لى حلوى ودعا الأحياء والأموات إليه وقال : أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة[1] » وواضح أن الشعرانى كأى رجل يواجه هذه المشكلة خمسة شهور قد جرب كل الوسائل ليثبت رجولته أمام زوجته البكر ، ثم كان أنجح وسيلة أن يتم (الفتح) عليه فى قبة البدوى بما للقباب الصوفية من إيحاء جنسى وتاريخ طويل فى تلاقى العشاق ، ونجحت هذه الطريقة فصاغها الشعرانى كرامة للبدوى ودعاية لشخصه كتابع أثير ومفضل لدى قطب الأقطاب أعظم أولياء مصر فادعى أنه أخذه و (أم عبد الرحمن) وجهز لهما فى قبته الفراش وطبخ لهما حلوى ودعاه لمواقعة « أم عبد الرحمن » .. وهنيئاً لك أم عبد الرحمن فقد تم « اللقاء » بعد طول « عناء » فى قبة « سيد الأولياء » .

لقد رأينا الشعرانى نفسه هو الراوى لحكاية اعتراض الولى المقبور على

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٦١ .

ما يحدث فى قبته من فجور الصوفية بالصبيان والنساء فجعل ابن الصائغ يصرخ من قبره فيمن حاول الأثم مع صبي وجعل عبد العال يعاقب من راود امرأة فى قبته ، ولا ينبغى أن نتخذ من ذلك دليلا على جدية الصوفية فى حرب المنكرات التى تقع فى موالدهم وقبابهم بدليل أن الشعرانى نفسه لجأ لأعظم وأقدس قبة عند الصوفية وهى قبة البدوى ليحل مشكلته مع (أم عبد الرحمن) فهذا الفعل ولو كان حلالا فلا ينبغى الاتيان به فى مكان مقدس مطهر عند أتباعه.. اللهم إلا إن كان ذلك المكان المقدس لا يمانع أصحابه أنفسهم فى اتخاذه ملاذا للمتعة حلالا كانت أم حراما ، فهم المشرعون ، وطالما نصبوا من أنفسهم محللين ومحرمين وتركوا شرع الله تعالى فإن الشيطان هو المصدر الحقيقى الذى يستقون منه التشريع ، فالشيطان هو الذى سوغ لهم ما تريده أهواؤهم وهو الذى أسبغ عليها شتى التعليلات والتخريجات ، ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾

مسئولية الصوفية فى الانحلال الخلقى فى الموالد :

قد يعترض البعض بأنه لا شأن للصوفية فيما يحدث من انحراف خلقى فى الموالد . وكم كنا على استعداد لتصديق هذا الزعم لولا أن المصادر الصوفية نفسها تأبى ذلك .

فالصوفية يؤمنون بشفاعة الأولياء لأتباعهم .. وأولياء الصوفية يعلنونها صراحة فالدسوقى يقول فيما يرويه عنه الشعرانى « أنا بيدى أبواب النار غلقتها وبيدى جنة الفردوس فتحتها ، من زارنى أسكنته جنة الفردوس[1]» أى من زار مولد الدسوقى أسكنه الدسوقى جنة الفردوس التى يحتفظ بمفتاحها فى جيبه ، والبدوى عند الصوفية أعظم شأنا من الدسوقى

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٥٧ .

فلابد أن تكون شفاعته أكبر ، ولأن مولد البدوى أضخم من مولد الدسوقى والانحراف فيه أشد فالمنتظر أن تتوجه شفاعة البدوى لتكون فى خدمة من (يبالغ فى الاختلاط بالنساء) فى زحمة المولد حيث (البساط أحمدى) .

يقول الشعرانى (أخبرنى شيخنا محمد الشناوى أن شخصاً أنكر حضور مولده فسلب الإيمان فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام فاستغاث بسيدى أحمد فقال : بشرط أن لا تعود ، قال نعم ، فرد عليه ثوب إيمانه ثم قال له : وماذا تنكر علينا قال : اختلاط الرجال والنساء فقال له سيدى أحمد : ذلك واقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه ثم قال: وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار وأحميهم من بعضهم بعضا أفيعجزنى ربى عن حماية من يحضر مولدى[1]) ففى هذا النص دفاع عن الانحراف بثلاثة أوجه : أولا: إن (الاختلاط) واقع فى الطواف حول الكعبة ولم يمنع منه أحد وضريح البدوى كالكعبة والحج إليه كالحج لبيت الله الحرام ، وما يجوز هناك يجوز هنا ، ثانيا: أن تصريف البدوى يصل إلى حد مقدرته على فرض التوبة على من عصى فى المولد فسرعان مايتوب بعدها .. ثم يعود للعصيان فى المولد ويتوب بعدها وهكذا ، فلا حرج على رواد المتعة فى المولد الأحمدى والبدوى بيده مقاليد التوبة يهبها لزواره بعد أن يأخذوا حظهم من المتع فى المولد .. فالانحراف مستمر والتوبة أيضا مستمرة والمولد طبعا مستمر . ثالثا: ثم إذا تأزمت الأمور فتصريف البدوى عظيم وإذا كان يصل بقدرته إلى التحكم فى الوحوش فى الغابات والأسماك فى البحار ألا يستطيع أن يشفع لزواره ويحميهم من العقاب ؟؟ فلا عليكم يازوار البيت (الحرام) فى طنطا فذنبكم مغفور مقدما أما أنت أيها المعترض على مايحدث فى المولد فجزاؤك أن يحل بك غضب البدوى فيسلبك حلاوة الإيمان . .

---

(١) نفس المرجع ١٦٢/١ .

وفى ذلك يقول أحدهم :

وأعجب شىء أن من كان عاصيا بموله يعفى به ويرفق[١]

ويبدو أن حدة الانحراف فى المولد الأحمدى بطنطا قد اشتدت فى العصر العثمانى حتى اضطر عبد الصمد لتبرئة البدوى مما يحدث فى مولده وكان أولى به أن يطالب بمنع المولد نفسه لو صدق مع الحق، يقول (اعلم رحمك الله تعالى أنه قد يعترض بعض الناس على سيدى أحمد البدوى ويقول: إذا كان له هذا المدد العظيم والتصريف النافذ بعد الموت أيضاً فكيف لا يتصرف فى دفع أصحاب المعاصى عن حضوره ؟ فاعلم رحمك الله تعالى أن الجواب عن هذا من وجوه : أحدها : أنه خرج عن دائرة التكليف لأنه فى مقام لا تكليف فيه وهو البرزخ، الثانى : أنه قد يكون من عناية ربه أن من حضر مولده بمعصية يتوب الله عليه ولو بعد حين، الثالث : أن الغالب على حال سيدى أحمد البدوى بعد وفاته البسط[٢]) أى الانبساط و(الانشكاح) وطالما كان البدوى مبسوطا (فلن يستوحش من أكثر الأشياء ولا يؤثر فيه ما يحدث عنده) حسبما يقول عبد الصمد[٣] خاصة وقد خرج عن دائرة التكليف وهو فى البرزخ، وإن كان ذلك لايؤثر فى تصريفه وشفاعته فيمن يعصى فى مولده وطبعا فإن ما يقول عبد الصمد هو دفاع هزيل وحجج متناقضة قصد بها أن يدافع عن شيخه حتى لا يصل الانكار إليه ولا يتحول من انكار على (معاصى المولد) إلى إنكار على (صاحب المولد) .

على أن هناك فارقا بين العاصى العادى والعاصى الذى يقارف الذنب معتقداً أن شيخه سيشفع له أو باحثا عن تأويلات وتبريرات المعصية التى يدمنها .. فالعاصى العادى يقر ويعترف بخطئه وأن ما يفعله فسوق وهو أقرب للتوبة إلى الله فلاواسطة بينه وبين ربه، أما الصوفى الذى يحل المعصية ويسبغ عليها الأعذار

(١ : ٣) الجواهر ١٢٠ ، ٧١ .

وينشد الشفاعة فلا أمل فى توبته لله لأنه جعل واسطة بينه وبين الله ثم أعلن أن تلك الواسطة تبارك معصيته وتشفع له ، ومن هنا نفهم أن المشرك لا أمل له فى غفران الله فكل ما يصدر عن المشرك من معاص لا مجال فيها للتوبة طالما ظل مشركا .. لأن عقيدته فى أساسها كفر وليس بعد الكفر ذنب ، وكل ما يصدر عن الكفر من ذنوب لا علاج لها إلا بمحو الشرك والكفر أولا .. وبعدها نتكلم عن الأخلاق فهذا بدأت دعوة الإسلام فى مكة المنحلة دينيا وخلقيا فبدأ التوحيد وإذ طهرت العقيدة طهر معها الجسد .. ونأمل أن يستفيد المعاصرون من هذا الدرس فلا يقصروا الإصلاح على علاج ما يحدث فى الموالد مع بقاء الموالد بل لابد إن أرادوا الإصلاح فعلا أن يبطلوا الموالد وسائر ما أحدث من تشريع وبدع تناقض شرع الله ، وحينئذ يستقيم الناس بشرع الله فى العقيدة والسلوك والأخلاق ، فالله تعالى حين أنزل شرعه للناس كان الأعرف بهم والأعلم بما يصلحهم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ﴾

والواقع أننا نكلف الصوفية الأحمدية شططا إذا طالبناهم باصلاح أتباعهم ودعوتهم للخلق القويم فى الموالد وعند القباب ، ليس لأن إصلاح هذه الجماهير الغفيرة أمر متعذر ، وليس فقط لأن هدف الأحمدية الأساسى منصب على الترويج للمولد والدعاية له طمعا فى النذور .. ولكن لأن الصوفية الأحمدية هم فى الأصل أكثر انحرافا وانحلالا وأولى الناس باصلاح أنفسهم والاحوج إلى الوعظ والارشاد ..

ونحن لا نتجنى على الصوفية الأحمدية ورفاقهم من أتباع الدسوقى (الفقراء الابراهيمية) فقد ذاعت شهرتهم فى مجال الانحلال الخلقى حتى اضطر الشعرانى فى القرن العاشر للانكار عليهم ، وقد عهدنا الشعرانى مدافعا عن التصوف بوجه عام والمولد الأحمدى بوجه خاص .. ولكن الغلو فى الانحلال الخلقى للفقراء الأحمدية والبرهامية وغيرهم دفعه دفعا للانكار عليهم حفظا للطريق

الصوفى من أن يمتد الانكار من مجرد إنكار على الطوائف المنحرفة إلى انكار على دين التصوف من أساسه .

يقول الشعرانى أن الفقراء الأحدية (أتباع البدوى) والبرهامية (أتباع الدسوقى) والقادرية (أتباع عبد القادر الجيلانى) يأخذون العهد على المرأة ثم يصيرون يدخلون عليها فى غيبة زوجها[1]) أى انهم اتخذوا من التصوف طريقا للوصول إلى النساء بدعوى أنها صارت بنته أو أخته فى الطريق وتحت هذا الشعار يخلو بها ويكون الشيطان ثالثهما .. وبهذه الوسيلة اشتد خطر الصوفية الأحدية ورفاقهم على المجتمع المصرى فى عصر الشعرانى حتى اضطروه لأن يقول (إياك أن تمكن جاريتك أن يأخذ أحد من فقراء الاحدية أو البرهامية عليها العهد إلا مع المحافظة على آداب الشريعة فان كثيراً من الفقراء يعتقد أنه صار والدها يجوز له النظر إليها وترى هى كذلك أنها صارت إبنته ولها أن تظهر وجهها له ، وكل ذلك خروج عن الشريعة وربما جعل إبليس ذلك مقدمات الزنا ... وقد حدث مثل ذلك لبعض إخواننا ورأى صاحبه يفعل الفاحشة فى زوجته[2]) .

وما تلطف الشعرانى فى التحذير منه فى القرن العاشر أعظم الفقيه الصوفى ابن الحاج الانكار عليه فى القرن الثامن حين بدأ الاحدية فى بدعة المؤخاة مع النساء كستار لانحلالهم الخلقى ، ولم تكن تلك المؤاخاة إلا مجرد بدايات لم تأخذ بعد حظها من الانتشار ومع ذلك فان ابن الحاج ندد بهذا الصنيع فقال (آخى بعضهم بين الرجال والنساء من غير نكير ولا استخفاء ثم لم يقتصروا على ذلك بل كانت بعض النساء يعيش مع بعض الرجال ويزعمون أنها أخته من الشيخ وقد آخته فلاتحتجب عنه[3]) وبازدياد التصوف وعلو

(١ ، ٢) لواقح الأنوار ٣٢٣ ، ١٨٠

(٣) المدخل لابن الحاج ٢/٢٠٤

شأن الاحمدية ازدهر الانحراف وانتشرت طريقة المؤاخاة مع تغلغل الطرق الاحمدية وفروعها فى المدن والقرى المصرية .. وإذا كان ابن الحاج قد انكر فى القرن الثامن على [البعض الذى آخى بين النساء والرجال] فان فقيها صوفيا آخر فى القرن التاسع انكر شيوع هذه الظاهرة فقال [وقد فشا فى هذا الزمان مؤاخاة الفقراء للنسوان ويدخل إليها وتدخل عليه ويختلى بها ويزنى بها ، وكثير منهم يزعم أن المرأة تصير أخته يدخل عليها متى شاء بإذن زوجها وبغير إذنه ويختلى بها ويتعانقان بالظهور والصدور ومالا ينبغى ذكره ويقولون هذه محبة الفقرا فيزنى الرجل بالمرأة وهى أيضا تزنى به[1]]

واستمرت هذه الظاهرة فى الشيوع فى القرن العاشر — عصر الشعرانى — يؤيدها التشريع الصوفى بأنها (مؤاخاة) و (محبة فقرا) حتى اضطر الشعرانى للانكار عليها على استحياء وباستعمال أسلوب الاستثناء كقوله « إياك أن تمكن جاريتك أن يأخذ أحد من فقراء الأحمدية أو البرهامية عليها العهد إلا مع المحافظة على آداب الشريعة » فهو لم يمنع إعطاء العهد الأحمدى والمؤاخاة تماما وإنما أجازهما بشرط الحفاظ على آداب الشريعة . كأن الشرع يجيز ذلك العهد من أساسه ويجيز مبدأ المؤاخاة طالما حافظ « الاخوة » على آداب الشريعة فالشعرانى فى الواقع يتلاعب بحصيلته من الفقه لكى يوفق بين الشرع والتصوف ولا يمكن التوفيق بين عقيدتين متعارضتين .

وقد ذكر عبد الصمد أن أولاد المطوف كانوا « على غير نمط الاستقامة وكل من تعرض لهم بأذى جاءته الدواهى)[2] أى مع كونهم منحرفين على غير الطريق المستقيم فقد أضفى عليهم البدوى الحماية لأن جدهم المطوف كان مقربا للبدوى « وكان سيدى أحمد يباسطه حتى لم يكن يدخل دار سيدى أحمد

(١) المقدسى الرجائى . مخطوط : حكم الامرد ورقه ٥١ .

(٢) الجواهر ٢٩ .

راكبا غيره .. وله أولاد على غير نعت الاستقامة وكل من تعرض لهم بأذى جاءته الدواهي .. » فالبدوى يبسط حمايته لأقرب أتباعه وأولادهم ومحفلى زواره بالشفاعة ومع ذلك فهو فى دار البرزخ حيث قد خرج عن دائرة التكليف ولا مسئولية عليه فيما يفعل، أليس هذا مضحكا؟ وشر البلية ما يضحك!

ويقول عبد الصمد إن عبد الكريم خليفة المقام الأحمدى توفى مقتولا سنة ٩٦٢هـ[1] ، وقد كان سوء سيرته سببا فى قتله وقد تولى الخلافة بعده « صبى من أقاربه » يحتمل أن يكون إبنه كما ألمح إلى ذلك ابن إياس[2] . أى إبنه من الزنا .

أولئك هم خلفاء المقام الأحمدى .. أدمنوا الانحلال ونشروه بين المصريين فى الموالد ثم تسلطوا على نساء المصريين فأفسدوهن بحجة [المؤاخاة] و [محبة الفقرا] .

والواقع أن الموالد وما يصاحبها من انحراف خلقى نظام عرفه المصريون منذ العهد [الفرعونى] وإنه استمر فى العصر [القبطى] ثم فى العصر [الصوفى] إلا أن الفارق يتمثل فى موقف أصحاب الموالد [القبطية] أو [الصوفية] من مظاهر الانحراف الخلقى المصاحب للمولد .

ففى العصر اليونانى والرومانى كان الشعب بعد اعتناقه للقبطية كلما اشتهر قديس فى منطقة توافد عليه محتفلا به حيث تنصب آلاف الخيام لمدة تصل لاسبوع كامل فتقام الصلاة والقداسات وتقرأ سيرة القديسين وتقدم النذور وتنحر الذبائح ، ولا تخلو من اختلاط بين الجنسين وانحلال خلقى ، إلا أن أولى الامر من كبار الكنيسة وقفوا موقفا حازما من هذا الفساد ، يقول الانبا شنوده فى القرن الخامس الميلادى يعظ الجماهير المحتشدة فى أحد

---

(١) الجواهر ٢٥ (٢) تاريخ ابن إياس ٢/٩

للوالد (جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو أو بالأحرى يزنى ويرتكب الجرائم نتيجة الإفراط فى الشراب .. فهذا هو الكافر بعينه ، وبينما البعض فى الداخل يقرءون ويرتلون .. إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر .. لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع[1]) .

لم يحاول الأنبا شنوده إعلان الشفاعات وتبرير الانحرافات ولم يشارك فى الانحلال بحجة المؤاخاة أو المحبة .. كما أنه لم يرض بأن يسرق أتباعه بضائع التجار والواردين للمولد كما كان الصوفية يفعلون فى المولد الأحمدى بحجة أن البدوى يملك بلاد الغربية وهم أتباعه وأحق بالتمتع بأملاكه .

أولئك هم الصوفية الأحمدية .. لم يطاولهم فى الانحلال الدينى والخلقى أحد فى التاريخ المصرى الممتد لآلاف السنين .

إن انحلال الصوفية الأحمدية أمر مقرر دلت عليه كتبهم .

ولكن .. ما هى مسئولية البدوى فى تردى أتباعه ؟ ..

(١) مراد كامل ، تاريخ الحضارة المصرية ٢/٢٩٧ - ٢٩٨

خامسا : مسئولية البدوى

تواجه الباحث فى سيرة البدوى مشكلة أن ما كتب عنه قد يمثل فى الحقيقة فكرة أتباعه عنه واعتقادهم فيه، وقد لا يمثل بالضرورة أفكار البدوى بالنص والحرف .. ويزيد من صعوبة المشكلة أن البدوى كان ضحل الثقافة ضيق الوقت لانشغاله بدعوته السرية فلم يترك مؤلفا نحكم به له أو عليه اللهم إلا بعض الأشعار والأوراد والأحزاب البسيطة التى لا ترقى إلى مستوى شهرته ولا تضارع ما تركه الآخرون كالشاذلى والمرسى والدسوقى من أوراد وأحزاب ومؤلفات .. ثم إن أحزاب البدوى ووصاياه لا تمثل فكراً متميزاً وإنما هى مجموعة من الآيات والوصايا التى تتردد على الألسنة ومن السهل أن تنسب لأى شخص ، الأمر الذى يجعلنا نشك أنه قالها فعلا ، وربما نسبها له عبدالعال أو غيره فلا تفترق عن كلمات الأحمدية فى شىء .. وتظل (أغلب كلمات) البدوى الحقيقة سراً دفن معه كما هو الشأن فى دعوته السرية وسائر ألغازه . ومن هنا فإننا نواجه مشكلة حقيقية حين نحاول تحديد المسئولية بالنسبة للبدوى مما اقترفه أتباعه من بعده حين قدسوه وعبدوه وعاملوه كإله ثم أفسدوا أنفسهم والناس معهم خلقيا بشتى الخرافات والمعاذير والتأويل .

وكان ممكنا أن نصدق الصوفية الأحمدية فيما نسبوه للبدوى من شعر وقصص يحث الناس على الحج إليه وتقديسه أو أنه يشفع لهم إذا انحرفوا فى مولده فهو الذى يحمى الوحوش والأسماك .. إلخ .

كان ممكنا أن نجعل البدوى مسئولا ونصدق افتراء الأحمدية عليه فى دعوتهم المحمومة للدعاية للمولد والاستفادة به بعد موته .. ولكننا رفضنا أن نصدق ما كتبه الصوفية أنفسهم من نصوص قاطعة تدين البدوى، لا حباً فى البدوى ولا خوفاً من تصريفه المزعوم وإنما إنصافاً للحق .. فالبدوى

فى نظرنا مجرد إنسان عادى مات وانقطعت صلته بالاحياء ويواجه مصيره المحتوم أمام خالقه تعالى، ولا يعقل أن يخرج لسانه من قبره داعياً لمولد أو منكراً على من يحتج عليه، لهذا وضعنا الامور فى نصابها فنسبنا هذه الاقوال إلى الاحمدية وحاسبناهم عليها ولم نعتبر البدوى مسئولا عنها .

ولكن إنصاف البدوى فى البعض لاينفى اتهامه فى البعض الآخر، فنحن فى النهاية نحتكم إلى (عقل) مجرد عن الهوى وإلى (علم) بالتصوف ورجاله وعقائده منذ أن بدأ التصوف على استحياء مضطهداً فى القرن الثالث ثم إلى أن عقد الغزالى الصلح بينه وبين الإسلام فى القرن الخامس ثم إلى أن انتشر وبدأ فى النمو السريع منذ القرن السابع « عصر البدوى » وظل فى الانتشار إلى أن تحكم فى الحياة الدينية تماما فى القرن العاشر وما تلاه .. وأصبح الصوفية الذين كانوا مضطهدين فى القرن الثالث يضطهدون خصومهم فى القرن السابع كابن تيمية وفى القرن التاسع كالبقاعى، ثم انعدم خصوم التصوف تماما فى العصر العثمانى حيث تمت له السيطرة والنفوذ .

وبالعقل الذى يحدد ماللبدوى من أقوال ومافتروه عليه، وبالعلم بتاريخ التصوف وعقائده ورجاله ومدارسه بين تصوف نظرى أو عملى وتصوف شيعى أو تصوف خاضع للسلطة السياسية، بذلك كله نستطيع أن نلقى أضواء كاشفة على ماخفى من سيرة البدوى الحقيقية لنتعرف على مسئوليته الحقيقية فيما وقع فيه أتباعه من بعده .. وليس أمامنا من طريق آخر لبحث حقيقة البدوى .. ذلك (المجهول) المشهور، (الغامض) المعلوم .

ويمكن القول أن البدوى يتحمل مسئولية عامة عما اقترفه الاحمدية من بعده فهو الذى تستر بالتصوف فى دعوته السرية وضم إليه الاحمدية أتباعاً وزعهم فى المدن والقرى، ثم إذا فشل فى دعوته السياسية استرسل فى دعواه الصوفية وتبعه أنصاره الموزعون فى النواحى .

ولكن البعض ينكر تماما أن يكون للبدوى نشاط سرى سياسى وهو يراه صوفيا حقيقيا لا متسترا بالتصوف، ونحن لا ننكر صلة البدوى بالتصوف فسواء تستر بالتصوف أو أخلص فى طريقه الصوفى فصلته بالتصوف قائمة وبالتصوف كانت شهرته ثم بالتصوف أيضا تكون مسئوليته، وإذا وافقنا هذا البعض على أن البدوى متصوف فقط فان مسئوليته تكون أفدح وأعظم.. فعلى هذا فان تصوف الاحمدية المنحرف يرجع إلى ما نشأوا عليه فى مدرسة البدوى التى استمرت من (٦٣٧) إلى وفاته سنة (٦٧٥) فالمسئولية هنا كاملة لا يخفف منها عامل التستر والاستغلال الظاهرى للتصوف..

وإذا كان البعض يصر على اعتبار البدوى صوفيا وصوفيا فقط فإننا نرى أن اتهام البدوى بالتصوف كاتهامه بالكفر تماما، إذ أن التصوف فى حقيقته تقديس البشر واضفاء صفات الالوهية على الاولياء أحياء أو أمواتا كما وضحنا فى نظرية الصوفية للبدوى وتأليههم له.

ومع أن ثقافة البدوى البسيطة ووقته المشحون بالدعوة السرية قد قلل إلى حد كبير من أقواله الصوفية التى نحكم بها على عقيدته فان طابع التصوف فى عصر البدوى وما قاله رفاق البدوى فى الدعوة كل ذلك يجعلنا نؤكد أن تصوف البدوى لم يفترق عن التصوف السائد فى القرن السابع حيث عاش البدوى وربى أتباعه وأنشأهم كصوفية لا يفترقون فى شىء عن أقرانهم من الصوفية إن لم يزيدوا عنهم انحرافا.. ولكى نثبت هذه الحقيقة نستعرض للعقائد الصوفية وأقوال المعاصرين للبدوى فيها ثم أقوال البدوى نفسه كما جاءت فى كتاب عبد الصمد لنرى إلى أى حد كان هناك اتساق وتناغم بينها جميعا.

و « الاتحاد » اهم عقائد التصوف ويعنى أن الصوفى بالمجاهدة يستطيع الوصول لله والاتحاد به فيكون جزءا منه أو يتحقق بالحق ويكون العبد زمانا فانيا فى الحق تعالى، وفى بداية التصوف كان الإسلام لا يزال فى قوته

وسيف الاضطهاد مسلط على كبار الصوفية حتى اعتقل معظمهم لحوكم وقتل البعض كالحلاج ـ حينئذ كان الصوفية يعبرون عن عقيدة الاتحاد بالرموز والايحاءات كقول الجنيد « التوحيد هو الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة بقاء السرمدية[(١)] » أى الخروج من البشرية الفانية إلى الألوهية السرمدية .. وعلى نفس النسق للوحى يقول رويم (التوحيد هو محو آثار البشرية وتجرد الألوهية[(٢)] » أى محو البشرية فى العبد ليتحد بالله وتتجرد فيه الألوهية ، أو يقول « للعارف ـ أى الولى الصوفى ـ مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه[(٣)] » أى أن الألوهية كامنة فى الولى الصوفى فإذا أراد اتحادا بالله فى أى وقت تجلى له مولاه فاتحد به .. أما أبو سعيد الخراز « أول من تكلم فى علم الفناء[(٤)] » أى علم الاتحاد فقد كان أكثر صراحة فى التعبير فقد قال « إذا أراد الله أن يوالى عبداً من عبيده فتح له باب ذكره ، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجلس الأنس ثم اجلسه على كرسى التوحيد ثم رفع عنه الحجب فادخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو فحينئذ صار العبد فانيا فوقع فى حفظ الله « أى تم اتحاده به » وبرىء من دعاوى نفسه[(٥)] أى تخلص من أثر البشرية فى ذاته.

ثم جاء الغزالى فى القرن الخامس فتوسع فى شرح عقيدة الاتحاد الصوفية وحاول ربطها بالاسلام فى كتابه الأحياء فى مواضع متفرقة حيث دعمها بأقوال فى وحدة الوجود التى توسع فيها ابن عربى فيما بعد .. ولسنا فى مجال الإطالة هنا ولكن نستشهد ببعض أقوال الغزالى فى الاتحاد فهو يقول « إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له[(٦)] » ويقول « إن من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص

---

(١) اللمع للطوسى : ٩ ، تحقيق عبد الحليم محمود (٢) اللمع ، ٥١
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/ ٧٥
(٤ ، ٥) نفس المرجع للشعرانى ١/ ٧٩ (٦) الأحياء ٤/ ١٧٦

المهودية[1] » وروى عن صوفى لم يحدد إسمه قال « إنى أقول يارب ياألله ، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه[2] » . أى يدعو لعدم توسل الصوفى بالله لأن الفوارق بين العبد والرب قد زالت ولم يعد هناك حجاب ولم يعد رب وعبد وإنما تكافؤ وتماثل .

وفى القرن السادس بدأت الدعوة الشيعية الصوفية وكان الرفاعى زعيمها فى العراق فارتبطت لديه دعوى الاتحاد الصوفى بادعاء الألوهية فيقول « إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله وصارت همته خارقة للسبع سموات وصارت الأرضون كالخلخال برجله وصار صفة من صفات الحق جل وعلا لا يعجزه شيئا وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه)[3]

وفى القرن السابع برز فى مصر إبراهيم الدسوقى وهو القائل عن الله تعالى[4] :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى ... فقال أتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منائى بل أنا أنت دائما ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتى

والدسوقى رفيق للبدوى فى الدعوة والتستر بالتصوف والصلاة بينهما حميمة وكلاهما ينتمى صوفيا وسياسيا للرفاعى .

وقد جاء فى سيرة البدوى أنه حين زار العراق توجه لضريح الحلاج[5] ،

(١ ، ٢) الاحياء ٤ / ٣٢٦ ، ٢٦٧
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١٢٢/١ (٤) نفس المرجع ١٥٨/١
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى ١٥٩/١

والحلاج أبرز الصوفية المتشيعين وممن أعلن عقيدة الاتحاد صراحة .

ويقول البدوى متابعا لمقالة الرفاعى السابقة فى مزج الاتحاد بادعاء الألوهية وتمنى التحكم السياسى(١) : ـ

سائر الأرض كلها تحت حكمى وهى عندى كخردل فى فلاء
وإذا بان فى الولاية غوث فهو من تحت قبضتى وولائى
أنا سلطان كل قطب كبير وطبولى تدق فوق السماء

ويقول البدوى على نسق الدسوقى فى تائيته السابقة(٢) :

وباسطنى عمداً فطاب خطابه فيا طيبها من حضرة صمدية
فغيبنى عنى فصرت بلا أنا دهشت بمرآة ووحدت وحدتى
فتوجنى تاجا من العز والبها ومن خلع التشريف ألبست خلعتى
من فوقها طرز الوفاء بنوره مكللة من فيض رب البرية
أنا قطب أقطاب الوجود باسره وكل ملوك العالمين رعيتى
أنا أحمد البدوى قطب بلا خفا على الأقطاب صحت ولايتى

ومع ذلك فإن عقيدة الاتحاد الصوفية لم تكن تستهوى المتصوفة الشيعة بالذات ، ربما لأن عقيدة الاتحاد كانت اشتراكية بعض الشيء فأعطت لكل صوفى الحق فى إعلان اتحاده بالله بل وتوسع بها الغزالى ثم ابن عربى فجعلوا من الكون كله شريكا لله فى وحدة الألوهية أو مايعرف بوحدة الوجود أى أنه لا فارق حقيقى بين الخلق والحق(٣) .

والتصوف وليد التشيع ولكن حين بدأ التصوف يأخذ نوعا من الاستقلالية

---

(١) الجواهر ٩٥ (٢) الجواهر ١٠٠ ، ١٠١

(٣) راجع فى الاحياء كمثال : ٤ /٢١١ - ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٠

وراجع لابن عربى فصوص الحكم بشرح القاشانى - ٨ : ١١ ، ١٣٢ : ١٣٣ مجرد أمثلة .

ويوسع دائرته باعلان عقيدة الاتحاد الأكبر أو وحدة الوجود بدأ البعض بنحلة جديدة هى الحقيقة المحمدية التى واكبت وحدة الوجود إذ صدرتا معا بتوسع عن ابن عربى وذلك لكى يحفظ للتشيع ذاتيته الخاصة داخل العقائد الصوفية .. والحقيقة المحمدية تعنى أن حقيقة محمد أزلية جاءت من نور الله تعالى قبل خلق العالم وقد تنقلت فى الأنبياء إلى أن ظهرت فى شخص محمد عليه السلام وبعده انتقلت إلى على بن أبى طالب فالأئمة الأولياء من بعده ثم تنقلت فى الأقطاب إلى أن حلت فى الرفاعى ثم الدسوقى والبدوى وهكذا . . .

وقد بدأت هذه النحلة فى العصر العصر العباسى بمذهب الشلمغانى المقتول سنة ٣٢٢ وقد عرض ابن الأثير لأقاويله فى التناسخ وحلول الالوهية فى الأئمة بما يشبه مقولة الصوفية الشيعة فى الحقيقة المحمدية ثم قال « وما أشبه هذه المقالة بمقالة النصيرية ولعلها هى هى[1] والنصيرية طائفة شيعية متطرفة لاتزال بقاياها فى الشام إلى يومنا .. ثم تولى ابن عربى فى القرن السابع ربط هذه النحلة بالتصوف المتشيع وعرض لها فى رسالته « شجرة الكون[2] » ، وابن عربى ــ كما سبق توضيحه ــ لم يكن بعيداً عن الحركة الشيعية السرية ، وجاء الدسوقى فى نفس القرن فعبر عن هذه العقيدة نثرا وشعراً فكان يقول « أنا موسى فى مناجاته أنا على فى حملاته ، أنا كل ولى فى الارض خلعته بيدى ألبس منهم من شئت »[3] يعنى أنه طبقا للحقيقة المحمدية التى حلت فيه كما حلت فى الانبياء فقد كان حاضراً مع كل منهم مع موسى حين كان يناجى ربه ، بل يقول « وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخا فى الازل بين

(١) تاريخ ابن الأثير ٨/١١٠ - ١١١

(٢) صفحات ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ١٦، ١٨، ٢٠، ٢١ وما بعدها .

(٣) الطبقات الكبرى ١/١٥٧ .

يدى قديم الازل وبين يدى رسول الله وأن الله عز وجل خلقنى من نور رسول الله وأمرنى أن أخلع على جميع الاولياء بيدى وقال لى رسول الله : ياابراهيم أنت نقيب عليهم فكنت أنا ورسول الله وأخى عبد القادر خلفى وابن الرفاعى خلف عبد القادر ثم التفت إلى رسول الله فقال لى : يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان ففعل مالك ما أمر به وفعل رضوان ما أمر به[(١)] »

ويقول الدسوقى شعراً(٢) :

تشأت فى الحب من قبل آدم — وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد — على الدرة البيضاء فى خلويتى
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداءه — بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع ادريس لما أتى العلا — وأسكن الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا — وأعطيت داود حلاوة نغمة
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى — بحارا وطوفانا على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة — أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة

وعلى نفس النسق يقول البدوى(٣) :

دعنى لقد ملك الغرام أعنتى — لكننى خضت البحار بهمتى
أصبحت فى جنباتها متجردا — بين الصفا أسعى وبين المروة
فقرأت من توراة موسى تسعة — تليت على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرة — تليت عن عيسى فزادت رفعتى
وقرأته وفهمته وشرحته — وجعلت فيه من شواهد حكمتى
أنا صاحب الناموس سلطان الهوى — أنا فارس الانجاد حامى مكة
أنا أحمد البدوى غوث لاخفا — أنا كل شبان البلاد رعيتى

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى ١/١٥٧، ١٥٨ وموعدنا مع الدسوقى فى الكتاب القادم إن شاء الله تعالى .

(٣) الجواهر ٩٨

ويقول البدوى فى قصيدة أخرى(١) :

طاب وقتى بالرتبة العليـــاء ... فى الأرض والجو ثم السماء
ودعتنى الأمـلاك من كل قطر ... وأتونى تبركوا بدعائى
أنا من قبل قبل وجودى ... كنت غوثا فى نطفة الآباء
أنا بحـر بلا قرار وقــد ... شرب العارفون من بعض مائى ..

والدسوقى كان يقول « أنا فى السماء شاهدت ربى وعلى الكرسى خاطبته(٢) » وكرر البدوى هذا المعنى شعراً فقال(٣) :

أنا من قبل وجودى فى الورى ... كنت قطبا وإماما واصـــلا
أنظر الكرسى وما فوق السما ... ورأيت الحق لى قــد انجلى
ليس لى شيخ ولا لى قــدوة ... غير خير الرسل طه الأولا ..

وقد تأثر الاحمدية بعقيدة البدوى فترددت أقوال لم تعكس الحقيقة المحمدية فعبد الصمد يقول فى أول كتابه « الحمد لله الذى أطلع الانوار الاحمدية فى سماء الشهود وجلا جمالها فى مرآة الوجود فأشرقت أنوارها حتى اقتبس منها كل موجود » إلى أن يقول أو أشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وخليله الاول فى الايجاد والوجود المستغرقة حقيقته الآحاد والانواع والاجناس والوفود » .

والشهاب العلقمى يمدح البدوى بأسلوب الحقيقة المحمدية فيقول له(٤) :

أنت بحـــر البحر نقطة فيض ... من نبى سادت به الأنبيـــاء
ورأيت الذى له خر موسى صعقا ... قبـــل أن يرى ما يشاء

وترددت عقيدة الاتحاد فى وصف البدوى فقال عنه أتباعه فيما يرويه الشعرانى « حصلت له جمعية على الحق تعالى فاستغرقته الى الابد ولم يزل حاله يتزايد إلى

(١) الجواهر ٩٥
(٢) الطبقات الكبرى ١٥٧/١
(٣) الجواهر ١٠٠
(٤) الجواهر ٩٣

عصرنا هذا(١) ، أى أنه اتحد بالله ـ تعالى عما يصفون ـ وإن هذه الحالة فى تزايد مستمر إلى عصر الشعرانى . .

وعبر الشمس البكرى عن هذا المعنى شعرا فقال عنه(٢) :

الله جل جـلاله بالحق أشهد أن الإله جمـاله للقوم أشـهد

وأنا لهم رتب السيادة والعلا لا سيما بدريهم ذو المجد أحمـد

سر الحقيقـة والشريعة والذى مصباحه من نور خالقـه توقد

لقد كان الدسوقى أكثر ثقافة من البدوى وأقل مسئولية منه فاستطاع أن يؤلف الجوهرة ، عرض فيها لأرائه الصوفية التى استقى منها الشعرانى ملخص مذهبه فقال (هذا مالخصته من كتاب الجواهر له وهو مجلد ضخم(٣)) أما البدوى فلم تسمح ظروفه بتأليف كتآليف الدسوقى ولو فعل لـكان قد أراحنا فى الحـكم عليه ، ومهما يكن من أمر فإن تلك الأبيات التى عبرت عن عقيدة البدوى تـكفينا شاهداً ويؤكدها ماقاله الدسوقى رفيقه فى الدعوة وما قاله السابقون للبدوى والدسوقى .

ومنطق أن البدوى لو خالف رفاقه فى العقيدة وأنـكر عليهم تحلتهم فى الاتحاد والحقيقة المحمدية لتغيرت سيرته ولتميز أتباعه عن باقى الصوفية .. ولـكن ذلك لم يحدث ، بل على العكس كان التشابه واضحا فى السلوك والعقائد لدى الفقراء الأحمدية والبرهامية والقادرية والرفاعية ، حتى أن الشعرانى كان ينـكر عليهم معاً ويهاجمهم بالجملة إذ كانوا أكثر انحرافاً عن باقى الصوفية.

والصوفية كالعهد بهم فاقوا السابقين كفراً حين اعتنقوا عقيدة الاتحاد وقد قرر القرآن الـكريم أن العرب الجاهليين جعلوا من الملائـكة بنات الله فقال تعالى ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً أن الإنسان لـكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات وأصـفاكم بالبنين ﴾ الزخرف ١٥ ، ١٦ ، ولـكن الصوفية

---

(١) الطبقات الـكبرى ١٥٩/١ (٢) الجواهر ١٠٦

(٣) الطبقات الـكبرى ١٥٨/١

جعلوا من أنفسهم جزءا من الله يتحدون به ويفنون فيه ويحل فيهم، ثم توسعوا فمحوا الفوارق بين الله والعالم وزعموا أن ليس لله وجود إلا فى العالم أو حسب تعبير ابن عربى عن الله تعالى « فهو الشاهد من الشاهد والمشهود من المشهود فالعالم صورته وهو روح العالم المدبر له فهو الإنسان الكبير ، إن شئت قلت هو الخلق وإن شئت قلت هو الحق والخلق(١) » .

والصوفية حين جعلوا من محمد حقيقة إلهية تتقلب فى الرسل ثم تحل فيهم بالتعاقب — إنما خالفوا صريح القرآن الذى قضى على محمد بالموت كسائر الناس ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ الزمر : ٣٠ ، وخالفوا القرآن حين قال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ الأنبياء : ٣٤ ، والصوفية حين زعموا أن محمداً — والصوفية معه — حضروا انقاذ نوح ومناجاة موسى وتآمر أخوة يوسف بيوسف .. إلخ إنما خالفوا صريح القرآن إذ قال يخاطب محمد « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين وما كنت ثاويا فى أهل مدين » .. « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » .. « وما كنت لديهم إذا جمعوا أمرهم وهم يمكرون » القصص ٤٤ ، ٤٥ وآل عمران ٢٤ ، يوسف ١٠٢ ، هذا بالنسبة النبى عليه السلام فكيف بأولئك الصوفية ؟ .

نخلص من هذا أن البدوى مسئول مسئولية تامة عما وقع فيه أتباعه من بعده ، صحيح أنه لم يخترع عقيدة الصوفية وإنما بدأت قبله بقرون ولكنه سار عليها واستغلها فى جمع الأتباع وتدبير حركته السرية ، وحتى إذا برىء من التصوف فلن يبرأ من التشيع وهو الأصل الفاسد للتصوف ، والمسلم الحق يبادر بالانكار على كل عقيدة تخالف دين الإسلام ويعلن براءته منها .. لا أن يتستر بها لهدف دنيوى أو يؤمن بها ويجمع على أساسها الاتباع والانصار .

---

(١) الفصوص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

لقد كان البدوى إماما للطرق الاحمدية .. وبهذه الصفة سيقابل الله مسئولا عنهم وعن نفسه يقول تعالى ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ الإسراء : ٧١ ، وبهذه الصفة سيحشر مع أتباعه ممن قدسوه وعبدوه ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ الصافات ٢٢ ، ٢٤ ، وحين يفاجأ الاحمدية بالبدوى معهم فى الجحيم سينقلب التقديس إلى عداء وخصام ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ٩٦ : ٩٨ ، وستتحول نقمة المستضعفين من الاحمدية إلى من غرر بهم من مؤلفى الكرامات ومخترعى المقامات وخالقى الاساطير وبائعى الاوهام والاكاذيب من الكبار والسادة منظمى الموالد وجامعى النذور والنقوط .. حينئذ لا يجد المستضعفون إلا الحسرة والنقمة ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ اللهم آمين .

« صدق الله العظيم »

خاتمـــة

١ ـ أحكام التاريخ دائماً نسبية وتميل إلى إظهار المحاسن والمساوىء فى التاريخ لعصر ما أو شخص ما .. وإذا طبقنا نظرة المؤرخ للبدوى كداعية سياسى فاننا نفترض أنه كان على حق إذ كانت المنطقة تئن من ضعف الحكام الايوبيين وتنازعهم مع أنفسهم وتحالفهم مع أعدائهم مع خطورة الموقف (الدولى) بالصراع بين الخوارزمية والمغول .. والمنتصر منها لابد أن يفرض نفوذه على الأيوبين فى مصر والشام .. ثم إن الشعب كان قد افتقد الاستقرار السياسى منذ أن كفت يد العرب عن التحكم ، فبانتهاء النفوذ العربى فى الدولة العباسية تقلبت على كرسى الخلافة العباسية مراكز ضغط مختلفة كالأتراك والبويهيين والسلاجقة ، ومع اختلاف جنسياتهم وعقائدهم مابين ترك وديالمه وشيعة وسنيين فانهم اتفقوا جميعاً على حجب الخلافة العباسية من أن تكون قوة سياسية مؤثرة وحجب العرب من أن يعود لهم سابق التحكم .. واتفقوا أيضاً عن أن تكون سياستهم مجرد تنازع وتآمر فيما بينهم للوصول للسلطة أو الاحتفاظ بها ..

فى ظل هذا التفكك السياسى نبتت الدعوة السرية الشيعية بعناصر أغلبها من العرب تهدف لإرجاع التحكم العربى الذى لايزال الناس يحتفظون له بالذكريات الطيبة ، وحتى إن لم يكن أفضل من الحكم الموجود فلن يكون بالقطع أسوأ منه ، ثم هم يعتقدون بأحقيتهم فى الملك لأنهم من نفس الشعب لا قبائل وافدة من الشرق .. أو جماعات رقيق من كل العالم .. وهم إن نجحوا فحكام (مدنيون) لا حكام عسكريون ..

لهذا كله فإن النظرة التاريخية تحكم للبدوى لاعليه من الناحية السياسية وتفترض ـ لو صح الافتراض فى الأحكام التاريخية ـ إن البدوى لو نجح مع جماعته فى الوصول للحكم لكان أفضل من بنى أيوب . وربما من بعض السلاطين المماليك ، على الأقل للشعب المسكين الذى عاش أحلك المعاناة فى ظل الحكم المملوكى .

٢ ـ وإذا كانت أحكام التاريخ نسبية فإن أحكام العقائد قاطعة ولا تعرف التوسط فإما إيمان وإما كفر ولامنطقة وسط بينهما . ذلك لأن التاريخ فى أغلبه

حوادث وتلك الحوادث نبتت فى ظروف مختلفة فتختلف بشأنها الآراء وتتضارب ويكون الحل الأمثل فى الترجيح والنسبية ، أما العقائد فاقوال إن صحت نسبتها لقائليها حكمت عليهم بالكفر أو بعدمه ، والمرجع الذى يحتكم إليه باحث العقيدة هو القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالقضية هنا واضحة قاطعة .. فأقوال فلان متواترة عنه والقانون الذى يحكم عليه قرآن كريم و « كتاب مبين » أى واضح التعبير ميسر لكل من أوتى عقلا بلا هوى أو غرض .

ولأن للبدوى وجهين « سياسى سرى وصوفى علنى » فان حيثيات براءته فى التاريخ والسياسة لا تنفى اتهامه بالتصوف الملحد من حيث العقيدة والدين ، وإن خفيت عنا أكثر أقواله فإن بعضها وصل إلينا أقوالا مجردة .. وأكثرها رددته جماعاته بعد موته أفعالا وأقوالا وتاريخاً ، وهم بالقطع متأثرون به فقد نشأوا فى مدرسته صغاراً واستمروا بها تلاميذ مخلصين نحو أربعين عاماً ، وجسدوا تأثرهم به تقديساً وعبادة له من السنين بل الأيام الأولى لوفاته ، فالمولد الكبير للبدوى بدأ حين توافد الأحمدية من كل حدب وصوب للتعزية فى وفاة البدوى واستمر تقليداً .. بكل ما يعنيه للمولد من انحراف دينى وخلقى .

وقد يبدو المنهج الذى حكمنا به على البدوى غريباً لأن الكتاب درجوا على الإشادة بالبدوى والصوفية ، وحتى من بحث فى دعوة البدوى السرية فانه تحاشى أن يحكم عليه دينيا وصوفياً ، ونحن نعذرهم فلا زلنا نعيش فى عصر التصوف ولا زال لأصحابه سيطرة على الفكر الدينى بمستوياته الدنيا والعليا ، وفى ظل هذه السيطرة نالوا ما يشاءون فى البدوى وفى غيره تمجيداً وتقديساً بدعوى العلم والاجتهاد وهم أبعد البشر عن علم أو اجتهاد .

٣ — والأصل فى الإنسان أن يكون مسلما .. فالإسلام هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وآدم أبو البشر أول من وحد الله وأول أنبياء الله للبشر ومهما بلغ كفر الإنسان وعتوه فانه حين الأزمة والمصيبة يعود إلى طبيعته الأولى موحداً فلا يستغيث إلا بالله ولا يلجأ إلا إليه ، وإذا كان الإسلام هو الأصل الذى نرجع إليه فان التعويل على هذا الأصل يكون أكبر وأعظم حين يقر الإنسان بالوحدانية وينطق بالشهادتين ويصبح مسلما رسمياً وفعلياً وتنسجم فيه الفطرة مع السلوك والاذعان .

ولكن الشيطان لا يرضى بهذا الوضع فلا يزال بالإنسان إلى أن يوقعه فى الرده أى الكفر بقول أو فعل أو اعتقاد ينافى عقيدة التوحيد التى تقصر التحكم فى الكون على الله تعالى وتقصر العبادة وتوجهها له وحده .. فالإسلام هو الأصل والردة هى الطارئة . . وعلى ذلك فباحث العقيدة إن أخلص فى بحثه فعليه أن يحكم على الطارىء لا على الأصل .. بمعنى أنه لا يثبت أن إنسانا ما مسلم لأن الأصل فى الإنسان أن يكون مسلما ، خاصة إذا أقر بالشهادتين ولكن عليه أن يثبت - إذا جد ما يدعو لذلك - إن ذلك الإنسان قد وقع فى الكفر بكلمه أو فعل أو اعتقاد وخرج به عن الإسلام أو الأصل الذى فطره الله عليه وأقر هو به فى نطقه الشهادتين .

وهذا المنهج مستمد من القرآن الكريم كتاب الله الذى لا نعول على غيره حكما فى كل الأمور خاصة ما اتصل منها بالعقائد .. فالقرآن الكريم حكم على المنافقين بالكفر والردة حين وقعوا فيها بالقول والفعل . . يقول تعالى ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ﴾ التوبة : ٧٤ ، فالمنافقون الذين أعلنوا الإسلام ما لبثوا أن قالوا كلمة الكفر فكفروا بها ثم هموا بالفعل وإن لم ينالوا مرادهم . ويقول تعالى عن بعضهم ممن كان يسخر بدين الله فأوقعه قوله وفعله فى الكفر ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل : أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ التوبة : ٦٥ ، ٦٦ .

فالقرآن الكريم لم يذكر الكلام الطيب للمنافقين وإنما ذكر ما يدل على كفرهم وخداعهم وكذبهم ، ولا يخلو أى مشرك من كلام طيب أو فعل طيب فالفطرة داخل كل إنسان توجهه إلى فعل بعض الخير مهما بلغ كفره وعتوه . . ولكن ذلك الفعل لا يمكن أن يكون مقبولا عند الله فيحبطه ويضيع الثمرة المرجوة منه كما أن أقواله لا يعتد بها طالما أبان عن عقيدته المشركة بقول أو فعل .

وعلى هذا الأساس فإننا نحكم على الصوفية ، فلا يعنينا إلا أنهم وقعوا فى الردة بالقول وبالفعل والاعتقاد ، وما الردة إلا قول كفر أو فعل كفر أو اعتقاد كفر . وإذا وقع إنسان فى أى منها استحق أن يوصف بالردة عن الإسلام ولا

توسط ولا تعلل ولا تبرير ولا اعتذار عن أحد طالما لم يصدر من المرتد ما يفيد الاعتراف بالذنب والاقلاع عنه والتوبة منه .

وهنا تبدو الحيدة عن المنهج القرآنى لدى كتاب الصوفية حين يؤلفون باسم العلم دراسات عن أعلام الصوفية ، فهم يتجاهلون تماما الأقاويل الصوفية الواضحة التكفير ويركزون على الأقوال الأخرى فى الحكم والمواعظ مع أن الحكم والمواعظ فكر إنسانى عام يقوله أحبار اليهود ورهبان النصارى والمصلحون فى كل عصر بغض النظر إذا كانوا مسلمين أم كفره .. ثم إن بعضهم يلجأ إذا اضطر لذكر الأقوال الصوفية الكفرة ـ إلى التأويل والتبرير وربما يعلن أن تلك الأقوال مدسوسة عليهم .

٤ — ولا ندرى لماذا توصف الأقوال الصوفية المكفرة وحدها بأنها مدسوسة مع أن الشطح الصوفى ظاهرة أساسيه فى التاريخ الصوفى ، وما (الشطح) إلا ما يعلنه الصوفى من كفر صريح لا يجد أحباؤه معه إلا التأويل والاعتذار المألوف من الغيبة والوجد وفقدان الشعور .

لماذا لم نحاول نحن الكتاب السلفيين أن نصف أقوال الصوفية فى الوعظ وكلماتهم الطيبة بأنها مدسوسة طالما أن الصوفية من دون الناس جميعاً تعرضوا لمحاولات الدس فى كتبهم ، ثم أية قوة هذه التى اتجهت للصوفية دون غيرهم وعلى مدى تاريخهم الطويل لتدس فيه ما يعبر عن كفرهم ؟ . إن الفكر الصوفى على امتداد مراحله منذ القرن الثالث الهجرى وحتى الآن يمتاز بأنه يعبر عن عقيدة واحدة هى تقديس الأولياء مع الاختلاف بين الصوفية فى التعبير حسب نفوذ الصوفية أو وضعهم فى كل عصر .. فالصوفية فى بدايتهم كانوا مضطهدين فعبروا عن عقائدهم بالرمز ثم إذا تحول الدين وسيطروا عليه كانوا أكثر صراحة وإعلانا فالاختلاف فى درجة التعبير لا فى العقائد .. فى اللفظ لا فى المحتوى المضمون .

ثم نتساءل : هل لحق الزيف بكتب الصوفية المشهورة كالإحياء والطبقات الكبرى واللمع والرسالة القشيرية ، تلك الكتب التى وضعت للدفاع عن التصوف وربطه بالاسلام فكانت أكثر تعبيراً عن التضاد والتناقض بين الاسلام والتصوف ،

ثم كيف يلحقها الدس والصوفية أنفسهم يعتمدون عليها فى التأريخ للتصوف ورجاله ؟؟ أم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه .. يأخذون من تلك المصادر ما يرونه مطابقا للإسلام ثم يتهمون الباقى بانه منتحل مدسوس طالما يظهر الحقيقة التى لا يريدونها ؟ ! .

ومع ذلك فإننا فى التأريخ للبدوى حرصنا على أن تكون مصادرنا عنه أكثر اعتدالا . فجعلنا (الجواهر السنية) عمدة المصادر وأهملنا ما كتب عن البدوى فى العصر العثمانى المتأخر وهو أكثر تطرفا حتى أنه لا يزال مخطوطا لا يجد صوفيا شجاعا لنشره ، وقد نضطر للقيام بعبء نشره ودراسته لنثبت لبعض أننا كنا بهم وبالبدوى أكثر رفقا ورأفة حين اكتفينا بالجواهر السنية لعبدالصمد الأحدى .

● — أما أصحاب مدرسة التأويل للشطح الصوفى والتبرير لكفر الصوفية فلنا معهم وقفة ، فهم الذين أشاعوا التخويف من الاقدام على تكفير أولياء الصوفيه ومحاسبتهم على أقوالهم وقرنوا دعواهم بما أشاعوا عنهم من كرامات وتصاريف وحكايات ، والقضية أخطر وأعظم ليس بالنسبة لأولئك الأولياء وإنما بالنسبة لله العزيز الجبار .. ويمكن تبسيط القضية على النحو التالى ، هناك مظلوم مفترى عليه بالكذب بأنه خص نفراً من خلقه ورفعهم عن الباقين حتى من أصلح واستقام ، ثم أعطى هذا النفر التصريف فى الدنيا والآخرة ، هذا المظلوم هو الله سبحانه وتعالى ، أما الظالم فهم الصوفية الذين وصفوا الله تعالى بالظلم حين خص الصوفية وفضلهم على سائر الناس بدون وجه حق ، ثم هم أى الصوفية وصفوه تعالى بالعجز حيث لجأ للصوفية يتصرفون له فى ملكه مع أنه تعالى أنزل كتابا سماويا أثبت فيه أنه الواحد القهار وأنه لايشرك فى حكمه أحداً وأن أكرم الخلق عنده أتقاهم له وهو وحده الأعلم بمن اتقى ولم يعط غيبه لأحد ،

وإذا كان هناك ولى يلجأ الناس إليه فلن يكون إلا الله وحده فهو وحده النافع الضار ، فالصوفية باختصار قد ظلموا الله تعالى حين ادعوا كذبا أنهم أولياؤه من دون الناس جميعاً ورتبوا على هذه الدعوى حقوقا طالبوا بها الناس ، وهذه الحقوق انتزعوها من الحق الواجب لله تعالى على الناس .. ونحن أمام هذه القضية

الواضحة بالظالم والمظلوم أمام موقفين .. إما أن ندافع عن الظالم ونبرر خطأه ونؤول أقواله المفتراة تأييداً لظلمه وتضامنا معه ضد المظلوم . . وإما أن ندافع عن المظلوم المفترى عليه بتبيين وجه الحق دون التفات إلى أساطير الكرامات .. فولاية الله تعالى للمؤمنين تعنى أن الله ينصر المؤمنين كما أن المؤمنين ينصرون الله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ محمد : ٧ ، ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ الحج: ٤٠ والموالاة بين الله وأنصاره تعنى الجهاد ، وليس الجهاد بالسيف وحده بل الجهاد بالكلمة الصريحة القاطعة . وكما يدافع أولياء الصوفيه عنهم بالتبرير والتأويل فنحن مطالبون بالدفاع عن الله تعالى بإظهار الحق الواضح دون حاجة إلى تبرير أو تأويل .

و « الكلمة » بالذات أحد سلاح ضد أوهام الصوفية التى لا تقوم على أى أساس من عقل أو نقل .

٦ — والواقع أن التصوف واحد من الأوجه الكثيرة للشرك . . ظهر باسم التصوف ليكيد للإسلام .

وفى البداية نقول أن التاريخ الدينى حركة صراع مستمر بين عقيدتى التوحيد والشرك .. وإذا رجعنا إلى سيرة الأنبياء السابقين نجدهم جميعاً يقولون شيئا واحدا هو الإسلام المعبر عنه بقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه إنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء : ٢٥ ، وكان كل رسول يواجهه قومه الكفرة بنفس العناد ونفس الأقوال ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ فصلت : ٤٣ ، وبعد الأذى يكون انتصار الرسول بأتباعه القليلين ويتم الانتقام الإلهى من المكذبين ويرث الأرض العباد الصالحون ، وينتصر التوحيد ، إلا أن الشرك يزحف مستترا بحب الرسول وحب أتباعه وذريته ثم ينقلب الحب إلى تقدير عظيم لمآثرهم وتضحياتهم ثم يتحول التقدير إلى تقديس وهنا يكون الشرك الذى يبدأ بسيطا ثم ينمو ويستلزم الأمر مبعث رسول جديد يكرر مقاله الرسول السابق ويذكر قومه بما حدث للسابقين المكذبين فهود يقول لعاد ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ الأعراف : ٦٩ ، وبعد إهلاكهم ونجاة أتباع هود المؤمنين يعود الشرك بمرور الزمن ويأتى صالح فيقول لثمود

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ الأعراف : ٧٤ .

وجاء محمد عليه السلام خاتماً للرسل وبكتاب إلهي معجز مستمر في إعجازه إلى قيام الساعة وقد أظهر الله فيه كل دعاوى الشرك مهما تسترت خلف أسماء وألقاب وجعل من العلماء بالقرآن ورثة الأنبياء فعلى عاتقهم تقع مسئولية الدعوة لله المستمدة من كتابه المحفوظ بقدرة الله إلى يوم القيامة .. وقد نبأ سبحانه وتعالى أن أمة القرآن سيجرى عليها ما جرى على الأمم السابقة من زيغ عن الكتاب وارتداد وكفر وظلم لرب العباد .. يقول تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فاطر : ٣٢ ، وأخبر الرسول عليه السلام أنه « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء » وأنه مع اشتداد الظلمة ستظل طائفة مؤمنة متمسكة بأمر ربها لا يضرها من خالفها إلى أن تقوم الساعة وإننا سنسلك طريق اليهود والنصارى شبراً شبراً حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكناه معهم أي أننا سننحرف كما انحرفوا .

وفعلا فإن حركة الصراع بين الإسلام والشرك لم تنته بانتصار التوحيد حين فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا بعد كثير من المحن والأضطهاد والغزوات .. وإنما برزت حركة للشرك فيما عرف بحركة الردة ومع أنه قضى عليها إلا أنها عادت للظهور بين الفرس باسم التشيع الذي حول حب آل البيت إلى تقديس لهم ، وحين قامت الدولة العباسية بجهود الفرس فإن بعضهم تشجع فأعلن عقيدتهم فيما عرف في العصر العباسي الأول بحركة الزندقة ولكن الخلفاء العباسيين وقفوا لهم بالمرصاد واشتد المهدى والهادى في الضرب على أيدى الزنادقة فقضوا عليها وقضى على التشيع أن يعيش برموزه وألغازه داخل خندق المقاومة ، فكان أن انفصل عنه تيار التصوف في القرن الثالث متخففا من الدافع السياسي متخصصا في الجانب الديني المخالف للإسلام ، ومع التستر بالفقه والتقية التي نلمحها في سيرة أوائل الصوفية كالجنيد والخراز وذي النون المصرى فإنهم لم ينجوا من المحاكمات والاضطهاد لأنهم قالوا مقالة تخالف الإسلام ، وتمر الأيام وتضعف سلطة العباسيين ويتحكم الغرباء في الإمارات الإسلامية المتنازعة ويشتغل الحكام

عن مراقبة الصوفية فيزداد التصوف انتشارا بالسياحة الصوفية والتقرب للعامة والحكام الظلمه .. ولا يلبث أن يحنوا الحكام على الصوفية فهم أسرع الناس تزلفا للحاكم فترتفع لهم الخوانق والربط والقباب ويبدأ التصوف فى التحكم فيضطهد الفقهاء من أعدائه كما فعل بابن تيمية والبقاعى وغيرهم .. ثم اكتملت السيطرة للتصوف منذ العصر العثمانى ومن يومها أصبح الإسلام غريبا « وطوبى للغرباء » .. وكما أن الشرك لم يسكت عندما اكتملت للإسلام سيطرته بفتح مكة فظهر فى حركة الردة .. فإن الاسلام لم يسكت أيضا حين تمت للتصوف سيطرته فى العصر العثمانى فكانت الدعوة الوهابيه حركة احتجاج ضد الشرك المسيطر فى جميع العالم « الاسلامى » ، اى أنه فى مجتمع الغرباء فإن الاسلام يأزر إلى الحجاز موطنه الأول كما قال عليه السلام .. وأحدثت الدعوة الوهابيه هزة فى عقائد الشرك وأساطيره فى أواخر العصر العثمانى وكانت للوهابيه اثار تمثلت فى حركات إصلاحية فى مصر والهند .. أسهمت جميعاً فى إحداث نوع من اليقظه الدينية والعلمية وارتبطت جميعاً بالهجوم على التصوف ورجاله . . ومع وجود هذه اليقظه فإن الشوط لا يزال بعيداً عن الوصول للإسلام الحقيقى ، من أبرز المعوقات التى تواجه الحركة الدينيه فى مصر انها لم تجد بعد هدفا ثابتا ها وأنهـــا اهتمت أساسا بمقعد الحكم وفى سبيله هادنت التصوف ولم تهتم اولا باصلاح العقيدة ، وبين حركة الاخوان المسلمين التى تتطلع للحكم وتدخل فى صراع مع الحكام وغيبة الوعى الدينى عن جمهور المسلمين الذين لا يرون تعارضا بين تقديس الاولياء وتقديس الله ، استثمر التصوف الساحة فنصب نفسه البديل المناسب للحاكم والمحكوم .. مع أنه السبب الحقيقى فى البلاء .. وادت هذه الاضلاع الثلاثة « سياسة الاخوان غيبة الوعى لدى المسلمين مع تاكيد دور التصوف » الى ظهور فكر رافض للمجتمع كافر به قبل ان يكفره يائس من إصلاحه ، وبالفكر الدينى المتطرف كما اسموه يتم الضلع الرابع للمعضلة الدينيه فى مصر .

٧ — إن حركة العقائد حكمت أن يسود الشرك باسم التصوف منذ العصر المملوكى ، وقد حكمت أيضا أن تبدأ سيطرة التصوف فى الانهيار ابتداء بالحركة الوهابية التى أحسنت بتحديد هدفها وهو إصلاح العقيدة ، وكم نتمنى أن نحدد

نحن هدفنا فى مصر فلا شأن لنا بالحكم والحكام وإنما نتفرغ للدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إن لدينا والحمد لله المقدرة على قول الحكمة وشرح الموعظة الحسنة بالدليل المقنع ، ولا يجدينا فى شىء أن نحكم بالتكفير على أهالينا ومواطنينا ونتركهم يأسا وعجزاً ..

والأجدر بنا أن ندعوهم بالحسنى إلى العقيدة الصحيحة وهم أن اقتنعوا فبها ونعمه وإن أعرضوا فقدقمنا بما يمليه علينا ديننا ولله وحده الحكم وإليه المصير ، ثم إننا إذا تركنا السياسة ومتقلباتها فلن تلبث السياسة فيما بعد أن تصبح جزءاً من الدعوة ، ذلك أن المستقبل هو إن شاء الله لدين الله إذا وجدالدعاةالمناسبين بالحسنى والمقدرة على الاقناع ، وتخيل أن معظم المعارضين من الشيوخ كبار السن الذين عاشوا على تقاليد معينة من الصعب أن يتركوها فى نهاية العمر .. والمستقبل لا مكان فيه للشيوخ فهم أصحاب الحاضر فقط ، إن المستقبل ملك للشباب فهم الأمل .. وهم المجال الذى ينبغى أن نسعى إليه ، فإذا أصبح موحداً أمكن له حين يتقلد الأمور فيما بعد أن يطبق التوحيد والشريعة ، والمؤسف أن شبابنا مشكلة ، فهو إما عابث لاه لا يشعر بالانتماء إلا للكرة أو اللهو ويوصف بأنه يعانى من الفراغ الدينى ـ مع كثرة القباب والأضرحة التى لا يقتنع بها ـ وإما إنه متدين بدون علم أو توجيه فهو يبالغ فيما يعتقده حقاً ويستسهل الأمر فيحكم بالتكفير على كل من يخالفه وربما يهجر المجتمع كله يأسا وحنقا وعجزاً والسلطة معه عاجزة أيضا عن إقناعه مع كثرة الشيوخ والعلماء .

ومشكلة شبابنا هى التجسيد الحى للمعضلة الدينية فى مصر .. فالشباب المتدين حائر بين الأزهر وعلمائه المرتبطين بالسلطة وبين الاخوان المسلمين وأحلامهم فى إقامة الحكم الاسلامى ومطالبتهم بتطبيق الشريعه الاسلامية وصراعهم المستمر مع الحكام منذ أكثر من ثلاثين عاما ، ثم استفادة التصوف من تشتت الجهود المصلحه بين أمل مستحيل التحقيق للإخوان المسلمين وخضوع العلماء الرسميين للسلطة ..

هذه هى المشكلة بصراحة .. ولابد من مواجهتها بالصراحة الكافية ، فالشباب طاقة وهو الأمل المرتجى فى المستقبل وطاقة شبابنا إما ضائعة فى اللهو والتدخين

والمحرمات والفراغ الدينى القاتل . . وإما بحتر هذه الطاقة حقداً للسلطة ونقمة عليها وكراهية لها وربما للمجتمع معها . . ومشكلة على هذا القدر من الخطورة لا تحل باللف والدوران أو الاعتقال والقوانين أو التأجيل والحلول الوسط . . إنما ينبغى أن ننفذ إلى قلب المشكلة رحمة بشبابنا ومستقبلنا ووطننا وأملا فى توفير الكثير من المحن والآلام إذا استمر الوضع على ما هو عليه .

وكما يقولون فلا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله . . وإذا كانت العقيدة الإسلامية فى مصر قد شابتها الخرافات وأفسدها التصوف بأباطيله فلابد أولامن تحديد الهدف الأول فى الاصلاح وهو تنقية العقيدة والرجوع بها توحيداً صرفا لا تقديس فيه لولى أو ضريح من دون الله .

وليس هذا بالهدف الهين فقد تربى الناس قرونا على عقائد مخالفة ودرس العلماء والطلاب أجيالا متلاحقة تراثا مثقلا بأوزار التشيع والتصوف وأكاذيب منتحلة على أنها أحاديث نبوية وتفسيرات للقرآن الكريم هى تحريف للكلم عن مواضعه، فليس سهلا أن نصلح ما أفسده التصوف والتشيع قرونا . . وفى نفس الوقت فليست مهمة مستحيلة فلدينا المعين الصافى فى القرآن الكريم الكتاب الواضح المبين وأكثرية من الأحاديث الصحاح والمتفق عليها وتراثا إسلاميا ناضجا فى القرون الثالث والرابع والخامس الهجرى حيث كان الازدهار العلمى فى أوجه والعقيدة الإسلامية لما يلحقها التحريف والتخريف بعد .

وهى ليست مهمة مستحيلة أيضا لأن الإسلام واضح وبسيط ومنطق الشرك مذكور فى القرآن الكريم ومن السهل الرد على دعاوى الصوفية والشيعة بآيات واضحة وأحاديث صحيحة وتاريخ إسلامى متواتر جسده الصحابة والسلف الصالح سلوكا وعملا .

وهكذا فنقطة البدء فى إصلاح العقيدة وتنقية التراث الإسلامى والدراسة العلمية للتراث الصوفى والشيعى كعقائد مخالفة للإسلام والحكم عليها بأقوالها وعرضها على القرآن الكريم والسنة الصحيحة كما فعلنا فى هذا الكتاب عن البدوى والتصوف .. وتلك مهمة العلماء ورثة الأنبياء وهم مطالبون بهذه المهمة مسئولون عنها أمام الله تعالى يوم القيامة .

على أن يكون معلوما أن تحديد الهدف (وهو إصلاح العقيدة) ينبغى أن تحدد معه الوسيلة .. وقد بينا أنها وسيلة ثقافية علمية وليست سياسية أو عشوائية .. أو بمعنى آخر فالوسيلة ينبغى أن تكون كما قال الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ .. فالعقيدة الإسلامية لا يعتنقها الناس إلا بالاقناع العقلى والدعوة الهادئة المعززة بالبرهان على أن الآلهة المعبودة لا تزيد عن كونها أحجاراً وأساطير وأكاذيب ، أما العنف والقوة فلا تجدى فى نشر العقيده الإسلامية فى عصر يسيطر فيه التصوف وأصحابه . وهب مثلا أن حاكما مسلما موحداً أصر على هدم الأضرحة فى مصر دون دعوة مسبقة وتوجيه للناس وتثقيفهم . ما الذى يحدث ؟ ! إن الناس سيصرون على عقائدهم المتوارثة ويقيمون فى قلوبهم ألف ضريح وضريح لكل ضريح يهدم .. فالمطلوب أن تهدم الأضرحة أولا من أفئدة الناس .. وبعدها فيستوى الأمر إن ظل الضريح قائما أو سوى بالارض ، فإذا انصرف الناس عن تقديس مشهد الحسين مثلا تحول إلى مجرد بناء من حجر وحصى واسمنت وزجاج ، ولنا فى التاريخ أسوة . . فقد كان أبو الهول مقدسا وكان معبد الكرنك والرمسيوم يحتوى على (قدس الأقداس) وحين انتشرت المسيحية أعرض عنها المصريون وها هى الآن موطأ لأقدام السياح من كل جنس ولون ، أنمحت قدسيتها من القلوب فأصبحت مجرد حجارة صماء لا تختلف عن أى حجارة فى أى مكان .

فأصحابنا ممن يعيشون فى أحلام الحكم الإسلامى والشريعة الإسلامية المطبقة يغررون بالشباب فيما لا جدوى فيه .. إنهم يدفعون الشباب للاصطدام بالسلطة ويصرفونهم عن الهدف الحقيقى الذى لا يمكن أن يتحقق إلا بالتثقيف والاعداد العلمى والدعوة بالحسنى وانتظار النتيجة على مهل حتى يتربى الشباب المسلم على العقيدة الصحيحة ، وحين تمر الايام ويضطلع الشباب ويصبح (المستقبل) حاضرهم وبيدهم زمام الأمور فيه ، حينئذ فقط تصبح السياسة والحكم جزءاً من العقيدة وداعية لتطبيق الشريعة على قوم موحدين أو على الأقل فالأكثرية منهم موحدون وحتى لو لم يكن الحاكم منهم فالحاكم حينئذ مضطر للاذعان إليهم وبامكانهم فرض عقيدتهم عليه باعتبارهم أغلبية المحكومين .

أما استعجال الأمور بإقامة الحكم الإسلامى وتطبيقه على دولة لاتزال فى دور التكوين فلن يؤدى إلا إلى تشتيت الجهود والمزيد من التضحيات بلا فائدة والدوران فى حلقة مفرغة من الحلول الوسط والمزيد من التطرف الشبابى بين أحلام لن تتحقق وواقع لا يتغير وحيرة لا تنتهى .

٨ — إن مواجهة التصوف وأوثانه وقبابه وأوليائه بالحكمة والموعظة الحسنة والدعوة المستنيرة هى التجسيد الحقيقى لإصلاح العقيدة الإسلامية فى مصر .. ولا يمكن لأكاذيب التصوف وخرافاته أن تصمد أمام الحجة الساطعة والدليل القرآنى والعقلى .. وإذا أصر البعض على عقيدته فهذا شأنه وتلك مسئوليته ولن نكون الأحرص على هدايته ودخوله الجنة طالما هو مصر على الغى والضلال ، فلامثاله تقول جهنم (هل من مزيد) .. وكل أملنا فى المستقبل والشباب ونحن أحرص عليه وعلى طاقته من أن تضيع فى أحلام وأوهام أو فى سجون ومعتقلات ودماء بلا داع وبلا نتيجة .

لقد آن الأوان لأن نقف مع التصوف والصوفية وقفة .. إن التاريخ يبين إن الصوفية كانوا دائما حرباً على هذا الشعب وسنداً لكل حاكم مغتصب وظالم منذ العصر المملوكى إلى الاستعمار الأجنبى حتى فاروق .. وفى نفس الوقت عاش فيه الصوفية عالة على كاهل هذا الشعب المسكين يسلبون ثروته فى النذور والنقوط والموالد والولائم والأضرحة .. يدفعها الناس عن طيب خاطر متوهمين أنهم يشترون الجنة والرضى السامى والشفاعة يوم الدين .. بل ربما تجد فلاحا معدما يتنازل عن (دجاجة) يحرم أطفاله منها ليقدمها نذرا لشيخ صوفى متخم بالطعام والطيبات .. ويحسب المسكين أنه بذلك يحسن صنعا ، ولا يدرى أنه فقد الدنيا بفقره واحتياجه وأفقده ذلك الصوفى الآخرة حين أضله عن العقيدة الصحيحة ، وحين يأتى يوم القيامة يفاجأ بأن الجنة التى وعده بها الصوفية قد تحولت إلى نار جهنم ويجد أولياءه الصوفية معه فيتحول اعتقاده فيهم وتقديسه لهم بغضا وحقداً يقول تعالى فى هذا ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ . الأحزاب ٦٦ - ٦٨

لقد خسر أسلافنا الدنيا والآخرة بفضل الصوفية وخرافاتهم ، وما زلنا على خرافات الصوفية مقيمين محافظين .. أما آن الأوان لكى نتحرر من هذا الافك وننقذ أنفسنا وأولادنا من الوقوع فيه ؟

أما آن الأوان لشبابنا المسلم أن يضع يده على أساس الداء (وهو التصوف) والدواء وهو (مواجهة التصوف) والوسيلة وهى (الحكمة والموعظة الحسنة) بالدراسة والثقافة والعلم بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة وتنقية التراث الإسلامى من الدخيل .

أما آن له أن يقلع عن التحليق فى الخيال ويهبط على أرض الواقع ليغيره بالكلمة الطيبة والدعوة المستنيرة . . والكلمة الطيبة كما يعرف لن تذهب هباء فأصلها ثابت وفرعها فى السماء وتؤتى أكلها كل حين .. والدعوة المستنيرة تمكث فى الأرض وتنفع الناس .. أما الباطل فيذهب جفاء حتى لو كان خرافه عمرها قرون كخرافة البدوى أو كان ضريحا مقدساً لا يملك صاحبه لنفسه موتا ولا حياة ولا نشوراً .

و ﴿ قل هذه سبيلى ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

« صدق الله العظيم »

* * *

المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات : المصادر المخطوطة :

ابن برهان الدين : من أصحاب ابن تيمية فى القرن الثامن ، تسكمير الاحجار التى افتتن بها أهل الجهل والاغترار ، رسالة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٠٤ بجاميع تيمورية رقم ٦ فى المجموعة

ابن بهادر : فى القرن التاسع ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ٢ ح فى مجلدين مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٢٣٩٩ .

البكرى : محمد توفيق . من رجال العصر العثمانى ، تراجم بعض رجال الصوفية مخطوط بالدار تحت رقم ٣٧٣٦ تاريخ .

بيبرس الداودار ت ٧٢٥ ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مصور بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨ .

ابن حجر الهيتمى : شهاب الدين ت ٩٧٤ ، أخبار الخلفاء ، مخطوط بالدار برقم ٢٧٦ تاريخ .

الحلبى ، شهاب الدين احمد (كان موجودا سنة ١٠١٨) النصيحة العلوية فى بيان حسن الطريقة الاحمدية ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية تحت رقم ٣٣٦١٠ وبالدار تحت رقم ١١٢٩ تاريخ .

الرجانى : أبو الفتح المقدسى الرجانى من رجال القرن التاسع ، العقد المفرد فى حكم الأمرد . رسالة مخطوطة بالدار تحت رقم ٤٠ بجاميع تيمورية رقم ٥ فى المجموعة .

شمـــه : حسن شمه من العصر العثمانى ، مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين مخطوط بالدار تحت رقم ١٠٩٥ تصوف طلعت .

العينى : بدر الدين ت ٨٥٥ ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان فى أكثر من ستين مجلداً مصدرا بالدار تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ والأجزاء الأخيرة فى دور التحقيق .

ابن فارس : فى القرن العاشر، المنح الإلهية فى مناقب الوفائية . مخطوط رقم ٨٧٤ تاريخ تيمور .

الكتبى : ابن شاكر ٧٦٤ ، عيون التواريخ بالدار تحت رقم ١٤٩٧ .

الماردانى : عمر بن عثمان الماردانى فى القرن التاسع ، قصة القطب البدوى . مخطوط مصور على الميكروفيلم بمعهد المخطوطات رقم ١١٦٨ .

ابن محسن : فى العصر العثمانى ، تعطير الأنفاس بمناقب أبى الحسن وأبى العباس مخطوط بالدار تحت رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .

أبو المحاسن : ابن تغرى بردى ت ٨٧٤ ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى خمسة أجزاء ، رقم ١٢٠٩ بالدار تاريخ تيمور .

المقريزى : تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ ، المقفى ٤ جـ فى ٤ مجلدات مخطوط رقم ٥٣٧٢ تاريخ - بالدار .

المناوى : عبدالرءوف ت ١٠٣١ ، الطبقات الكبرى : مخطوط بالدار رقمه ١٥٨٩ تاريخ تيمور، الطبقات الصغرى : مخطوط رقمه بالدار ٤٧٦ تاريخ تيمور

النويرى : شهاب الدين احمد : ت ٧٣٣ ، نهاية الارب : الاجزاء الاخيرة ٢٨ وما بعدها ، رقم ٥٤٩ معارف بالدار .

ثانياً : المصادر المطبوعة والمحققة :

ابن الأثير : عز الدين ٦٣٠ ، تاريخ ابن الأثير . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠١

الأدفوى : جعفر بن تعلب ٧٤٨ ، الطالع السعيد فى أخبار نجباء الصعيد تحقيق سعد محمد حسن ، ط ١٩٦٦ القاهرة .

ابن اياس : محمد بن أحمد ت ٩٣٠ ، تاريخ ابن اياس (بدائع الزهور) تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٦١ - الجزء الرابع والخامس ١٩٣١ .

ابن الحاج : محمد بن محمد العبدرى ت ٧٣٧ ، المدخل : مدخل الشرع الشريف على المذاهب ٤ جـ ، مصر ١٣٢٠ .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ت ٨٥٢ ، أنباء الغمر بأنباء العمر . تحيقق

حسن حبشى ٣ ح ، القاهرة (١٩٦٩ : ١٩٧٢) الدرر الكائنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق جاد الحق . القاهرة ١٩٦٦ .

الخفاجى : عبده حسن الخفاجى : من رجال العصر العثمانى ، النفحات الأحدية الطبعة الأولى بمصر ١٣٢١ .

ابن خلدون : ت ٨٠٨ ، المقدمة : المطبعة التجارية بدون تاريخ .

ابن الزيات : شمس الدين محمد ت ٨١٤ ، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة . المطبعة الأميرية ١٩٠٨ القاهرة .

السبكى : تاج الدين ت ٧٧١ ، طبقات الشافعية الكبرى : الجزء التاسع والجزء العاشر . تحقيق الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو ، الطبعة الأولى .

السخاوى : شمس الدين ت ٩٠٣ ، التبر المسبوك ط بولاق ١٨٩٦ الضوء اللامع مكتبة القدسى ١٩٥٣ : ١٣٥٥ .

السخاوى : نور الدين ، تحفة الأحباب على هامش نفح الطيب للمقدس . المطبعة الأزهرية ١٣٠٢ .

السيوطى : عبد الرحمن ت ٩١١ ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٥ مصر - حسن المحاضرة ، الجزء الأول فقط . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ .

الشعرانى : أبو المواهب عبد الوهاب ت ٩٧٣ ، البحر المورود ، القاهرة ١٣٠٨ الطبقات الكبرى ، ط صبيح - قواعد الصوفية ط ١٩٦٥ - لطائف المنن ط ١٢٨٨ ، ط ١٩٧٦ - لواقح الأنوار على هامش البحر المورود .

ابن الصيرفى : على بن داود الجوهرى ت ٩٠٠ ، نزهة النفوس والأبدان . تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣ .

عبد الصمد الأحدى : القرن الحادى عشر ، الجواهر السنية ، ط صبيح .

الطوسى : أبو نصر الطوسى ، اللمع . تحقيق عبد الحليم محمود وطه سرور ، ١٩٦٠ القاهرة .

ابن عربى : محي الدين ، ت ٦٣٨ - شجرة الكون ، ط صبيح - عنقا مغرب ط صبيح - فصوص الحكم بتعليق القاشانى ، ط ١٣٢١ - الفتوحات المكية ، ط ١٢٩٣ .

إبن عفيف الدين : معاهد التحقيق ط ١٩٦٠ القاهرة .

العيدروسى : أبو بكر من علماء القرن العاشر - النجم الساعى فى مناقب الرفاعى ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

العيدروسى : محي الدين ت ١٠٣٨ - النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، تحقيق رشيد الصفار ، بغداد ١٩٣٤ .

الغزى : نجم الدين ت ١٠٦١ ، الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة . الجزء الأول فقط . المطبعة الأمريكية فى بيروت ١٩٤٥ .

الغزالى : ت ٥٠٥ ، إحياء علوم الدين ، ط مصر المطبعة العثمانية ١٩٣٣ على نسخة المطبعة الأميرية .

أبو الفدا : إسماعيل ت ٧١٤ ، تاريخ أبو الفداء ، ط القسطنطينية ١٢٨٦ .

ابن الفرات : ناصر الدين ت ٨٠٧ ، تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٦ - ١٩٣٩ .

القشيرى : عبد الكريم بن هوازن ت ٤٦٥ ، الرسالة القشيرية ، ط صبيح .

ابن كثير : عماد الدين ت ٨٨٤ ، تاريخ ابن كثير جـ ١٣ ، ١٤ ، ط بيروت ١٩٦٦ .

أبو المحاسن : ابن تغرى بردى ت ٨٧٤ - النجوم الزاهرة ، الأجزاء من ٧ : ١٦ دار الكتب ، مصر - حوادث الدهور ، حررها وليام بپر ط باريس .

المقريزى : تقى الدين ت ٨٤٥ - الخطط المقريزية ، ط ١٣٢٦ - السلوك جـ ١ ، جـ٢ تحقيق زيادة ، دار الكتب .

اليافعى : عفيف الدين ، ٧٦٨ - روض الرياحين ، ط ١٣٠٧ .

دراسات حديثه

(ا) كتب :

أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ط ١٩٥٣ .

إرمان : ديانة مصر القديمة ترجمة عبد المنعم أبو بكر ط البابى الحلبي .

بلاثيوس : ابن عربى ، ترجمة أحمد بدوى ، ط بيروت ١٩٧٩ .

تيمور : الأمثال الشعبية ط ١٩٤٩ .

حجاب : اليقظة والاعتبار . آراء فى حياة السيد البدوى ، القاهرة ١٣٨٩ .

جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ، المجمع العلمى العراقى .

خلف الله : أحمد عز الدين - ابراهيم الدسوقى ، مصر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتاب ٤٥ .

الشيبى : كامل مصطفى - الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، الطبعة الثانية .

صافى : على صافى - ابن الصباغ القوصى ، دار المعارف ١٧٩١ .

ابن دقيق العيد ، دار المعارف ١٩٦٠ .

عاشور : سعيد عاشور - السيد أحمد البدوى ، أعلام العرب ط ٢ .

عبد الحليم محمود : الشاذلى ، أعلام العرب ١٩٦٨ ، أبو العباس المرسى أعلام العرب ١٩٦٩ ، السيد البدوى ط دار الشعب .

عبد اللطيف : محمد فهمى - السيد البدوى ودولة الدراويش فى مصر ، ط ١٩٤٨ القاهرة .

الكوهن : طبقات الشاذلية ، ط ١ سنة ١٣٤٧ .

مراد كامل : تاريخ الحضارة المصرية ، بحث عن العادات الاجتماعية فى العصر الرومانى ، وزارة الثقافة ، المجلد الثانى . عن مكتبة النهضة .

نور الدين : حياة السيد البدوى ، ط ٢ ، ١٣٦٩ .

هيردوت : يتحدث عن مصر ، ترجمة صقر خفاجة ، تقديم أحمد بدوى ، دار القلم ١٩٦٦ .

(ب) دوريات :

زيادة : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول مايو ١٩٥١ بحث عن نهاية السلاطين المماليك .

طرخان : المجلة التاريخية المصرية ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ، المجلد الثامن ١٩٥٩ .

محمد كامل حسين : دوريات آداب القاهرة ، مجلد ١٥ سنة ١٩٥٣ عن التشيع في الشعر المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك ومجلد ١٦ سنة ١٩٥٤ عن التشيع وآداب الصوفية بمصر فى عصر الايوبين والمماليك .

مصطفى عبد الرازق : مجلة السياسة الأسبوعية مقال له بتوقيع (عالم كبير وكاتب معروف) بعنوان (المولدان الأحمدى والدسوقى) فى العدد ٨٩ فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٧ ، والعدد ٩٠ فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٧ ، والعدد ٩٢ فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٧ ، وقد اطلع الكاتب على مخطوطة مغربية ذكر فيها الظروف السياسية لدعوة البدوى .

(ج) رسائل علمية غير منشورة :

أحمد صبحى منصور : (دكتوراه) أثر التصوف فى مصر العصر المملوكى . قسم التاريخ - كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر .

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٩ لسنة ١٩٨٣